المشروع القومي للترجمة

ايكولوجيا لغات العالم

تأليف: لويس - جون كالفيه

ترجمة: باتسى جمال الدين

مراجعة: مديحة دوس

749

المشروع القومى للترجمة

إيكولوچيا لغات العالم

تأليـــــف : لويس - چون كالڤيه
ترجمــــة : باتسى جمـال الدين
مراجعة وتقديم : مديحــــة دوس

المجلس الأعلى للثقافة
٢٠٠٤

المشروع القومى للترجمة

إشراف : جابر عصفور

- العدد : ٧٤٩
- إيكولوچيا لغات العالم
- لويس - چون كالڤيه
- باتسى جمال الدين
- مديحة دوس
- الطبعة الأولى ٢٠٠٤

Pour une écologie des langues du monde
de
Louis - Jean Calvet
© Plon 1999

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمجلس الأعلى للثقافة

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo
Tel : 7352396 Fax : 7358084.

تهدف إصدارات المشروع القومى للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات والمذاهب الفكرية للقارئ العربي وتعريفه بها ، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المجلس الأعلى للثقافة .

المحتويات

تقديم المراجعة 7

تمهيد 9

المقدمة 13

الفصل الأول : إيكولوچيا اللغات 41

الفصل الثاني : هجرة اللغات 87

الفصل الثالث : الضبط والتغيير 117

الفصل الرابع : التمثيلات اللغوية والتغيير 167

الفصل الخامس : الانتقال والتغيير 211

الفصل السادس : خمس حالات بحثية 259

الخاتمة : خلق اللغة ويسمتها 319

الدليل اللغوى 329

المراجع 343

تقديم المراجعة

كثر الحديث فى الآونة الأخيرة حول قضايا اللغة العربية، وحقيقة الدور الذى تضطلع به، ومكانتها بين اللغات الأخرى، والمشاكل التى تعترض طريق تطورها ... بل كثر الحديث حول حاضرها ومستقبلها، وعلاقة واقعنا اللغوى بالقضايا المهمة التى تشغل عالمنا اليوم. وكل ما يُكْتَب يتضمن قدراً من الأهمية لا يجوز الاستهانة به؛ وهو ما يثبت أن قضايا اللغة تقع فى مركز اهتمامات حاضرنا وبؤرة البحث العلمى.

ومن الملاحظ أن هذا الاهتمام بمسألة اللغة لا يتوقف عند حدود اللغة العربية، بل يتجاوزها بكثير، إذ إن هناك العديد من الكتابات التى تتناول هذا الموضوع فى ظل ما طرأ على عالمنا من تطورات وتغيرات خلال النصف الأخير من القرن الماضى. فهناك على سبيل المثال التطورات السياسية والاقتصادية التى حدثت فى أوروبا، والتى أسفرت عن انشغال الباحثين والسياسيين بأمر اللغات الأوروبية فى ظل وضعها الجديد الذى أعقب تشكيل المجموعة الأوروبية؛ وهو ما كان له أكبر الأثر على عمليات التواصل الشفهى والكتابى. وعلى صعيد آخر، كان هناك انهيار الاتحاد السوفيتى الذى كان سبباً فى العديد من الصراعات، وكانت لهذا الحدث الكبير آثار ونتائج مهمة على اللغات المتداولة فى هذه المنطقة من العالم. وأخيراً وليس آخراً، لا يمكن أن نغفل أهمية أثر العولمة على الصعيد اللغوى، ودور وسائل الاتصال الحديثة مثل الإنترنت فى تعرض اللغات لموجات من التغير يصعب التحكم فيها أو السيطرة على تبعاتها. ويرى البعض فى النزوع نحو التغيير ما يهدد كيان اللغات ووجودها الكلى؛ لذلك نسمع ونقرأ الكثير بشأن أزمة اللغة فى عصر العولمة، بل نشهد وجود العديد من الحركات والمشاريع الإصلاحية التى تتأرجح بين تبنى التيار المحافظ والدعوة إلى مسايرة ركب التغيير.

و"إيكولوچيا لغات العالم" كتاب مهم لعالم اللغة الفرنسى لويس-چون كالڤيه الذى حمل على عاتقه مسئولية معالجة لغات العالم من منظور بيئى، وهو منظور يتسم

بالجدة، ويستند إلى الوقائع اللغوية التى حرص على الوقوف عليها جيداً فى أرجاء العالم أجمع. وهذا الكتاب مُوجَّه إلى كل المعنيين بقضايا اللغة، ولاسيما الحريصين على معالجة اللغويات الاجتماعية فى ظل منظومة واحدة هى "البيئة" التى تجمع هذه اللغات، وتجعلها فى ركب واحد يضم كل المتكلمين على اختلاف لغاتهم. حرص الكاتب على رصد الحقائق اللغوية فى البيئة المحيطة بها، حيث تبنى مبدأ التمحيص والتدقيق بغية الوقوف على مواقف المتكلمين وممارساتهم انطلاقًا من الواقع اللغوى. ومن هنا، يتعين على الدارس أو الباحث المتخصص أو المُشرِّع تبَنِّى مبدأ الرصد والتدقيق، وبذل الجهد من أجل استبيان الحقائق فى أماكنها الطبيعية. والكاتب يذكر فى هذا الصدد أن "اللغات لا وجود لها إلا من خلال ممارسات متحدثيها، ولا يمكن فهم المواقف اللغوية دون إجراء البحث الميدانى، ثم يأتى بعد ذلك دور إرساء النظريات المختلفة". ونود أن نضيف إلى ذلك ضرورة الاعتماد على الملاحظة الحية والدقيقة لاستخدامات اللغة فى أوضاعها المختلفة، من أجل إنجاح مشروعات الإصلاح اللغوى، والإسهام بشكل إيجابى وفعال فى منظومة الدراسات اللغوية المختلفة.

وإننا ندعو كل المعنيين بهذا المجال إلى الاطلاع على كتاب "إيكولوچيا لغات العالم" الذى يعرض فكراً لغويا ثريا، انطلاقًا من معالجة اللغات من المنظور البيئى، ويتضمن حشداً هائلاً من المعلومات التى تتناول مختلف لغات العالم، لا فرق فى ذلك بين اللغات السائدة واللغات المسودة؛ فإننا سنجد لغة الولوف الأفريقية إلى جوار اللغة الفرنسية، كما سنجد اللغة الكتلانية إلى جوار اللغة الإسبانية... ولقد حرصنا كل الحرص على تبسيط المصطلحات اللغوية كى يتيسر على القارئ العادى الوقوف على معناها، كما حرصنا على تعريب بعض المصطلحات الأخرى، وعرض أفكار الكاتب من خلال جميع المقاربات التى ساقها دون تغيير أو تبديل. وإننا لنود أن يكون هذا الكتاب بمثابة اللبنة فى صرح ترجمة اللغويات الاجتماعية، ولعله يدفع الباحثين إلى خوض هذا المجال، ويشجع القراء على الاستزادة من نهل المعرفة اللغوية.

مديحة دوس

تمهيد

كتاب "إيكولوچيا لغات العالم" Pour une écologie des langues du monde لعالم اللغة وأستاذ اللغويات لويس- چون كالڤيه Louis-Jean Calvet الذى طاف العالم بأكمله، وقام بالعديد من الرحلات البحثية، كما كتب ما يقرب من عشرين مُؤلَّفًا تمت ترجمتها إلى العديد من اللغات ، مثل الصينية والبرتغالية والإيطالية والإسبانية وغيرها. ومن بين هذه المؤلفات نذكر "أوروبا ولغاتها" L'Europe et ses langues (1993)، و"تاريخ الكتابة" Histoire de l'écriture (1996) . لقد استشعرنا أهمية الكتاب الذى بين أيدينا، وآثرنا ترجمته إلى اللغة العربية، لِمَا وجدناه من عرض لمعالجة الأوضاع اللغوية من منظور جديد يهدف من خلاله الكاتب إلى توضيح رؤيته الخاصة بشأن اللغات باعتبارها نتاج ممارسات اجتماعية يجب الاستماع إليها، والتعرض لها بالوصف، والوقوف عليها فى سياق استخداماتها. فالكاتب يعتقد أن اللغات تستمد وجودها من استخدام المتكلمين لها، ولا يمكن أن نفهم الأوضاع اللغوية سوى من خلال الأبحاث الميدانية التى تنبثق عنها النظريات العلمية. وهذه هى القاعدة المنهجية التى يستند إليها هذا الكتاب، حيث يستشهد الكاتب بالعديد من الأمثلة الملموسة؛ مما يضفى عليه المصداقية المطلوبة، ويُعَضِّد من حجج الكاتب وبراهينه، وإن كان هناك بعض الآراء التى دارت حولها مناقشات عديدة، وأثارت جدلاً فى الأوساط اللغوية والاجتماعية. إلا أننا آثرنا عرض رؤية الكاتب كما ذكرها دون المساس بأى من أفكاره، لكننا أضفنا بعض الحواشى السفلية التى وضعناها بين قوسين معقوفين عقب الرقم المسلسل من أجل مساعدة القارئ على فهم بعض المصطلحات العلمية، أو الوقوف على ماهية بعض اللغات، بينما احتفظنا بملاحظات الكاتب الواردة فى الحواشى السفلية مشيرين إليها بالأرقام المسلسلة فحسب، بغية التمييز بين ما أضفناه وما ورد فى سياق الكتاب

الأصلى، ولاسيما أننا قد أضفنا بعض الملاحظات التى تسهم فى إجلاء بعض القضايا الشائكة بصدد اللغة العربية، وفقًا لمنظورنا الخاص، واستناداً إلى آراء بعض العلماء مثل أندريه ميكال والدكتور محمد عبد المطلب أستاذ النقد والبلاغة فى جامعة عين شمس. كما آثرنا الاحتفاظ ببعض المصطلحات اللغوية كما وردت فى الكتاب دون اللجوء إلى تعريبها؛ لأنها صارت من الكلمات المعترف بها فى ميدان اللغويات، مثل مصطلح "مورفيم"morphème، أو "فونيم"phonème ، وهو ما ينطبق كذلك على أسماء اللغات الأجنبية مثل لغات "البانتو" bantou ، أو لغة الكيتوبا kituba، وغيرها من اللغات التى احتفظنا بأسمائها كما وردت فى سياق اللغة الفرنسية.

تطرَّق الكاتب إلى العديد من الأمثلة، رغبةً منه فى التعرض لعملية التواصل على الصعيد الإنسانى بأكمله، من خلال تناول الممارسات اللغوية فى البيئة الخاصة بها، وتحليل دور تمثيلات المتكلمين فى تطور هذه الممارسات. كما حرص على دراسة العديد من الظواهر التى نراها يوميًا دون أن ندرك أثرها المحرك لمجريات الأوضاع اللغوية. وخلاصة القول إننا بصدد دراسة المحيط البيئى للغات أو الإيكولوچيا اللغوية. ورغم صعوبة التصدى لترجمة العلوم اللغوية، فإننا أقدمنا على هذه الخطوة بفضل تشجيع الأستاذة الفاضلة الدكتورة مديحة دوس التى اقترحت علينا اختراق هذا المجال، بل تفضلت بمراجعة الترجمة، وبذلت جهداً جهيداً من أجل تذليل الصعوبات الخاصة بعملية تبسيط الدراسات اللغوية، وعرض الأمثلة الواردة فيه. ونحن ندين لها بكل الشكر والعرفان، ونقف احتراماً لرغبتها الصادقة فى إطلاع القارئ العربى على جانب من مضمار اللغويات الاجتماعية. وقد حاولنا ما أمكن ذلك أن نكون أوفياء للنص الفرنسى دون تكليف اللغة العربية ما ليس فى وسعها، ولم نحاول - كما يحلو للبعض- أن نضيف إلى النص الأصلى ما يكون الكاتب قد أهمله ، أو نحذف منه ما لا نقبله، باستثناء التعريف بالأعلام الغربية، وإبداء عدد من الملاحظات فى الحواشى السفلية كما سبق أن أشرنا. وحرِىٌّ بنا أن نشير إلى تناول الكاتب للغة العربية باعتبارها من الأمثلة التى استشهد بها مرات عدة فى سياق الكتاب، وهو ما أبدينا عليه بعض التحفظات، نتيجة لوجود عدد قليل من الآراء التى قد تبدو مبهمة أو يكتنفها الغموض،

حيث وردت بعض المعلومات التى تخالفه الرأى بشأنها، وهو ما دفعنا إلى إضافة الملاحظات اللازمة لإجلاء بعض الحقائق؛ بغية توضيح بعض الأفكار، وإزالة ما بها من خلط غير متعمد. كما أضفنا فى نهاية الكتاب دليلاً لغويًا يتضمن معظم المصطلحات الفرنسية التى وردت فى الكتاب ومرادفاتها باللغة العربية، حرصًا منا على إثراء معلومات القارئ العربى ومساعدته فى معرفة الاسم المُعرَّب لهذه المصطلحات، ورغبة منا فى فتح مجال المعاجم اللغوية أمام الباحثين فى هذا الشأن، انطلاقًا من المصطلحات العربية التى تخيرناها من بين العديد من المعاجم اللغوية. حيث حرصنا على اختيار أدق هذه المصطلحات وأقربها إلى اللغة العربية .

وختامًا، نسأل الله أن نكون قد وفقنا فى التصدى لهذه الترجمة ، عسى أن نشارك- ولو بقدر قليل للغاية - فى إثراء العلوم العربية بهذه المساهمة المتواضعة .

باتسى جمال الدين

مقدمة

تمثيلات وممارسات

يصعُب علينا التعرُّف على العدد الفعلى للغات العالم، ولاسيَّما أن عدد الدول قد يخضع للزيادة أو النقصان، وفقًا لنتائج بعض الصراعات التى قد تسفر عن تقسيم بعض الدول لدويلات صغيرة، مثلما حدث ليوغوسلافيا وتشيكوسلوفاكيا. وإذا ما افترضنا وجود خمسة آلاف لغة على سطح الكرة الأرضية يتحدث بها سكان مائتى دولة، نجد أن نصيب كل دولة هو فى المتوسط خمس وعشرون لغة، وإن كان هذا رقمًا تقريبيًا؛ لأنه فى حين توجد دول يتحدث سكانها مائتى لغة، مثل جمهورية الكونغو الديمقراطية ودولة زائير السابقة والكاميرون والهند...الخ، فهناك دول أخرى تقترب من كونها أحادية اللغة، مثل أيسلندا ورواندا...إلخ. لكننا نلاحظ أن هذه الأرقام تشير إلى أن تعدد اللغات فى الدولة الواحدة هو الأمر السائد؛ حيث لا توجد فى الواقع دولة أحادية اللغة.

تختلف لغات العالم من حيث الوظيفة التى تؤديها كل منها، والدور الذى تضطلع به والنطاق الذى تشمله. فبعض اللغات لا تخرج عن نطاق بعض الجماعات أو الأسر الصغيرة، بل قد لا تتعدى حدودها سكان إحدى القرى أو القبائل، فى حين أن هناك بعض اللغات الأخرى التى يتحدث بها مئات الملايين. كما تختلف كل هذه اللغات من حيث الاستخدام والمضمون والعلاقات الاجتماعية التى تُعبِّر عنها.

يمكن تصنيف هذه اللغات تصنيفًا سلاليًا على أساس العائلات اللغوية التى تنتمى إليها (العائلة الهندية الأوروبية والعائلة السامية وعائلة لغات البانتو Bantoues[(١)] ... الخ)،

(١) [مجموعة لغوية ضمن العائلة النيجيرية الكونغولية، وتضم حوالى سبعمائة لغة أفريقية.]

أو تصنيفها من حيث الوظيفة مثل لغة البيدجين[١] Pidgin ولغات الكريول[٢] Créoles واللغات الناقلة[٣] واللغات الوسيطة واللغات الدولية...إلخ، أو من حيث الشكل مثل اللغات العازلة[٤] واللغات التصريفية[٥] واللغات اللاصقة[٦]...إلخ، أو كذلك من حيث المؤسسات التى تستخدمها مثل اللغات الإقليمية والمحلية والرسمية ولغات العمل فى المنظمات الدولية...الخ. لذا فهناك صعوبة شديدة فى وضع تصورٍ شامل للوضع اللغوى العالمى، كما أن الخرائط اللغوية التى تتسم بالدقة الشديدة لا تقدم سوى معلومات محدودة تتمثل فى توضيح المناطق الجغرافية لبعض اللغات، وإظهار التطابق بين بعض المناطق اللغوية المختلفة. وهناك بعض الخرائط التى يمكن أن نُطلق عليها اسم الخرائط السياسية اللغوية؛ لأنها تتناول بصفة خاصة الدول التى تستخدم بعض اللغات بصورة رسمية. ويُطلعنا الأطلس اللغوى على اختلاف اللهجات، الذى يكون فى الغالب داخل حدود دولة ما، مثل الأطلس اللغوى الفرنسى أو السويسرى أو الإيطالى...الخ، بل يكون ذلك أحيانًا داخل نطاق أحد الأقاليم، مثل أطلس جزيرة كورسيكا Corse وأطلس إقليم نورماندى Normandie ، ونادرًا ما تتوافق الحدود اللغوية مع الحدود الدولية، ولا سيَّما أن واضعى تلك الخرائط لا يوضحون العلاقات التى تربط بين هذه اللغات أو مدى التماثل أو التكامل بين وظائفها.

(١) [استُخدم هذا المصطلح فى الأصل للإشارة إلى لغة مُركَّبَة من اللغة الإنجليزية ولغات الشرق الأقصى، نتيجة لوجود اتصال تجارى فى فترة من الفترات، ثم أصبح هذا المصطلح يُستخدم للإشارة إلى لغة البيدجين الهجين التى تُعتبر لغة عامية مُبسطة تُستخدم للتفاهم بين جماعات مختلفة اللغات، ولاسيما فى الموانئ والأغراض التجارية.]

(٢)[لغات هجين مُبسطة تتكون من عناصر مأخوذة عن عدة لغات.]

(٣) [لغة تُستخدم فى الاتصال بين شعوب ذات لغات أم مختلفة.]

(٤) [لغة تتكون كل كلمة فيها من مورفيم واحد، وهذا يعنى أن جذور كلماتها لا تقبل الزوائد. ومن اللغات العازلة بدرجة عالية الصينية والفيتنامية.]

(٥) [لغة تضيف سوابق ولواحق لبيان العلاقات النحوية بين الكلمات فى الجملة الواحدة. وهو ما ينطبق على اللغات اللاصقة واللغات الاشتقاقية.]

(٦) [لغة تتكون كل كلمة فيها على الأغلب من عدة مورفيات، وكل مورف واحد يمثل مورفيمًا واحد. وتمتاز هذه اللغة باستخدام السوابق واللواحق وإضافتها إلى الجذر من أجل تغيير المعنى، مثل اللغات الأورالية؛ وتقابلها اللغات العازلة.]

كيف يمكن إذن تقدير أهمية كل لغة على حدة؟ إن الإجابة على هذا التساؤل تستلزم الرجوع إلى بعض المصطلحات غير الدقيقة التى تم استخدامها من أجل التعرُّف على ماهية هذه اللغات؛ فنذكر منها على سبيل المثال "لغات الأقلية" و"اللغات الصغيرة" و"اللغات محدودة الاستخدام" و"اللغات الناقلة" و"اللغات الكبيرة" و"اللغات الدولية"، وما إلى ذلك من تصنيفات أخرى تكاد تكون مبهمة؛ لأنها تستند لا إلى القواعد العلمية السليمة بل إلى مجموعة من الأفكار الأيديولوچية أو موازين القوى العالمية. ويتم فى الغالب تصنيف اللغات "الدولية" باعتبارها اللغات المُستخدمة فى أعمال المنظمات الدولية، مثل منظمة الأمم المتحدة ONU، ومنظمة الوحدة الأفريقية OUA، ومنظمة اليونسكو UNESCO، وغيرها من المنظمات الأخرى، وتتجاهل هذه التصنيفات وجود بعض اللغات التى تتسم فعليًا بأنها لغات دولية غير مُعترف بها، كاللغة السواحيلية ، واللغة الملايية[1] malais ولغة البمبارا[2] Bambara، حيث يتحدث بها سكان العديد من الدول. كما تم استبعاد بعض اللغات الأخرى من المنظمات الدولية لأسباب سياسية، مثل الألمانية واليابانية باعتبارهما لغتى المَهزومَيْن فى الحرب العالمية الثانية. وتشمل قائمة اللغات الأكثر انتشارًا فى العالم الصينية والإنجليزية والعربية والإسبانية والبرتغالية والفرنسية، وهى فى الواقع اللغات المُستخدمة فى أعمال منظمتى الأمم المتحدة واليونسكو، وذلك دون الإشارة إلى اللغات الهندية أو الملايية أو البنغالية، والتى تحتل مكانة جيدة بين أكثر لغات العالم انتشارًا.

يحثنا إحساسنا الفطرى على إضفاء قيمة ما على بعض اللغات؛ وهذا ما يدفع بعض الآباء إلى تعليم أولادهم فى المدارس لغات مثل الإنجليزية أو الألمانية بل حتى الصينية. لكن ما المعايير التى تحكم مثل هذه الاختيارات؟ وما هى المعايير الذى تستند إليها الدول عند اختيار اللغات التى يتم تدريسها لطلاب المدارس؟ فعلى سبيل المثال، لماذا اختارت إسبانيا عام ١٩٩٦ جعل تدريس اللغة الإنجليزية أمرًا إجباريًا فى

(١) [لغة مشتركة بين جميع جزر إندونيسيا وشبه جزيرة الملايو.]
(٢) [لغة شعب البامبارا الذى يعيش أفراده فى أماكن متفرقة بمالى والسنغال وكوت ديفوار وبوركينا فاسو.]

مدارسها الابتدائية؟ ولماذا اختارت نيچيريا تدريس اللغة الفرنسية لتلاميذ المدارس الابتدائية؟ وبدون إصدار أحكام تتخذ شكل النظريات المُطلقة، نشعر أن اللغات قد صارت مثل السلع التى تُعرض فى الأسواق؛ ففى حين توجد لغات يسعى الناس إلى امتلاكها؛ لأنهم يعدونها مثل رأس المال الذى يزيد من قيمة صاحبه، توجد لغات أخرى لا قيمة لها فى سوق الاستخدام اللغوى. ونلحظ على الفور أن "القيمة" أو "النفوذ" الذى تحظى به لغة ما من دون الأخرى ، يرجع بنفس القدر إلى تمثيلات الأفراد ، كما يرجع إلى الأسباب الواقعية، وإن كانت هذه التمثيلات هى مصدر الحقائق وسببًا فى إرسائها. ولأننا نولى أهمية كبرى لمكانة اللغة الإنجليزية، فإن غالبية طلاب المدارس يفضّلون دراستها كلغة أولى، مما يزيد من قيمتها الحقيقية.

حينما يقبل أحد الأشخاص على شراء إحدى السلع الاستهلاكية ، كشراء سيارة أو ما إلى ذلك، فهناك العديد من العوامل الموضوعية وغير الموضوعية التى تحكم اختياراته، ألا وهى:

١- معرفة احتياجاته الحقيقية أو التصوُّرية، مثل حاجته إلى سيارة سريعة أو سيارة بريك "Break"(١)، أو حاجته إلى سيارة ذات محرك ديزل ، أو ذات محرك يعمل بالبنزين...إلخ.

٢- مدى تأثير الموضة ووسائل الإعلام ونصائح الأصدقاء أو الجيران على تحديد رأيه الخاص، كأن يُبدى أحد أصدقائه سعادته بسيارته التى لا تستهلك وقوداً...الخ.

٣- أيديولوچية المستهلك التى قد تدفعه إلى رفض شراء أحد الماركات ، أو مقاطعة منتجات إحدى الدول ، أو تشجيع مُنتج بلاده.

وهكذا، يكون للعوامل السابقة دور فى تحديد أسباب اختيار أحد أنواع السيارات، وهو ما يؤثر بالتالى على المبيعات، وإن كان ذلك يتم بصورة محدودة؛ أى أن

(١) [سيارة ببابين يكون فى داخلها مقعد نقّال يُرفع لوضع البضائع.]

التمثيلات تحدد الممارسات، ويكون لها أكبر الأثر على الواقع، وهذا هو حال اختيار اللغات. فإذا ما استثنينا اللغة التى توارثناها من آبائنا أو من المجتمع الذى نشأنا به، أى "اللغة الأم" أو "لغتنا الأولى" التى لم نختارها، فسوف نجد أنفسنا أمام مجموعة من الخيارات: ما اللغات التى نود تعلمها فى المدرسة؟ وما اللغات التى سوف نكتسبها فى المجتمعات متعددة اللغات؟ بل ما اللغات التى سوف نستخدمها فى حياتنا الاجتماعية؟... إلخ.

نحن نقتنى اللغات إلى حد ما كما نقتنى الأشياء، وفقًا لما تقدمه من فوائد، وما نحمله من تصور بشأن النفع الذى يعود علينا من امتلاكها؛ وهو ما يؤكد لنا أن تمثيلاتنا هى مصدر ممارساتنا وأفعالنا. إلا أن الأشياء التى نقتنيها تخضع لقانون الملكية الخاصة الذى يُخوِّل لنا أن نحتفظ بها أو نستخدمها أو نهبها أو نتخلص منها أو حتى نبيعها، ولا سيما أنها تفقد قيمتها من جرَّاء كثرة الاستخدام. وعلى خلاف ذلك، نجد أن اللغة تخضع لقانون الملكية المشتركة، أى لا تقع فى الواقع تحت سلطة أى شخص، بل تزداد قيمتها كلما زاد استخدامها. ومن أجل تبسيط هذه الأفكار، نسوق مثال السيارة التى كلما استُهلكت كلما فقدت قيمتها، والدليل على ذلك أن سعر السيارة الجديدة يفوق كثيرًا سعر السيارة المُستعملة ، التى لابد أن ينتهى بها المآل إلى بائعى الأشياء المُهملة، إلا إذا اعتُبرت من المقتنيات الأثرية. فى حين كلما زاد استخدام إحدى اللغات كلما زادت قيمتها؛ فالأفراد لا يفضلون تعلُّم إحدى لغات قبائل الأمازون الهندية الصغيرة، بل يسعون وراء أكثر لغات العالم انتشارًا؛ لأنهم يستطيعون استخدامها فى سوق العمل، حيث إنها تُمثِّل إضافةً جيدة لسيرتهم الذاتية. لذا نؤكد مرة أخرى أن تمثيلاتنا الشخصية هى التى تزيد من قيمة اللغة التى يختار الأفراد دراستها، وتؤثر بالتالى على الحقائق المحيطة بنا.

لابد من الاعتراف بأن لغات العالم ليست متساوية، على الرغم من التقدير الذى يُكنه علماء اللغة لكل اللغات على حدٍّ سواء؛ فلا فرق لديهم بين أكثر اللغات انتشارًا واللغات التى توشك على الاندثار، أو حتى بين اللغات التى استُخدمت فى كتابة آلاف

المؤلفات واللغات غير المكتوبة على الإطلاق. فكل اللغات تستحق الدراسة والتحليل، ولا فرق فى ذلك بين لغة سكان بعض قبائل الأمازون أو أفريقيا واللغة الإنجليزية أو الصينية أو الفرنسية، شريطة إثراء بعض اللغات من خلال توليد وإحداث مفردات جديدة ، تُمَكِّنَنا من استخدامها فى التحدُّث والكتابة والتعليم. والقول الذى يعادل بين اللغة الإنجليزية واللغة البريتانية[1] breton أو بين اللغة الفرنسية ولغة البوبو bobo، قول غير واقعى بل أيديولوچى ؛ لأن كل اللغات لا تحظى بنفس القيمة، وتتجلى بصفة خاصة عدم المساواة بينها عند تصنيفها فى قلب النظام الدولى ذاته. والاعتقاد فى عكس ذلك ينُم إمَّا عن عدم الإدراك لحقائق الأمور أو خلطها بصورة متعمدة من أجل إرضاء البعض على حساب البعض الآخر ومساواة القزم بالعملاق... نعم، فهناك لغات عملاقة لا يجب مساواتها ببعض اللغات التى تشبه الأقزام من حيث الأهمية، بيد أن المساواة تتحقق بالفعل حينما تصبح هذه اللغات مادة للدراسات العلمية المتخصصة.

لا يمكن على الإطلاق تصوُّر وجود خمسة آلاف لغة تحظى بالقيمة نفسها والأهمية التجارية والاستخدامات، بل تنتظر المصير ذاته. فإننا نعتقد فى وجود ما يسمى "ببورصة اللغات" التى تشهد تطوُّر قيمة اللغات وتغيُّرها وما إلى ذلك من أمور تشبه ما تتعرض له الأسهم التجارية فى بورصة الأوراق المالية. وتقترب هذه الفكرة إلى حدٍّ ما من مفهوم العالِم بيير بورديو Pierre Bourdieu بشأن "السوق اللغوى"، حيث افترض وجود لغة "شرعية" مُعترف بها، داخل نطاق محدد هو فى الغالب نطاق قومى، وتمثل هذه اللغة المعيار الذى تُقاس على أساسه الأشكال اللغوية الأخرى من لهجات اجتماعية أو إقليمية. وإننا هنا بصدد ظاهرة عالمية تتخطى الحدود الإقليمية، وقد تشهد تغيرات تفوق فى سرعتها تلك التى تشهدها اللغات المحلية داخل نطاقها المحدود.

حرص العلماء فى بادئ الأمر على انتهاج طريقتين: إمَّا دراسة كل لغة على حدة باعتبارها قائمة بذاتها، أو الرجوع إلى الأصول اللغوية المتوارثة. لقد أسفرت الطريقة

(١) [لغة مقاطعة بريتانى فى شمال غرب فرنسا.]

الأولى عن ظهور القواعد النحوية؛ فعلى سبيل المثال، قام بانينى Panini بشرح قواعد اللغة السنسكريتية وأبنيتها فى القرن الرابع، وعُنى بروبوس Probus باللاتينية، ونبريچا Nebrija بالإسبانية، بينما حرص علماء الديوان الملكى الفرنسى على وصف اللغة الفرنسية فى القرن السابع عشر، فى حين اختص سيبويه بقواعد اللغة العربية فى القرن السابع الميلادى. ومما لاشك فيه أن الحرص على شرح قواعد هذه اللغات كان يرتبط بموازين القوى والأحداث المعاصرة لها، وإن لم يدرك هؤلاء العلماء الأوائل هذه الحقيقة؛ فلغة الأقلية أو اللغة عديمة الأهمية لا تحظى باهتمام العلماء الذين عادةً ما يُكرِّسون جهودهم لدراسة اللغات الأكثر سيادة وانتشاراً، أو بعبارة أخرى لغات السلطات السياسية أو الدينية. أمَّا الطريقة الثانية فقد أدَّت إلى البحث عن القوانين الصوتية ، وتقسيم اللغات إلى عائلات فى محاولة لإعادة بناء بعض اللغات المُندثِرة. وتمثل هاتان الطريقتان أساس علم اللغويات الذى انتشر فى القرن العشرين بدءاً من سوسور Saussure وانتهاءً بشومسكى Chomsky . وجدير بالذكر أن النظريات التركيبية الأوروبية والأمريكية قد اشتركت فى إنتاج فكرة مُجردة قامت على أساس الفصل بين اللغة من جهة والقدرة على الكلام من جهة أخرى، مما يستحيل معه فهم ظواهر التواصل. وقد أدَّى ذلك أحياناً إلى إحداث خلط بين عملية التواصل والأبنية الرمزية اللغوية، بل تحولَّت هذه العملية إلى أشبه ما يكون بالماكينة التى تصيغ الجمل بصورة آلية. ومهما بلغت درجة تأثير وضع هذه النماذج اللغوية التى كانت تستمد أهميتها من صياغة بعض أجزاء علم اللغويات عند بدايته، يجب وضعها فى إطارها الصحيح؛ لأن الأمر لا يتعدى كونه مجموعة من الرؤى المُحددة التى كانت تلائم بعض المتخصصين فى وصف اللغات، أو تتوافق مع نظرياتهم بشكل يُعضِّد أفكارهم ويُسهِّل من مهمتهم.

لا يمكن فى الواقع قصر عملية التواصل على بناء رمزى ، محدد أو نموذج ما لبناء العبارات؛ فعلى الرغم من احتياجها لمثل هذه الأبنية الرمزية، إلا أنها غير كافية على الإطلاق؛ لأنها فى حد ذاتها نتاج تطوُّر الحاجة إلى الاتصال بين البشر والبحث عن سُبل جديدة للتخاطب، بل إعادة النظر فى عملية التواصل بأكملها. وعلاوة على ذلك،

نلاحظ أن بعض الأفراد يستطيعون التفاهم بكل سهولة ويسر، من خلال استخدام مجموعة من الأبنية الرمزية التى تبدو، عند قيام العلماء بدراستها وتحليلها، مختلفة عن بعضها تمام الاختلاف؛ لأنه رغم تحدُّث هؤلاء الأفراد بنفس اللغة، فإنهم لا يستخدمون القواعد اللغوية ذاتها، بل منهم من يستخدم بعض العبارات التى تُعتبر "دخيلة" على اللغة الأصلية، بحيث يُصنفها العلماء كلغة أخرى مختلفة؛ وينطبق ذلك مثلاً على لغة الكريول الهجين Créole التى تختلف عن اللغة الأصلية التى استندت إليها، بعد أن صارت مزيجًا من عدة لغات. وعلى خلاف ذلك، يمكن أن يحدث التواصل بين بعض الأفراد باستخدام أشكال لغوية هى فى نظرهم مزيج من عدة لغات مختلفة، فى حين أن علماء اللغة يصنفونها باعتبارها بدائل للغة واحدة؛ وهذا ما ينطبق على حالة اللغتين "الصربية" و"الكرواتية" اللتين تم اعتبارهما حديثًا كلغة واحدة تحمل اسم اللغة "الصربية - الكرواتية".

ومما لا شك فيه أن كل هذه الأمور تحتاج إلى المزيد من الدراسات التحليلية الدقيقة؛ لذا سنعود إليها مرة أخرى فى العديد من أجزاء هذا الكتاب. أمَّا الآن فيكفينا أن نعلم أن مفهوم "اللغة" هو مفهوم مُجرَّد، لكنه يفيد علماء اللغة فى كونه يستند إلى بعض الأسس والسمات المتناسقة، كما يستند إلى بعض الأساليب والمناهج اللغوية التى تساعد فى توضيح أقوال المُتكلمين وتفسيرها، أى توضيح ما أطلق عليه فرديناند دو سوسور فى بداية القرن العشرين اسم "فعل الكلام". وإذا ما استعرنا بصورة ساخرة مقولة الكاتب فريدريش إنچيلز Friedrich Engels الذى قال: "إن دليل وجود الطعام هو أننا نأكله"، فسوف نتوصل إلى أن دليل وجود اللغات هو أننا نتكلمها؛ مما يؤكد وجود حقيقة ملموسة أطلق عليها البعض اسم فعل الكلام ، أو الممارسات اللغوية؛ فنحن لا يعنينا اختلاف المسميات؛ لأنها تسفر فى نهاية الأمر عن تأكيد وجود اللغة كأمر واقع فى حياتنا. وهكذا، نجد أنفسنا بداية أمام مجموعة من الممارسات أو الاستخدامات التى يمكن أن نضع لها تصوراً شاملاً يضم الإحصائيات اللازمة لصياغة رؤية عامة، كما نستطيع كذلك دراسة تفاصيل علاقات التفاعل الداخلى داخل المجموعات الصغيرة كالأسرة أو ما شابهها، من أجل تكوين رؤى دقيقة ومحددة. ومن هنا، كانت هذه

الممارسات الملموسة سببًا فى توصُّل علماء اللغويات إلى فكرة "اللغة" المُجردَّة، أى أن اللغات هى نتاج الممارسات البشرية، وهو ما يدفعنا إلى التعبير عن هذه العلاقة من خلال الشكل التالى: الممارسات > اللغات.

إلا أن عملية اكتشاف اللغات والتعرُّف عليها لا تُعد حكرًا على العلماء فحسب؛ لأن المُتكلمين فى كل أنحاء العالم يُحددون اللغات التى يرغبون فى استخدامها ، ويعرفون أو بالأحرى يعتقدون أنهم يعرفون اللغات المُستخدمة فى بعض البلدان. ومن المفارقات الواضحة أن اللغة موجودة وغير موجودة فى آنٍ واحد؛ لأن حقيقة وجود اللغة لا يمكن التدليل عليها سوى عند الرجوع إلى الكُتب والقواعد اللغوية والمعاجم الأفعال الكلامية المُسَجَّلة أو المكتوبة؛ فاللغات تستمد وجودها الفعلى من المُتحدثين بها ، الذين يعتقدون فى أهميتها ويستخدمونها للتعبير عن أفكارهم وآرائهم، ومن هنا نصل إلى الجانب الثانى من منهجنا اللغوى: التمثيلات.

تستند رؤيتنا بشأن وضع اللغات فى العالم إلى أن الممارسات > اللغات والتمثيلات؛ فهذا هو الإطار الذى نشرح من خلاله أوضاع اللغات على سطح الكرة الأرضية، والتى يبلغ عددها فى بداية القرن الحادى والعشرين خمسة آلاف لغة ، يربطها أحيانًا ما يشبه التعايش السلمى، إلا أنها غالبًا ما تتصارع فيما بينها. وتلك التعددية هى نقطة الانطلاق للبدء فى وضع هيكل تنظيمى لهذه اللغات باستخدام عدد من النماذج، لكن هذه النماذج لا تتعدى كونها وسائل مجازية أو افتراضية تهدف إلى مساعدتنا فى تصوُّر الأفكار المُعقدة وتبسيطها. وكم لجأت من قبل العلوم اللغوية إلى هذه الطريقة، بل استنفدت استخدام العديد من الاستعارات والصور البلاغية، مثل الحديث عن "حياة اللغات"، حيث افترضت أنها تولد وتحيا وتموت، مما أوجد اللغات الحية واللغات الميتة، كما نجد تقسيم اللغات لعائلات كما هو الحال بالنسبة للغات الهندية-الأوروبية واللغات السامية ولغات البانتو...الخ. ونجد بالتالى اللغة الأم واللغات الشقيقة !! إلا أنه وسط هذا الخضم من الصور البلاغية التى أثقلت البحث العلمى، أغفل العلماء "آباء اللغات"، حيث فضلوا فكرة "التفريع الخطى" أكثر من تفضيلهم

لفكرة "الإنتاج المشترك" التى تنطبق تماماً على لغات الكريول الهجين باعتبارها مزيجاً من عدة لغات. كما استخدم العلماء فكرة أدوات أو وسائل التخاطب والأشجار اللغوية، واتجهوا إلى التشبيهات الاقتصادية، مثل تعبيرى "السوق اللغوى" و"اللغة كعامل إنتاج"، بل استخدموا التشبيهات الحربية مثل "حرب اللغات"(١)، والتشبيهات البيولوچية مثل "التهجين اللغوى" و"اللغات الهجين"...الخ. ولكثرة الصور البلاغية والتشبيهات التى استخدمناها للتحدث عن اللغات، كدنا ننسى أنها لا تتعدى كونها صور وتشبيهات؛ مما يحتم علينا الإشارة فى بداية هذا الكتاب إلى أن اللغات لا حياة لها فى الواقع، وفكرة العائلات اللغوية هى من محض الخيال البحت، مثلها فى ذلك مثل فكرة أدوات التخاطب؛ فاللغة تستمد وجودها من وجود المُتحدثين بها؛ لذا فإن التفاعل بين البشر عن طريق الكلام هو السبب الوحيد لتطويرها وتغييرها وإعادة اكتشافها.

رغبة منّا فى عرض وتحليل عملية التواصل الاجتماعى – على الرغم من كل تعقيداتها – عمدنا فى هذا الكتاب إلى استخدام العديد من النماذج التى تتفاعل فيما بينها ، ألا وهى:

١- **نموذج التجاذب:** يهدف إلى تناول وضع اللغات فى العالم، والتّعرُّف بصورة إجمالية على العلاقات الاجتماعية واللغوية التى تربط بين مختلف اللغات.

٢- **نموذج الضبط الذاتى:** يهدف إلى دراسة مدى تناسق وانتظام الظواهر اللغوية ولغات العالم أجمع.

٣- **نموذج التمثيلات:** يهدف إلى تناول كيفية تصوُّر وإدراك الأفراد والجماعات لممارساتهم وممارسات المحيطين بهم.

٤- **نموذج التَحَوُّل:** يهدف إلى معرفة كيفية تطوُّر اللغات والظواهر اللغوية المحيطة بها.

(١) لقد استخدمنا فى مؤلفات سابقة مصطلح "حرب اللغات"، إلا أنه من الواضح أن اللغات ذاتها لا تتحارب أو تتصارع، بل المُتحدثين بها هم الذين يتصارعون ويساهمون فى اختفاء بعض اللغات وتفوق بعضها على البعض الآخر.

ترتبط النماذج الثلاثة الأخيرة بالنموذج الأول؛ لأنها تُمكِّنَنا من التعرُّف على كيفية حدوث التغيرات داخل عالم اللغات بأكمله، وإن كان هذا لا يعنى وضع النموذج الأول فى إطار التزامن اللغوى، ووضع بقية النماذج فى إطار التطور أو التعاقب اللغوى؛ ففكرة التزامن اللغوى لا وجود لها، وما هى سوى فكرة تجريدية تتوافق مع بعض العلماء الذين آثروا الراحة بعيداً عن عناء البحث، وفضَّلوا وصف حالة لغة ما خلال فترة زمنية محددة، وهم بذلك يُغفلُون تمامًا تناول مدى تأثير التاريخ بأكمله عليها. فهناك منظوران لتناول الظواهر اللغوية ، ألا وهما المنظور "المُعاصِر" الذى يهتم بما هو موجود، والمنظور "التاريخى" الذى يهتم بما هو مُتغيِّر، وبأى حال من الأحوال لا يمكن الفصل بين الموجود وعملية التغيير والتحوّل؛ لأن ما هو موجود يتغير، وما يتغير موجود. هناك كذلك عدة عوامل تؤثر باستمرار فى تطوُّر أشكال اللغات ووظائفها المختلفة، ألا وهى مدى انتظام وتناسق النظام اللغوى والظواهر والتمثيلات اللغوية، بالإضافة إلى التحوُّلات التى تطرأ عليها وتؤثر فيها.

ويبقى نموذج خامس تناوله الكثيرون عدة مرات، ألا وهو "النموذج اللغوى" الذى يسمح بوصف أو "بخلق" الأبنية الرمزية اللغوية بمفهومها الواسع كما سنرى فيما بعد. إننا نخشى إثارة دهشة القراء إذا ما أعلنّا أن هذا النموذج هو أقل النماذج أهمية، رغم استخدامه كأساس للعديد من الدراسات والأفكار والمناقشات. وإذا كان من الضرورى وصف اللغات وشرحها عند إعداد الدراسات اللغوية، فلا يجب أن يحتل هذا الجانب سوى جزء صغير للغاية؛ لأنه يتناول الأبنية الرمزية اللغوية فحسب لا عملية التواصل بأكملها. وفى المُقابل، خصصنا هذا الكتاب لإعداد نموذج للتواصل الاجتماعى يتسم بقدر من التعقيد؛ لأنه يُعدّ بمثابة همزة الوصل بين كل المواقف والتمثيلات والممارسات اللغوية.

لقد التزمنا فى هذا الكتاب بمبدأ عام يتمثّل فى تناول اللغات والمواقف اللغوية من منظور إيكولوچى، حيث عمدنا إلى استخدام مصطلح الإيكولوچيا écologie لا كما هو معروف بحماية البيئة، بل بمعناه الأصلى "كعلم البيئة" ذاته. فإذا ما كانت الإيكولوچيا

بشكل عام هى علم دراسة علاقة الكائنات بالبيئة المُحيطة بها، فإن الإيكولوچيا اللغوية تتناول العلاقة بين اللغات والبيئة التى تتواجد بها، أى تتناول أولاً العلاقة بين اللغات ذاتها، ثم بينها وبين المجتمع الذى يحتضنها. وقد يبدو الأمر بسيطًا، إلا أنه كان لابد من بذل الكثير من الجهد والمشقة من أجل إعداد نموذج نظرى يتجاوز فكرة المقابلة المُصطنعة بين اللغويات والمجتمع اللغوى، ونعنى بذلك ضرورة إدراج كل لغة فى إطارها الاجتماعى، وسوف نرى أن توضيح ذلك ليس بالأمر اليسير.

بيد أن العالِم إينار هوجين Einar Haugen هو أول من استخدم التعبير المُركَّب "إيكولوچيا اللغة" écologie de la langue، فإنه لم ينجح كثيراً فى تعميمه، حيث لم يتم استخدامه فيما بعد سوى خمس أو ست مرات فحسب. مما جعله يُعلن أن "علماء اللغة لم يُعيروا هذا التعبير سوى اهتمام سطحى، وذلك لفرط انشغالهم بالعلوم الصوتية وقواعد النحو والصرف والمعاجم." ثم يستطرد قائلاً إنه يمكن تفسير "إيكولوچيا اللغات" باعتبارها "علم دراسة علاقات التفاعل بين لغة ما والبيئة المحيطة بها".

والبيئة المُحيطة هى المجتمع الذى يستخدم هذه اللغة، ويعتبرها جزءًا من أنظمته المختلفة. وتتضمَّن إيكولوچيا اللغات علاقات التفاعل بين لغة ما واللغات الأخرى فى أذهان المُتحدثين بلغتين أو أكثر، علاوة على علاقات التفاعل بينها وبين المجتمع الذى يستخدمها. ويعتقد هوجين أن اللغة ذاتها نموذج انتقالى فيقول إن: "اعتبار اللغة كبناء مُتحجِّر وجامد أمرٌ مغلوط، وإن عُدّ بمثابة فكرة خيالية مفيدة لعلم اللغويات الذى احتاج لمثل هذا الفكر المُبسَّط خلال إحدى فترات تطوُّره، أمَّا الآن فلابد من استبدال ذلك بنماذج أخرى أكثر تعقيداً". ويوضح هذا التعريف ما أسفرت عنه الدراسات اللغوية التى سعت إلى تحويل اللغة إلى مجرد أداة، وأدت فى الوقت نفسه إلى التغاضى عن الاعتراف بأن اللغة ما هى إلا ظاهرة اجتماعية، كما أنه يتجاهل حقيقة واقعة تم إعلانها عدة مرات، ونادراً ما يتم الأخذ بها، ألا وهى أن اللغة هى ثمرة المجتمع .

ويختتم هوجين كلامه بمجموعة من "التساؤلات البيئية" التى لابد من الإجابة عليها عند دراسة لغة بعينها:

١- كيف يمكن تصنيف هذه اللغة عند مقارنتها ببقية اللغات؟

٢- من مُستخدموها؟

٣- ما مجالات استخدامها؟

٤- ما اللغات الأخرى التى يستخدمها المُتحدثون بها؟

٥- ما أشكالها الداخلية؟

٦- ما تراثها المكتوب؟

٧- إلى أى مدى تخضع اللغة المكتوبة لقواعد موحدة؟

٨- ما المؤسسات التى تُدعمها؟

٩- ما مواقف المُتكلمين منها؟

١٠- أخيراً، قد يكون من المُحَبَّذ استخدام نموذج تصنيفى بيئى إيكولوچى يتيح تحديد وضع اللغة بين سائر لغات العالم، أو بعبارةٍ أخرى معرفة موقعها الحالى واتجاهها المُنتظر.

استخدم مؤخراً ثلاثة مؤلفين فكرة الإيكولوچيا اللغوية، وهم: بيتر موهلوسلر Peter Mühlhausler وساليكوكو موفوينى Salikoko Mufwen ، وألبرت باستارداس أى بوادا Albert Bastardas i Boada . يعتقد موهلوسلر أن هذه الفكرة لم تلق نجاحًا كبيراً؛ لأن هوجين نفسه قد اعتمد فى بنائه اللغوى النظرى على عدد من المفاهيم الجوهرية التابعة للفكر اللغوى السائد، والتى أدت إلى تهميش أبعاد نظريته، ومن ذلك على وجه الخصوص تسليمه بإمكانية تناول لغة ما، وإمكانية قيام مجموعات مُختلفة من المُتخصصين بدراسة الشروح اللغوية والتاريخ والتطوُّر الداخلى وما إلى ذلك من أمور أخرى؛ فيرى موهلوسلر أن موضوع تناول لغة بذاتها يثير مشكلة ما بسبب:

١- غياب المعايير اللغوية التى تتيح تحديد عدد اللغات فى بيئة ما.

٢- صعوبة فصل اللغات عن بقية أشكال التواصل الاجتماعى.

وسوف نتناول فى الفصل الأخير من هذا الكتاب مشكلة حصر اللغات والحالات العديدة التى يختلف فيها علماء اللغة من جهة ، والمتكلمون من جهة أخرى، بشأن تحديد الوجود الفعلى للغة على اعتبار أنها لغة واحدة أو اثنتان أو حتى ثلاث لغات؛ ونذكر بهذا الصدد على وجه الخصوص اللغة "الصربية الكرواتية" ولغة "الكيتوبا" kituba ، وسنكتفى فى الوقت الحالى بعرض دليلى موهلوسلر على صحة رأيه:

١- تبدو عملية التحقق من اللغات وتسميتها أبعد ما تكون عن الوصف الموضوعى، بل يمكن أن تُشكِّل انتهاكًا جسيمًا لإيكولوجيا اللغات فى منطقة ما.

٢- يشتمل عرض مشكلة اختفاء بعض اللغات، من المنظور البيئى، على آفاق وإمكانيات جديدة لمختلف الأنشطة.

يعتقد موهلوسلر أن المنطلق البيئى يستوجب تناول النظام الذى يُدعِّم اللغات ومُتكلميها، وكذلك تناول الروابط بين "السكان اللغويين وغير اللغويين" داخل إحدى البيئات اللغوية. لذا انتهى به الأمر إلى وضع بعض التوصيات اللازمة لصياغة علم اللغويات بصورة مُختلفة. فقد استند إلى دراسة عدد من الظواهر اللغوية والطريقة العامة لوصفها فى منطقة المحيط الهادى "الباسيفيكى"، ووجد عند دراسة التاريخ اللغوى لهذا المكان عددًا من المعتقدات اللغوية عديمة النفع بالنسبة لدارسى اللغات التقليدية فى هذه المنطقة؛ حيث يسود الاعتقاد فى وجود تصنيفات لبعض الكلمات المُميزة، وإمكانية استخدام الفئات الوصفية نفسها عند تناول اللغات كافة، وكذلك إمكانية فصل اللغات عن النظم غير اللغوية، بل وجود لغات مُنفصلة بالفعل. وهو ما ساعده على وضع أسس نظريته التى تهدف إلى الدفاع عن اللغات المُتداعية أو المُهدَّدة بالاندثار، أى أنه تبنَّى فكرة إيكولوجيا اللغات بمعناها الدارج المتمثل فى الحفاظ على البيئة؛ لأنه يدعو بصورة ما إلى الحفاظ على حياة بعض اللغات....

وفى بحث قدَّمه موفوينى إلى "جمعية العلوم اللغوية للغات البيدجين والكريول الهجين"، أكَّد أن علماء اللغة قد عمدوا إلى إطلاق هذين الاسمين على بعض الأشكال اللغوية المُختلفة دون إعطاء تعريف حقيقى لهذين المُصطلحين، بل صار استخدامهما

أمراً مُسَلَّماً به تتوارثه الأجيال، مما يهدد طريقة معالجتنا لهذا الموضوع. لذا اقترح موفويني تناول هذه المُشكلة من منظور فكرة إيكولوچيا اللغات، أي التعرُّض للمحيط الاجتماعي لكل لغة ، ومدى تأثيره عليها. وقد تصدَّرت أقواله عناوين أعماله اللاحقة، حيث نذكر من ذلك على سبيل المثال: "أصل السكان وأصل اللغات" و"أصل الكريول ومنظور الأصل السكاني" و"مبدأ المؤسِّسين في أصل لغات الكريول" وأخيراً "تهجين الشعوب وتهجين اللغات". وتتناول آراء موفويني مشكلة بزوغ اللغات التي أطلقوا عليها اسم لغات الكريول، حيث خصص لها جزءاً كبيراً في نشاطه العلمي، كما تناول المؤثرات المُختلفة التي أدت إلى اختلاط بعض الخصائص اللغوية.

وللوقوف على هذه المؤثرات، بدأ موفويني بحثه بالاطلاع على خصائص السكان الوراثية و"أصولهم الأولية"؛ فإن تأسيس جماعة سكانية جديدة منعزلة يؤدي إلى وجود اختلافات بالنسبة للسكان الأصليين، ويؤدي إلى تحريك آلية الاختلاف. لذا يجب مقارنة اللغات بالأجناس لا الأفراد؛ فالتغيرات التي تطرأ على النوع كما تطرأ على اللغة هي نتاج تأثير البيئة على أعضاء المجتمع؛ حيث تتيح للأفراد إمَّا اكتساب بعض الخصائص أو التخلُّص منها تدريجيًا. ويعتقد موفويني أن البيئة هنا تكمُن داخل الجنس البشري وخارجه؛ وبالتالي فإن معالجة هذا الموضوع تستلزم دراسة عملية الضبط الذاتي لكل من اللغات والبيئة:

"تُعد دراسة البيئة الخارجية بمثابة تناول المُحيط العِرقي للغة ما، بما في ذلك اللغات التي تتصل بها، ووضع المُتحدثين بها، ووضع اللغة محل الدراسة، ونوعية العلاقات التي تربط بين من يستخدمونها، فضلاً عن العديد من العوامل العِرقية التي من شأنها التأثير على استخدام اللغات وتحديد مصيرها. وفي المُقابل، ترصد البيئة الداخلية التغيرات التي تشهدها اللغة ذاتها على الصعيدين الفردي والجماعي، أو بعبارة أخرى الاختلافات بين اللهجات الفردية "اللكنات" ، والجماعية.

أثارت انتباهنا في كتاب العالِم ألبرت باسترداس الذي يحمل عنوان "إيكولوچيا اللغات"، إحدى الاستعارات الموسيقية، حيث أشار إلى فن الأوبرا الذي تتناغم فيه

الأصوات والآلات في آن واحد من أجل تقديم المقطوعة اللحنية، وهذا ما يجب أن يكون عليه حال "البيئة الكلامية" للغة ما، بحيث تصبح كاللحن المُتناغِم لا كالنغمات المُنفردة. وجدير بالذكر أن العرض الموسيقى قد يشهد بعض التغيرات الداخلية كتغيير الأصوات أو الآلات، إضافة إلى التغيرات الخارجية كتغيير قائد الأوركسترا، مما يؤثر بشكل أو بآخر على طريقة الأداء. وقياساً على ذلك، يوضح باسترداس "أن المظاهر الاجتماعية اللغوية فى مجتمع ما تشهد تغييرات جذرية تؤثر على التوازن الكلى للبيئة الكلامية، بسبب وفود جماعة سكانية جديدة تتبع مناطق لغوية أخرى، أو بسبب تغير القوى السياسية التى تحكم هذا المجتمع." فهو يعتقد إذن أن الاتصالات والتغيرات اللغوية هى نتاج عاملين رئيسيين يتمثلان فى قرارات السلطة السياسية من جهة ، والهجرة بين مناطق لغوية مختلفة من جهة أخرى؛ وهذا ما دفعه إلى الاهتمام بتحليل ودراسة وضع منطقة كاتالونيا Catalogne، والعلاقة بين اللغة الكتالانية Catalan(١) واللغة الإسبانية.

وقد نرى أن مثل هذه المعالجات لا تتعدى كونها مجرد تشبيهات أخرى لا أكثر ولا أقل، إلا أنه على الرغم من أن هؤلاء العلماء الثلاثة قد عمدوا إلى تحليل ظواهر لغوية محدودة النطاق، فإنهم قد أثاروا جدلاً بشأن المعالجة اللغوية المُعاصرة بأكملها، ولا سيما فى حالة موفوينى الذى قضى تماماً على كل الأحكام التقليدية. ومن ثَمَّ، تستلزم تلك النزعة المُعادية للمعايير المُعتادة ضرورة إصدار أحكام جديدة، مما جعل أحد أهداف هذا الكتاب هو تقديم إطار التصوُّرى لصياغة مثل هذه الأحكام.

سوف نتعرض أولاً للجانب النظرى، فى محاولة منَّا لتفسير وظائف التواصل الاجتماعى، مع الاستعانة بعدد من الدراسات التجريبية من أجل توضيح أو اختبار مُعطياتنا النظرية. ونهدف من وراء ذلك إلى شرح الأوضاع المُختلفة والتنبؤ بتطوراتها، بيد أنه من العسير توقُّع المواقف والسلوكيات الإنسانية؛ فالعلوم التجريبية تسعى دوماً إلى إصدار القوانين المُطلقة، فى حين تصيغ العلوم الاجتماعية فى نهاية الأمر عدداً من

(١) [لغة رومانية ترجع أصولها إلى اللغة اللاتينية الشعبية، وهى مستخدمة فى جنوب فرنسا وشمال إسبانيا.]

الاحتمالات والاتجاهات المُختلفة. وترجع أهمية ذلك إلى سببين: تكمن مهمة العلم فى القدرة على صياغة الاحتمالات، كما يسمح هذا النهج بوضع أحكام للحالات الخاصة بعلم اللغويات التطبيقى. إذا ما تناولنا تعليم اللغات أو السياسة اللغوية، فسنجد أنه لا يمكن تكوين أية مفاهيم فى المُختبر دون التعرُّف بدقة على الممارسات والحركات التطورية التى تُعبِّر عنها فى الحياة الواقعية أو البيئة الطبيعية، حيث يتم استخدام كل ما يدخل على اللغة أو على الأوضاع اللغوية.

وفى محاولة قد تنجح أحيانًا فى تحقيق التواصل بيننا، نستخدم كمًا هائلاً من الأصوات التى تشهد تغييرات وتطورات مستمرة تجعلها تتخذ أشكالاً مختلفة للتعبير عن نفس المعانى، ونعنى بذلك "البدائل"(١) اللغوية. ففى حين تعد البدائل اللغوية إحدى مظاهر الحرية، يمكن اعتبار المُتغيرات اللغوية بمثابة النطاق الذى تتم فيه ممارسة هذه الحرية، وإن كان يجب الحدّ منها بحيث لا تُستخدم بشكل مُطلق. ولا تخالف البدائل اللغوية فكرة الإجماع اللغوى؛ وإن حدث وخالفت هذا الإجماع، فإنها تُسهم فى ظهور شكل جديد يُتفق عليه ، أو بالأحرى ظهور "لغة جديدة". فالإجماع على استخدام لغة محددة يستلزم وجود جمع من الأشخاص أو مجتمع يستخدم البدائل اللغوية باعتبارها أشكالاً مختلفة تهدف إلى تحقيق الهوية. وإذا ما تناولنا على سبيل المثال طريقة كلام أبناء المُهاجرين المغاربة الذين يعيشون بفرنسا، سنلاحظ أنهم يتحدَّثون الفرنسية بلهجة تُميزُهم؛ مما يعكس وجود إجماع داخلى على استخدام هذه اللهجة، بحيث يعرفون بعضهم البعض من خلالها، وأصبحت بمثابة العامل المُشترك الذى يجمعهم ويوضِّح هَويتهم، بل يوجد كذلك إجماع خارجى نجم عن اعتراف الجميع بتلك اللهجة التى صارت مثل الشعار الذى يُمَيز هؤلاء الأفراد(٢). وهذا ما ينطبق تمامًا على اللغة الإنجليزية التى يستخدمها الزنوج الأمريكيون. إلا أن هذا الأمر ينحصر فى الجماعات الفرعية، حيث يشبه نظام العلاقات بين أفرادها نظام الآلات ذاتية الضبط(٣). وقد تناول

(١) البديل اللغوى بالنسبة إلينا هو ما نتج عن عملية التغيُّر، أمَّا المُتغيِّر اللغوى فهو ما يتعرض للتغيير.
(٢) الجماعات السرية وحدها هى التى تستند على مبدأ الإجماع الداخلى فحسب، مثل الجماعات الماسونية.
(٣) الآلات ذاتية الضبط هى آلات مُعقدة التركيب تنضبط حركاتها وأعمالها حسب توازن مركوز فيها.

ما أسميناه "علم الاجتماع اللغوى" هذه المسائل بصورة تقليدية؛ والهدف من هذه التسمية هو إخراج كل ما هو اجتماعى من كل ما هو لغوى، ولا سيما أننا نعنى بهذا العلم الاهتمام بتحليل الكلام، وعلاقات التفاعل الداخلى، والتعددية اللغوية، وعلاقات التماس أو الصراع بين اللغات، وما إلى ذلك من مسائل لغوية. ونعنى بذلك أن الدراسات المختلفة فى هذا الشأن قد تناولت أمور اللغة بشكل مشرذم؛ فكل تحليل يتناول اللغة من منظور ضيق وخاص، ولابد من قيام علم اللغويات بصياغة نظرية شاملة لعملية التواصل الاجتماعى.

لماذا وكيف نتواصل فيما بيننا؟ هل لأن لدينا بعض الأشياء التى نقولها ؟ أم لأننا فى حاجة إلى قول هذه الأشياء ؟ فحاجتنا إلى التواصل هى حاجة رئيسية تتم تلبيتها باستخدام "اللسان"، واللغة هى أحد أسس تنظيم المجتمعات الإنسانية، وكل مجتمع لديه ما يسبق وما يتبع احتياجه للتواصل والسعى وراء تلبية هذا الاحتياج بصورة تختلف من مكانٍ إلى آخر. ومما يثير العجب حقًا أن الجماعات الإنسانية كافة قد نجحت فى سد حاجة التواصل ذاتها ولكن بطُرُقٍ مُختلفة، وهذا يؤكد ما سبق أن أشرنا إليه بشأن اعتبار المُمارسات اللغوية كمجموعة من البدائل، بل إن اللغات ذاتها تُعتبر إلى حد ما من البدائل، لكنها بدائل لأى شىء؟

لا نسعى فى الواقع من خلال هذا الأمر بأى شكل من الأشكال إلى التصديق على نظرية شومسكى التى تحمل اسم "أسس ومتغيرات"، وتفترض أن كل لغات العالم ليست سوى بدائل سطحية للقواعد الفطرية نفسها ولُمتغيِّر واحد عالمى، أى أن كل البشر يتحدثون لغة واحدة. فيتضح لنا جليًا أن تبنِّى شومسكى للنظام المزدوج بشأن الهياكل التحتية /الهياكل السطحية يؤكد أن لغات العالم على اختلافها ليست سوى مجموعة من القواعد النحوية السطحية التى تعكس قواعد تحتية مشتركة.

تعتمد نظرية شومسكى على افتراض وجود قواعد نحوية عالمية تكمُن بصورة ما داخل عقول الأطفال ، وتتيح لهم تَعلُّم لغة آبائهم وتشمل القواعد النحوية التى تخص كل لغات العالم؛ وهذا ما عبَّر عنه ستيفن بينكر **Stephen Pinker** على النحو التالى: "يعتقد

شومسكى أنه إذا ما فكَّر أى عالِم من سكان المريخ فى زيارة كوكب الأرض ، فإنه سيتوصل حتمًا إلى أن كل سكان هذا الكوكب يتحدثون لغة واحدة، وذلك إذا ما وضع جانبًا المفردات التى يعجز أى طرف عن فهمها فى لغة الآخر". ومن هنا، نلحظ التناقض الواضح فى كون البشر يتحدثون لغة واحدة فى حين يعجزون عن التفاهم فيما بينهم. ويثير بينكر التساؤل حول سبب اختلاف لغات العالم رغم أنها ترتكز على قاعدة واحدة، لكنه يجيب عاليًا أن السبب هو حاجة البشر إلى الاختلاف عن بعضهم البعض، ثم يستعير نظرية داروين Darwin لتوضيح وجه التشابه بين اللغات والأجناس قائلاً إن :

"هناك تشابه بين تكوين اللغات من جهة وتكوين الأجناس من جهة أخرى، والدليل على ذلك أن كليهما قد شهد عملية تطوُّر تدريجى [...] فبين اللغات المختلفة توجد حالات تماثُل واضحة ترجع إلى وحدة الأصل المُشترك، كما أن هناك حالات تشابه ترجع إلى تعرُّض اللغات لنفس العمليات التكوينية [....] ويمكن تقسيم اللغات مثل الكائنات العضوية إلى مجموعات ومجموعات فرعية، أو تصنيفها تصنيفًا طبيعيًا وفقًا لأصولها أو تصنيفًا اصطناعيًا وفقًا لخصائصها. وبعض اللغات واللهجات السائدة تنتشر انتشاراً واسعاً، بحيث تؤدى إلى الاختفاء التدريجى لبعض اللغات الأخرى، مثلها فى ذلك مثل الأجناس؛ لأن اللغة المُندثرة لا [...] تظهر مرة أخرى على الإطلاق."

ونلاحظ بالتالى أن اللغة الفرنسية واللغة الإيطالية يماثلان فى تشابههما واختلافهما الذئب والثعلب ، اللذين تعرضًا لتطوُّر أصلهما المشترك. وهذا أمر مؤكد يماثل ما أثبته علم اللغويات التاريخى بشأن وجود "العائلات" اللغوية، إلا أن المسألة التى يعرض لها بينكر ترجع إلى وقت يسبق ذلك بكثير. لا أحد ينكر وجود العائلات اللغوية كاللغات الرومانية والسلافية والجرمانية، بل يمكن الاقتناع بفكرة إعادة تكوين لغة افتراضية كاللغة الهندية الأوروبية ، التى تُعدّ بمثابة منشأ اللغات السابقة. لكن علماء اللغويات قد توصلوا أيضًا إلى بعض العائلات اللغوية الأخرى كعائلة اللغات السامية ولغات البانتو...الخ؛ فتزداد المشكلة تعقيداً حينما يثور التساؤل التالى: هل كان هناك

قبل ظهور هذه العائلات أساس واحد قامت عليه تلك الأبنية اللغوية الحالية، أو بعبارة أخرى هل كانت هناك قواعد نحوية فطرية أو حتى أصل واحد مشترك لكل هذه اللغات؟ فعلى سبيل المثال، طرح علماء اللغويات الألمان فى نهاية القرن التاسع عشر فكرة إعادة تكوين لغة البانتو الأصلية "الأوربانتو"، أى اللغة الأم للغات البانتو الحالية. لكن المشكلة الحقيقية تكمن فى كيفية التوصُّل إلى وجود علاقات بين "الأوربانتو" واللغة الهندية الأوروبية، بل ما هى نوعية هذه العلاقات؟ وإن كان هذا ما تفترضه نظرية "الأسس والمتغيرات" لشومسكى.

إن قبول أية نظرية لابد وأن يقابله إمكانية تكذيبها، أى إمكانية تنقيح براهينها وفحصها ومناقشتها بغية التحقق من صحتها. ويمكن بالتالى مناقشة أمر إعادة بناء اللغة الهندية الأوروبية ، أو لغة "الأوربانتو"؛ لأن وجود هذه اللغات فى الواقع يتيح لنا التحقق من مدى فاعلية بعض القوانين الصوتية والصلات المشتركة بين اللغات ورصد مراحل تطور اللغة الهندية الأوربية بالنسبة إلى اللغة اليونانية أو إلى اللغة السنسكريتية...إلخ. إلا أن نظرية شومسكى تقوم على تأكيد لا أساس له؛ فإننا عند الحصول على معطيات قابلة للمقارنة فيما بينها، نستطيع التدليل على أن اختلاف اللغات قد حدث بفعل التغيُّرات اللغوية أو تَعرُّض بعض اللغات لحركات انعزال أو انتقال. وفى المقابل، حينما نسلِّم دون دليل بوجود قواعد نحوية فطرية، فإننا نتخذ خطوة بعيدة عن المنهج العلمى، عدا فى حال تمكننا من إثبات صحة الافتراضات من خلال بعض الشروح البيانية الملموسة.

ولنذكر سريعًا مثالاً بسيطًا ورد فى الكتاب السالف ذكره للعالم ستيفن بينكر الذى أعطى صورة إجمالية للتقارب بين إحدى لغات البانتو واللغة الإنجليزية من خلال الأبنية المعروفة بالـ datif أو حالة المفعول غير المباشر(١)، حيث تناول "الأنواع" فى

(١) [فى اللغات التى تقوم على الحالات الإعرابية الدالة على وظيفة نحوية فى الجملة، تُعرف حالة الـdatif أو المفعول غير المباشر بتلك التى يسبقها حرف ما، مثل to أو for فى اللغة الإنجليزية.]

هاتين اللغتين، موضحًا أن تقسيم "النوع" فى لغة "الكيفونچو" Kivunjo يُستخدم مع الجماد والحيوان والإنسان...الخ، فى حين يستخدم فى اللغة الإنجليزية مع الأجناس فحسب. وقد عبَّر عن ذلك قائلاً إن: "الأنواع فى لغة البانتو تشير إلى مجموعات البشر والحيوان والجماد ، بل أجزاء الجسم أيضًا، إلا أنه فى كثير من اللغات الأوروبية ترتبط الأنواع بالأجناس، على الأقل فيما يخص الضمائر اللغوية." ويعتقد بينكر بالتالى فى وجود أساس واحد هو "النوع" الذى يتحقق استخدامه بصورة تختلف من لغة إلى أخرى، تحت تأثير عدد من المتغيرات، كما هو الحال بالنسبة للإنجليزية و"الكيفونچو". ولا يبدو أنه أدرك أن مثل هذه الفكرة قد نتجت عن كون بعض اللغويين الناطقين بالإنجليزية قد استخدموا كلمة "نوع" للتدليل على بعض الظواهر التى استشعروا تقاربها لسببٍ بسيط هو استخدامها لعلامات الضبط. فبالنسبة للغات البانتو، هناك سلسلة مزدوجة من السوابق المضافة لأول الكلمات لتوضيح الفرق بين المفرد والجمع، كما نلحظ فى اللغة السواحيلية التى نجد بها: كى/ڤى) أو ki/vi كيسو/ڤيسو: سكينة/سكاكين)، ونجد كذلك م/مى) أو m/mi مواكا/مياكا: عام/أعوام)، وأيضًا م/وا) أو m/wa متو/واتو: رجل/رجال (... إلى آخِر تلك الأمثلة. ويستمر استخدام هذه السوابق فى العبارة بأكملها كما نلاحظ فى الأمثلة التالية:

- **كيسو كيدوجو/ڤيسو ڤيدوجو: سكين صغير/سكاكين صغيرة.**
- **كيسو كيدوجو كيموجا: كى+سكين كى+صغير كى+واحد : سكين واحد صغير.**
- **ڤيسو ڤيدوجو ڤيوبلى: ڤى+سكين ڤى+صغير ڤى+اثنان: سكينان صغيران.**
- **كيسو كيدوجو كيموجا كيم انجوكا: كى+سكين كى+صغير كى+واحد**

كى+الفعل"سقط": سقط سكين صغير.

- فيسو فيدوجو فيويلى فيم انجوكا: فى+سكين فى+صغير فى+اثنان فى+الفعل "سقط":

سقط سكينان صغيران .

تعتبر اللغة الفرنسية الظاهرة السابقة من "المجموعات الاسمية" التى تدخل فى نطاق الأعداد أكثر من الأنواع. لذا نرى أن الافتراض بكون المجموعات من نوع كى/فى: ki/vi والضمائر le/la, il/elle فى اللغة الفرنسية أو he/she فى اللغة الإنجليزية لها أصل واحد مُشترك ، أو حتى تتصل بأساس مشترك، هو أمر نوعى عارض فى علم الدلالات، وقد حدث هذا النوع من التقارب؛ لأنها سميت بنفس المصطلح الذى عُرفت به فى اللغة الإنجليزية. ورغم بساطة الأمثلة السابقة، فإنها أمثلة بليغة تدور فى فلك الحلقة المفرغة التي كما نعلم جميعاً تزداد اتساعاً كلما حرصنا على استمرارها .

إن مسألة أصل اللغات أو أصل الفروق بين اللغات هى التى تثير العلماء المُختصين: متى وكيف وأين ولماذا قام البشر بصياغة كل تلك الأبنية الرمزية للتواصل التى نستخدمها ونُبدلُها ونُعيد تشكيلها منذ آلاف السنين؟ فدراسة أسباب فقدان القدرة على الكلام وإصابات المخ المسئولة عن ذلك، توضح الارتباط بين القدرة على الكلام ووضع الوقوف، حيث إن الإنسان هو وحده الذى يتكلم، وهذا لا يعنى أن وضع الوقوف يكفى فحسب كشرط لامتلاك القدرة على الكلام، ولكن من المؤكد أنه لا تتوافر تلك القدرة بدون الوقوف منتصباً. ولا يسعنا سوى عرض بعض الافتراضات التى لا نتوقف عن تغييرها وتعديلها فى محاولة للإجابة على التساؤلات التالية: هل تم اختراع اللغة مرة واحدة فى مكان واحد ثم تكاثرت كما تتكاثر الخلايا؟ أم أن اللغة قد ظهرت فى أشكال مختلفة داخل مناطق مختلفة؟ وإذا ما صحَّت الحالة الثانية، هل كان هناك شىء فطرى يكمن داخل العقل الإنسانى ويتحكم فى إضفاء خصائص متماثلة على كل اللغات مهما بلغت درجة عمق هذا التماثل؟ ونؤكد مجدداً أن تلك التساؤلات تنطوى حقًّا على قدرٍ من الإثارة. والحقيقة المؤكدة أنه إذا ما كان هناك أساس فطرى لكل لغات العالم فلابد من اكتشافه والتوصل إليه لا الاكتفاء بتخيله فحسب.

لكننا نمتلك عدداً قليلاً من الدلائل اللازمة لإجراء مثل هذه الدراسة. فبعض العلماء يدرسون الحفريات ويقومون بأبحاث أثرية تمكِّنُهم من إعطاء فكرة تقريبية عن المواقع والأشياء. والبعض الآخر عقد مقارنة بين الأحماض النووية DNA لعشرات الكلاب والثعالب، ومن ثَمَّ توصَّل إلى التدليل على أن أصول الكلاب ترجع بصفة عامة إلى الثعالب المستأنسة منذ ما يقرب من مائة ألف عام. وفى المقابل، فإن الدلائل اللغوية المُعتَمِدة على إعادة بناء اللغات ودراسة تاريخها والتحقق من صحة القوانين الصوتية لا تحظى بالثقل نفسه؛ لأن عالِم اللغويات لا يمتلك الكثير لسبر أغوار مجال أصل اللغات. ولا سبيل للاقتناع بحل هذه المُشكلة من خلال سرد قائمة "القواعد اللغوية العالمية"[١]....

إننا نعتقد أن المثال الذى ساقه بينكر لتوضيح نظرية "الأسس والمتغيرات" هو مثال شديد السذاجة كان قد استخدمه علماء المدرسة التوليدية: يحتوى المثال على الفكرة القائلة إنه طالما أن الأسس اللغوية عالمية وفطرية، فلا حاجة بالأطفال إلى معرفة قوائم طويلة من القواعد عند تعلم لغة ما، ويكفيهم فحسب تعلُّم الثوابت التى من شأنها إحياء القواعد النحوية الفطرية الكامنة فى عقولهم. ولا تُشكِّل بالتالى الفروق بين اللغة الإنجليزية واليابانية مثاراً للاختلاف ، بل هى أحد أشكال اتحادهما، ومن ذلك مجىء الفعل قبل المفعول به واستخدام حروف الجر التى تسبق الأسماء فى اللغة الإنجليزية، على خلاف اللغة اليابانية التى يأتى فيها المفعول به قبل الفاعل وتستخدم أدوات الجر اللاحقة. وبما أنهما مُتماثلتان، فلن يكون على الأطفال سوى معرفة الثوابت التى تدور فى فلكها لغتهم، ومن ثُم يتمكنون من اكتسابها: "إنهم يستطيعون اكتساب لغتهم بكل بساطة إذا ما لاحظوا، فى أحاديث آبائهم المعتادة، وضع الفعل قبل المفعول أم بعده. فإذا ما جاء الفعل قبل المفعول مثل: كُل طعامك، يستنتج الطفل أن رأس العبارة تكون إلى اليمين. بينما إذا جاء الفعل بعد المفعول مثل: طعامك كُل، يعرف الطفل أن رأس العبارة تكون إلى اليسار." وهناك صيغة أخرى تتناول بشكل اكثر الأساس اللغوى،

(١) [تطلق هذه التسمية على أوجه التماثل الموجودة بين لغات العالم.]

حيث تشير إلى أن الأطفال الذين ما زالوا يتعلمون لغة ما، يشبهون علماء الآثار حينما نجحوا فى فك طلاسم حجر رشيد الذى يحتوى على نص مكتوب بلغتين إحداهما معروفة والأخرى مجهولة؛ واللغة المجهولة بالنسبة للطفل هى تلك التى يسعى إلى اكتسابها، فى حين أن اللغة المعروفة تكمن داخل عقله. إلا أنه لم يحدد لنا إذا ما كان الطفل يمتلك دليلاً فطرياً لقواعد تكوين العبارات كى يساعده على تعلُّم لغته، أو إذا ما كان مُجبراً على تناول نوع محدد من الطعام الذى يتوافق مع اللغة التى يتعلمها فيسهل عليه اكتسابها!!!....

وبعيداً عن تلك الأفكار الساخرة، نلاحظ أن كل هذه المسائل ترتبط فى الواقع بحقيقتين عالميتين: تتمثل أولى السمات اللغوية العالمية فى كون الإنسان يتكلم، لأنه امتلك أبنية رمزية شفهية، وهو ما يقودنا إلى الحقيقة الثانية ألا وهى أن كل لغات العالم عبارة عن سلسلة خطية مُتوالية ومتتابعة، لأن الإنسان يعجز عن نُطق صوتين فى آنٍ واحد، ولا يسعه بالتالي سوى نُطق الواحد تلو الآخر. وهذه المُتوالية المتتابعة التى تُسفر عن تكوين الأصوات ثم الكلمات ثم العبارات هى فى حد ذاتها المُحرك الرئيسى لمظاهر الاختلاف الكبرى بين اللغات[(١)]. فقد اختار المُتكلمون فى الواقع نظامين رئيسيين لتحديد العلاقات بين عناصر الحديث. يستند النظام الأول إلى ترتيب هذه العناصر فى نسق ثابت؛ ففى اللغة الفرنسية على سبيل المثال، نجد بشكل عام أن الفاعل يأتى قبل الفعل ويتبعهما المفعول، لكن فى لغة البمبارا Bambara التى يتحدث بها سكان مالى، يأتى الفاعل قبل المفعول به الذى يقع بين الفعل المُساعد والفعل الرئيسى. ورغم اختلاف ترتيب هذين النسقين، فإنهما يستندان إلى أساس واحد هو تحديد الوظائف اللغوية من خلال ترتيب ثابت:

اللغة الفرنسية:	هو يشترى حصان	Il achète un cheval
	فاعل+ فعل + مفعول به	sujet + verbe + objet

(١) هناك بالتأكيد استثناء لهذه السمة العالمية: فلغة الإشارات التى يستخدمها الصم والبكم تمتد من هذا الإطار إلى الإطار المكانى.

لغة البمبارا: a bé so san

sujet + aux + verbe + objet

مفعول به + فعل + فعل مُساعد + فاعل

ويعتمد النظام الثانى على إضافة بعض العناصر التى من شأنها توضيح وظيفة الكلمة، وهذا ما نطلق عليه اسم الحالة الإعرابية؛ ففى اللاتينية واليونانية والعربية الفصحى والروسية والألمانية يُمكن تغيير ترتيب الكلمات؛ لأنها تحتوى على علامات إعرابية توضِّح وظائفها اللغوية. وفى اللغة اللاتينية على سبيل المثال لا يمكن استخدام كلمة rosam أى "الوردة" سوى كمفعول به يوضع قبل الفعل أو بعده. وإذا ما تناولنا المثال التالى فى اللغة العربية:

دخل الرجلُ الدارَ

نلاحظ أن الفعل (دخل) يسبق الفاعل (الرجلُ) الذى يسبق المفعول به (الدارَ)، وتدل علامة الرفع "الضمة" على الفاعل، فى حين تدل علامة النصب "الفتحة" على المفعول به، أى لا يتم تحديد الوظائف اللغوية من خلال ترتيب العبارة الذى يمكن تغييره. لكن تقسيم اللغات وفقًا لهذين النظامين هو تقسيم لغوى تزامُنى. وإذا درسنا تطور اللغات سنلاحظ أن بعضها قد انتقل على مر التاريخ من نظامٍ إلى آخر، ومن ذلك اللغة الفرنسية والإنجليزية اللتان شهدتا فى عهود سالفة وجود الحالات الإعرابية، حيث نذكر منها على سبيل المثال هاتين الحالتين فى اللغة الفرنسية القديمة:

li murs (le mur, sujet) le mur (le mur, objet)

الجدار: مفعول به الجدار: فاعل

li mur (le murs, sujet) les murs (les murs, objet)

الجدران: مفعول به الجدران: فاعل

ويتضح هذا الاختلاف الشكلى بين الفاعل والمفعول به بصورة أكثر فى الأمثلة التالية:

- لص (فاعل)/ لص (مفعول به): lerre/larron (voleur)

- سلف (فاعل)/سلف (مفعول به): ancestre/ancessor (ancêtre)

- نبيل (فاعل)/نبيل (مفعول به): cuens/comte (comte)

- شاعر غنائى (فاعل)/شاعر غنائى(مفعول به): (trouvère) trovere/troveor

وقياسًا على ذلك، إذا ما افترضنا أن اللغة العربية الفصحى كانت لغة إعرابية، فسوف نتوصل إلى أن كل اللهجات العربية المُعاصِرة هى من اللغات ذات الترتيب الثابت التى شهدت استبدال النظام الإعرابى بأبنية أخرى تحليلية. ووفقًا لحدود علمنا، لا يوجد دليل أو أمثلة على حدوث تطور عكسى بشأن تحوُّل لغة ذات ترتيب ثابت إلى لغة إعرابية. ومن ثَمَّ، إذا ما ربطنا بين افتراض وجود أساس فطرى واحد لكل اللغات وكون اللغات الإعرابية تميل إلى التطور باتجاه نظام الترتيب الثابت، فيتحتم علينا التوصل إلى أن النظام الإعرابى هو الأقرب لهذا الأساس الافتراضى، ولا سيما أنه لا يوجد ما يحول دون الاعتقاد فى أن اللغات ذات الترتيب الثابت قد استندت فى مراحلها الأولية إلى النظام الإعرابى.

كيف يمكن بالتالى التحقق من صحة هذا الافتراض؟ فعلى سبيل المثال، رغم كثرة الوثائق القديمة المكتوبة باللغة الصينية لا يبدو أنه يوجد بها ما يؤكد صحته. إلا أن اللغات القديمة، التى تُعد من آثار التعقيد وعدم الانتظام، تميل بوضوح نحو التنظيم والتبسيط، كما تتحقق هذه النزعة فى اللغات الناقلة، مما يؤكد أن اللغات قد شهدت فى الأساس قدراً كبيراً مما يمكن أن نطلق عليه اسم الإصلاحات الترميمية. ولدينا انطباع واضح بأن مُمارسات التواصل قد اتجهت على مر العصور إلى "تزيين" بعض الأشكال اللغوية غير المُكتملة. ومن ثَمَّ، فإن افتراض نظرية "الأسس والمتغيرات" لم يأخذ فى اعتباره اللغويات التعاقبية أو التطورية، ولم يعر اهتمامًا لتغيُّر اللغات: هل شهدت القواعد النحوية الفطرية أية تغيُّرات؟ وهل ما زالت المتغيرات فى حاجة إلى التطور؟ إن عالِم اللغويات يتمنى تجاوز حدود الزمان والعيش إلى الأبد، كى يشهد مُباشرةً مراحل تطور موضوع دراسته. وبيد أنه قد يسعنا مراقبة آلاف الأطفال عند اكتسابهم إحدى اللغات، فإننا لن نستطيع مطلقًا أن نشهد مُباشرةً ميلاد لغة ما، وذلك باستثناء لغات الكريول الهجين، وهى مثال بعيد إلى حد ما سنتناوله فيما بعد.

وتعود مجدداً إلى مقولة داروين التى استشهد بها بينكر، والتى أثارت اهتمامنا رغم ما بها من مغالطات؛ لأنها تفترض عدم إمكانية إحياء لغة مُندثرة، على خلاف حالة اللغة العبرية التى تؤكد عدم صحة هذه الفكرة، ويبد أن هذه الحالة هى فعل إرادى، إلا أنه كان يتعين على هذه النظرية أخذها فى الاعتبار. ومن المؤكد أن توسيع نطاق بعض اللغات السائدة يستوجب انقراض بعض اللغات الأخرى بصورة تدريجية، وهو أمر يتسم بالبطء أو قد لا يحدث على الإطلاق، والدليل على ذلك لغة البربر التى استمرت فى الجزائر والمغرب رغم عشرات القرون من الحكم العربى.... وتسهم بصفة خاصة علاقة التشابه بين اللغات والأجناس فى إثارة خيالنا، وتقودنا إلى رؤية الأمور من منطلق آخر لا يستند إلى الأصل المُشترك أو القواعد النحوية الفطرية، لما لها من معانٍ أيديولوچية، بل يستند إلى منظور إيكولوچى بيئى يوضح العلاقات بين اللغات، وسنسعى إلى إرسائه على صفحات هذا الكتاب.

إن هذا المنظور الذى نتناول من خلاله اللغات فى بيئتها يستلزم عرض وتحليل كل ما يساعد على عملية التواصل. فقد احتاج علم اللغويات فى بداياته إلى تحديد مجال دراسته، مما أسهم فى تحويل بعض المُمارسات إلى قوالب جامدة، كما ظهرت النظرية التركيبية اللغوية لتلبية الحاجة إلى اختراع لغة ما، دون إدراك ما آلت إليه اليوم من كونها صارت أسيرة اختراع هذه اللغة. وليس من الحكمة فى شىء تأييد المُتمسكين بعلم اللغويات الوظائفى أو النظرية التوليدية؛ لأنهم ما زالوا يتخذون بعض الأمور العارضة كحقائق مُسلَّم بها، بل يضعون بعض المُمارسات فى قوالب مُتحجِّرة. فاللغة ليست شيئًا مُنفصلاً، وعملية التواصل لا تقتصر فحسب على مجموعة المُتواليات الصوتية. ولنتأمل المشهد التالى لتوضيح هذه الفكرة: سائق وراكب يتحدثان داخل سيارة مُتوقفة أمام إشارة حمراء، وفجأة يقول الراكب إن الإشارة قد تحولت إلى اللون الأخضر، فيشرع السائق فى التحرُّك. ويضم هذا المشهد البسيط على أقل تقدير أربعة عناصر مُتتابعة تنبثق عن عملية التواصل :

– جهاز إلكترونى يعطى إشارة ضوئية عن طريق تحوُّله من اللون الأحمر إلى اللون الأخضر.

- ملاحظة شخص ما لهذه الإشارة.

- قيام هذا الشخص بتوصيل هذه المعلومة لرفيقه بصورة شفهية.

- يتفاعل هذا الرفيق مع المعلومة التى وصلته، فيدير المُحَرِّك ويحرك عصا السرعة، ثم ينطلق بالسيارة.

فبأى حق إذن نفصل بين كل هذه السلوكيات المُتتابعة ومُتوالية إرسال الأصوات؟ وتأتينا الإجابة على هذا التساؤل من قِبل الذين يعتقدون فى ضرورة فصل أداة التواصل الشفهى أى اللغة، عن عناصر التواصل غير الشفهى أى علم الرموز "السيمياء"، حيث تنحصر هذه الفكرة داخل إطار تلك النظرية التى تتناول اللغة كشىء مُنفصل، وتعتبرها كأداة للتواصل فحسب. لذا يتعين علينا أن ندرك أن مفهوم اللغة لا يتعدى كونه نموذجًا نافعًا ومُنتقصًا على حدٍ سواء، ويجب أن نتوخى الحذر كيلا نصبح أسرى للنماذج التى نستخدمها. واللغة ليست مُجرد آلية كما يحلو لبعض المُفسرين أن يصفوها، ولا تتطور باستخدام أدوات ميكانيكية، ولا يمكن كذلك عزلها عن الحياة الاجتماعية. فاللغة هى إحدى المُمارسات الاجتماعية فى قلب الحياة الاجتماعية، وهى إحدى المُمارسات العديدة التى لا تنفصل عن بيئتها. وتلك هى القاعدة التى سنستند إليها عند تناولنا للغات العالم من خلال المنظور الإيكولوجى مُمارسات التواصل .

الفصل الأول

إيكولوچيا اللغات

يجب أن يدرك القارئ أن عنوان الكتاب الذى يشتمل على كلمة "إيكولوچيا" لا يعنى أن هدفنا الرئيسى هو الدفاع عن حقوق اللغات، أو الدعوة إلى الحفاظ على بعض اللغات المُهددة بالاندثار، أو ما شابه ذلك من أمور، رغم أن ما سنعرض له من دراسات تحليلية قد تنطوى على مثل هذه الأهداف. إلا أن بعض المؤلفين قد سعوا إلى استخدام فكرة "الإيكولوچيا" اللغوية لأهداف دفاعية. وقد تعرَّض هوجن Haugenلانتقادات سلزو الڤارتز كاكامو Celso Alvarez Caccamo ؛ بسبب عدم اهتمامه بتلك المسائل ، حيث قال: "تقتصر الإيكولوچيا لدى هوجن على مجال المعرفة اللغوية، دون التطرق إلى تأثير الإيكولوچيا اللغوية على تنظيم حركة التنوع اللغوى". لكن قبل التوقُّف عند التداعيات الدفاعية لوجهة النظر العلمية، ولا سيما بالنسبة لآراء كاكامو بهذا الصدد (مشكلة الدفاع عن اللغة الجاليسية[١] galicien) ، لابد من وضع أسس الرؤية التى نحاول إرساءها فى هذا الكتاب، حيث لا يعنى مصطلح "الإيكولوچيا" مجرد الدفاع عن الأجناس المُهدَّدَة، بل هو نتاج البحث عن نموذج توضيحى. لقد رأينا أن كل النماذج المُستخدمة ليست سوى تشبيهات بلاغية، وسنبدأ بالتوسع فى تفسير ما يعنيه هذا التشبيه البيئى أو الإيكولوچى فى مجال اللغويات .

يمكن تصوير مختلف أطوار الحياة باعتبارها سلسلة مُتراصةً تبدأ بالخلية كأبسط كائن حى، تليها الكائنات المُتعددة الخلايا التى تتجمَّع فى مُستعمرات أو جماعات تُشكِّل

(١) [لغة رومانية تقترب من البرتغالية، ويتحدث بها سكان منطقة جاليسيا فى شمال غرب إسبانيا.]

بدورها المجموعات السكانية التى تجمع أفراد الجنس الواحد، وتتجمع هى الأخرى فى وحدة حيوية بيولوجية تعيش فى محيط جغرافى ملائم، حيث يَتكوَّن النظام البيئى لكل وحدة حيوية، ويشكِّل مجموع هذه الأنظمة البيئية فى نهاية الأمر النظام البيئى الشامل لسطح الكرة الأرضية. وهنا يظهر دور علم البيئة أو "الإيكولوچيا" فى دراسة المستويات العليا لهذه السلسلة المُركَّبَة ، بدءاً من المجموعات السكانية وانتهاءً بكل عناصر النظام البيئى لكوكب الأرض .

وقياسًا على ذلك، تفترض "إيكولوچيا" اللغات وجود مستويات مختلفة للدراسات التحليلية، وأعلى هذه المستويات هو مستوى النظام العالمى الشامل للعلاقات بين اللغات، ونموذج التجاذب الذى سنعرض له فى الفصل الثانى هو تطبيق واضح لهذه المعالجة. وفقًا للتشبيه الذى نعرض له، يناظر هذا النظام العالمى نظام البيئة الأرضية بأكملها، ويتكوَّن من سلسلة متدرجة من الأنظمة التى تتدرج تحته، كما هو الحال بالنسبة للأنظمة البيئية المختلفة التى تشكِّل النظام البيئى العام للأرض. فاللغات الموجودة بأحد الأنظمة البيئية اللغوية تتصل مع بعضها البعض بمجموعة من الروابط تحدد لكل منها محيطًا بيئيًا يتشكل من خلال علاقة هذه اللغة باللغات الأخرى والمكانة التى تحتلها فى النظام البيئى، أو بعبارة أخرى يتشكل محيط كل لغة من خلال وظائفها وعلاقتها بالبيئة الذى تتواجد فيها، ولاسيما علاقتها بالعنصر الجغرافى الذى يضطلع بدور رئيسى فى تحديد مدى انتشار اللغات .

وخلاصة القول إن المُمارسات التى تشكل اللغات من جهة والبيئة المُحيطة بها من جهة أخرى، تكوِّن نظام البيئة اللغوية، حيث تتكاثر اللغات وتتشابك وتتغيَّر وتؤثر كل منها فى الأخرى بل تتنافس أو تتقارب، وهناك علاقة داخلية تربط بين هذا النظام والبيئة. واللغة تتعرض فى كل لحظة لمؤثرات خارجية تتكيف معها، حيث نعتقد أن عملية الضبط اللغوى ليست سوى رد فعل لمؤثر خارجى يحدث تغييراً داخل اللغة من أجل تحييد آثار هذا المؤثر، مما يعد فى نهاية الأمر أحد أشكال الاستجابة للبيئة. وهذه الاستجابة هى محصلة عدد من ردود الأفعال الفردية والبدائل اللغوية التى تؤدى بمرور الأيام إلى انتقاء

بعض الأشكال والسمات. فهناك إذن حركة انتقاء بيئى تؤثر فى تطور اللغة، وهذا ما سنعمل على تحليله فى الفصل الثالث.

يتناول علم البيئة "درجة احتمال الأجناس"، أى قدرة كل جنس على شغل عدد من البيئات المختلفة، وهى قدرة تتعرض للزيادة أو النقصان أو التغير بفعل بعض "العوامل المُواتية"، أى العوامل التى تسهم فى المحافظة على النوع إذا ما ظلت فى الحدود المسموح بها؛ لأن كثرتها أو انخفاضها بصورة شديدة يهدد حياة الأجناس. ومن هذا المُنطلق، فإن وجود أحد الأجناس فى بيئة ما يرتبط بمدى احتماله لظروف هذه البيئة خلال مروره بأطواره الدقيقة. فعلى سبيل المثال، تنخفض درجة احتمال أحد الأجناس الحيوانية خلال أطواره الأولية، وتزيد عند بلوغه الأطوار النهائية. وقياسًا على ذلك، قد تتعرض بعض اللغات لحالات من الوهن أو القوة، بفعل بعض العوامل المؤثرة، مثل عدد مُتكلميها، ووظائفها الاجتماعية الطبيعية، ووظائفها الرسمية القانونية، وعلاقتها باللغات الأخرى، وإخضاعها لعمليات التقنين، ...إلخ. فهناك إذن مجموعة من العوامل منها ما تتحقق له السيادة، فى حين تحد العوامل الأخرى من آثاره أو تصحح مساره .

إذا ما سلَّمنا على سبيل المثال بأن وجود لغة ما مرهون بوجود المُتحدثين بها (أمر بديهى)، فإن التناقص الشديد فى عدد هؤلاء المُتحدثين لابد أن يهدد وجود هذه اللغة (أمر آخر بديهى). لذا فإن معدل انتقال لغة ما هو أحد العوامل الهامة لتحليل نظامها البيئى، وهذا ما سنعرض له فى الفصل الخامس. لكن مفهوم "العوامل المُواتية" ينطوى أيضًا على أن الزيادة المفرطة فى عدد المتحدثين بلغة ما تهدد وجود هذه اللغة، وهذا أمر يصعب إدراكه، بل يبدو متناقضًا. والتاريخ يوضح لنا أن اتساع رقعة اللغات يؤدى فى نهاية الأمر إلى انشطارها؛ فالوجود الحالى للغات الفرنسية والإيطالية والإسبانية أو للغات العربية المصرية والتونسية والمغربية، هو نتاج الانتشار الواسع لكل من اللاتينية والعربية على امتداد أراض شاسعة؛ مما أسفر عن تكاثر عدد المُتحدثين بهاتين اللغتين، حيث تجاوز أحد العوامل المواتية "عدد المتكلمين" الحد الأقصى المسموح به. ومن ثم فقد تجعلنا إيكولوجيا اللغات نتوقع اتجاه بعض اللغات المعاصرة ذات الانتشار العريض، مثل

الإنجليزية والفرنسية والإسبانية، نحو الانشطار واتخاذ أشكال أخرى مختلفة، إلا أن بعض العوامل الأخرى قد ساهمت فى تصحيح مسار هذا العامل؛ فاللغة النموذجية والرسمية والمُتمركزة هى الأكثر مقاومةً لعامل الزيادة المفرطة فى عدد المُتكلمين بها، على خلاف اللغات التى تحظى بقدر أقل من المركزية أو المكانة الرسمية.

يمكن تصحيح آثار العامل السائد من خلال عامل آخر يتمثل فى تمثيلات المتكلمين بشأن اللغات، ونعنى هنا عامل "التمثيلات" الذى سنتناوله فى الفصل الرابع. ولنذكر مثالين صغيرين؛ أولهما لغة البول (الفولفود) Peul (fulfude)، وهى لغة تنتشر على نطاق واسع شهد وجود علاقة تماس بينها وبين بعض اللغات الأفريقية الأخرى (الهوسا haoussa والمنديج mandingue الزرمازنغى zarmasonghay)، حيث ظهرت داخل أنظمة بيئية لغوية مختلفة؛ مما أثر على شكلها اللغوى، ولاسيما بسبب ما اقتبسته من اللغات المجاورة لها، بل بسبب تمثيلات المتكلمين بشأنها. وفى بحث أجراه سلاماتو الهاسومى سو Salamatou Alhassoumi Sow على المُتكلمين فى النيجر، أشار إلى أن "الفرع الشرقى للغة الفولفود، أى "الفولفود- الهوسا"، هو بمثابة لغة البول لسكان الهوسا والبورنو، لا لمجرد وجوده فى بلادهم، ولكن لكثرة ما استعاره من لغتهم (أكثر من ٣٠٪ من مفردات اللغة). ومن هنا لا تحظى لغة الفولفود-الهوسا بمكانة جليلة؛ وعلى حد قول البعض، فإن لغة البول تعانى فى هذه المنطقة من أشد حالات السقم. وأضاف سو قائلاً: "إن لغة البول التى تجاور لغة الزارما zarma لا تحظى فى هذه المنطقة بالوضع ذاته الذى تتمتع به تلك التى تجاور لغة الجرمانتشى gourmantché ؛ لأن النفوذ الاجتماعى والتاريخى للشعب المجاور يؤثر على مدى تقدير أنواع الكلام ."

ولننتقل إلى المثال الثانى الذى يتناول طريقة الناطقين بلغة الولوف فى دكار بالسنغال، من خلال وصف المُتكلمين عن طريق وصف اللغات أو الأشكال اللغوية، حيث يميزون بينهم عن طريق سلوكياتهم اللغوية، وهم ينقسمون إلى مجموعات ومجموعات فرعية تستند إلى فروق التطور اللغوى أو الاختلافات الاجتماعية. فقد شهدت فترة الاستعمار على سبيل المثال السخرية ممن كان يسمى بالـ"الچاكسات الأبيض"

tubaab jaxate ، و"چاكسات" هو لقب إحدى عائلات الولوف(١). لكن هذا التعبير كان يهدف إلى وصف من يفرط فى التشبُّه بالرجل الأبيض ومحاكاة حركاته وملابسه وطريقة كلامه؛ فيثير سخرية من حوله، بل يدفعهم إلى التعبير عن ذلك بقولهم: tubaab dàal sang kawas أى "الچالكست الأبيض الذى يرتدى الحذاء بدون جوارب". أمَّا فى الوقت الحالى، فيُطلق هذا التعبير على "المُتباهين" أو "المُدَّعين" "الذين ينطقون حرف الـ Rالفرنسى كالباريسيين، ويتحدثون لغة الولوف مستخدمين هذا الحرف، وكأنهم يعجزون عن استخدام لغتهم بدون إقحام اللغة الفرنسية". وفى المقابل، نجد أطفال دكارbooy-Dakar الذين يتحدثون لغة الولوف مع إثقالها بالكلمات العامية. كما نجد فئة المزارعين والريفيين kaw-kaw والوافدين الجدد wàac-bees الذين يتميزون بعدم خلط لغتهم باللغة الفرنسية على الإطلاق، وقد تكون هذه سمة إيجابية "لأنهم يتحدثون لغة الولوف الحقيقية ويحافظون على لهجتهم النقية"، أو تكون سمة سلبية "لأنهم يتحدثون لغة معقدة يصعب فهمها".

ومن ثَمَّ، ينقسم سكان هذه المنطقة وفقًا للتمثيلات اللغوية إلى نموذجين متقابلين: هناك النموذج اللغوى التطورى الذى يستند إلى التمييز بين "المُتباهين القدماء" فيما سبق و"شباب المُدَّعين" حاليًا، والنموذج اللغوى التزامنى والاجتماعى الذى يقسم السكان إلى عدة فئات هى "المُتباهين" و"أطفال دكار" و"المزارعين" و"الوافدين الجدد". وقد أشار ندياسيه تيام Ndiassé Thiam إلى إمكانية دراسة الأحياء التى نشأ فيها "أطفال دكار" لوضع تصنيف آخر أكثر دقة وأكثر تمييزًا للفروق الاجتماعية بين أطفال الحى الراقى لوبلاتو booy-Plato الذى كان مقرًا للاستعمار، وأطفال حى المدينة booy-Medin الذى يعد حيًا أفريقيًا صميمًا .

سوف نتعرض بصورة أكبر لمسألة التمثيلات اللغوية فى الفصل الرابع. وسنكتفى فى الوقت الحالى بالإشارة إلى أنه فى أى نظام بيئى لغوى يحتوى على لغة مركزية تنتشر

(١) يمكننا تصور وجود معادل لهذا التعبير، مثل مصطلح "anglais Dupont" الذى يستخدم للإشارة إلى الفرنسى الذى يتكلف التحدث باللغة الإنجليزية، بل يتحدثها بطريقة سيئة...

على نطاق واسع، قد يتبنى المُتحدثون بلغات طرفية[1] سلوكيات رافضة فى مواجهة هذه اللغة، تمليها عليهم اعتبارات تنبثق عن أفكار أيديولوجية بل لاشعورية. وهذا ما ينطبق مثلاً على متكلمى التشيكية والمجرية والبولندية ...الخ فى مواجهة اللغة الروسية قبل سقوط حائط برلين. إلا أننا قد نجد على النقيض تماماً لغة ما يستخدمها عدد قليل من المتكلمين الذين يعتقدون فى أهمية الحفاظ عليها، لأسباب تتعلق بالهوية أو الدين أو ما إلى ذلك، مما يساعد على بقائها بيد أن قلة عدد متكلميها لا تنذر بذلك .

يختلف نطاق النظام البيئى، وفقًا لمنظور كل باحث على حدة، بدءًا من نقطة المياه، وانتهاءً بالعالم أجمع، ومروراً بالمستنقعات الصغيرة والحدائق والغابات والمدن والدول...الخ. وما يعنينا هنا هو تناول نظام اللغات العالم على اختلاف مستوياتها، ولا سيما أنها تشبه الأجناس التى تنقسم إلى جماعات سكانية، وترتبط بعلاقات ثابتة مع البيئة المحيطة بها، بل تتطور نتيجة لتفاعلها مع المؤثرات التى تطرأ على هذه البيئة .

وسنعمد فى الصفحات التالية إلى توضيح هذه المبادئ التى يستند إليها هذا الكتاب، مع عرض بعض الدراسات التحليلية الملموسة والمحدودة، قبل التعرض فى الفصل الثانى للمسائل النظرية. ويكفينا حاليًا الوقوف على جدوى استخدام المنظور البيئى فى تناول اللغات .

المظاهر اللغوية لإبراز الهوية وانعكاساتها اللفظية الداخلية والخارجية

حَرِىٌّ بنا أن نبدأ بالعبارة التالية التى وردت فى إحدى المقالات الصحفية الفرنسية :

المثال الأول :

"Dans la pigeot, rigole Farid, ça sentait les pieds de Malik. C'est un gros hallouf, çui-là. La vie d'ma mère, j'repars pas avec lui. "

(١) سيتضح معنى هذين المصطلحين فى الفصل التالى .

"أخذ فريد يمزح قائلاً: كانت السيارة البيچو معبأة برائحة أقدام مالك. وحياة أمي، لن أسافر مرة أخرى مع هذا الحلوف."(١)

تختلف العبارة السابقة إلى حدٍ كبير عن اللغة الفرنسية النموذجية. فعلى المستوى اللفظي، نلاحظ عدم نطق كلمة "بيچو" (pigeot) على النحو الصحيح (Peugeot) بحيث تعني السيارة الفرنسية المعروفة، وكلمة "حلّوف" (hallouf) هي إحدى الكلمات المقترضة من اللغة العربية العامية المغربية، كما تمثل صياغة التركيب (la vie d'ma mère) محاكاة للتعبير العربي "وحياة أمي". فكل هذه المؤشرات المجتمعة في عبارة المُتكلم فريد(Farid) تقودنا نحو تفسير بسيط، ألا وهو أننا أمام لغة فرنسية بها عناصر دخيلة؛ لأن أحد ناطقي اللغة العربية قد نقل إلى اللغة الثانية، أي اللغة الفرنسية، العادات اللغوية التي اكتسبها من لغته الأولى. إلا أن التحليل الدقيق لهذا الوضع يثبت عدم صحة هذا الافتراض. فإنه لا يوجد باللغة العربية ما يماثل الـ (oe) الذي يميل المغاربة إلى نطقه كحرف الـ (i)، ولا يوجد كذلك حرف الـ (p) الذي ينطقه غالبية العرب كحرف الـ (b)؛ فينطقون "باريس" (baris) بدلاً من "پاريس" (Paris) على سبيل المثال. لكن فريد كان ينطق على النحو الصحيح صوت الـ (p) المهموس في مطلع كلمة بيچو، بل نجح في نطق سلسلة طويلة من الصوت (oe)، ولا سيما عند نطق بعض الكلمات التي يعكس فيها المقاطع الصوتية، كأن يقول موف (meuf) بدلاً من فامّ (femme) التي تعني "المرأة"، وتوف (teuf) بدلاً من فات (fête) أي "العيد" ...إلخ.

المثال الثاني :

"Je vais rester une semaine ou dix jours, peut-être plus. Ca dépend si ça délire bien, si y'a du soleil, des bonnes teufs et des petites meufs."

(١) تتبع أحد صحفيي جريدة "ليبراسيون" مجموعة من الشباب الذين جاءوا لقضاء عطلتهم في إحدى المناطق الباريسية، وحرص على تدوين طريقة كلامهم، حيث ورد هذا المثال في إحدى مقالاته الصحفية.

"سأبقى لمدة أسبوع أو عشرة أيام، وربما أكثر من ذلك، إذا ما كان الجو منعشاً والشمس ساطعة، وإذا ما أُقيمت الحفلات ووجدت النساء..."

نلاحظ فى هذا المثال عكس المقاطع الصوتية التى كان يجب أن تكون كما يلى:

(... des bonnes fêtes et des petites femmes) .

المثال الثالث :

"Téma les seins de la meuf, là, derrière la grosse. Sur la tête de ma mère, jamais ma meuf elle montrera ses ins comme ça. "

"يستنكر المتكلم هنا إظهار إحدى السيدات لثدييها قائلاً إن والدته لم تكن لتُقدِم على هذا الفعل ."

يحتوى هذا المثال كذلك على بعض المقاطع الصوتية المعكوسة، وتصحيحها كالتالى :

("Mate les seins de la femme, là, derrière la grosse. Sur la tête de ma mère, jamais ma femme elle montrera ses seins comme ça. ")

ومن هنا، ننتقل إلى افتراض آخر يتمثل فى كون المُتكلم قد غيَّر من شكل اللغة الفرنسية، وأضفى عليها بعض السمات الخاصة بذوى الأصول المغربية، حيث نجده ينطق كلمة "بيچو" بالطريقة المميزة التى يُعرف بها العمال المهاجرون المغاربة، وهى طريقة تعتبر من الأشكال الكاريكاتورية. ومن أجل دعم هذا الافتراض، لابد من دراسة البيئة المحيطة بكل هذه الأمثلة. فهناك العديد من الشباب الفرنسيين من ذوى الأصول المغربية، الذين قد ولِدوا فى فرنسا لآباء ولِدوا فى المغرب أو تونس أو الجزائر، مما أحدث ما يشبه الفجوة فى قلب النسيج الاجتماعى لهذه الجماعة، وذلك وفقًا لمصطلح دراسات علم الاجتماع المأخوذة عن مدرسة شيكاغو .l'Ecole de Chicago إن هؤلاء الشباب لا يجيدون ثقافة آبائهم ولا ثقافة الدولة التى استقبلتهم؛ مما يعرضهم إلى بعض المتاعب، كالفشل الدراسى، والشعور بفقدان الهوية، وعدم الأمان، وما إلى ذلك من

أمور مماثلة. ومن ثم، فإنهم يعمدون إلى إعادة بناء أنفسهم والتفاعل مع البيئة المحيطة بهم، وفقًا لتمثيلاتهم الذاتية بشأن رؤية الآخرين لهم، وهى رؤية قد تنبع من فكر عنصرى أو فكر رافض لوجود هؤلاء الأشخاص؛ مما يقودهم نحو تكوين ثقافتهم الخاصة، من خلال انتهاج بعض الأساليب التى تُعبِّر عن هويتهم، كطريقة الملبس، وممارسة بعض الأنشطة الموسيقية المختلفة مثل موسيقا الراب، واستخدام بعض النقوش المميزة فى فن الرسم، ومزاولة بعض الألعاب الرياضية التى يشتهرون بها ككرة السلة وكرة القدم ، التى يمارسها شباب الطبقات الشعبية، وأخيراً يتجلى حرصهم على الاختلاف من خلال اللغويات التى يستخدمونها. وهكذا، تعكس هذه العبارات المتأثرة باللغة العربية رغبة المتحدثين فى تغيير اللغة الفرنسية بإضفاء ما يُعبِّر عن هويتهم، بغية الإشارة إلى أصولهم التى تصير شيئًا فشيئًا بمثابة الأساطير المتجمدة والمتحجرة فى عدة كلمات أو مصطلحات لا أكثر ولا أقل.

ومن ثَمَّ، تقتصر وظيفة هذه التجميعات اللغوية على تحقيق الهوية الذاتية، بل يُعد ذلك من الحقائق العالمية الفعلية التى نجدها فى العديد من المجتمعات الأخرى. وهذا ما نلاحظه لدى الفرنسيين الذين يستخدمون بعض الكلمات الشائعة فى الأقاليم التى ترجع إليها أصولهم، ككلمتى pitchoun أى "الطفل الصغير" و fan de الشائعتين فى إقليم بروفانس Provence، وغيرها من الكلمات الأخرى التى يستخدمها ذوو الأصول البريتانية أو الجزائرية. فكلمة "حلوف" على سبيل المثال يستخدمها على حد سواء الفرنسيون ذوو الأصول الجزائرية والشباب ذوو الأصول المغربية. لذا نلحظ فى المثال الأول أن "فريد" يتحدث بالطريقة التى يفضل أن تكون عليها لغته الفرنسية، وهذا هو حال بقية الفرنسيين من ذوى الأصول المختلفة.

ورغم بساطة اللغة الفرنسية "الذاتية" التى يستخدمها أبناء المهاجرين المغاربة وسهولة فهمها وشرحها، فهناك بعض الأشكال اللغوية الأخرى الأكثر تعقيداً التى يمكن تحليلها فى نفس الإطار، مثل لغة النوشى nouchi التى سنعرض لها فى المثال الرابع(١)، وهى أحد الأشكال اللغوية التى استخدمها بعض الجانحين فى كوت دى ڤوار، ثم ذاع

(١) ساق لى هذا المثال الطالب دنيس ڤانو Denis Vanou الذى كنت أُدرِّسُ له فى جامعة سنجور بالإسكندرية .

استخدامها بين جموع الشباب فى هذه المنطقة. وتقوم هذه اللغة على القواعد النحوية الفرنسية، لكنها تستخدم مفردات مُغايرة ومعقدة .

المثال الرابع:

عند مثول اثنين من الجانحين أمام إحدى محاكم أبيدچان لاتهامهما بسرقة حافظة أحد المواطنين، طلب منهما القاضى توضيح موقفهما، فأجاب أحدهما قائلاً:

"*Draman*! En façon que depuis deux jours nous a pas *badou*, on est là se promener, voilà *gawa* qui est courbé, son bé est sorti. En façon que moi j'ai gnou le bé *et* j'ai donné ça à Périco. On est là *fagne*, po *baabiê* là est venu *djo* les gens. C'est ça on est là ! "

لن يستطيع متكلمو اللغة الفرنسية النموذجية سوى فهم عدة أجزاء من النص السابق، دون التمكن من الوقوف على المعنى العام للفقرة بأكملها؛ بسبب وجود العديد من المفردات (المكتوبة بالخط العريض) والصيغ الجُمَلِيَّة التى يجهلونها . فنجد على سبيل المثال بعض الكلمات الفرنسية التى تم تحريف معناها، كاستخدام كلمة **draps** بمعنى "مُضايقات"، كما نجد بعض الكلمات التى تعرضت للاختصار ككلمة **po** بدلاً من **policier** أى "الشرطى". وهناك كذلك العديد من الكلمات المقترضة من لغات أفريقية أخرى، ككلمة **gawa** المستخدمة فى بوركينا فاسو، للدلالة على المناطق البعيدة عن العاصمة، حيث تعنى "الفلاح" و"ساكن الأدغال" فى آن واحد، بالإضافة إلى كلمة **baabiê** التى استخدمها المُتكلم لسَبِّ الشرطى، بل هناك بعض الكلمات التى لم نتمكن من الوقوف على أصولها مثل **badu** أى **manger** وتعنى "نأكل"، و' **fagne** أى **se sauver** وتعنى "إنقاذنا"، و **bedu** أو **bé** أى **portefeuille** وتعنى "حافظة"، و **djo** أى **attraper** وتعنى "القبض على"، و **gnou** أى **voler** وتعنى "يسرق" ...الخ. وهكذا يتضح المعنى العام للفقرة السابقة على النحو التالى :

"أيها القاضى، إننا لم نأكل منذ يومين. وفى أثناء تجولنا، لاحظنا أحد الفلاحين يقف منحنياً، وحافظته تتدلى من جيبه، فأسرعت بسرقتها، ثم أعطيتها لزميلى بيريكو، وشرعنا فى الهرب، لكن هذا الشرطى الدنىء ألقى القبض علينا، وها نحن أمامكم."

وتبقى أمامنا الصيغ الجُمَلِيَّة غير المعتادة مثل En façon que, qui est courbé, C'est ça on est là ! التى نتجت عن التداخل بين اللغة الفرنسية واللغات الأفريقية، فتعبير en façon que الذى يعنى "وبهذه الطريقة"، ما هو سوى محاكاة حرفية للتعبير "كوجو مِن" cogo min فى لغة الديولا Dioula . إلا أن كل هذه التفسيرات التى أتاحت لنا ترجمة المثال الرابع تجيب على تساؤل واحد فحسب هو: ماذا يعنى هذا النص؟... دون الإشارة إلى أسباب استخدام هذه الطريقة فى الحديث. ورغم أننا نستطيع بكل تأكيد وضع افتراض بشأن هذه الطريقة ، باعتبارها نتاج عملية تكيُّف جزئى وغير مكتمل للُّغَة الفرنسية فى هذه المنطقة، إلا أننا لا نعتد بمثل هذا الافتراض لأسباب عدة. إننا نلاحظ على سبيل المثال أن بعض تعبيرات لغة النوشى هى نتاج التلاعب بألفاظ اللغة الفرنسية بصورة تستلزم إجادتها بقدرٍ كاف، كالاكتفاء باستعارة كلمة draps من التعبير الفرنسى être dans de beaux draps ومعناه: "وقع فى ورطة"، من أجل التعبير عن المُضايقات التى ورد ذكرها فى المثال الرابع، علاوة على استخدام كلمة grosse أى "كبيرة"، للإشارة إلى العملة من فئة الـ ٢٥ فرنك (نسبة إلى حجم العملة)، أو الإشارة إلى الورقة المالية من فئة الـ ١٠٠,٠٠٠ فرنك، من خلال استخدام الفعل tais-toi أى "اصمت"، لأن الحصول عليها يسبب قدراً من الدهشة التى تؤدى إلى الصمت التام. وقد استمعنا فى باريس، وفى جامعة سنجور بالإسكندرية، إلى أحاديث بعض طلبة كوت دى فوار الذين رغم إجادتهم التامة للغة الفرنسية، يصرون على التحدث فيما بينهم بلغة النوشى، حيث قال لنا بعض هؤلاء الطلبة إن ذلك هو الذى يشعرهم بهويتهم خارج بلادهم. فنحن إذن إزاء وضع مشابه لما ورد فى الأمثلة ١و٢و٣ ، وكلمة نوشى كانت تشير فى بادئ الأمر إلى الشباب الجانح فى أبيدجان، قبل استخدامها كاسم لهذه اللغة التى سعى طلبة المدارس إلى استخدامها للتعبير عن هويتهم الذاتية وأصولهم الكوت دى فوارية، ولا سيما فى البلاد المهجر....

وهكذا توضح لنا المواقف السابقة مدى تأثير البيئة على اللغة، فهناك تلبية للحاجة إلى تحقيق الهوية، من خلال تغيير الدال والشكل اللغوى الذى سيؤثر بدوره على البيئة؛ والأسلوب الذى يتحدث به فريد على سبيل المثال يؤكد هويته، ويتيح تحديد وضعه فى إطار فئة ما يمكن استبعادها من المجتمع أو على العكس الانضمام إليها....

والاقتراب من هذه الوقائع اللغوية على هذا النحو يتيح لنا صياغة نظريات دقيقة بشأن حقيقة ما يحدث فى مثل هذه المواقف. فقد وصف العالِم بييتر مويسكين Pieter Muysken ما أطلق عليه اسم "اللغة الوسيطة" media lengua فى المنطقة الاستوائية، وهى لغة تستمد مجموعاتها الوظيفية من لغة الكينشو quenchua، فى حين تستمد مفرداتها من اللغة الإسبانية، نتيجة لإعادة تشكيل مفردات اللغة الهندية بفعل لغة الاستعمار، أو بالأحرى نتيجة لإحلال المفردات الإسبانية تدريجياً محل كلمات الكينشو الأصلية. ويطلق متحدثو هذه اللغة عليها اسم "الكينشو الصغيرة" utilla ingiru؛ لأنها تتكون من كلمات أصلها إسبانى داخل تراكيب العبارات المستمدة بصورة مطلقة من الكينشو الأصلية. ولتوضيح هذه الفكرة أمام القراء نعرض المثال التالى :

المثال الخامس:

Media lengua : Unu fabur-ta pidi-nga-bu bin-xu-ni

اللغة الوسيطة: معروف يطلب يأتى

الكينشو: Shuk fabur-da ma?a-nga-bu shamu-xu-ni

الإسبانية: Vengo para pedir un favor

نلاحظ فى المثال السابق اقتراض الكلمات الإسبانية (un, favor, pedir)، وتطويعها من الناحية الصوتية، ثم إدراجها داخل تركيب نحوى مستمد من الكينشو الأصلية. فقد تم استبدال كلمات الكينشو الأصلية (shuk, ma?a, shamu) بكلمات وسيطة (unu, pidi, bin) ذات أصول إسبانية (un, pedir, veni)، مع الاحتفاظ بالتصريف وتركيب العبارة الأصلى للغة الكينشو. ويضيف مويسكين أن إجادة اللغة الإسبانية لن تُمَكِّننا من فهم هذه العبارة أو غيرها من عبارات هذه اللغة، بل إن متحدثى الكينشو الأصلية يشعرون بمدى غرابة الكينشو الصغيرة ويلاقون صعوبة فى فهمها.

لقد أثار مسكوين مشكلة بسيطة عند تناوله لوضع لغة الكينشو الصغيرة، حيث أفاد أنها لغة مكتملة فى حد ذاتها، بل منفصلة عن الكينشو الأصلية وعن اللغة الإسبانية.

وحجته القوية فى ذلك أنها لغة جماعية داخلية، أى تخدم التواصل داخل طائفة محددة من السكان. ونستشعر من خلال الاسم الذى أطلقه على هذه اللغة، والمقال الذى نشره عام ١٩٨١ تحت عنوان: "منتصف الطريق بين الكينشو والإسبانية" "Halfway between Quenchua and Spanish "، أنه يجرى دراساته فى إطار اللغويات التزامنية، فيبدو لنا أن هذه اللغة الوسيطة ليست سوى انعكاس لمرحلة متقدمة من الكينشو الأصلية؛ أى أن تحليل الكينشو الصغيرة يشير إلى ما طرأ على الكينشو الأصلية من تغيرات وتطورات أسفرت عن ظهور هذا الشكل اللغوى الأكثر تأثراً باللغة الإسبانية. وإن كانت هذه اللغة الوسيطة، أى "الكينشو الصغيرة"، هى وسيلة التواصل داخل جماعة ما، فإن ذلك لا يعنى بالضرورة أن تكون شكلاً يختلف تمام الاختلاف عن الكينشو الأصلية أو الإسبانية؛ فالمشكلة الحقيقية تكمن فى معرفة ماهية منتصف الطريق Halfway، وما هذا الذى يقع فى أول الطريق وآخره. والتسليم بوجود لغة ما فى منتصف الطريق بين لغتين أُخريين هو أمر منتقص؛ لأن اللغة هى نتاج المجتمع، وهذا المجتمع هو الذى يقع فى منتصف الطريق بين مجتمعين آخرين أو ما زال يبحث عن طريقه.

تشتمل كل لغات العالم على بعض الظواهر التى تنجم عن إعادة تشكيل المفردات اللغوية، وهذا ما يمكن أن نطلق عليه اسم "توليد مفردات جديدة" عامية أو شعبية، كما سنرى فى الأمثلة التالية المأخوذة من اللغتين الفرنسية والإنجليزية.

المثال السادس :

Le keum a cornanché son dabe

Le mec a tué son père : قتل الجدع والده

المثال السابع :

The paddy is in the Black Maria

L'Irlandais est dans le panier de salade : الإيرلندى فى سلة السلاطة

رغم عدم تمكننا من فهم مضمون المثالين السابقين، إلا أننا نستطيع التمييز بين اللغة الفرنسية فى المثال السادس والإنجليزية فى المثال السابع. وإذا ما كانت الكلمات: (keum, cornancher, dabe) مجهولة تماماً بالنسبة لنا، فإن تصريف الفعل (a tué)، وأداة التعريف (le)، وضمير الملكية (son)، بل التركيب الكلى للعبارة، قد ساعدنا على تمييز اللغة الفرنسية فى المثال السادس. كما أن عدم معرفتنا بالكلمات لم يمنعنا من تمييز اللغة الإنجليزية فى المثال السابع، من خلال أداة التعريف (the)، وحرف الجر (in)، وتصريف الفعل (is). وهناك بالتأكيد من قد يبدى اعتراضه على النطاق المتسع الذى تناولنا من خلاله إعادة تشكيل المفردات؛ لأن عملية التلاعب بالألفاظ هنا "لغة السيم" تقتصر على لغة واحدة فحسب، كما سبق أن أشرنا فى الأمثلة المذكورة أعلاه، وذلك على خلاف المثال الذى ساقه مسكوين، وتعرض فيه لإعادة توليد الألفاظ على مستوى لغة الكينشو واللغة الإسبانية. إلا أنه لا وجه للمقارنة بين هذه المواقف على صعيد اللغويات الاجتماعية؛ لأنه إذا ما كان ظهور الكينشو الصغيرة يشير إلى ضرورة اختفاء الكينشو الأصلية فى وقت ما، فإن لغة "السيم" ليست سوى أحد أشكال اللغة التى تنبثق عنها. ويكفينا الآن، لتجميع كل هذه الأمثلة، التسليم بوجود نموذجين لعملية إعادة توليد المفردات اللغوية، التى تتمثل فى تغيير الشكل الصوتى للرموز اللغوية:

١- إعادة التوليد الخارجى: هو نتاج ما تشهده بعض اللغات من إحداث مفردات أو وحدات دلالية جديدة تأتى من لغات أخرى. وهذا ما أوضحه مسكوين بشأن اللغة الإسبانية التى أعادت تشكيل مفردات لغة الكينشو، وهو ما قد ينطبق أيضاً على إعادة توليد مفردات اللغة الفرنسية بفعل بعض اللغات الأفريقية بساحل العاج، بل لاحظنا كذلك استخدام كلمات مثل "حلوف" hallouf بدلاً من الكلمة الفرنسية cochon، كما سبق أن أوضحنا فى المثال الأول .

٢- إعادة التوليد الداخلى: هو نتاج ما تشهده بعض اللغات من إحداث مفردات أو وحدات دلالية جديدة من داخل اللغة ذاتها، عن طريق بعض العمليات التحويلية المختلفة التى تهدف فى الأساس إلى إضفاء بعض السرية أو الخصوصية على هذه اللغة. وهذا هو

حال بعض اللغات السرية "لغة السيم"، ومن ذلك ما ورد فى المثال السادس، حيث نجد أنفسنا إزاء اللغة الفرنسية التى تعرضت بعض مفرداتها لعملية تحويل، نتيجة لتطبيق قاعدة "عكس المقاطع الصوتية" مثل تحويل mec إلى keum، أو خلق كلمة جديدة تماماً مثل cornancher التى تم إعادة توليدها من كلمة corne . ويوضح لنا المثال الأول إمكانية وجود نوع من التعايش بين هذين النموذجين، أى وجودهما داخل لغة واحدة، واللغة الفرنسية هى خير دليل على ذلك؛ لأن بها إعادة توليد داخلى كعكس المقاطع الصوتية لكلمة femme بحيث تصبح meuf، وبها إعادة توليد خارجى كاقتراض الكلمة العربية "حلوف" واستخدامها بالفرنسية hallouf .

وقد أتاح اتساع مفهوم إعادة توليد المفردات تناول اللغة الوسيطة وبعض أساليب إعادة تشكيل المفردات فى لغة "السيم" أو اللغات الشعبية كنواتج لظاهرة قابلة للمقارنة من الناحية الفنية، بل أوضح العلاقة التى تربط بين أوجه تباينها من جهة وبعض الظواهر الاجتماعية من جهة أخرى. فإعادة تشكيل المفردات ليست سوى عملية تحويل تحدث كرد فعل لمؤثرات خارجية مختلفة. واللغة الوسيطة هى ثمرة موازين القوى التى تنعكس من خلال التهام اللغة الإسبانية للغة الكينشو؛ فى حين أن لغة "السيم" هى نتاج رغبة البعض فى السرية أو الخصوصية؛ ووظيفة لغة ما مثل النوشى لا تتعدى الرغبة فى تحقيق الهوية، كما هو الحال بالنسبة للفرنسيين من ذوى الأصول المغربية. وقد شهدت كل هذه العناصر المختلفة حدوث تغيير لغوى نجم فى كل الحالات السابقة عن تغيير الرمز اللغوى أو الوحدة الدلالية، إلا أنه لم ينبعث من الظاهرة نفسها، وهذا الباعث هو الذى يتحكم فى اختيار نموذج إعادة تشكيل المفردات على الصعيدين الداخلى والخارجى. وهكذا يمكننا استقراء تطور مفردات اللغة فى ظل التغير الشكلى، ونعنى هنا تغير الرموز أو الوحدات الدلالية اللغوية، إلا أنه وفقًا للعوامل الخارجية الباعثة على حدوث مثل هذا التطور، فإن التغيير الشكلى لا يخضع لأسس متماثلة.

إن طريقة تناول هذه الأمور تعود علينا بنفع كبير؛ لأنها تذكرنا دوماً بأنه رغم أهمية التغييرات التى تشهدها المفردات اللغوية، فإنها لا تؤثر كثيراً فى نظام اللغة، والدليل على

ذلك أن لغة الكينشو الصغيرة ما زالت كينشو، ومتحدثو الفرنسية بلهجة مغربية، كما ورد فى المثال الأول ، أو متحدثو إحدى لغات "السيم" كما ورد فى المثالين السادس والسابع، لا يتحدثون شيئًا آخر عدا الفرنسية أو الإنجليزية.

البيئة الخطّية :

هناك طريقة أخرى بسيطة لتوضيح ما يعنيه معالجة الأوضاع اللغوية من خلال المنظور البيئى، وتتمثل فى دراسة ما أسميناه بالبيئة الخطّية. سوف نرى فى الفصل التالى أن هناك تشابهًا بين نظام التجاذب اللغوى ونظام التجاذب الكتابى؛ فهناك العديد من الأشخاص الذين يجيدون كيفية كتابة لغتين؛ أى أنهم يجيدون نظام كتابة لغتهم الأصلية، بالإضافة إلى نظام كتابى آخر يكون فى الغالب الأبجدية اللاتينية. ونلاحظ هذه الازدواجية الخطّية على جدران مدننا والملصقات واللوحات الإرشادية والإعلانية، ومن ذلك ما نلحظه مثلاً بشأن اللوحات الإرشادية التى تحمل أسماء الشوارع فى المغرب، حيث نجدها مكتوبة بالأبجديتين العربية واللاتينية، وكذلك لوحات حى سوهو Soho بلندن المكتوبة بالأبجدية اللاتينية والحروف الصينية. ونستطيع ملاحظة وجود نظام خطى واحد لكتابة لغات مختلفة، كما هو الحال بالنسبة للغتين الإنجليزية والإسبانية فى الولايات المتحدة الأمريكية. وهكذا، يمكننا التسليم بوجود أحاديث متبادلة على جدران المدن.

تتيح لنا جدران باريس إمكانية الوقوف على حالة من التعايش بين الخطوط واللغات. تحظى اللغة الفرنسية بالمكانة الأولى ومعها الخط اللاتينى، حيث تتحقق لهما السيادة على نطاق واسع. فالأبجدية اللاتينية تُستخدم فى كتابة العديد من اللغات الأخرى كالإنجليزية والألمانية والإيطالية والإسبانية، ولا سيما على اللوحات الإرشادية التى تهدف إلى توجيه السائحين؛ فنلاحظ تعبيرات مثل:(English spoken, duty free, cambio, wechsel...). إن هذه الكتابات غير الفرنسية لم تظهر بمحض الصدفة، ولا نجدها داخل الأحياء الشعبية، بل تنتشر فى الأحياء التجارية بوسط المدينة، وفى

ميدان الأوبرا L'Opéra ، وفى شوارع ريڤولى Rivoli والشانزيليزيه Champs-Elysées...الخ. كما نلاحظ على الجدران الباريسية العديد من الكتابات المتنوعة كالأبجديات العربية والعبرية والڤيتنامية والتايلاندية إلى جانب الحروف الصينية وحروف الكاناس kanas والكانجيس kanjis اليابانية وما إلى ذلك من كتابات أخرى. ونقول هنا أيضاً إن ظهور هذه النظم الخطية لم يكن وليد الصدفة، حيث نجد كتابات عربية وصينية وڤيتنامية وتايلاندية والقليل من العبرية داخل الحى الشعبى "بل ڤيل" Belleville، ونجد كذلك كتابات صينية وڤيتنامية وتايلاندية داخل الحى الثالث عشر ١٣e arrondissement. واللغة العربية المكتوبة بشكل عام بطريقة تفتقر إلى المهارة تشير فى فرنسا إلى المطاعم ومحال البقالة واللحوم الحلال؛ فى حين تشير اللغة العبرية إلى مناطق بيع الأغذية اليهودية؛ وتشير اللغات الأسيوية إلى المطاعم والمتاجر والصيدليات المتنوعة ومكاتب السفر...الخ. كما نجد اللغة العربية داخل الأحياء الراقية، ولكن هذه المرة مكتوبة بعناية تامة، حيث تشير إلى مكاتب الصرافة أو مقار بيع المنتجات المعفاة من الضرائب، مثلها فى ذلك مثل الإنجليزية أو الألمانية.

وهكذا، نجد أنفسنا بصدد محيط لغوى يتضح لنا بشكل غير مباشر من خلال الكتابات الخطية التى تتيح لنا الوقوف على العلاقات بين اللغات ووظائفها المختلفة. فاللغة العربية المكتوبة فى حى "بل ڤيل" تخاطب فى الغالب العُمال المهاجرين الذين يرغبون فى شراء اللحوم المذبوحة وفقًا للشريعة الإسلامية فى مثل هذه المناطق، على خلاف اللغة العربية المكتوبة فى حى "الأوبرا"، التى تخاطب العملاء الأثرياء القادمين من دول الخليج. ونلاحظ دومًا فى حى "بل ڤيل" أن التباين بين الكتابات العربية والأسيوية يعكس مدى الاختلاف الكبير فى المستوى الاجتماعى للمهاجرين الذين يستخدمون هذه اللغات. ومن ثَمَّ، تُعَدُّ البيئة الخطّية مؤشراً غير مباشر إلى وظائف هذه اللغات والوضع الاجتماعى لمن يستخدمونها، وتحمل هذه الرؤية اللغوية التزامنية بين ثنياتها طفرة تتضح بجلاء من خلال المثالين التاليين.

توضح دراسة المجتمع اللغوى داخل مدينة القدس التاريخية "الثلاثية الخطّية" التى تُميز هذه المدينة العتيقة، حيث نشهد وجود الأبجديات العربية والعبرية واللاتينية فى آنٍ

واحد، وتُستخدم اللاتينية فى الغالب من أجل كتابة اللغة الإنجليزية. فقد كُتبت اللوحات التى تحمل أسماء الشوارع بثلاث لغات هى العبرية والعربية والإنجليزية، لكن التحليل الدقيق لهذا الجمع من اللغات يوضح أن ذلك لا يعكس فحسب واقع لغوى تزامنى نتج عن وجود هذه اللغات وقت إجراء هذه الدراسة، بل يعكس أيضًا موقفًا سجَّله التاريخ؛ لأن هذه اللغات هى خير شاهد على ماضى وضع مدينة القدس وحاضرها ومستقبلها.

لاحظنا على سبيل المثال وجود لوحة معدنية تحمل اسم شارع "الملاك" باللغات العبرية والعربية والإنجليزية "HA-MALAKH RD."، وذلك من أعلى إلى أسفل. إلا أننا وجدنا لوحة أخرى أكثر قدمًا تحمل اسم نفس الشارع، لكنها توضح أن الكتابة العبرية قد أضيفت إلى أعلى اللوحة التى كانت مكتوبة باللغتين العربية والإنجليزية "El-MALAK RD.". ونلاحظ مدى اختلاف طريقة كتابة اسم الشارع باللغة الإنجليزية على اللوحتين؛ لأن اللوحة القديمة تحمل أبجدية لاتينية ذات شكل عربى، فى حين أن اللوحة الجديدة اشتملت على الشكل العبرى للاسم نفسه. وفى كلتا الحالتين، فإن هذين الاسمين ليسا من الإنجليزية فى شيء، باستثناء الأبجدية والاختصار " RD" الذى يستخدم بدلاً من كلمة "Road"بالإنجليزية، أى الشارع أو الطريق. ويرجع تاريخ اللوحة الثانية إلى الحقبة الأردنية (١٩٤٨-١٩٦٧)، التى كان يتم خلالها استخدام اللغتين العربية والإنجليزية فى كتابة أسماء الشوارع؛ فى حين يعود تاريخ اللوحة الأولى إلى فترة الاحتلال الإسرائيلى الذى جاء فيما بعد، وأضاف الكتابة العبرية إلى أعلى اللوحة ليبدو الأمر "طبيعيًا". ورغم تماثل ترتيب اللغات على اللوحتين، فإن اختلاف شكل الكتابة العبرية أو العربية يقف شاهدًا على اختلاف الأحوال السياسية. وحرىٌ بنا الإشارة إلى اللوحة الثالثة التى تحمل اسم "باب الخليل" باللغات السابقة نفسها، ولكن هذه المرة بترتيب آخر يتمثل فى وجود اللغة الإنجليزية أعلى اللوحة، متبوعة باللغة العربية، ثم اللغة العبرية، ويرجع تاريخ هذه اللوحة إلى فترة الانتداب البريطانى (١٩١٩-١٩٤٨)؛ فتوضح هى الأخرى أبعاد السياسة اللغوية، حيث شهدت القدس ثلاث فترات متعاقبة هى الإنجليزية والأردنية والإسرائيلية، وتركت كل منها آثارًا مختلفة على البيئة الخطّية لهذه المدينة. وأخيرًا يتجلى العنف الرمزى على جدران القدس، حيث لاحظنا وجود

إحدى اللوحات التى تعرضت لتشويه ما عليها من كتابات عربية وإنجليزية، مع الاحتفاظ فحسب بما عليها من كتابة عبرية، وكأنها تعبِّر عما يجول بخاطر البعض بشأن مستقبل هذه المدينة.

إن هذه الأوضاع التى تعرضنا لها تنتمى إلى زمنٍ واحد وإلى عدة أزمنة على حدٍّ سواء؛ فهى توضح لنا أن التاريخ حاضر فى كل زمان ومكان، وليس من الممكن بالتالى فصل التزامن اللغوى عن التطور اللغوى التاريخى. فكل فلسطينى يشاهد اللوحة التى تعرضت للتشويه يشعر حتمًا أن هناك من يعمل على استبعاده من القدس، وكل إسرائيلى يشاهد اللوحة القديمة التى أضيفت إليها اللغة العبرية يتذكر على الدوام أنه خلال إحدى الفترات التاريخية لم تكن للغته وجود رسمى فى هذه المدينة العتيقة. وتقودنا كل هذه الأمثلة إلى العديد من المسائل الشائكة التى تتعلق بمستقبل القدس.

وتتيح لنا البيئة الخطّية الاطلاع على حركة تطور الأيديولوجيات ، لا بصورة تزامنية كما رأينا بالقدس، بل بصورة تعاقبية. وتوضح لنا كذلك دراسة أسماء الشوارع فى مدينة صغيرة مثل بلدة ألمونت Almonte بالأندلس، ما خلّفته الأنظمة السياسية التى تعاقبت على حكم إسبانيا من آثار تجلت من خلال دراسة أعلام الأماكن. ومن ذلك على سبيل المثال الشارع الجانبى الذى كان يحمل اسم Arenal فى بداية القرن العشرين، وكذلك الشارع الرئيسى الذى كان يحمل اسم Conception . إلا أنه حينما تولى الجمهوريون الحكم عام ١٩٣١، أطلقوا اسم Conception Arenal على الشارع الجانبى، وهو اسم أحد كُتّاب القرن التاسع عشر المُناصرين للمرأة، وأطلقوا اسم Cervantès على الشارع الرئيسى. وفى عام ١٩٣٧، قرر الفرنكيون من أنصار الجنرال فرانكو محو كل آثار الديمقراطية؛ فعاد شارع Conception إلى الظهورمجدداً بكل ما يحمله الاسم من مدلولات دينية، ولكن ليس فى المكان السابق ذاته، كما أصبح شارع Cervantès يحمل اسم Auiepo de Llano . ثم جاء عام ١٩٨١، وعاد النظام الديمقراطى مرة أخرى، وعادت معه أسماء الشوارع القديمة Arenal و Conception إلى ما كانت عليه فى بداية القرن. وهكذا، يمكننا استقراء مدى تدخل السلطة، وأثر ذلك على البيئة الخطّية والأعلام المكانية فى مدينتى القدس وألمونت.

فى المدينة القَبَلِيَّة "تيزى أوزو" Tizi-Ouzou الواقعة بإحدى مناطق الجزائر القَبَلِيَّة ، نلاحظ وضعًا مشابهًا لوضع القدس فيما يخص التغييرات التى تصيب اللغات والكتابات، وإن كان هناك اختلاف واضح بشأن مسئولية الأفراد عن هذا الأمر لا السلطات. فهذه المدينة بها ثلاث لغات هى العربية والقَبَلِيَّة والفرنسية، وبها بالتالى ثلاث أبجديات ، لا تقتصر كل منها بالضرورة على كتابة اللغة الخاصة بها. فاللغة العربية تُكتب بالحروف العربية، والفرنسية بالحروف اللاتينية، بينما يمكن كتابة اللغة البربرية بكل من الأبجدية العربية واللاتينية ، علاوة على إمكانية كتابتها بالطريقة البربرية التقليدية أى الـ"تفناغ" tifinagh . وقد أجرى العالِم رباح كحلوش Rabah Kah-louche دراسة تحليلية للبيئة الخطِّية فى هذه المدينة منذ بداية التسعينيات، أى عقب ما أسفر عنه تطور الوضع السياسى بشأن الحد من تطبيق قوانين التعريب، عقب التخلص من هيمنة جبهة التحرير الوطنية، وظهور التعددية الحزبية وما إلى ذلك من نظم أخرى.

تجلَّى التحول النسبى إلى الديمقراطية فى مدينة "تيزى أوزو" من خلال ظهور اللغة الفرنسية مرة أخرى، وبزوغ اللغة البربرية على لافتات المدينة. ورغم أن اللافتات الرسمية فى كل المناطق الجزائرية مازالت مكتوبة باللغة العربية فحسب، فقد حظيت المنطقة القَبَلِيَّة بلافتات مكتوبة باللغات العربية والبربرية والفرنسية تبعًا لهذا الترتيب. وحُررت معظم النصوص البربرية بطريقة الـ"تفناغ" التقليدية. وهنا يظهر مدى تأثير حزب "تجمع الثقافة والديمقراطية" RCD، أحد أحزاب الأغلبية، الذى اشتمل برنامجه على الاعتراف باللغة البربرية وتدريس المواد العلمية باللغة الفرنسية. ونلاحظ فيما يخص اللافتات التجارية وجود "لافتات مكتوبة بلغة واحدة فقط إمَّا العربية أو الفرنسية دون البربرية، بالإضافة إلى وجود لافتات أخرى مكتوبة بلغتين أو بثلاث لغات". وقد اقتصر البحث الذى أجراه رباح كحلوش على اثنين من أكبر ميادين الجزائر، حيث يقع الأول فى المدينة القديمة، بينما يقع الثانى فى المدينة الجديدة. ويمكن تلخيص هذا الوضع فى الجدول التالى :

اللافتات	المدينة القديمة	المدينة الجديدة
الفرنسية	٥٤,٩٪	٩٠,٤٪
العربية	٢٢,٩٪	٠
العربية/الفرنسية	١٩,٤٪	٧٪
البربرية/الفرنسية	٠	٢,٦٪
ثلاثية لغوية	٢,٧٪	٠

تعكس هذه اللافتات، على خلاف ما نجده على المنشآت العامة، اتجاه اختيار التُّجَّار الذى شهد تطوراً واضحاً. "فالغالبية العظمى من أصحاب المتاجر ممن يضعون لافتات عربية قد أعلنوا أن تاريخ هذه اللافتات يعود إلى عصر استبداد جبهة التحرير الوطنية، وأنهم سيعيدون إضافة اللغة الفرنسية عند تجديد متاجرهم". ويعتقد رباح أن لافتات المدينة القديمة التى تحمل لغتين تعكس "مرحلة انتقال لغوى" تتجلى من خلال طريقة كتابة العربية والفرنسية، فتبلغ نسبة اللوحات التى تحمل الكتابة العربية تليها الفرنسية ٥٠٪، بينما تبلغ نسبة كتابة الفرنسية تليها العربية ٢٨,٥٪، فى حين تبلغ نسبة اللافتات التى تحمل كلتا اللغتين جنباً إلى جنب ٢١,٥٪ .

وقد لا يكترث البعض بهذا الأمر على اعتبار أنه أحد أشكال فوضى اللافتات أو أنه نتاج الصدفة البحتة. إلا أن هذه التعددية الخطيَّة هى إحدى خصائص المحيط اللغوى لمدينة "تيزى أوزو". ووراء هذه الاستخدامات المتنوعة للغات الثلاثة المتواجدة، نلاحظ الاختلاف بين سياسة البيئة الخطيَّة المصطنعة من جهة، التى تتجلى من خلال الكتابات الرسمية ثلاثية اللغة، وفقًا لما أقره "تجمع الثقافة والديمقراطية"، وبين الممارسات الطبيعية للتُّجَّار من جهة أخرى، حيث يعربون عن تفضيلهم لاستخدام اللغة الفرنسية، وقد قال أحدهم بهذا الصدد إن: "استخدام اللغة العربية يهدف إلى إرضاء السلطة، بينما أُفَضِّل أنا وعملائى استخدام اللغة الفرنسية". كما يتضح تفضيل اللغة الفرنسية من خلال كتابة اللوحات فى أغلب الأحيان بالفرنسية، ثم ترجمتها إلى العربية أو توفيقها مع اللغات الأخرى.

يتضمن هذا الوضع قدراً من التناقض؛ فعلى الصعيد السياسى يعرب التُجَّار عن تأييدهم المطلق للمطالبة بضرورة الحفاظ على الهوية القبلية، بل يغلقون متاجرهم عند اندلاع المظاهرات المطالبة بذلك. لكنهم يفضلون كتابة لافتاتهم باللغة الفرنسية لا البربرية، وكأنهم يعمدون إلى الفصل بين المشكلات اللغوية وبين الحفاظ على الهوية. إلا أن هذا التناقض لا يتعدى كونه تناقضاً ظاهرياً فحسب.

يعارض معظم القَبَلِيِّين سياسة التعريب التى تنطوى على محو ثقافتهم، لكنهم يفضلون استخدام اللغة الفرنسية فى مواجهة اللغة العربية، نظراً لما نشرته الجهات الرسمية بشأن اللغة البربرية كأحد عوامل انقسام المجتمع. أى أن اللغة البربرية فى حاجة إستراتيچية إلى استخدام اللغة الفرنسية كقناع تتوارى خلفه وهى تنطلق إلى الأمام. إلا أنه فى هذا المحيط اللغوى نلاحظ أن العامل المواتى السائد المتمثل فى عدد المُتكلمين يميل باتجاه اللغة البربرية، فى حين لا تحظى اللغة الفرنسية سوى ببعض العوامل الثانوية التى تُرَجِّح استخدامها. ومن هنا، تبدو النتائج التى توصل إليها العالِم رباح كحلوش فى غاية التشاؤم إذ يقول: " شهد مسرح الخطوط الكتابية بمدينة تيزى أوزو حرباً لغوية بدت فيها اللغتان البربرية والفرنسية كأكبر حليفين، لكن هذا التحالف أسفر إلى حد كبير عن محو اللغة البربرية، بل هناك محاولات لإحلال اللغة الفرنسية بدلاً من اللغة العربية، ومنح البربرية مكاناً لا يذكر على الخريطة اللغوية."

دارت فى الواقع مناقشات عديدة بشأن إقرار التعريب فى الجزائر التى حصلت مؤخراً على استقلالها، وأسفرت عن ضرورة الاختيار بين احتمالين لتوظيف اللغات؛ إمَّا استخدام اللغة العربية وحدها ، أو استخدامها إلى جوار اللغة الفرنسية. ومن ثَمَّ، تم طمس معالم اللغة البربرية ، وبالتالى طمس مظاهرها الثقافية، حيث لم يعد أمام هذه اللغة سوى تمنى عدم فرض اللغة العربية وحدها. وفى الوقت ذاته، انتفعت اللغة الفرنسية من هذا الوضع، بسبب وجودها المتزايد على اللوحة اللغوية القبلية أكثر من بقية المناطق الجزائرية. وترجع المنافسة التى تلاقيها الثنائية اللغوية "المنطقية"، أى البربرية/العربية فى المنطقة القبلية، من قِبَل الثنائية اللغوية البربرية/الفرنسية، إلى

علاقات تبادل المنفعة بين هاتين اللغتين؛ فكلتا اللغتين الفرنسية والبربرية تحتاج كل منهما إلى الأخرى، كما يحتاج نبات "الدبق" الطفيلى إلى العصافير التى تأكله وتنثر بذوره فيتكاثر؛ أى أن العصافير تحصل على غذائها من جهة، وهذا النبات يتكاثر من جهة أخرى. وقد استعرنا هذا المثال من شارل داروين الذى ساقه بصورة أكثر تعقيدًا؛ لأن "الدبق" هو فى الواقع نبات طفيلى يصيب شجرة التفاح ويتغذى عليها، لكن زيادة خيوطه المُلتفة بشكل كبير يهدد بفناء الشجرة وسقوطها. فبقاء "الدبق" يستلزم عدم تكاثره بصورة كبيرة على الشجرة نفسها. ومن هنا، يتضح الدور الذى تضطلع به العصافير حينما تأكل هذا النبات، حيث تتولد علاقة المنفعة المشتركة بين الأجناس. ومن خلال مقارنة هذا المثال بالنموذج الذى نتناوله، نلاحظ أن اللغة البربرية تشبه شجرة التفاح، وأن نظام التوازن البيئى، الذى يضمن بقاء شجرة التفاح ونبات "الدبق" والعصفور، يشبه نظام البيئة القَبَلِيَّة ، حيث يوجد نوع آخر من التوازن الذى يحافظ على بقاء اللغات الثلاثة: العربية والبربرية والفرنسية، وهذا ما أوضحته لنا عناصر البيئة الخطّية التى سبق أن أشرنا إليها.

وقد يعتقد البعض أن البيئة الخَطِّيَّة لا تتعدى كونها نظامًا ثانويًا يتيح لنا استقراء الأوضاع اللغوية من خلال كتابة اللغات. لكن تجاوز حدود الأصوات، والاتجاه إلى الخطوط، وتحديد الاختيارات الممكنة لنظم الكتابة، يطلعنا على الكثير بشأن الوضع اللغوى أكثر من اللغات ذاتها. فعلى سبيل المثال، نجد فى إقليم جاليسيا Galice الإسبانى الذى يخضع للحكم الذاتى، لغتين رسميتين هما الجاليسية والإسبانية، حيث نستطيع رؤية اسم المدينة مكتوبًا فى آنٍ واحد بالإسبانية La Coruna وبالجاليسية "المعيارية" (الرسمية) A Coruna . ويمكن لأول وهلة اعتبار هاتين الطريقتين فى الكتابة كدليل على الثنائية اللغوية الرسمية. لكننا نجد أيضًا الاسم مكتوبًا على بعض النقوش الجدارية والكتابات العشوائية، بطريقة الكتابة البرتغالية على النحو التالى:A Corunha. وهذا الاختلاف الطفيف بين طريقة كتابة n و nh لتدوين الصوت نفسه يؤكد حالة الصراع السياسى التى نشبت بسبب الجماعات المعروفة باسم "جماعات الاسترداد" من جهة، والتى تعتقد أن أصل اللغة الجاليسية يرجع إلى اللغة البرتغالية، وأن طريقة

الكتابة "المعيارية" هى من صنع الاستعمار، وبين الجماعات التى تقبل استخدام هذه الكتابة الرسمية من جهة أخرى. ورغم تطابق طريقة نطق A Coruna و A Corunha، فإن اختلاف طريقتى كتابتهما يضفى ثقلاً على الرموز اللغوية.

ولنذكر مثالاً آخر على استقراء أوضاع البيئة اللغوية من خلال البيئة الخطّية للعاصمة السنغالية "دكار". إذا اتجهنا من الجنوب إلى الشمال نستطيع اكتشاف هذه المدينة عن طريق قراءة لوحاتها، بدءًا من الأحياء الراقية كحى "لوبلاتو" le Plateau، ومروراً بالمنطقة المتوسطة "المدينة" Médina، وانتهاءً بالأحياء الفقيرة مثل أحياء "بيساب" Bissap و"أواجو نيايس" Ouagou Niayes . فقد أوضحت مريم دومون Myri-am Dumont سيادة اللغة الفرنسية فى حى لوبلاتو، لكننا كلما اتجهنا شمالاً، نلحظ أن اللافتات التجارية تحمل لغة الولوف وإشارات للديانة الإسلامية، سواء من حيث اللغة المستخدمة فى كتابتها أو كتابة الأبجدية العربية. كما نلحظ اختلاف نوع اللافتات من الجنوب إلى الشمال، بدءًا من اللافتات الحديثة والمُضيئة والمُعَلَّقَة غالبًا بصورة عمودية على الجدران، وانتهاءً باللافتات الأكثر تهالكًا ذات الكتابات غير المنمقة فى كثير من الأحيان، التى تكون إمًا لوحات مرسومة أو تكون أحيانًا مكتوبة مباشرةً على جدران المدينة. وهكذا، يمكن تحديد المحيط اللغوى لمدينة دكار، حيث تشهد بيئتها اللغوية وجود ما يقرب من خمس عشرة لغة أفريقية إلى جانب اللغة الفرنسية. لكن ملاحظة ما تحمله اللوحات التجارية توضح لنا سيادة لغة "الولوف" كلغة أفريقية، فى مواجهة اللغة الرسمية المتوارثة من عصر الاستعمار، أى اللغة الفرنسية. إلا أن هناك ترددًا بين استخدام الأبجدية اللاتينية أو الأبجدية العربية فى كتابة "الولوف" والأسماء السنغالية، حيث يحمل هذا الأمر بعدًا تاريخيًا؛ لأن الولوف من اللغات المتوارثة شفهيًا بدون تحديد أية طريقة لكتابتها، وهى بذلك تقف إزاء لغة مدونة منذ القدم، بل تواجه الوجود المتزايد للدين الإسلامى.

حرِىٌّ بنا تناول البيئة الخطّية من خلال معالجة إحدى النظريات الخاصة. ففى الكتاب الذى سبق أن ذكرناه حول لغات مدينة القدس، اقترح المؤلفون تفسير أسباب اختيار اللغات المستخدمة فى الكتابات العامة فى إطار ثلاث قواعد:

-**القاعدة الأولى:** الكتابة بلغة نعرفها.

- **القاعدة الثانية:** الكتابة بلغة من المفترض أن القراء المتواجدين يستطيعون قراءتها.

- **القاعدة الثالثة:** الكتابة بلغة الكاتب الأصلية أو بإحدى اللغات التى تهدف إلى تحقيق هوية الكاتب من خلالها.

من الواضح إمكانية وجود تناقض بين الوظيفة التواصلية فى القاعدة الثانية والوظيفة الرمزية فى القاعدة الثالثة. تتوافق على سبيل المثال الكتابات العربية على محلات الجزارة الإسلامية بباريس مع القاعدة الثالثة، فى حين تختلف مع القاعدة الثانية؛ لأن غالبية العُمَّال المهاجرين لا يجيدون القراءة. وفى مدينة تيزى أوزو الجزائرية، يتوافق احترام القانون مع القاعدة الأولى؛ لأنه ينص على الكتابة باللغة العربية التى يتعلمها الجميع فى المدارس، وهو يتوافق أيضًا مع القاعدة الثانية دون الثالثة، فى حين تعكس المبادرات الفردية التى تدعو إلى الكتابة باللغة الفرنسية أو القَبَلِيَّة ، الوظيفة الرمزية التى تُعبِّر عنها القاعدة الثالثة. ولا يمكن بذلك أن تكون البيئة الخطِّية بمثابة الترجمة الحرفية للأوضاع اللغوية، لكنها تمثل توضيحًا لعلاقات دقيقة، وصراعات عديدة بين وظائف رسمية وتواصلية، والسعى وراء تحقيق الهوية، وهذا ما يتجسد فى الاختيارات المتاحة بشأن كتابة اللغات.

اضطرابات البيئة اللغوية

المثال الأسترالى

فى إحدى المؤلفات الجماعية ذات الأبعاد الهامة، نلاحظ ما كتبه العالِم بيتر موهلوسلر عند محاولته تحليل التغيرات الطارئة التى أصابت البيئة اللغوية الأسترالية، بسبب مجىء المستعمرين الأوروبيين. ويمكن التعبير عن تطور الأوضاع اللغوية، إذا ما ذكرنا أن عدد اللغات التى كان يتكلمها الأستراليون عام ١٧٨٨ كان يفوق مائتى

وخمسين لغة مختلفة لم يتبق منها اليوم سوى أقل من خمسين لغة، و٩٠٪ من السكان الأصليين يتحدثون الإنجليزية أو أحد أشكال الإنجليزية بلهجة السكان المحليين. وهكذا، يتضح لنا أن أستراليا كغيرها من المناطق الأخرى قد شهدت وجود لغة استعمارية؛ ونعنى هنا الإنجليزية التى حظيت بكل السبل المُهيأة من قبَل السلطة لفرضها فى مواجهة اللغات المحلية، بل تهديد بقائها. وهذا هو الدور الذى اضطلعت به اللغة العربية فى مواجهة اللغة البربرية بالمغرب، والفرنسية فى مواجهة البريتانية بفرنسا أو اللغة الأوكسيتانية بل فى مواجهة اللغات المحلية بأفريقيا...الخ. وبالرجوع مرة أخرى إلى أستراليا، نجد أنها قد تعرضت لعملية "التهام لغوى" أسفرت بطريقة كلاسيكية عن القضاء على التعددية اللغوية التى لا تتعدى الرطانة غير المفهومة، نتيجة لوجود كم من اللغات الصغيرة المقسمة بصورة تحول دون التواصل بين مختلف الأعراق الأسترالية ، وانتهى الأمر بالتمركز اللغوى حول اللغة الإنجليزية النموذجية أو حتى حول أحد أشكالها المحلية. لكن موهلوسلر يشكك فى صحة هذه الرؤية؛ لأنه يعتقد أن الأوروبيين عند وصولهم إلى أستراليا، قد وجدوا بها شبكة تواصل معقدة ومنظمة لا مجرد عدد كبير من الأنواع اللغوية المنعزلة عن بعضها البعض. كما يعتقد موهسولر أن الاتصال بالأوروبيين قد ولَّد فى هذا المحيط عدداً من التغيرات التى كان لها تداعيات كبيرة على الأوضاع اللغوية، ومنها على سبيل المثال:

– إدخال بعض الأمراض التى قتلت عدداً كبيراً من السكان الأصليين مثل مرض الجُدَرِى بصفة خاصة؛ مما أسهم فى تقليل حجم المجتمعات اللغوية التقليدية والقضاء تماماً على بعض اللغات .

– انتقال السكان الأصليين من الأراضى الخصبة التى كانوا يشغلونها إلى أراض أخرى أقل خصوبة؛ مما جعلهم يتحولون من حالة الاكتفاء الذاتى إلى حالة أخرى من التبعية.

– اضطراب العلاقات الثقافية الداخلية، كالتفاف البدو حول الإرساليات، ووجود اتصالات بين مجموعات لم تُعهَد منذ القدم إقامة مثل هذه العلاقات، وما إلى ذلك من أمور أخرى .

- اتباع سياسة المماثلة، ولا سيما فيما يخص إدخال الأطفال مدارس داخلية تكون فى الغالب إنجليزية، واتخاذ مواقف عدائية من اللغات المحلية.

- ومؤخراً، إدخال تقنيات جديدة فى مجال الاتصالات (الراديو والتليفزيون والحاسب الآلى) باللغة الإنجليزية.

...إلخ.

وهكذا، نلاحظ أن تلك التغيرات التى أصابت البيئة الاسترالية كان لها تداعيات على الأوضاع اللغوية، ويجب أن تخضع لدراسة تحليلية على مدار العديد من الأزمنة، بدءًا بكل إقليم على حدة، ومروراً بالعلاقات بين الأقاليم المتجاورة، وانتهاءً بدراسة الوضع اللغوى فى الدولة بأكملها. لذا سوف نتناول على التوالى نيو ساوث ويلز وأستراليا الجنوبية وأستراليا الغربية وأستراليا الشمالية. ففى عام ١٧٨٨، تم إنشاء مصلحة سجون بريطانية فى منطقة ميناء چاكسون Port Jackson التى صارت تحمل حاليًا اسم سيدنى Sydney بنيو ساوث ويلز .Nouvelles-Galles du Sud كان يضم هذا المكان ١٠٢٤ شخصًا من بينهم الكثير من المساجين المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة، حيث بلغت نسبتهم ٧٤٪، ولم يكن لهؤلاء الأشخاص فى بادئ الأمر أية علاقات مع السكان المحليين. وتبدلت الأحوال منذ إبريل ١٧٨٩، حين تفشى وباء الجدرى مُخَلِّفًا وراءه عدداً كبيراً من الوفيات. فتكفلت بعض الأسر البريطانية بالعديد من الأطفال الأيتام من أبناء السكان الأصليين، وشرعت فى تعليمهم اللغة الإنجليزية. وفى عام ١٧٩٠، انتقل عدد من السكان الأصليين إلى منطقة ميناء چاكسون واستقروا بها، بل أقاموا علاقات مع المستوطنين البريطانيين؛ مما ساعد على ظهور لغة تماس انتشرت فى هذه المنطقة بأكملها، وأصبح اسمها لغة نيو ساوث ويلز البيدجين الهجين New South Wales Pidgin . وسرعان ما انتشرت هذه اللغة التى صارت بمثابة ثمرة علاقات التماس بين سكان استراليا الأصليين والبريطانيين؛ فاتسع نطاقها شمالاً ولا سيما فى كوينزلاند Queensland، حيث ساعدت على ظهور لغة كوينزلاند الإنجليزية البيدجين الهجين، وامتدت كذلك غربًا، وانتشرت فى أستراليا الجنوبية.

فى بداية القرن التاسع عشر، شهدت هذه المنطقة مجىء بعض صائدى الفقمة "عجل البحر" من ذوى الأصول المختلفة (إنجليزية وفرنسية وبرتغالية وتاهيتية وأمريكية ونيوزيلندية..إلخ)، واستقرارهم فى جنوب أستراليا وبالتحديد فى جزيرة كانجارو Kangaroo . وفى عام ١٨٢٠، لم يكن يتجاوز عددهم الخمسين، وكانوا يعيشون مع حوالى مائة امرأة وطفل، وكانت نساؤهم من السكان الأصليين اللائى جئن من جزيرة تازمانى Tasmanie ومن بعض البقع الساحلية الأخرى. ووفقًا للعديد من الوثائق القضائية، فإن غالبية هؤلاء النساء قد اختُطفن من ذويهم. ومن هنا، تولَّد اتصال بين هؤلاء الصيادين ونسائهم وصائدى الحيتان الذين يجوبون البحار المجاورة، حيث تجمعت الأسباب لظهور "رطانة الملاحين"، وهى أول شكل من أشكال اللغات الناقلة بهذه المنطقة. وأعقب ذلك عند نهاية الثلاثينيات قدوم بعض الإرساليات الدينية، واستقرارها بمنطقة أديلايد Adélaïde، حيث افتتحت بعض المدارس لتعليم أطفال السكان الأصليين باللغة الإنجليزية، بعيداً عن أية تأثيرات من قِبل آبائهم، بل تعليمهم أحيانًا بلغة الكورنا Kaurna داخل الإرساليات الألمانية. وفى الأربعينيات، وفد مهاجرون من كورناى Cornailles، واستقروا بهذه المنطقة، من أجل العمل بمناجم الفضة والنحاس، وتبعهم مهاجرون آخرون من باكستان والصين وألمانيا. ومن ثَمَّ، ظهر شكل آخر من أشكال لغات البيدجين الهجين، ألا وهو لغة "جنوب أستراليا الهجين" South Australian Pidgin English التى تأثرت بجارتها لغة نيو ساوث ويلز البيدجين، وأخذت فى الانتشار باتجاه الغرب، وبالتحديد فى منطقة برث Perth، بواسطة الخطوط الحديدية الأسترالية؛ بسبب التكالب الشديد على مناجم الذهب فى مدينة كالجورلى Kalgoorlie. كما أن المستوطنين الأوروبيين الأوائل الذين استقروا بمنطقة برث عام ١٨٣٠، قد شجعوا استخدام لغات جماعة النيونجار Nyungar الذين ارتبطوا بعلاقات مع الإنجليز؛ مما أسفر عن ظهور لغة تماس جديدة تأثرت بلغة جنوب أستراليا الإنجليزية الهجين، وهى لغة جنوب غرب أستراليا الإنجليزية الهجين South Western Pidgin English . وفى الوقت ذاته، شهد الشمال الأسترالى حدوث تماس لغوى بين لغات آسيوية من جهة، مثل اللغة الصينية – الإنجليزية الهجين التى جلبها الصينيون،

ولغة صيادى تريبانج الذين قدموا من إندونيسيا. وبين لغة نيو ساوث ويلز الهجين من جهة أخرى؛ فظهرت لغتان من لغات الكريول الهجين المختلطة تحت اسم "كريول شمال أستراليا" Northen Territory Creole و"كريول تورز ستريت بروكن" Torres Strait Broken، وبدأتا تدريجيًا فى أخذ مكان اللغات المحلية.

وقد يبدو هذا المثال بسيطًا فى ظاهره، لكنه يطرح العديد من المشكلات اللغوية. ونحن لا نستطيع فى الواقع إجراء دراسة منفصلة لكل لغة من اللغات الأسترالية التى سبق أن أشرنا إليها. فقد شهدت المرحلة الواقعة بين الفترة التى سبقت حضور المستوطنين والفترة الحالية، العديد من التغيرات البيئية التى أدت إلى حدوث سلسلة من الانعكاسات المؤثرة. واختل توزيع اللغات على الأراضى الأسترالية عقب مجىء البيض، حيث يرجع ذلك بوجه خاص إلى انتقال أو تجمع الجماعات السكانية؛ مما أدى إلى استخدام لغة البيدجين الإنجليزية الهجبن فى الاتصال بين الناطقين بالإنجليزية والسكان الأصليين الذين كانوا فى بادئ الأمر يسعون إلى الحفاظ على لغتهم الخاصة. إلا أن الحال تبدّل بانتقال هؤلاء السكان إلى مناطق أخرى، واختلاطهم بمن يتحدثون لغات تختلف عن لغتهم المحلية؛ فاتجهوا إلى العديد من الحلول لتجاوز هذا الأمر، كاختيار أكثر اللغات المحلية شيوعًا واستخدامها كلغة ناقلة مثل لغة ويك مانجكان Wik mungkan فى كوينزلاند، التى تحل محل كل اللغات المحلية بهذه المنطقة، كما عمدوا إلى تكوين لغة مشتركة من كل اللغات التقليدية، وأفسحوا كذلك المجال أمام اللغة الإنجليزية أو الإنجليزية بلهجة محلية...إلخ. واللغة الإنجليزية المحلية هى ثمرة أولى لغات البيدجين الهجين التى كما سبق أن أشرنا إليها قد نمت فى بداية استيطان العديد من بقاع الأراضى الأسترالية، وكانت تُستخدم فى بادئ الأمر كوسيلة اتصال بين السكان الأصليين والمستوطنين، لكنها صارت بعد ذلك اللغة الناقلة التى يستخدمها السكان الأصليون المتجمعون داخل المحميات الحكومية أو فى مقار الإرساليات، ومن هنا تولدت اللهجة الإنجليزية المحلية. ويتضح التوسع فى استخدام هذه اللغة عند الرجوع إلى تاريخ القواعد النحوية والمفردات: فنجد على سبيل المثال الشروع فى استخدام صيغة been ذات القيمة الزمنية فى نيو ساوث ويلز عام ١٨٢٦، وفى

كوينزلاند عام ١٨٤٢، وفى أستراليا الغربية عام ١٨٨٣، بينما ظهر استخدام تعبير black fellow بمعنى "الساكن الأصلى" فى نيو ساوث ويلز عام ١٨٠١، وفى أستراليا الجنوبية عام ١٨٣٨، وفى كوينزلاند عام ١٨٤٢، وفى أستراليا الغربية عام ١٨٤٥ ...إلخ.

يوضح لنا هذا السرد السريع لتاريخ أستراليا الحديث ما يمكن أن نجنيه من وراء التحليل البيئى للأوضاع اللغوية، وكيف يمكن أن يؤدى تغير البيئة اللغوية وشبكات الاتصال الثقافى الداخلى إلى تحول الوضع اللغوى بأكمله. فقد كان لدينا نظام تتواجد به أكثر من مائتى لغة، وهو نظام يرتبط حتماً بالبيئة، ويقع داخل مدى جغرافى محدد، لكنه اضطرب بفعل إدخال لغات جديدة، وانتقال بعض الجماعات السكانية وتجمعها، وانخفاض عدد البعض الآخر...الخ. وتتجلى الاستجابة لكل تلك المؤثرات الخارجية من خلال ضبط النظام البيئى، عن طريق ظهور لغات بيدجين إقليمية مختلفة تؤثر كل منها فى الأخرى، وتتأثر بالأجواء المحلية، بل تتأثر على وجه الخصوص بلغات أخرى وفدت من الجزر المجاورة أو من القارة الأسيوية. كانت تساعد هذه اللغات فى البداية على تحقيق التواصل بين المستوطنين والسكان الأصليين الذين احتفظوا بلغاتهم الخاصة لاستخدامها فيما بينهم. إلا أنه كلما انتقل هؤلاء السكان إلى مناطق جديدة بالنسبة إليهم، واتصلوا بجماعات أخرى تتحدث لغات تختلف عن لغاتهم التى عجزت عن منحهم التواصل اللازم مع جيرانهم الجدد، تغيرت وظيفة لغة البيدجين وصارت لغة ناقلة محلية.

الحدود السياسية والنظام البيئى اللغوى

قد يتغير النظام البيئى اللغوى بفعل نوعين من العوامل هما:

- ممارسات المتكلمين أنفسهم، كانتقال السكان من مكان لآخر، أو اكتساب لغة سائدة، أو عدم انتقال بعض اللغات من جيل إلى آخر...إلخ.

- تأثير السلطة السياسية فى مجال اختيار السياسات اللغوية والمدرسية، ومحو الأمية، ووسائل الإعلام، وغيرها من المجالات الأخرى.

وأول أشكال تدخل الدولة فى النظم البيئية اللغوية يتمثل فى رسم الحدود السياسية لأراضيها؛ مما يُلزم الجماعات الشعبية والعرقية واللغوية بالخضوع لتقسيم لا يمت لها بأية صلة على وجه العموم. ونادراً ما تتوافق فى الواقع الحدود السياسية مع الحدود اللغوية، بل قد تكون لتلك التقسيمات السياسية تداعيات هامة تؤثر على الأوضاع البيئية اللغوية واللغويات الاجتماعية، مثل الانجذاب إلى لغة العاصمة، أو إدخال علاقات الازدواجية اللغوية، أو لجوء بعض اللغات إلى الاقتراض من اللغة السائدة، أو فرض اللغة المركزية بصورة تدريجية، أو ما إلى ذلك من أمور أخرى. ورسم الحدود السياسية هو أفضل مثال على التدخل الخارجى فى المحيط البيئى اللغوى؛ لأنها تعيد تنظيم كل الروابط اللغوية الداخلية والبينية، ومن ثَمَّ يتغير نظام التجاذب بأكمله، حيث يمكن أن تتعرض لغة ما للتأرجح بين قوتى جذب، وتتواجد مع لغات مختلفة، بل تتأثر بإحداها، وتدخل فى علاقات مختلفة من الازدواجية اللغوية.

وقد يتعلق هذا الأمر بكل بساطة بما يطرأ على لغة ما بفعل الاقتراض اللغوى من لغتين أخريين مختلفتين خارج نطاق حدودها المحددة. وهذا هو حال لغة الولوف التى يتحدث بها سكان السنغال وجامبيا المطوقة جغرافيًا داخل حدود السنغال . لكن السنغال، التى كانت تقع تحت الاحتلال الفرنسي، مازالت تعتبر اللغة الفرنسية لغتها الرسمية، فى حين أن جامبيا، التى كانت تحت الاحتلال البريطانى، ما زالت تعتبر الإنجليزية لغتها الرسمية. ورغم التصاق هذين البلدين على الخريطة الجغرافية، فهناك اختلاف فى مفردات لغتى الولوف اللتين تُستخدمان فى كلتا البلدين، ولا سيما فى المدن؛ فالولوف فى دكار تزخر بالمفردات المقترضة من اللغة الفرنسية، بينما تفيض الولوف فى بتهارست Bathurst بحالات الاقتراض من اللغة الإنجليزية. ويعنى ذلك أنه إذا ما تعرضت لغة ما بفعل السلطة السياسية إلى الدخول فى نظامين لغوين مختلفين، أى فى نظامى تجاذب مختلفين، فإنها تتغير من حيث الجذب والشكل .

ولدينا وضع مشابه فى منطقة حدود أوروجواى والبرازيل، حيث تغيرت البيئة لأول مرة بفعل وضع الحدود، وقد تتعرض للتغيير مرة أخرى، ولكن لسبب مخالف هو السياسة اللغوية لسوق دول الجنوب المشتركة MERCOSUR . فحينما أنشئت دولة أوروجواى عام ١٨٢٨، كان سكانها عبارة عن خليط من جنسيات متعددة، حيث استقر فى جنوبها مهاجرون أوروبيون ذوو أصول إيطالية وإسبانية وفرنسية ...الخ، وكانوا أقلية لغوية فى مواجهة الغالبية العظمى من الناطقين بالإسبانية، ومتكلمى البرتغالية فى شمال وشمال شرق البلاد الذين صاروا فيما بعد من الأقلية فى هذه المنطقة عقب إقامة دولة أوروجواى. فقد أصبح "قانون التعليم المشترك"، الذى تم إقراره عام ١٨٧٧، بمثابة السهم الذى انطلق إيذانًا ببدء تطبيق السياسة اللغوية التى تهدف إلى توحيد البلاد لغويًا حول اللغة الإسبانية. وسرعان ما اختفت لغات المهاجرين فى الجنوب أمام اللغة الإسبانية، لكن لهجات المناطق الحدودية كانت أكثر مقاومة بفضل جذورها القديمة التى تصل إلى نهاية القرن السادس عشر، وكذلك بفضل المساندة "المنطقية" من قبل متكلمى البرتغالية على الجهة الأخرى من الحدود، أى سكان البرازيل. إلا أن الإسبانية قد صارت لغة التميز، وأصبحت اللهجات البرتغالية شيئًا فشيئًا بمثابة أشكال لغوية توصم صاحبها؛ مما ساعد على شعور متكلمى هذه اللغات بعدم الأمان اللغوى داخل موطنهم. وهكذا، نجد اليوم دولة موحدة لغويًا جنوبيًا، وتتسم إلى حدٍ ما بالثنائية اللغوية شمالاً، ويصير وضع اللهجات البرتغالية مشابهًا لوضع اللغة الألزاسية بفرنسا: نشهد فى كلتا الحالتين وجود نوع لغوى يحتل مكانة منخفضة فى إطار ثنائية لغوية بها نوع لغوى آخر (الإسبانية، الفرنسية) يحتل مكانة مرتفعة هيأتها له عاصمة الدولة (مونتڤيديو، باريس)، كما نجد فى كلتا الحالتين أن اللغة النموذجية (البرتغالية، الألمانية) تتواجد على الجانب الآخر من الحدود.

لم يتم وصف هذه الأشكال اللغوية الحدودية سوى بصورة جزئية وتقليدية للغاية، دون الاهتمام بتحليل أوضاعها الاجتماعية والبيئية اللغوية بشكل يحمل الدلالات المطلوبة. أشارت على سبيل المثال بعض المؤلفات المتاحة إلى بعض الحقائق الصوتية كتحقيق الـ U الختامية فى شكل الـ O فى نهاية الأفعال البرتغالية مثل tenho, canto،

أو وجود تداخل بين الإسبانية والبرتغالية فيما يخص دلالات الأفعال. إلا أن مؤلفات باريوس Barrios وبهاريس Behares التى تعطينا فكرة كلية عن الأوضاع الاجتماعية اللغوية، لم تمنحنا الوصف الملموس لشكل هذه الأنواع الكلامية. وتعد هذه اللهجات الحدودية من أشكال اللغة البرتغالية التى تأثرت بسيادة اللغة الإسبانية، وانتُزعت من أصولها اللغوية "الطبيعية" أى البرتغالية النموذجية بالبرازيل، حيث يبدو أنها قد آلت إلى وضع من شأنه المساعدة على اختفائها. لكن إنشاء السوق المشتركة مؤخراً، وما تبعه من مشروعات السياسة اللغوية التى ارتبطت به، كتدريس الإسبانية بالبرازيل والبرتغالية بالأرجنتين وأوروجواى وباراجواى، قد يكون له أثر فى تحويل مسار تطور هذه الأوضاع. فإن ظهور البرتغالية مرة أخرى كلغة رسمية من شأنه تعزيز اللهجات، والعمل على إحيائها من جديد، وتقليص شعور متكلميها بعدم الأمان اللغوى. وسوف يكون هذا الوضع مثيراً للتناقض؛ لأن أوروجواى التى قد تشكلت لغوياً من خلال مقاومة كل اللغات عدا الإسبانية، وقاومت بوجه خاص البرتغالية فى المناطق الحدودية، قد أصبح لزاماً عليها فى الوقت الحالى تشجيع هذه اللغة البرتغالية : "من أجل توحيد البلاد لغوياً، كافحت أوروجواى ضد اللغة البرتغالية، على مدار عشرات السنين، وبصورة تكاد تكون واضحة للعيان، وننتظر منها اليوم تشجيع استخدام هذه اللغة وتعليمها فى المدارس."

تطرق رولان بارت Roland Barthes عام ١٩٧١ إلى "الشعائر الروحانية" التى تناولها إينياس دو لويولا Ignace de Loyola، وعمد إلى تحليلها باعتبارها إحدى عمليات "خلق اللغة" التى تستلزم وجود "مجال حصرى" و"فراغ لغوى" : "تتمثل وظيفة كل هذه البروتوكولات فى إقامة ما يشبه الفراغ اللغوى اللازم لإرساء اللغة الجديدة وانتصارها؛ فالفراغ هو النطاق المثالى لتحقيق هذا الأمر". وقد استخدمنا هذا النص عام ١٩٧٤ فى سياق الكتاب الذى أصدرناه تحت عنوان "اللغويات والاستعمار"، ولكن مع إدخال بعض التعديلات الطفيفة عليه. فإن بارت قد أثار لدى لويولا التساؤل بشأن كيفية التحدث إلى الله، وجاءت الإجابة بضرورة التخلص من كل أشكال الكلام السالفة، وممارسة الشعائر الروحانية، لكننا عالجنا هذا الأمر بأسلوب آخر: "لم يعد التساؤل

المطروح يدور حول كيفية التحدث إلى الله، بل كيفية التحدث فى عواصم الدول، حينما نتواجد فى مناطق مثل بريطانيا أو كورسيكا، وكيفية التحدث فى عواصم المستعمرات، حينما تكون فى مناطق مثل شمال وجنوب أفريقيا والهند الصينية". كان الهدف هو وصف كيفية فرض إحدى طرق التواصل الذى استلزم فى الأجواء الاستعمارية تهميش اللغات المحلية داخل عواصم المستعمرات' من أجل استخدام لغة حصرية هى لغة المستعمر.

وتوضح لنا الأوضاع الحدودية التى أثرناها منذ قليل، الصراع بين "المجالات الحصرية"، وفقًا لمقتضيات الأحوال، أو إحلال مجال محل الآخر. فإن تعاقب اللغات الحصرية، نتيجة لوضع الحدود السياسية (الفرنسية/الإنجليزية فى السنغال وجامبيا، والفرنسية/الألمانية فى الإقليم الألزاسى، والإسبانية/البرتغالية فى شمال أوروجواى)، قد أسفر عن حدوث سلسلة من التغييرات التى أصابت نظام البيئة اللغوية (تغير الجذب والثنائية اللغوية). ومن ثَمَّ أدى هذا التحول فى العلاقات اللغوية الداخلية إلى عدد من التحولات التى أصابت شكل اللغات المتواجدة (أنظمة الاقتراض اللغوى والأصوات...إلخ). وبعبارة أخرى، يمكننا القول إن الحدود السياسية قد أدت إلى تغير محيط البيئة اللغوية للهجات البرتغالية فى أوروجواى والبرازيل، أو محيط لغة الولوف فى السنغال وجامبيا. وحَرِىٌّ بنا أن نتذكر هنا التعريف الذى وضعناه "للمحيط اللغوى" لإحدى اللغات باعتباره مجموع علاقات هذه اللغة مع اللغات الأخرى والمكانة التى تحتلها فى النظام البيئى، انطلاقًا من الوظائف التى تضطلع بها وعلاقتها بالبيئة التى تتواجد بها. ومثل هذه التحولات قد تسفر فيما بعد عن تغير هذه اللغات شكليًا ووظيفياً؛ مما قد يؤدى فى بعض الحالات إلى اختفائها تماماً.

امتطاء الخيول واللغات الأوروبية

يكفينا إلقاء نظرة خاطفة على تاريخ أوروبا اللغوى، للوقوف على أهمية دور الهجرات المختلفة. فنحن لا نعرف الكثير عن اللغات التى كانت مستخدمة فى أوروبا

منذ ما يقرب من سبعة أو ثمانية آلاف عام، لكن إعادة تركيب اللغة الهندية - الأوروبية والمعالم الأثرية يؤكدان لنا أن الوضع الحالى هو ثمرة هجرة سكانية كبيرة اتجهت من الشرق إلى الغرب.

منذ المحاولات الأولى لإعادة بناء اللغة الهندبة - الأوروبية فى بداية القرن التاسع عشر، شهدت حصيلتنا المعرفية تطوراً كبيراً. فقد استطعنا التوصل إلى إعادة بناء هذه "اللغة الأم"، بفضل ما توفر لدينا من افتراضات تخص القوانين الصوتية، وحاولنا بواسطة المفردات إعادة تكوين النظم الفكرية والاجتماعية لكل اللغات الهندية - الأوروبية، وتوصلنا من خلال الدراسات الأثرية إلى مجموعة من الافتراضات التى تستند إلى المنظور اللغوى، بل سعينا مؤخراً إلى إرساء رؤية تتعلق بخصائص الاستخدام الفعلى للغة الهندية - الأوروبية عن طريق المعالجة البراجماتية. ونحن نعلم أنه نحو عام ٤٥٠٠ قبل التاريخ، تقدم أناس من حوض نهر الفولجا، ووصلوا إلى السهول الواقعة شمال البحر الأسود، وكان من عادتهم دفن قادتهم فى أضرحة تعلوها أكوام من الأتربة تتخذ شكلاً مخروطياً، ويطلقون عليها بالروسية اسم "كورجان" Kurgan، وكانوا يدفنون معهم بعض الخدم والخليلات الذين يبدو أنهم كانوا يُقتلون من أجل مرافقة هؤلاء القادة عند موتهم. ووفقًا لما ذكره ماريچيا چيمبوتاس Marijia Gimbutas ، حمل هؤلاء الغزاة اسم "الكورجان". كما أن دراسة المعالم الأثرية لهذه الأضرحة ولبعض فنون الخزف فيما بعد (الجِرار المستديرة والخزف المعقود)، قد أتاحت لنا الوقوف على الغزوات المتتالية لهؤلاء المهاجرين من أنصاف البدو، بل معرفة تحركاتهم واتجاهاتهم المختلفة. وعقب الموجة الأولى لهجرات الألفية الخامسة، هاجر جمع آخر نحو عام ٣٥٠٠ قبل التاريخ، حيث وفد من شمال القوقاز باتجاه المناطق التى صارت اليوم أوكرانيا وبولندا وألمانيا وشمال إيطاليا. ثم وقعت هجرة ثالثة نحو عام ٣٠٠٠ قبل التاريخ، وأسفرت عن وصول الهنود الأوروبيين (الجنس الآرى) إلى وسط أوروبا.

وليس من الإنصاف قصر نتائج هذه الهجرات العديدة التى وقعت فى أزمنة مختلفة على الجانب اللغوى فحسب، وحصرها فى مجرد جلب لغة جديدة تولدت من

خلالها غالبية اللغات الأوروبية الحالية. فإن التدفق المتتالى لشعوب "الكورجان" فيما بين عامى ٤٥٠٠ و٢٥٠٠ قبل التاريخ، من أجل الاستقرار فى أوروبا، قد أسفر عن العديد من الاضطرابات الثقافية والاجتماعية التى كان الموروث اللغوى من مظاهرها الجلية.

وإذا ما استطعنا التوصل على وجه التقريب إلى معرفة تاريخ نزوح شعوب "الكورجان" نحو الغرب، وما خلفوه من آثار فى مختلف المجالات، يظل أمامنا الوقوف على أسباب وكيفية قدومهم إلى أوروبا. ولا يصح الاعتقاد فى أن "الكورجان" هو فى الأساس شعب محارب، يحمل جميع أنواع الأسلحة، ولديه رغبة شديدة فى التناحر مع جيرانه الغربيين. ولا يجب بالتالى اعتبار موجة الهجرات الهندية-الأوروبية كأحد أشكال غزو أوروبا من قِبل شعب عدوانى يرغب فى فرض قوانينه الخاصة على شعب مسالم. وفى الواقع، فإن مفردات اللغة الهندية-الأوروبية، التى تستخدم حاليًا كأسماء للأسلحة، لم تكن فيما مضى سوى أسماء للأدوات الزراعية التى تحولت عن استخدامها الفعلى، وصارت من الأسلحة المستخدمة فى الصيد. ويبدو أنه خلال العصر البرونزى، تعرّض هؤلاء الأشخاص لإحدى الأزمات التى أجبرتهم على تحويل أدواتهم الزراعية إلى أسلحة تستخدم فى الصيد. "فقد طرأت تغيرات عديدة على نظام الإعاشة أدت إلى توجيه الاهتمام الأكبر نحو الصيد لا الزراعة [...] ومن المحتمل أن قدوم جموع "الكورجان" قد أحدث اضطرابًا فى بيئة أوروبا القديمة، من خلال آلية ما أو آليتين أو مزيج من الاثنين. وقد أدى الإسراف فى استخدام المراعى إلى نفاد الموارد الزراعية؛ مما دفع هؤلاء السكان [...] إلى ممارسة الصيد من أجل زيادة الموارد الغذائية."

وفى عام ١٩٦٨، أكدت چاكلين مينيسى جيتون **Jacqueline Menessy-Guitton** فى كتاب عن اللغة أنه: "لا يبدو أنه هناك أية إمكانية لالتقاء تقنيات اللغويين والمؤرخين." فمنذ ذلك الحين، تطورت الأمور بشكل كبير، وأوضحت الدراسات الأثرية واللغوية التى لا مجال لذكرها الآن، أننا لسنا بصدد شعب مسالم فى مواجهة شعب محارب. وإن هذه المعالجة المتشابكة، التى تخلط بين إعادة البناء اللغوى والأثرى،

تجيب على التساؤل الأول: انتقلت شعوب الكورجان إلى الغرب سعيًا وراء المراعى، وبحثًا عن الغذاء.

ثم يبقى التساؤل الثانى بشأن كيفية تمكنهم من قطع كل هذه المسافات الطويلة، حيث تكمن الإجابة إلى حد ما فى الاختلاف الجذرى بين شعوب "الكورجان" والأوروبيين؛ فقد استأنس "الكورجان" الخيول التى مكنتهم من التحرك بكل سهولة ويسر، فى حين كان الأوروبيون بصفة رئيسية من المزارعين الذين لا يبرحون أماكنهم. ووفقًا لما توصل إليه علماء الحفريات، فإن الخيول الهندية -الأوروبية كانت قصيرة القامة، واستُخدمت أولاً كغذاء، ثم كمطايا منذ عام ٤٠٠٠ قبل التاريخ، وأصبحت تستخدم فى جر العربات منذ عام ٢٣٠٠ قبل التاريخ. وهكذا، صارت هذه الخيول بمثابة أول عوامل اضطراب البيئة اللغوية الأوروبية؛ لأن "الكورجان" ما كانوا ليتمكنوا من ترك موطنهم الأصلى بدون استخدام الخيول فى تنقلاتهم، وما كان الأوروبيون ليعرفوا هذه اللغات. فعلى ظهر هذه الخيول، تمكن "الكورجان" المسلحون من قطع مسافات طويلة، واجتياح أوروبا بأكملها على شكل موجات متعددة من الهجرات، فيما بين عامى ٤٤٠٠ و٣٠٠٠ قبل التاريخ. ولم يقتصر دور الخيول على مجرد نقل "الكورجان" ولغتهم، بل امتد إلى نقل مجتمع بطريركى بأكمله، مجتمع ينقسم إلى ثلاث طبقات (الرعاة المزارعون والمحاربون والرهبان)، ويحتوى على أربعة أقسام اجتماعية هى الأسرة والعشيرة والقبيلة والدولة، مجتمع له معتقداته الدينية ومجموع أربابه من الآلهة السماوية التى تتوافق مع طبقاته الاجتماعية، وذلك على خلاف الأوروبيين الذين كانوا على ما يبدو يعبدون واحدة من الآلهة الأسطورية الجهنمية التى كانوا يعتقدون أنها تعيش فى باطن الأرض. وهكذا، يكون ما آلت إليه أوروبا هو نتاج تهجين نظامين رمزيين واجتماعيين. ويمكننا بالتالى رصد عدد من الاضطرابات منها ما هو لغوى، لكن اجتياح الكورجان لأوروبا، والترويج للعادات الهندية-الأوروبية، قد أسفر كذلك عن تعرض هذه القارة لتغييرات شديدة فى العديد من المجالات المختلفة؛ فإن چيمبوتاس قد ذكر أن "الاحتكاك بين هاتين الأيديولوچيتين وهذين الهيكلين الاجتماعيين والاقتصاديين قد أدى إلى تحول أوروبا القديمة بصورة شديدة."

يوضح لنا هذا المثال أهمية دور الهجرات فى تطور الأنظمة البيئية اللغوية، ومن الممكن تحليله بصورة تحمل قدراً أكبر من الجدة والنفع عن طريق تناوله فى إطار نظرية الفوضى. فالعلوم الطبيعية تصف بالفوضوية كل الظواهر التى تبدو وكأنها وليدة الصدفة، وإن كانت تخضع لقدر من الحتمية؛ وأبسط الأمثلة على ذلك نسوقه من الأرصاد الجوية، ألا وهو مثال "فراشات لورنز" التى قد تؤدى ضربات أجنحتها فى بقعة ما على سطح الكرة الأرضية إلى إحداث كارثة جوية فى مناطق تبعد كل البعد عن تلك البقعة التى تتواجد بها هذه الفراشات. وبعبارة أخرى، نقول إننا لا نستطيع التنبؤ بأحوال مثل هذه الأنظمة، غير أننا نستطيع تفسيرها والتوصل إلى أسبابها فيما بعد؛ فإنها لا تقع بمحض الصدفة، لكن لا يمكن كذلك التنبؤ بها بصورة كاملة؛ فهى إذا متقلبة، وقد تؤدى إلى تضخيم حجم بعض التغيرات الطفيفة بشكل غير متوقع على الإطلاق. وقد اقترح ديدييه دو روبيلار Didier de Robillard إمكانية الاستعانة بهذه النظرية فى تفسير بعض التغيرات اللغوية، ولا سيما على سطح الجُزُر:

"إذا ما تضخم حجم أى تغير طفيف فى نظام لغة ما، بفعل بعض العوامل الاجتماعية، فقد تحدث تغيرات أخرى أكثر أهمية، بفعل ارتداد آثار هذا التغير باتجاه النظام ذاته. وخلاف ذلك، إذا ما تخيلنا حدوث تغيرات اجتماعية ضئيلة تعرضت للتضخيم، بفعل مؤثرات أخرى داخل النظام ذاته، فسوف ينتهى الأمر حتماً إلى اضطراب الأوضاع اللغوية بصورة ذات دلالات واضحة."

إن الآثار الناجمة عن استئناس الخيول، منذ ما يقرب من سبعة آلاف عام، تتوافق مع الجزء الثانى من مقولة روبيلار؛ لأنها تشبه تأثير الفراشات الذى سبق أن أشرنا إليه. وبالنظر إلى تاريخ أوروبا، نجد أن استئناس "الكورجان" للخيول فى منطقة بعيدة تماماً هو من تصريف الأقدار بصورة بحتة، ولا يمت بصلة للأوضاع اللغوية من قريب أو بعيد. إلا أن ذلك الأمر قد انطوى على آثار فتاكة أصابت المحيط البيئى اللغوى بأوروبا؛ لأنه كان السبب الرئيسى فى إتاحة انتقال شعوب أخرى تمتلك لغاتها الخاصة التى فرضت وجودها على مدار القرون التالية، بل حلت محل اللغات التى كانت تتواجد

آنذاك. وهكذا، ما زلنا نشهد حتى يومنا هذا الآثار المترتبة على تفاقم حجم إحدى التغيرات الاجتماعية، أى استئناس الخيول، رغم مرور ستة آلاف عام. ومن المنطلق ذاته، نستطيع بشكل عام تناول تطور الأوضاع البيئية اللغوية التى لا يمكن التنبؤ بها بصورة كلية، ولا يمكن كذلك إرجاعها للصدفة وحدها؛ فليس هناك تضارب بين لفظى الحتمية والفوضوية. وسوف نعود مرة أخرى لعرض هذه المسألة فى الفصل الخامس الذى خصصناه لموضوع انتقال اللغات، وأثر ذلك على الأوضاع اللغوية.

مفهوم خاطئ لعلم البيئة اللغوية الإيكولوجيا اللغوية

مشروع بيكرتون Bickerton للمحاكاة

يشتمل علم البيئة "الإيكولوجيا" على إمكانية محاكاة طريقة سير الأنظمة المختلفة؛ وذلك بالبدء أولاً فى إعداد نموذج مماثل للنظام موضع الدراسة الذى يستلزم تحديد المتغيرات وعلاقاتها بثوابت هذا النظام، ثم دراسة تطور هذا النظام باستخدام الحاسب الآلى. مما يعد باعثًا كبيرًا على محاولة تطبيق مثل هذه التجربة على اللغات، فهل من الممكن أن نشهد ميلاد لغة ما داخل المختبر بطريقة مصطنعة؟

تبنى ديريك بيكرتون Derek Bickerton عام ١٩٩٠، تصورًا ما لمثل هذه المعالجة، حينما دعا إلى ما أسماه "الخلق التجريبى للغة طبيعية"، وسانده فى ذلك ثلاثة مستشارين فى المجالات العلمية هم ستيفن بينكر Stephen Pinker (معهد ماستشوستس للتكنولوجيا MT) وچورچن ميزل Jurgen Meisel (جامعة هامبورج) وتالمى چيفون Talmy Givon (جامعة أورجون).

انطلق هذا المشروع من عدة تساؤلات سبق أن أثرناها فى مقدمة هذا الكتاب: كيف نكتسب اللغات؟ هل نتبع نفس التراكيب النحوية المتواجدة من قبل أم أننا نستطيع خلق قواعد نحوية جديدة من خلال مواد متنوعة وغير منظمة؟...إلخ. وكان الدافع وراء هذا المشروع هو اهتمام بيكرتون بلغات الكريول الهجين، حيث يعتقد أنه

على الرغم من اختلاف هذه اللغات، كاختلاف لغات المحيط الهندى والبحر الكاريبى، فإنها تحتوى على حالات من التشابه الواضح الذى لا يمكن على الإطلاق إرجاعه إلى الصدفة وحدها، ومن ذلك الأفعال المسلسلة على سبيل المثال. كما يؤكد أنه لا يمكن إرجاع هذا التشابه إلى أثر لغات غرب أفريقيا؛ حيث لم يكن لها سوى دور محدود فى تكوين لغات الكريول الخاصة بالمحيط الهندى. ومن ثَمَّ صار التفسير الوحيد لديه هو طرح فكرة "القدرة البيولوچية على خلق لغات يشترك فيها كل أفراد الجنس البشرى"، أى أنه يعتقد فى القواعد النحوية الفطرية التى سبق أن أشرنا إليها فى مقدمة هذا الكتاب. وسعياً وراء التحقق من صحة هذا الافتراض، اقترح بيكرتون وضع مجموعة من الأفراد فى مكان مغلق (فكر فى بادئ الأمر فى جزيرة مهجورة، ثم فى قصر بمقاطعة بروڤانس)، لمدة عام كامل، شريطة أن يكونوا ممن يتحدثون أربع لغات مختلفة، وتكون كل لغة هى اللغة الأم لصاحبها، على ألا يفهم أى منهم لغة الآخر، ولا تكون بينهم أية لغة مشتركة، ثم يتم تزويدهم بعدد من المفردات الأساسية التى اخترعها بيكرتون، ويبلغ عددها مائتى كلمة، وذلك لإجراء دراسة مباشرة على إستراتيجية خلق لغة جديدة. كما يتعين على فريق يضم سبعة ملاحظين ملازمة هؤلاء الأفراد والبقاء معهم فى موقع التجربة، من أجل تدوين وتسجيل كل ما سيحدث بينهم. ويجب أن يتراوح عمر البالغين منهم بين ١٨ و٢٥ عامًا (زوجين من الأفراد لكل لغة)، ويتراوح عمر الأطفال بين ٢ و٥ سنوات، حيث يصبح العدد الكلى للمُختبرين ١٦ بالغًا وما بين ٨ و١٦ طفلاً.

كما يشترط أن يتم اختيار أشخاص يتحدثون لغات تختلف نوعيًا تمام الاختلاف مثل: لغة الباسك والهولندية والفنلندية واليونانية، إلا أنه يتم السماح للمُختَبَرين بتعلم مفردات بيكرتون قبل بدء التجربة. وقد تم تحديد كل الأمور التالية بشكل دقيق، كعمل جدول معد سلفًا للمختبرين بحيث يشتمل على: عقد مسابقات فى استخدام المفردات، ثم التغنى بأغان عرقية، وعرض بعض الرقصات، وصيانة الموقع، والقيام بأعمال الطهى، وما إلى ذلك من أمور أخرى. ولابد أن يضم الفريق العلمى متكلمًا لكل لغة من اللغات الأربعة، وسيتعين على المُختبرين توقيع عقد اتفاق يحصلون بموجبه على مكافأة

تزداد شهريًا (من ٥٠ إلى ٦٠٠ دولار)، بالإضافة إلى منحة نهائية تبلغ ٦,١٠٠ دولار، وهكذا يحصل من سيشترك فى التجربة إلى نهايتها على مبلغ إجمالى قدره ١٠,٠٠٠ دولار.

لم يظهر هذا المشروع إلى حيز الوجود لأسباب عديدة منها عدم توافر التمويل اللازم. ورغم كل شىء، فقد أثارت اهتمامنا فكرة خلق بيئة لغوية مصطنعة. فقد تحدث بيكرتون فى نص هذا البحث عن "تلاعب متعمد بالظروف البيئية"، و"خلق لغة طبيعية فى ظروف تخضع للتحكم التام"؛ وهو بذلك يكون قد تطرق إلى محاكاة البيئة دون أن يشعر، أو ربما دون أن يفصح بالكلمات. ولن نستفيض هنا فى شرح الأسباب الأخلاقية التى تحول فى نظرنا دون إجراء مثل هذه التجربة؛ فيكفينا إطلاق اسم "المُختبرين" على الأفراد موضوع التجربة، وكأنهم فئران تجارب، لكننا سنكتفى بمحاولة تفسير ما نراه من أسباب عدم إمكانية نجاح هذه التجربة.

يتضح من خلال إعادة التشكيل المزعوم لأوضاع العبيد اللغوية، حيث عمل بيكرتون بصفة أساسية على لغات الكريول الهجين، وما ترتب على ذلك من مشكلات أدبية، مدى تجاهل أو إنكار هذا العالِم للروابط القائمة بين اللغة والحياة الاجتماعية. فإن موازين القوى هى التى تحكم ميلاد اللغات الهجين، حيث تتكيف بعض اللغات مع البيئات الجديدة (انظر الفصل الثالث): يسود البيض الذين يتحدثون إحدى اللغات الأوروبية، السود الذين يتحدثون لغات أفريقية مختلفة. ففى ظل هذا الوضع، تسير عملية تعلّم اللغات فى اتجاه واحد فحسب، والدليل على ذلك أن البيض لم يكتسبوا لغات العبيد. ومن ثم، فإن مشروع بيكرتون كان محكومًا عليه بالفشل قبل بدايته؛ لأنه اقترح محاكاة شيئًا اخترعه بنفسه، ولا دليل على إمكانية تواجده على أرض الواقع. ومن الملاحظ أن اللغات الأربعة المتواجدة فى إطار هذه التجربة تتساوى تمامًا من جميع النواحى، لتساوى عدد المتكلمين بكل لغة على حدة؛ فلا توجد لغة تحظى بمكانة تفوق الأخرى، كما لا تضطلع أى لغة بعدد أكثر من الوظائف، داخل هذه البيئة المخلّقة المصطنعة. كما تعمد بيكرتون استبعاد اللغة الإنجليزية من هذه التجربة، بيد أن

المحاكاة الوحيدة التى قد تكون مقبولة تستلزم الإتيان بمُختبرين لا يتحدثون الإنجليزية مع محاولة فرض هذه اللغة عليهم، عن طريق اختيار العلماء المسئولين عن تلك التجربة ممن تكون الإنجليزية هى لغتهم الأصلية. إلا أنه على ما يبدو كان لابد أيضًا من تزويد هؤلاء المسئولين بالسياط ووضع القيود الحديدية فى أرجل للمُختَبَرين ...!!!

والوسيط الذى تم اختياره هنا لم يكن سوى مجموعة من المفردات حقن بها بيكرتون البيئة المصطنعة ، موضحًا أنها لا تمت بصلة لأى من اللغات الواقعية. غير أن هذه المفردات هى أكثر ما أثار انتباهنا؛ لأنها تعرض لنا فى الوقع أمرًا فى غاية الغرابة، إذ كيف يتسنى لشخص ما اختراع كلمات لا تمت بصلة للغة واقعية؟ فلا جدال أن عالِم اللغويات ذاته يعجز فى كل الأحوال عن إتيان هذا الأمر. وإذا ما استعرضنا قائمة الكلمات التى اخترعها بيكرتون، فسوف يتبادر إلى أذهاننا على الفور العلاقة بينها وبين اللغات الواقعية، ومنها على سبيل المثال : doso بمعنى "ظَهر" (بالفرنسية : riko (des بمعنى "فول" (بالفرنسية: -biri (haricot بمعنى "بيرة" (بالإنجليزية: -fundu (beer بمعنى "قاع" (بالفرنسية:-pane (fond بمعنى "خبز" (بالإيطالية. broko (pane بمعنى "كسر" (بالإنجليزية: hundu (break بمعنى "كلب" (بالألمانية: (hund بمعنى peshi "سمك" (بالإنجليزية: fish وبالإيطالية: -ale (pesce بمعنى "ذَهَب" (بالفرنسية: -montu (aller بمعنى "جبلاية" (بالفرنسية: -sabe (mont بمعنى "عَرَفَ" (بالإسبانية: lota (saber بمعنى "كثير" (بالإنجليزية: pisi (a loti بمعنى "قطعة" (بالإنجليزية: dodo (piece بمعنى "نام" (بالفرنسية: fema (dodo بمعنى "امرأة"(بالفرنسية: kidi (femme بمعنى "طفل" (بالإنجليزية: ...kid)إلخ. وفى حالات أخرى، يبدو هذا التقارب طفيفًا مثل كلمتى kubu بمعنى "كتاب" و bruno بمعنى "احترق"، اللتين تعتبران تحريفًا لكلمتى book و burn بالإنجليزية، وكلمتى kopu بمعنى "قهوة" و mayo بمعنى "قدرة" اللتين تذكرانا بكلمتى cup و... may .. إلخ.

ورغم عدم أهمية هذه الأدلة الدامغة فى الوقت الحالى، فإنها بلا شك تدحض اقتراح بيكرتون، ولا سيما أن المُختَبَرين لابد أن يكونوا ممن يتحدثون لغة واحدة فقط

هى بالطبع لغتهم الأم، ويكونوا بوجه خاص ممن يجهلون اللغة الإنجليزية، بل لا يعلمون عنها شيئًا على الإطلاق. ولكن هل من المنطقى أن يجهل الهولندى أو الباسكى أو الفنلندى أو اليونانى اللغة الإنجليزية، بحيث لا يلم بكلمة واحدة من مفرداتها؟ وهل من المعقول ألا يكون أى من هؤلاء الأفراد قد شاهد كلمة beer أى "بيرة" على إحدى الزجاجات، أو كلمة mont لوصف جبل ما على إحدى الخرائط؟ ...إلى آخر تلك الكلمات التى يجب أن يكونوا قد سبق لهم رؤيتها ولو بمحض الصدفة. وكل هذا لا يعنى شيئًا فى حقيقة الأمر؛ لأن التجربة لم تجد طريقها إلى حيز الوجود، لكن ما يثير اهتمامنا هنا هو غياب القدرة على الإبداع الحقيقى. فقد كان من الممكن الاستعانة بالحاسب الآلى من أجل صياغة تلك المفردات الأساسية بشكل عفوى، وهذه هى الطريقة التى تم بها اختيار اسم "توينجو" Twingo، لإطلاقه على إحدى سيارات شركة "رينو" Renault الفرنسية، وذلك رغم التأثير الذى سيتركه المُبرمج حتمًا على النظام الموضوع. إلا أن كون بيكرتون قد تأثر باللغات التى يعرفها عند ابتكار مفرداته الأساسية يجعلنا نعتقد أن المُختَبَرين كانوا حتمًا سيتأثرون بلغاتهم الخاصة أو بلغة من اللغات الأربعة؛ فقد يؤدى انجذاب البعض لإحدى اللغات إلى فرض وجودها على باقى لغات المُختَبَرين ، بحيث يتواصلون جميعًا بطريقة أقرب إلى اليونانية أو الهولندية على سبيل المثال. فالعامل البشرى هنا هو عامل رئيسى، واللغات الأربعة أو بالأحرى المجموعات الأربعة لن تستطيع البقاء طويلاً على قدم المساواة. وإذا نجحوا حقًا فى خلق لغة مركبة، فسوف نجد أنفسنا أمام ما يشبه الترميم المعقد لِمَا أدخلناه فى أنبوب الاختبار من لغات وأفراد. ونعنى بالترميم هنا محاولة التكيف مع البيئة، من خلال المقاربات الهيكلية، أو الضبط اللغوى، أو ما إلى ذلك من سبل أخرى تسهم فى التوافق مع الأمور المستجدة. وإن عدم إمكانية إخضاع هذه المحاكاة اللغوية لقوانين الحاسب الآلى تنطوى على العديد من المعانى البلاغية. فقد كان هدف هذه الفكرة هو التحقق من صحة افتراض وجود قواعد نحوية فطرية، واستلزم هذا الأمر بالتأكيد وجود عقول بشرية، لكنه لم ينجح فى صياغة النموذج اللازم لها. فالوجود الإنسانى لا يقتصر فحسب على العقل البشرى؛ والإغفال التام للاعتبارات الاجتماعية يجعل من هذا

المشروع فكرة خيالية غير قابلة لملامسة أرض الواقع. لكننا رغبنا فى إثارة هذا الأمر من أجل التأكيد على أن "إيكولوچيا اللغات"، أى العلاقات بين اللغة والبيئة، تتسم بالتعقيد أكثر مما يظن بيكرتون، بل من أجل التأكيد مجدداً على أنه نادراً ما تتسم المنهجية العلمية بالحياد التام، مما يؤثر على الصور التى تعطينا إياها بشأن الحقائق موضع الدراسة. ولابد من التحكم فى هذه التداعيات، رغم صعوبة ذلك لتعدد العوامل المؤثرة؛ فاللغات ليست مجرد آليات تسير بنظام تام وبشكل مستقل عن البيئة المحيطة بها.

الخاتمة

وهكذا، يمكننا تلخيص كل ما سبق فى العبارات التالية: اللغات هى ممارسات تندرج داخل نظام عالمى تجاذبى ينقسم إلى مجموعات تماثل مجموعات النجوم (انظر الفصل الثانى) حيث تتواجد اللغات، وتقع كل لغة فى إطار محيط يتحدد من خلال علاقاتها باللغات الأخرى، والوظائف التى تضطلع بها داخل البيئة. وكل لغة، أى كل مجموعة من الممارسات الواقعة داخل سياق اجتماعى وتاريخى محدد، لها قدرة احتمال؛ ونعنى بذلك تحديد عدد البيئات التى تستطيع شغلها، وقدرتها على الانتقال داخل بيئة ما (انظر الفصل الخامس). كما هناك العامل المواتى السائد؛ ونعنى بذلك عدد المتكلمين بهذه اللغة، فضلاً عن بعض العوامل الثانوية الأخرى، مثل عامل التمثيلات الذى يحظى بدور رئيسى (انظر الفصل الرابع). وتؤثر البيئة بدورها فى اللغات، من خلال بعض المؤثرات التى تستجيب لها اللغة، بواسطة طريقة الضبط (انظر الفصل الثالث). وتحدد كل هذه العلاقات المعقدة ما أطلقنا عليه اسم "إيكولوچيا اللغات" أو "علم البيئة اللغوية"؛ فهذا هو الإطار الذى سنعمل من خلاله. وتستلزم بالتالى المعالجة البيئية للأوضاع اللغوية العالمية دراسة العلاقات بين مجموع الممارسات، وآثار المؤثرات الخارجية على هذه الممارسات، وذلك عند معالجة أحد الأوضاع اللغوية مهما بلغ حجمه، لا فرق فى ذلك بين جماعة الفرنسيين من ذوى الأصول المغربية وكوكب الأرض بأكمله، أو بين جزيرة صغيرة وإحدى المنظمات الدولية .

إننا لا نعتبر هذه الممارسات اللغوية، حيث نجد الممارسات > اللغات، بمثابة كائنات[1]. بل بمثابة جماعات سكانية؛ أى مجموعات من البدائل التى سبق أن عرّفناها فى مقدمة الكتاب، والتى تشكل المتغير الذى نعدّه كإحدى الجماعات السكانية. ومثلما يدرس علم الوراثة القدرة على التكاثر، وحدوث الطفرات بين أفراد الجنس الواحد الذين يعيشون فى منطقة جغرافية واحدة، فإننا سنعمد إلى دراسة انتقال اللغات، وتغيرها داخل محيطها البيئى اللغوى .

(١) فى يوليو عام ١٩٩٨، وفى أثناء قيامنا بعرض موضوع علم البيئة اللغوية، خلال انعقاد إحدى المؤتمرات بجامعة شيو Chuo فى طوكيو، أشار لنا الزميل فلوريان كولماس Florian Coulmas بأن اللغات ليست من الكائنات الحية. وبكل تأكيد، فإن اللغات هى مجموعة من المتغيرات و الممارسات، بل هى فى كلمة واحدة مجموعات سكانية.

الفصل الثانى

مجرة اللغات

يصطدم يوميًا جزء كبير من البشرية بالعديد من اللغات التى قد يكتسب بعضها ويترك البعض الآخر. وهناك جزء أكثر محدودية من هذه البشرية ذاتها يجد نفسه فى مواجهة عدة اختيارات للتواصل: بأية لغة يكتب كتابًا أو يدون أغنية؟ وبأية لغة يصور فيلمًا أو يحرر طلبًا؟... إلى آخر تلك التساؤلات التى تدور فى فلك هذه الاختيارات غير المجانية، والتى تهدف إلى تحقيق أكبر قدر من النفع. فالتاجر السنغالى الذى يقيم بمدينة برازافيل عاصمة الكونغو، والذى يتعلم لغة المونوكوتوبا munukutuba أو اللينجالا lingala، لم يولِ أهمية لتعلم لغة "جميلة" أو "لطيفة"، بل حرص على اختيار لغة "مفيدة" تساعده على ممارسة مهنته، أى لغة يتحدث بها العملاء المُرتقَبُون. والروائى الفرنسى المارتينيكى يجد نفسه فى حيرة بين الكتابة بلغة الكريول الهجين من أجل تحقيق هويته، والكتابة باللغة الفرنسية التى تتيح له مخاطبة جمهور عريض، مثله فى ذلك مثل فرق الروك أند رول الموسيقية السويدية أو الألمانية التى قررت تسجيل أغنياتها باللغة الإنجليزية.

ولا يمكن تفسير هذه الاختيارات والاستراتيجيات من خلال التصنيفات النوعية اللغوية التقليدية (التصنيف السلالى أو الهيكلى أو الوظيفى...إلخ). ففى ضوء التصنيفات السلالية، قد نتصور على سبيل المثال أن المتحدث بإحدى اللغات المشتقة من اللاتينية (الرومانية) لابد أن ينزع إلى اكتساب لغة أخرى من نفس العائلة اللغوية، حيث يعدُّها أكثر سهولة بالنسبة إليه من الإنجليزية أو الصينية، ويمكن كذلك أن نتصور أن المتحدث بلغة سامية كالعبرية يميل أكثر إلى اكتساب لغة سامية أخرى

كالعربية، بسبب تشابه تراكيبهما النحوية. لكن ليس هذا هو ما يحدث بوجه عام؛ لأنه إذا ما رغب هؤلاء المتكلمين فى تعلم لغة أخرى غير لغتهم الأصلية، فإنهم ينتقون- من داخل بيئتهم اللغوية وفى حدود الإمكانات المتاحة - لغة تحقق لهم نفعًا ما. وإن كانت عملية "الانتقاء" تلك تتسم بقدر من المحدودية، حيث لا يستطيع الأفراد دومًا اختيار لغاتهم؛ لأنهم يخضعون لأحكام البيئة التى يتواجدون بها، فيضطرون للاختيار من بين اللغات المتواجدة فى هذا المحيط وفقًا لاحتياجاتهم الخاصة، وقليلاً ما يستند اختيارهم إلى التصنيف النوعى للغات المتواجدة .

هناك ما يشوب تلك التصنيفات اللغوية المتنوعة، رغم أنها تحمل بالفعل قدراً من النفع وتضطلع بوظيفة ما، لكنها تؤدى فى نهاية الأمر إلى تفتيت الواقع اللغوى العالمى. فكيف يمكن إذن عرض مثل هذا الواقع اللغوى، مع الأخذ فى الاعتبار العلاقات التى تربط بين كل لغات العالم؟ سوف نحاول تخصيص هذا الفصل لعرض هذا الموضوع، باستخدام نموذج التجاذب الذى استلهمنا بدايته من افتراضات ابراهام دو سوان(١) Abraam de Swaan، بعد أن عمدنا إلى تعديلها واستكمالها.

الكوكبات اللغوية

حَرِىٌّ بنا أن نبدأ برؤية سوان المستمدة من علمى الاجتماع السياسى والاقتصاد السياسى، حيث اعتبر مجمل لغات العالم بمثابة مجرة هائلة، وافترض أن كل هذه

(١) عرض ابراهام دو سوان مواقفه فى عدد من الإصدارات التى نذكر منها على سبيل المثال:

The Evolving European Language System: a Theory of Communication Potential" and Language System", in Revue internationale de science politique, vol 14, N?3, juillet 1993; Unequal Relations between Language Groups, Amesterdamse School voor Sociaalwetenschappelijk Ondserzoek, 1995; "La francophonie en Afrique. Une vision de la sociologie et de l'économie politique de la langue", in C.Juillard, L-J.Calvet, Les Politiques linguistiques, mythes et réalités, FMA-AUPELF-UREF, Beyrouth 1996.

اللغات تتصل فيما بينها بواسطة المتكلمين ثنائيي اللغة. وتحتوى هذه المجرة على مجموعات فرعية من اللغات "الطرفية" التى لا يوجد بينها أى اتصال، رغم أنها تتصل باللغة المركزية بواسطة ثنائيي اللغة، ويمكن التعبير عن هذا الوضع من خلال الشكل التالى :

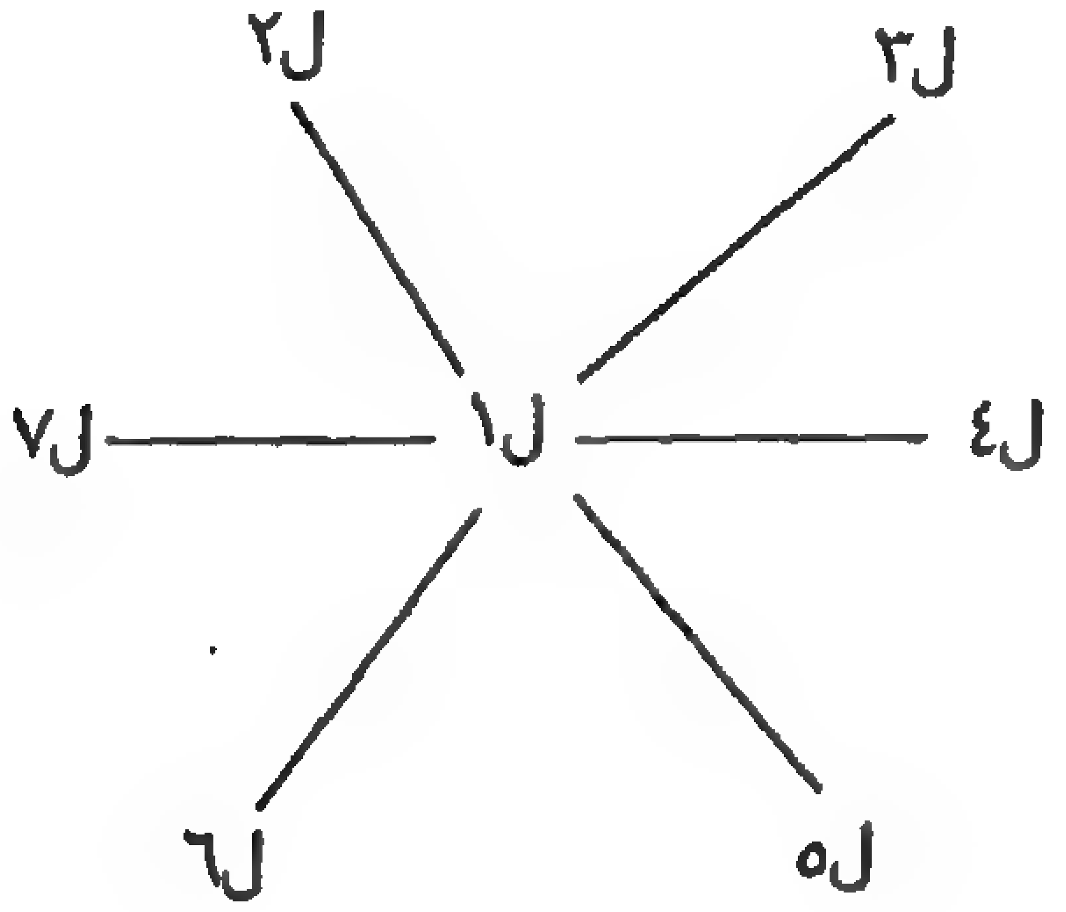

ل١. اللغة "المركزية"

ل٢- ل٧ اللغات "الطرفية"

يجب الوقوف على معنى هذا الشكل المبسط على النحو التالى: إن المتكلمين باللغات ل٢ ول٣ ول٤..الخ، يجيدون فى أغلب الأحيان التحدث أيضًا باللغة الرئيسية ل١ التى تحتل بذلك مكانة خاصة تقع فى مركز هذه الكوكبة. وهذا ما كنا نلاحظه فى الاتحاد السوفيتى السابق حيث كانت الروسية فى أغلب الأحيان هى إحدى لغتى السكان ثنائيي اللغة، أى أنها كانت بمثابة مركز الكوكبة اللغوية هناك، كما هو الحال بالنسبة للغة العربية داخل كوكبة اللغات فيما بين المشرق والمغرب، وهو كذلك حال اللغة الفرنسية داخل كوكبة ثالثة فى بعض المناطق الأفريقية. وسوف نكتفى فى الوقت الحالى بهذا النموذج المبسط. رغم أن الأمور قد تكون أكثر تعقيدًا؛ لأنه كما سنرى فيما بعد، قد تحتل لغة واحدة فى الوقت ذاته مكانين داخل كوكبتين مختلفتين، بحيث تكون فى الأولى لغة مركزية، بينما تكون فى الثانية لغة طرفية.

فى هذا النموذج المبسط، يمكن اعتبار علاقة ارتباط اللغة المركزية باللغات الطرفية كأحد أشكال التجاذب؛ فمتكلمو اللغات الطرفية ينجذبون إلى اللغة المركزية، مما يعكس

النزوع نحو نوع من الثنائية اللغوية المائلة باتجاه المركز. ولنأخذ على سبيل المثال حالة المغرب أو الجزائر، حيث نلاحظ أن من يتحدث العربية والبربرية تزيد لديه بشكل كبير احتمالات أن تكون لغته الأولى هى البربرية، وهذه النزعة توضح فكرة الجاذبية. وبوجه عام، يتم تعريف الجاذبية باعتبارها ظاهرة انجذاب جسمين بواسطة قوة تتناسب طردياً مع ناتج كتلتيهما، وتتناسب عكسياً مع مربع المسافة التى تفصلهما. وهذا ما يحدث تقريباً داخل الكوكبات اللغوية، حيث نجد فى بعض البقاع الطرفية قوة جذب تقل عن تلك التى نجدها بالقرب من المركز، بل نجد ما يشبه صراع قوى الجذب، ولا سيما حينما تتجاذب اللغات المركزية ذات الكتل الهائلة. وعلاوة على ذلك، فإن اللغات المركزية فى المجموعات الفرعية قد لا ترتبط فيما بينها بواسطة ثنائيِّ اللغة، لكنها ترتبط بلغات تفوقها فى الاقتراب من المركز، أى بلغات شديدة المركزية ترتبط بدورها بلغة فائقة المركزية تعد بمثابة أعلى نقطة فى الكوكبة ، أى مركز"نظام التجاذب اللغوى". وبهذا نكون قد توصلنا إلى صياغة نموذج مؤقت يشتمل على أربعة مستويات هى:

- المستوى الأول: لغة فائقة المركزية
- المستوى الثاني: حوالى عشر لغات شديدة المركزية
- المستوى الثالث: ما بين مائة ومائتى لغة مركزية
- المستوى الرابع: ما بين أربعة وخمسة آلاف لغة طرفية

لابد من توصيف الثنائية اللغوية التى تعد بمثابة أداة التماسك داخل هذا النظام، من خلال عاملين هما: طريقة اكتساب هذه الثنائية واتجاهها. لكن يجب أولاً التمييز بين التَعَلُّم المنهجى للغة ما داخل المؤسسات التعليمية مثل المدرسة، وبين التَعَلُّم العفوى، أى التلقائى أو غير الرسمى الذى يتم عن طريق الممارسات الاجتماعية (التَعَلُّم بشكل عفوى من خلال الممارسة اليومية). وجدير بالذكر أن عملية التَعَلُّم قد تستهدف لغة ثانية من مستوى اللغة الأولى نفسه، مما يسفر عن وجود ثنائية لغوية أفقية، فى حين تتواجد لدينا ثنائية لغوية رأسية إذا ما استهدف التَعَلُّم لغة تقع فى مستوى أعلى أو أقل من مستوى اللغة الأولى.

في المستوى الأول، لا نجد اليوم سوى لغة واحدة هي اللغة الإنجليزية التي تعتبر اللغة الأولى للعديد من المتكلمين الذين ينزعون إلى الاحتفاظ بكونهم أحاديي اللغة، فلا يسعون إلى تَعَلُّم لغة أخرى .

في المستوى الثاني، نجد حوالي عشر لغات (العربية والروسية والسواحيلية والفرنسية والهندية والملايية والإسبانية والبرتغالية والصينية...)، حيث تعد هذه اللغات اللغة الأولى للعديد من المتكلمين الذين ينقسمون بين الميل إلى الاحتفاظ بكونهم أحاديي اللغة، أو النزوع نحو الثنائية اللغوية عن طريق تعلُّم لغة من مستوى لغتهم الأولى (ثنائية لغوية أفقية)، أو تعلُّم لغة المستوى الأول (ثنائية لغوية رأسية). ولغات هذا المستوى هي بالتأكيد من أكثر اللغات تحدثًا في العالم، لكن العدد الهائل للمتحدثين لا يكفي وحده لوضع لغة ما في مستوى اللغات شديدة المركزية، كما هو الحال على سبيل المثال بالنسبة للألمانية واليابانية، بيد أن عدد متكلمي هاتين اللغتين يفوق المائة مليون شخص .

في المستوى الثالث، نجد حوالي مائة لغة يبدي متحدثوها ميلاً نحو الثنائية اللغوية عن طريق تعلُّم إحدى لغات المستوى الثاني (ثنائية لغوية رأسية)، ومن بين هذه اللغات نذكر الولوف والبمبارا في أفريقيا، والكينشو في أمريكيا الجنوبية، واللغتين التشيكية والأرمينية في أوروبا الشرقية، فضلاً عن العديد من اللغات الأخرى.

في المستوى الرابع، نجد لغات ينزع متكلموها نحو التعددية اللغوية الأفقية والرأسية.

ولسنا هنا بصدد قوانين محددة، بل بصدد اتجاهات المتكلمين التي أكدتها العديد من الدراسات التجريبية القائمة على الملاحظة والاختبار. وتجدر الإشارة إلى وجود اتجاه عام يطغى على الثنائية اللغوية الأفقية، حيث بدأ المتكلمون في التحول نحو اكتساب لغة من المستوى الذي يعلو لغتهم الأولى مباشرة. ولنذكر على سبيل المثال السنغالي الذي يتحدث إحدى لغات المستوى الرابع (السيرير Sérère أو الديولا Diola)، ويكتسب أولاً لغة تقع في المستوى الثالث لكوكبته اللغوية ألا وهي الولوف، ويتبع ذلك باكتساب لغة من المستوى الثاني هي اللغة الفرنسية، وقد يكتسب أخيراً اللغة فائقة المركزية أي الإنجليزية. ومن هنا يمكننا أن نستخلص أربع حالات افتراضية هي:

	اكتساب عفوى	اكتساب منهجى
لغة من نفس المستوى	١	٢
لغة من مستوى أعلى	٣	٤

١- يمكن تطبيق هذه الحالة على متحدث الديولا بكازاعنس Casamance الذى اكتسب لغة المنجاك manjak، أو على متحدث لغة الدوجون Dogon بمالى الذى اكتسب لغة البول peul.

٢- يمكن تطبيق هذه الحالة على طالب المدرسة الفرنسى الذى يدرس اللغة الإسبانية.

٣- يمكن تطبيق هذه الحالة على متحدث الديولا بكازامنس الذى اكتسب لغة الولوف، أو على متحدث الدوجون بمالى الذى اكتسب لغة البمبارا أو اللغة الفرنسية فى مكان عمله.

٤- يمكن تطبيق هذه الحالة على طلبة المدارس الفرنسيين الذين يدرسون اللغة الإنجليزية، أو على متحدثى الديولا بكازامنس الذين يتعلمون اللغة الفرنسية بالمدرسة.

وهكذا، نحظى بداية بعدد من الكوكبات اللغوية التى تدور حول لغة فائقة المركزية هى اللغة الإنجليزية:

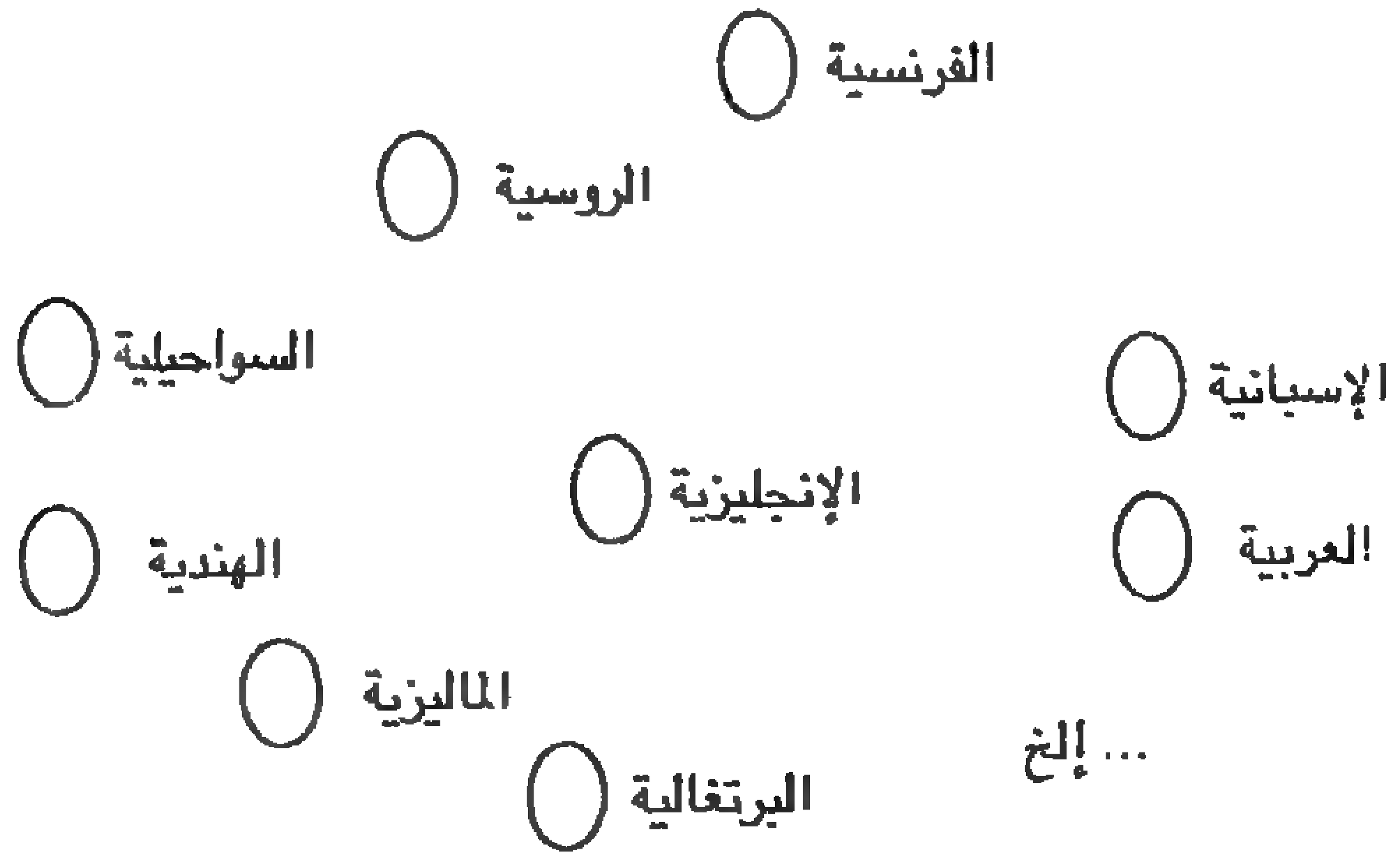

ونجد فى كل واحدة من هذه الكوكبات لغات أخرى تدور حول إحدى اللغات شديدة المركزية، كاللغة الفرنسية على سبيل المثال:

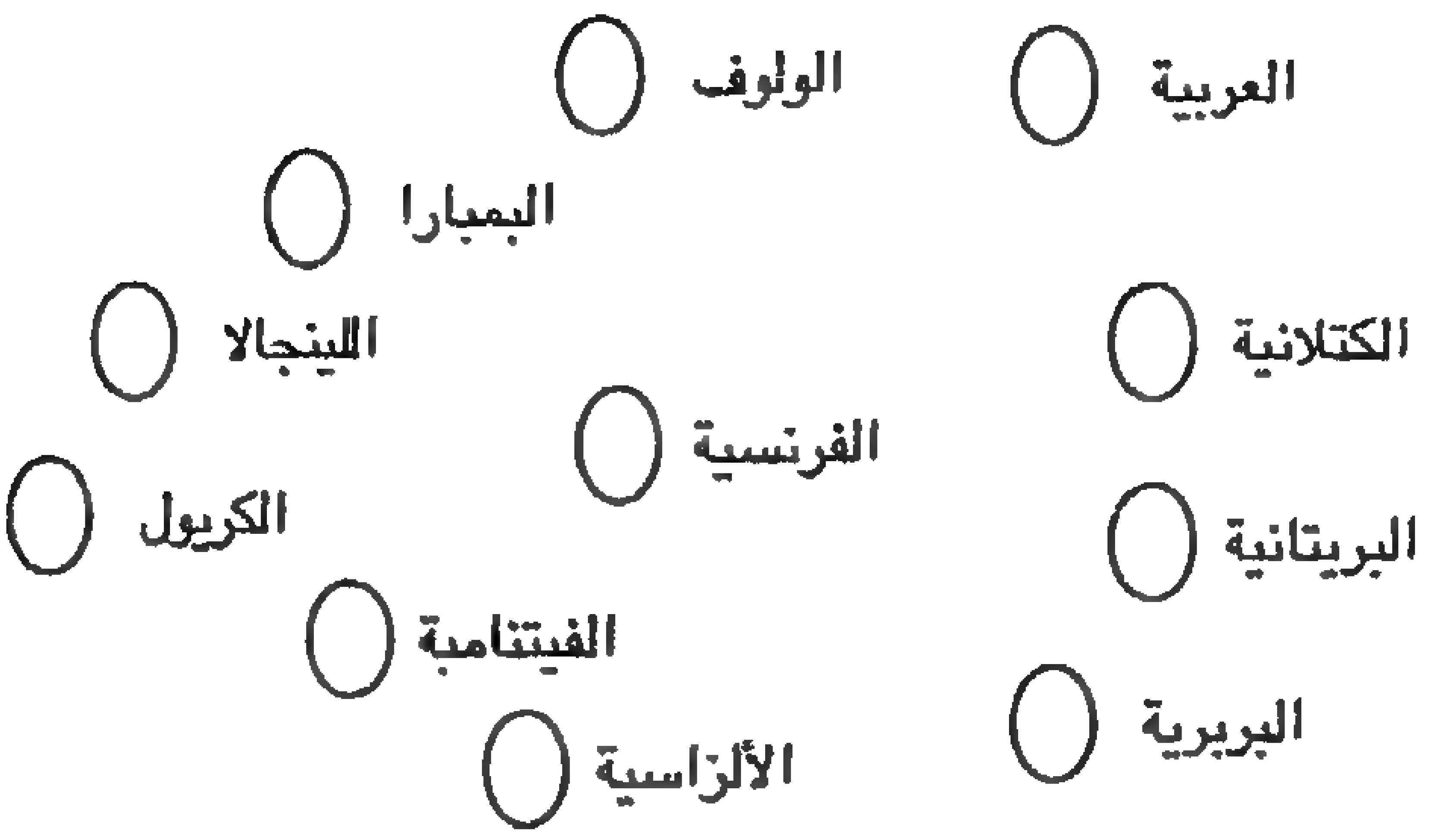

وأخيراً، يمكننا القول إن كل لغة من اللغات السابقة التى تدور فى فلك اللغة الفرنسية هى بدورها مركزاً لإحدى الكوكبات الأخرى، وسنعرض لهذا الموضوع فيما بعد، من خلال مثال ملموس هو مثال "كوكبة لغة البمبارا".

وتظل أمامنا مسألة ديناميكية هذا النظام إذا ما تناولناها كما نتناول منظومة المجموعة الشمسية. فكيف تتطور العلاقات التى تربط بين اللغات والجماعات السكانية؟ لا جرم أن السكان يضطلعون بدور هام فى هذا الأمر، بالإضافة إلى دور الغزوات والفتوحات الدينية والدخول فى ديانات جديدة والتجارة... إلى آخر تلك العوامل. وكما يحدث على أرض الواقع حين تكون الغلبة للأغنياء، هناك نوع من التفاعل الديناميكى الداخلى الذى يزيد من تكالب الجميع على اكتساب اللغات القيِّمة. وكما ذكرنا من قبل، فإن اللغة هى منتج جماعى يخضع لملكية الجماعة، ولا يستطيع أى فرد بمفرده خلق لغة ما أو الإبقاء عليها، ولا يستطيع كذلك أى شخص بمفرده الحيلولة دون خلق لغة ما أو القضاء عليها. وتستمد اللغة إلى حد ما قيمتها من هذه الملكية الجماعية؛ لأنه كلما ازداد عدد مستخدميها ارتفعت قيمتها. ولا يعد ذلك المحرك الوحيد لحدوث التغييرات اللغوية، حيث سنرى على سبيل المثال فى الفصل الرابع كيفية حدوث عملية التطور فى أثناء انتقال اللغات وتغير الأوضاع اللغوية، كما سنعرض فى الفصل الخامس لدور التمثيلات اللغوية عند حدوث مثل هذه التطورات.

نموذج المجرة والسياسة اللغوية

مثال المجموعة الأوروبية

يتيح لنا نموذج التجاذب دراسة احتمالات التدخل المصطنع فى الأوضاع اللغوية، وهو ما نطلق عليه اسم السياسات اللغوية. بالنظر إلى نوعية الروابط المتواجدة بين لغات الكوكبة الواحدة، نجد صعوبة شديدة فى الاقتناع بأن أى تدخل خارجى يصيب لغة غير مركزية من شأنه تغيير شكل علاقة هذه اللغة باللغة المركزية، وعلى سبيل المثال فإن أى نشاط يصيب اللغة البريتانية لن يؤثر على وضع اللغة الفرنسية باعتبارها اللغة المركزية للكوكبة التى تتبعها البريتانية. وفى المقابل إذا كان من غير الممكن إعمال السياسات اللغوية على المستويات الطرفية بشكل منفصل، فهل من الممكن تغيير النظام بأكمله بفعل إحدى السياسات اللغوية الدولية الجماعية التى تستهدف لغة أقل قدراً من اللغة المركزية؟ أى هل من الممكن أن تستفيد إحدى اللغات الطرفية المتواجدة فى العديد من الكوكبات - كلغة "البول" - من بعض الحركات النشطة عبر الكوكبات اللغوية؟

والمثال الأوروبى هو من الأمثلة الجيدة على مشكلات السياسات اللغوية التى نعاود تناولها مجدداً فى ضوء نموذج التجاذب. فالقاعدة الرئيسية لسياسة البرلمان الأوروبى اللغوية تقوم على الاستخدام التلقائى لكل لغات الدول الأعضاء فى أعمال البرلمان؛ مما يضعنا حالياً أمام استخدام فعلى لإحدى عشرة لغة قابلة للزيادة فى حالة انضمام بعض الدول الأخرى للمؤسسات الأوروبية مثل المجر وبولندا وتشيكوسلوفاكيا، أى أن المجموعة الأوروبية تستخدم فى أعمالها ما يقرب من ضعف اللغات المستخدمة فى الأمم المتحدة أو فى اليونسكو (ست لغات). ويمكن تقسيم هذه اللغات على النحو التالى :

- لغة فائقة المركزية: الإنجليزية.

- لغات شديدة المركزية: الفرنسية والإسبانية والبرتغالية.

- لغات مركزية أو لغات طرفية: الإيطالية واليونانية والهولندية والدانمركية والسويدية والألمانية والفنلندية.

وفقًا لمنطق النموذج الذى نعرض له، لابد أن يكون متحدثو اللغة الإنجليزية كلغة أولى من أحاديى اللغة، فى حين يكون متحدثو اللغة الفرنسية أو الإسبانية أو البرتغالية كلغة أولى من أحاديى اللغة أو ممن اكتسبوا إحدى اللغتين الأخريين، بالإضافة إلى/أو تعلم اللغة الإنجليزية، بينما يسعى متحدثو الإيطالية أو اليونانية أو الهولندية أو الدانمركية أو السويدية أو الألمانية أو الفنلندية إلى اكتساب إحدى اللغات الثلاثة الواقعة فى المستوى الثانى قبل اكتساب اللغة الإنجليزية. ورغم أننا لا نملك دراسات محددة بشأن التعددية اللغوية الأوروبية، من أجل التأكد من وجود هذا الافتراض على أرض الواقع، فإن بعض الأبحاث الدقيقة قد أمدتنا بقدر من المعلومات، مثل الاستبيان الذى شمل خمسة آلاف شخص من العاملين بالمجموعة الأوروبية، وتبين أنهم يستخدمون ثلاث لغات بشكل رئيسى فى التواصل الداخلى:

- يتم التواصل الشفهى باستخدام الفرنسية (٦٢٪) والإنجليزية (٣١٪) والألمانية (٦٪).

- يتم التواصل المكتوب باستخدام الفرنسية (٦٤٪) والإنجليزية (٣٥٪) والألمانية (١٪).

وقد يبدى البعض دهشته إزاء غلبة اللغة الفرنسية، لكن الأمر يرجع إلى تأخر انضمام بريطانيا إلى المجموعة الأوروبية؛ مما ساعد على إرساء وضع اللغة الفرنسية دون منافس، ولا سيما أن المُنضمين الجدد قد فضلوا إبقاء الوضع على ما هو عليه. لكن بقاء الحال من المحال(١)؛ فمع بداية عام ١٩٩٦، أقبل ١٧١ نائبًا أوروبيًا على تعلم ثلاث لغات اختلف ترتيبها وفقًا لدرجة الإقبال على تعلمها، فصار كالتالى: الإنجليزية ثم الفرنسية وأخيراً الألمانية.

أسفرت تداعيات نظام التجاذب العالمى على أوروبا عن وجود منطقة تقاطع وصراعات بين مختلف الكوكبات التى تمتد لتشمل أماكن أخرى، فنجد مثلاً أن

(١) تختلف هذه الأرقام باختلاف أعمار الأفراد الخاضعين للبحث، ونلاحظ تزايد نسبة اللغة الإنجليزية كلما ارتفعت الأعمار.

"الكوكبة الإسبانية" ترتكز على أمريكا اللاتينية، وأن "الكوكبة الفرنسية" تستند إلى أفريقيا، فى حين تنتمى اللغة السويدية أو الدانمركية إلى "الكوكبة الإنجليزية"، وتتأرجح الألمانية بين الكوكبتين الفرنسية والإنجليزية التى تنجذب إليها بصورة أكبر.

وتثير التعددية اللغوية فى المؤسسات الأوروبية مشكلة تكمن فى عملية الترجمة التى تحتاج إلى أكثر من ٣٪ من إجمالى ميزانية البرلمان الأوروبى، حيث تشغل كبائن الترجمة ما يقرب من ٤٥٪ من مساحة قاعات الاجتماعات، بل إنه من الصعب إيجاد المترجمين الأكفاء لترجمة هذا الحشد من اللغات (١١٠!)؛ مما يستلزم أحيانًا المرور على ترجمة أو ترجمتين انتقاليتين لترجمة لغة ما كالهولندية إلى لغة أخرى كاليونانية. لذا، تم طرح اقتراحين لحل تلك المشكلة: إمَّا تقليل عدد اللغات المُستخدمة فى أعمال المجموعة، وفقًا لما اقترحه الوزير الفرنسى آلان لاماسور Alain Lamassoure فى ديسمبر عام ١٩٩٤، حينما طالب بحصر هذه اللغات فى خمس لغات رئيسية (الإنجليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية والإسبانية)، وإمَّا إقرار استخدام لغة "حيادية" مثل لغة الاسبيرانتو espéranto . وبخلاف هذين الاقتراحين، هناك اقتراح آخر أسميناه التخطيط وفقًا للمتاح، أى عدم التدخل فى هذا الأمر أو ترك الأمور على ما هى عليه، ويبدو أن هذا هو الاتجاه السائد حاليًا الذى سيسفر فى نهاية الأمر عن إرساء وضع اللغة الإنجليزية.

واستنادًا إلى النموذج الذى نعرض له، ما هو الحل المُقترح لتلك المشكلة؟ فنحن هنا بصدد حدوث التقاء بين نموذج مجرد (نموذج التجاذب) وواقع ملموس (الأراضى الأوروبية). نجد أنفسنا للوهلة الأولى أمام تداخل مجالات التجاذب؛ فعلى سبيل المثال، ترتبط الإيطالية واليونانية باللغة الإنجليزية ارتباطًا قويًا يفوق ارتباطهما باللغة الفرنسية، فى حين يشتد ارتباط السويدية والدانمركية بالإنجليزية ويقل باتجاه الألمانية...إلخ. وبإعادة النظر فى هذا الأمر، نجد أن تلك اللغات ترتبط أيضًا فيما بينها بعدد من الروابط الجغرافية والحدودية، مثل اللغة الفرنسية التى ترتبط بعلاقة تماس مع الألمانية من جهة الشرق، ومع الإسبانية من جهة الجنوب الغربى، ومع

الإيطالية من جهة الجنوب الشرقى، كما ترتبط الإسبانية بعلاقة تماس مع البرتغالية والفرنسية، وكذلك الإيطالية مع الفرنسية والألمانية واليونانية والسلوفاكية...الخ. وهكذا، يمكننا تصور وجود إحدى السياسات اللغوية التى تعتمد على الروابط الحدودية، حيث يتجلى دورها عند تقاطع الكوكبات اللغوية. ولنذكر على سبيل المثال التفضيل المطلق لتعلُّم اللغة الإيطالية فى مدارس جنوب شرق فرنسا، وتعلُّم اللغة الإسبانية أو الكتلانية فى الجنوب الغربى، بينما يتم تفضيل الألمانية فى شرق فرنسا، والهولندية فى شمالها، وذلك قبل الشروع فى تعلم اللغة الإنجليزية؛ مما يسفر عن وجود مجموعة من ثنائيى اللغة الذين يُعدون بمثابة الدعامة الرئيسية للإبقاء على التعددية اللغوية فى أوروبا. وقد أشرنا من قبل إلى أن اتصال اللغات يحدث بواسطة ثنائيى اللغة، حيث يتم تعلُّم اللغات إمَّا بشكل منهجى أو عفوى. إلا أنه لا يمكن التحكم مباشرة فى التعليم العفوى، على خلاف التعليم المنهجى الذى يمكن توجيهه عن طريق السياسات المدرسية التى تنبثق بالتأكيد عن سياسة الدولة ذاتها. لكن هذه السياسات تتأثر بعامل التمثيلات، ولا سيما تمثيلات أولياء الأمور بشأن اللغات. وإذا كانت بعض الدول مثل فرنسا وإيطاليا وإسبانيا تفضل تعليم الإنجليزية فى مدارسها، فذلك لأن الآباء أنفسهم لا يعتقدون فى غير ذلك. ولابد أن يمتد التأثير فى نموذج التجاذب اللغوى أو فى إحدى كوكباته المتعددة إلى مختلف مكوناته الأخرى، وألا يقتصر على اللغات فحسب، بل يشمل أيضًا الأنظمة الخاصة بالثنائية اللغوية والتمثيلات المختلفة. ومن هنا فقط يمكن أن تتقدم تلك السياسة اللغوية بشكل فعال يتيح انتقال المجموعة الأوروبية من مرحلة التخطيط وفقًا لما هو متاح إلى امتلاك حق اختيار التخطيط الذى يناسبها.

الكوكبة الهندية

انطلاقًا من تحليل الأوضاع المحيطة بعلاقات تماس اللغات الهندية، لجأ أولاً جرانت ماككونل Grant McConnel إلى التمييز بين "لغات الأغلبية" و"لغات الأقلية"؛ مما ساعده على إعداد ثلاثة أشكال لأوضاع التماس اللغوى، استنادًا إلى الحدود الجغرافية للولايات التى تشكل هذا الاتحاد الفيدرالى، ألا وهى:

– شكل بدون أقطاب تتواجد به العديد من لغات الأقلية، ويخلو تمامًا من لغات الأغلبية.

– شكل أحادى القطب تتواجد به العديد من لغات الأقلية ولغة واحدة من لغات الأغلبية.

– شكل متعدد الأقطاب تتواجد به العديد من لغات الأقلية وعلى الأقل لغتان من لغات الأغلبية.

وعلاوة على ذلك، حرص ماككونل على تحديد ثلاث خصائص لهذه اللغات، ألا وهى: انجذاب اللغات للغة ما، وهو ما يرتبط بنسبة متكلمى هذه اللغات ثنائيى اللغة ممن يتحدثون اللغة الجاذبة، والثقل السكانى لكل لغة الذى يرتبط بعدد متحدثى اللغة الأم، وأخيراً درجة تبعية اللغة التى تتحدد وفقًا لعدد متحدثيها من ثنائيى اللغة.

وإذا ما جمعنا بين هذه الخصائص والأشكال الثلاثة السابقة، سنلاحظ أن داخل الأشكال أحادية القطب أو متعددة الأقطاب، يوجد نوع من الانجذاب يتجه بشكل شبه مطلق نحو الأقطاب اللغوية، فى حين توجد فى الشكل الذى يخلو من وجود أية أقطاب احتمالات كبيرة لانجذاب اللغات لبعضها البعض بصورة متبادلة. كما أن الأقطاب تحظى دومًا بثقل أكبر، فى حين غالبًا ما تكون لغات الأقلية تابعة لهذه الأقطاب، ومن ثَمَّ فقد يشتمل الشكل الخالى من الأقطاب على مستويات مختلفة من التبعية اللغوية.

وقد أتاح ذلك لماككونل تمثيل العلاقات بين اللغات فى كل ولاية على حدة، مع الأخذ فى الاعتبار هذه العوامل التى ساعدت على إعداد جدول خاص بالدول ذات القطب اللغوى الواحد سنعرض له فيما بعد.

ولنأخذ على سبيل المثال ولاية بيهار Bihar حيث يتمثل القطب اللغوى فى اللغة الهندية التى يتكلم بها ٧٠٪ من متحدثى اللغة التاميلية، فى حين يتحدث ٢٪ فقط من متكلمى الهندية بلغة أخرى. ونلاحظ دومًا أن القطب اللغوى هو الأقل من حيث تبعيته للغة أخرى، لكنه الأكثر ثقلاً والأكثر جاذبية، باستثناء لغة منيبور.

الولاية	القطب	اللغة الأكثر جانبية	اللغة الأكثر ثقلاً	اللغة الأكثر تبعية	اللغة الأقل تبعية	القطب منجذب نحو ...
بيهار	الهندية	الهندية	الهندية	التاميلية ٧٠٪ (١)	الهندية ٢٪ (٢)	السنسكريتية ٥٢٪ (٣)
هيماشال برانيش	الهندية	الهندية	الهندية	السندية ٨٧٪	الهندية ١٠٪	الإنجليزية ٧٣٪
هاريانا	الهندية	الهندية	الهندية	البنچابية ٣٧٪	الهندية ٧٪	البنچابية ٤٨٪
كيرالا	الملايية	الهندية	الملايية	البنغالية ٧٥٪	الملايية ١٨٪	الهندية ٩٢٪
مايا برانيش	الهندية	الهندية	الهندية	البنچابية ٦٦٪	الهندية ٣٪	السنسكريتية ٦٧٪
منيبور	المنيبورية	الهندية الإنجليزية	المنيبورية	الأسامية ٧٧٪	المنيبورية ١٩٪	الإنجليزية ٧١٪
راجستان	الهندية	الهندية	الهندية	الملايية ٧٤٪	الهندية ٢٪	السنسكريتية ٣٣٪
تريبورا	البنغالية	البنغالية	البنغالية	السنسكريتية ٩٣٪	البنغالية ١٠٪	الإنجليزية ٩١٪
أوتار براديش	الهندية	الهندية	الهندية	المهراتية ٥٧٪	الهندية ٢٪	السنسكريتية ٧٦٪

ملحوظة: (١) و(٢): نسبة ثنائيي اللغة. (٣): نسبة ثنائيي اللغة الذين يتحدثون هذه اللغة كلغة ثانية.

وهكذا، نجد أن وصف مثل هذه الأوضاع اللغوية يوضح تمامًا نموذج التجاذب الذى نعرض له فى هذا الفصل. ولنأخذ كذلك على سبيل المثال ولاية أوتار براديش التى يعرض لها ماككونل من خلال الشكل التالى :

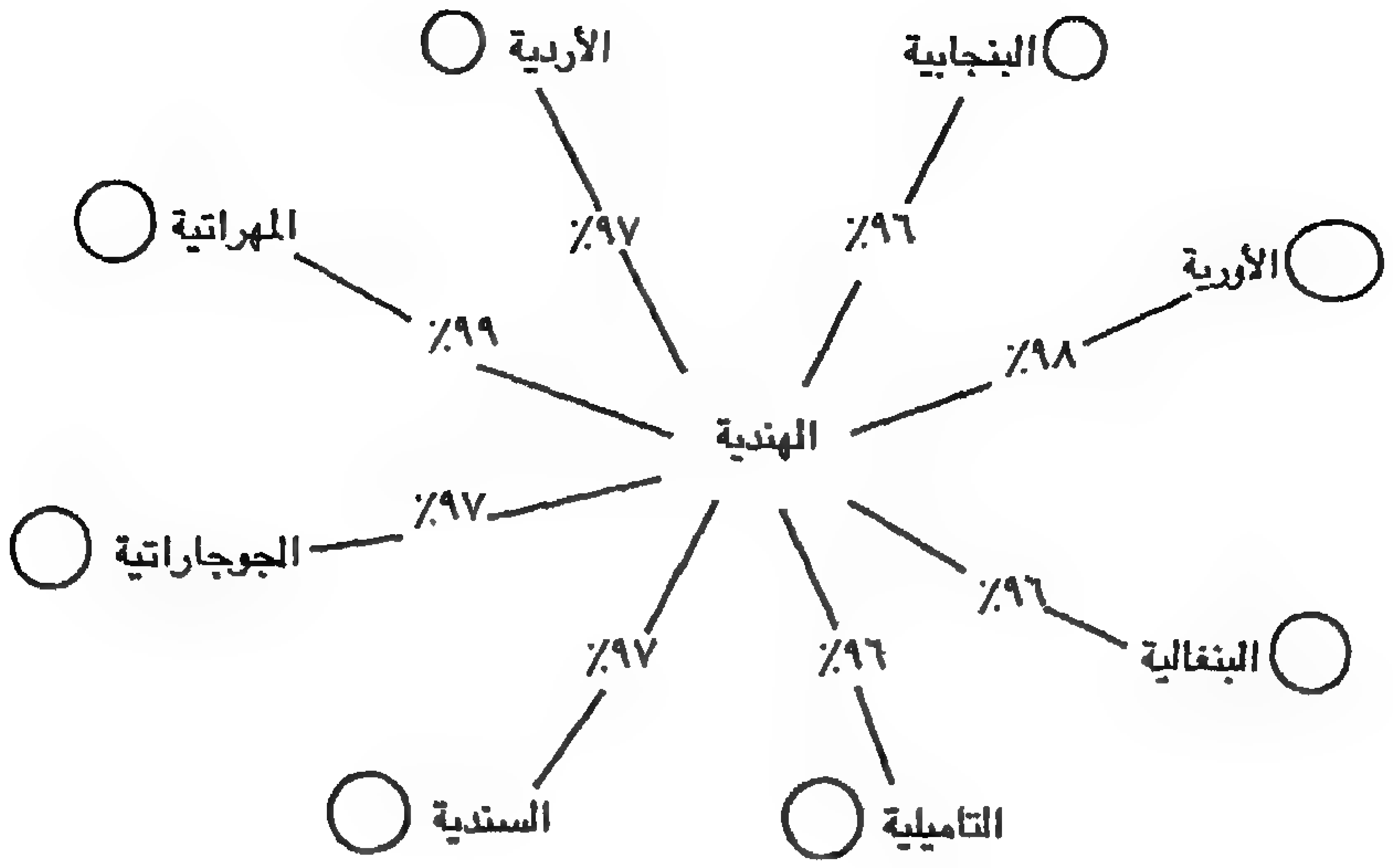

المجرة الهندية فى أوتار براديش

(الخط العريض: نسبة ثنائيى اللغة ممن يتحدثون لغة طرفية بالإضافة إلى اللغة الهندية)

نلاحظ فى الشكل السابق دوران ثمانى لغات طرفية حول اللغة الهندية المركزية، وما يقرب من ١٠٠٪ من متحدثى هذه اللغات هم من ثنائيى اللغة، لإجادتهم اللغة الهندية بالإضافة إلى لغتهم الأصلية؛ فى حين أن ١٦٪ ممن تُعد الهندية لغتهم الأولى يتحدثون الأردية، و٧٦٪ منهم يتحدثون اللغة السنسكريتية التى لم نشر إليها فى هذا الشكل؛ لأنها لا تمثل لغة أولى لأى من السكان. لكننا إذا ما رجعنا إلى الجدول السابق، سنلاحظ أن لغة مثل البنغالية تُعد بدورها لغة مركزية فى ولاية تريبورا، حيث سنجد منظومة مركبة من الكوكبات اللغوية، مثلما هو الحال بالنسبة للنموذج الذى نتناوله. وسيتضح هذا الأمر إذا ما تناولنا الأوضاع فى ولاية مثل أندراه براديش التى عدّها ماككونل من الولايات متعددة الأقطاب :

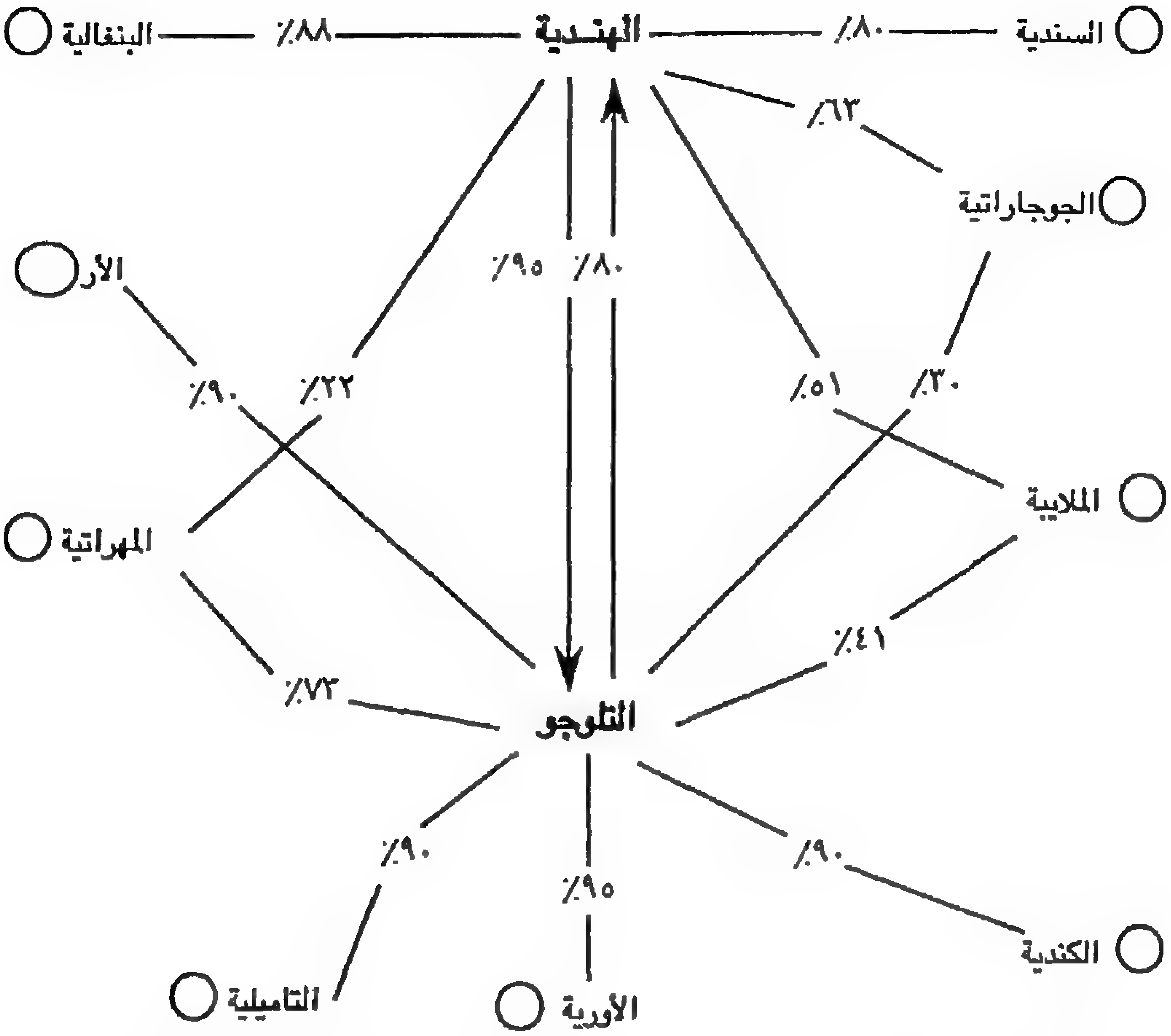

ونلاحظ في الشكل السابق وجود لغتين مركزيتين هما الهندية والتلوجو، حيث تتقاسمان عدداً من اللغات الطرفية التى تحيط بهما مثل الجوجاراتية والمهراتية، لكن هناك لغات طرفية أخرى تحيط بكل واحدة منهما على حدة. ومعظم من يتحدثون هاتين اللغتين الرئيسيتين هم من ثنائيى اللغة؛ فنجد ٩٥٪ ممن يتحدثون الهندية كلغة أولى يجيدون التلوجو، و٨٠٪ ممن يتحدثون التولجو كلغة أولى يجيدون الهندية. وهكذا، نجد أنفسنا أمام وضع يماثل ما يحدث فى المجموعة الأوروبية، حيث نشهد تقاطع وتصارع بين كوكبتين إحداهما تدور فى فلك اللغة الهندية، فى حين تدور الثانية فى فلك لغة التلوجو، وهناك بعض اللغات الطرفية التى تتجذب أكثر نحو الهندية مثل اللغة الجوجارتية، بينما ينجذب البعض الآخر نحو التلوجو مثل المهراتية .

ومن ثَمَّ يتضح لنا أن نتائج المعالجة الجغرافية والإحصائية التى ساقها ماككونل تتوافق تمامًا مع ما توصلنا إليه من خلال نموذج التجاذب الذى عرضناه، مستندين إلى ما قاله أبراهام دو سوان، فجاء هذا النموذج موضحًا ومؤكدًا لتلك الأفكار.

كوكبة البمبارا

البمبارا هى إحدى لغات المندينج mandingue المستخدمة فى مالى، حيث تعد اللغة الأولى لبعض السكان، بينما يستخدمها سكان المنطقة الجنوبية بأكملها كلغة ناقلة، ويبد أنها إحدى اللغات المحلية العشر، فإنها الأكثر تفوقًا من حيث عدد المتحدثين بها. ونحن نسعى هنا إلى تحليل علاقة البمبارا باللغات الأخرى المتواجدة فى هذه المنطقة، انطلاقًا من بعض الدراسات التجريبية التى أجريت مؤخرًا.

ولنبدأ أولاً بالكتاب الصادر عام ١٩٩٤ حول وصف إستراتيجيات الاتصال فى مالى، إلا أن عنوان الكتاب يحمل قدرًا من الخداع؛ لأن هناك جزء من الأراضى المالية لم يخضع للدراسات المعروضة بداخله، وهذا ما سنرجع إليه فيما بعد. لكننا سنستعين بهذا الكتاب بالإضافة إلى دراستين أخريين (بارى Barry 1990 وكالفيه (Calvet 1992)، من أجل اختبار نموذج التجاذب من خلال عرض الكوكبة التى تدور فى فلك البمبارا باعتبارها لغتها المركزية.

منطقة كوتيالا[1] Koutiala

تقع كوتيالا جنوب شرق بماكو بالقرب من حدود بوركينا فاسو حيث يتكلم غالبية السكان لغة الميناكا minyanka كلغة أولى، وهى الفرع الشمالى للغة السنوفو sénoufou،

(١) استخدمت هنا البحث الذى أجرته كلوديا دومبروسكى بين بعض الطلبة، وتم عرضه فى :
"La situation socio-linguistique du sud du Mali ", in Dumestre, 1994.

وتعتبر من العشر لغات الرسمية فى البلاد. وقد تواجدت المينيانكا على نطاق واسع وفى آنٍ واحد مع العديد من اللغات الأخرى المختلفة، مثل بعض اللغات المالية ولغة البمبارا واللغتين الفرنسية والعربية .

وفقًا للبحث الذى أُجرى على بعض الشرائح المدرسية، نجد فى كوتيالا أربع عشرة لغة أولى من بينها بعض اللغات التى تُعد فى الوقت ذاته من اللغات الثانية (المينيانكا والبمبارا والفولانى "البول" ولغة البوبو bobo واللغة الفرنسية...إلخ):

اللغة	لغة أولى	لغة ثانية أو ثالثة	المجموع	النسبة المئوية لمعدل النقل اللغوى(١)
الفرنسية	٢	٢٤٦	٢٤٨	٨٦,٧
البمبارا	١٨٨	٨٢	٢٧٠	٢٨,٦٧
الفولاني "البول"	٧	١٦	٢٣	٥,٥٩
المينيانكا	٥٥	١٥	٧٠	٥,٢٥
البوبو	٥	١١	١٦	٣,٨٥
السنوفو	١٠	٩	١٩	٣,١٥
السنفى	٦	٩	١٥	٣,١٥
الدوجوان	٠	٣	٣	١,٠٥
الملنكى	٦	٣	٩	١,٠٥
السركولي	١	٢	٣	٠,٧
الموريه	٠	٢	٢	٠,٧
الخسونكى	٢	٢	٢	٠,٧
البوزو	١	٠	١	٠
السموجو	٢	٠	٢	٠

المصادر : دمبروسكى ، ١٩٩٤ .

(١) احتسبت دومبروسكى هذا المعدل باعتباره نسبة عدد متكلمى لغة ثانية أو ثالثة إلى العدد الكلى للأفراد موضوع البحث. إننا لسنا فى الواقع بصدد معدل النقل اللغوى، بل بصدد نسبة الأفراد الذين خضعوا للبحث ممن يتكلمون اللغة المعطاة كلغة ثانية أو ثالثة.

يوضح لنا الجدول السابق وجود بعض اللغات التى لا تشترك أكثر من مجموعة فى التحدث بها؛ لأنها لا تتعدى كونها لغة أولى لمتكلميها مثل البوزو والسموجو. وهناك بعض اللغات التى يشترك عدد قليل من الأفراد فى التحدث بها، ولكن بنسب طفيفة مثل الخاسونكى والموريه والسركورى والملنكى. وتؤكد طريقة العرض التى اتبعناها، بالنظر إلى معدلات النقل اللغوى التنازلية، أن مثل هذا الترتيب لا يتوافق مطلقًا مع المستويات التى عرض لها دو سوان. فاللغة الفرنسية التى تنتمى للمستوى الثانى هى أكثر اللغات الناقلة، تليها البمبارا التى تنتمى للمستوى الثالث؛ مما يلزمنا بضرورة وضع لغات مثل الميتيانكا أو الفولانى "البول" أو البوبو فى إطار مجموعة اللغات الطرفية، أى لغات المستوى الرابع، بيد أنها تُستخدم إلى حد ما كلغات ناقلة، فى حين أن لغات مثل البوزو أو السموجو تُعد كذلك من لغات المجموعة الرابعة، بيد أنها لا تُستخدم مطلقًا كلغات ناقلة.

الخاسونكى khassonké

على غرار الحالة السابقة، نتناول هنا بحث أجرى داخل بعض المدارس، فى منطقة كايس الواقعة شمال غرب العاصمة بالقرب من حدود السنغال، ونعرض لنتائجه كما سبق أن عرضنا للجدول السابق. فنلاحظ بشكل عام أن ٦٩,٩٣٪ من الأفراد موضوع البحث يتحدثون البمبارا كلغة أولى، بينما يعتبر ٣٠٪ من هؤلاء الأفراد من ثنائيى اللغة الذين يتكلمون لغة أفريقية أخرى بالإضافة إلى البمبارا، لكنهم جميعًا ينقسمون إلى فئتين تشملان ثلاثيى اللغة الذين يتكلمون البمبارا وإحدى اللغات الأفريقية واللغة الفرنسية، وثنائيى اللغة ممن يتحدثون البمبارا واللغة الفرنسية.

النسبة المئوية لمعدل النقل اللغوى(١)	المجموع	لغة ثانية أو ثالثة	لغة أولى	اللغة
١٠٠	١٤٣	١٤٣	٠	الفرنسية
٣٠,٠٦	١٤٣	٤٣	١٠٠	البمبارا
٢٥,١٧	٤٨	٣٦	١٢	الخاسونكى
٢١,٦٧	٣٤	٣١	٣	السنينكى
١٨,١٨	٣٦	٢٦	١٠	الفولانى " البول"
٢٧٩,٧٩		١٤	١٣	الملينكى
١٧,٦٩	١	١١	٠	الولوف
٤,٨٩	٨	٧	١	السنغى
٢,٧٩	٤	٢	٢	البوريه
٠,٦٩	٣	١	٢	المينيانكا
٠,٦٩	١	١	٠	الموريه
٠,٦٩	١	١	٠	الدياخانكى

المصادر : فيدرين ، ١٩٩٤ .

وكما يتضح فى الحالة السابقة، فإن ترتيب معدلات النقل اللغوى يجعل من العسير وضع بعض اللغات فى المجموعة "الطرفية" نفسها كلغتى الخاسونكى والسنينكى أو كلغات أخرى مثل الموريه والدياخانكى. بل إن وجود لغة مثل الولوف التى تشغل نسبة ١٧,٦٩٪ فى النقل اللغوى قد أثار مشكلة أخرى هى التجاور مع مجرة أخرى تحتل فيها اللغات نفسها وظائف عكسية؛ لأنه على الجانب الآخر من الحدود تعتبر الولوف لغة مركزية فى كوكبة توجد بها البمبارا كلغة طرفية.

إقليم چينى Djenné(١)

تقع هذه المدينة شرق بماكو بالقرب من موبتى، وتتسم بوضع لغوى معقد نجم عن وجود عدد من اللغات المختلفة جنبًا إلى جنب: البمبارا والفولانى والبوزو والدوجون،

(١) لقد استخدمنا هنا البحث الذى أجراه Abdoulaye Barry تحت عنوان: "Etude de plurilinguisme au Mali: le cas de Djenné"، والذى تم نشره فى: Boucle du Niger, vol.2, Tokyo, 1990.
ولقد تم احتساب معدل النقل اللغوى على غرار الطريقة ذاتها المستخدمة فى الأمثلة السابقة.

بالإضافة إلى أحد أشكال السنغى الذى يسمَّى كويرا سينى koyra ciini، أو كما تطلق عليه لغة البمبارا اسم چينيكاكان jènèkakan، أى لغة إقليم چينى؛ فقد تعددت مسميات هذا الشكل اللغوى بين چينينكور jeneenkoore بلغة الفولانى، وچينى سينى jenè ciini بلغة السنغى .

اللغة	لغة أولى	لغة ثانية أو ثالثة	المجموع	النسبة المئوية لمعدل النقل اللغوى
البمبارا	٥١	١٠٣	١٥٤	٦٦,٨
الكويرا	٥٣	٧٨	١٣١	٥٠,٦
البول	٣٩	٤٨	٨٧	٣١,١
الدوجون	٦	١	٧	٠,٦
البوزو	٤	١٠	١٤	٦,٤
السنينكى	١	٢	٣	١,٢

نلاحظ وجود عدد من الخصائص المشتركة بين البقاع الثلاث موضع الأبحاث الموضحة أعلاه، ألا وهى :

– وجود لغة محلية سائدة كالمينيانكا فى كوتيالا، والخاسونكى فى كايس، والكويرا سينى فى چينى، مع تواجد لغة الفولانى "البول" كلغة ناقلة فى كل هذه المناطق، مما يتعارض مع العديد من الأفكار السابقة .

– حقيقة وجود هذه الأماكن الثلاثة فى منطقة نفوذ البمبارا، كما هو الحال بالنسبة لإقليم كيتا الذى سنعرض له فيما بعد؛ فالأمر لا يتعلق بمالى فحسب، بل بمالى الواقعة تحت تأثير البمبارا، أو التى فى طريقها للوقوع تحت تأثير هذه اللغة. فها نحن هنا فى جنوب البلاد، ولم يُذكر شيئًا حول وضع چاو أو تمبكتو. وكل الأبحاث التى أجريت على أسواق بماكو وموبتى وچاو تؤكد أن التحدث بلغة البمبارا يقل كلما اتجهنا شرقًا؛ فنلاحظ أن نسبة استخدام البمبارا تبلغ ٧٨٪ فى أسواق بماكو، بينما تبلغ ٤٦٪ فى أسواق موبتى، و٩٪ فى چاو، فى حين ترتفع نسبة استخدام لغة السنغى من ٢٪ فى بماكو إلى ١٣٪ فى موبتى، بل تبلغ ٧٧٪ فى چاو. لذا، يجب توخى الكثير من الحذر عند تناول آراء ج. دومستر G.Dumestre التى يؤكد فيها أن "البمبارا لم تعد لغة

عرقية، بل هى لغة محايدة غير موسومة"، وقد يكون اتساع نطاقها دليلاً على بزوغ أحد "أعراق مالى". وأخيراً فإنه لا توجد أية حالات توتر بين الجماعات المختلفة فى مالى، بيد أن أحد الأبحاث التى أجريت فى شمال البلاد قد توصل إلى نتائج مؤكدة تختلف تمام الاختلاف عن كل تلك الأمور...

وعلاوة على كل ما سبق، فإن الدراسات التى أجراها ڤيدرين Vydrine ودومبروسكى Dombrowsky حول لغة البمبارا، لم تذكر شيئًا بصدد الكوكبات الدقيقة التى يكون مركزها المينيانكا أو الفولانى فى كوتيالا، والخاسونكى أو الفولانى فى كايس. فالأمور تجرى كما لو أن الباحثين قد توقعوا مسبقًا مسار الحركات الاجتماعية اللغوية الكبرى من خلال التركيز على اللغة السائدة فى مالى، حيث يتضح ذلك من خلال الوصف الدقيق الذى استخدموه. بل إن اسم الكتاب الذى استشهدنا به هنا يعكس تمامًا هذا الجانب؛ لأنه يحمل عنوان "اللغات الإقليمية والبمبارا والفرنسية"، إلا أنه قبل عام من إصدار هذا البحث، أصدر الكاتب دومستر نفسه إحدى الدراسات بالتعاون مع سيسيل كانو Cécile Canut تحت عنوان "الفرنسية والبمبارا واللغات المحلية فى مالى". ونلاحظ أن عنوان الدراسة يعكس وضع البمبارا على قدم المساواة مع اللغات الأخرى ("المحلية") وهذا هو الوضع القانونى، بينما يعكس عنوان الكتاب الأول وضع اللغات المحلية فى مصاف اللغات "الإقليمية"، على اعتبار أن البمبارا قد أصبحت تحظى بوضع خاص بين سائر اللغات الإقليمية واللغة الفرنسية؛ فصار عنوان الكتاب انعكاسًا لما يحدث على أرض الواقع. إلا أنه قد تولد لدينا الشعور بغياب الحيادية، نتيجة لعدم شرح كيفية الانتقال من الوضع القانونى إلى الحقيقة الواقعة، وعدم توضيح اختلاف الفروق الطبقية بين اللغات .

ومهما يكن الأمر، فإن اختلاف كل من كوتيالا وكايس وجينى على الصعيد الجغرافى (الجنوب الشرقى، والشمال الغربى، والشرق)، وعلى الصعيد اللغوى (السنفى والخاسونكى والمينيانكا)، هو خير شاهد على مدى تنوع الأوضاع اللغوية فى مالى، وأهمية الدور الذى تضطلع به لغة البمبارا فى توحيد كل تلك المناطق. ونحن هنا

بصدد "كوكبة البمبارا" التى يقع مركزها فى العاصمة بماكو، وإن كانت لا تتوافق بالضرورة مع حدود الدولة. ويوضح لنا الجدول التالى مرة أخرى معدل النقل اللغوى بالنسبة للُّغات الأساسية فى المناطق الثلاثة السالفة الذكر، ونعنى بذلك نسبة ثنائيى اللغة :

النقل اللغوى

كوتيالا البمبارا ٢٨٪ — **كايس** البمبارا ٣٠ ٪
البول ٥ ٪ — البول ٥ ٪
الميينانكا ٥ ٪ — الميينانكا ٥ ٪
... الخ — ... الخ

جينى البمبارا ٦٦ ٪
الكويارا ٥٠ ٪
البول ٣١ ٪
.. الخ

تشهد كوتيالا وكايس وجود بعض اللغات التى لا ترتبط فيما بينها بشكل مباشر؛ فعلى سبيل المثال نجد لغة مثل السنوفو فى كوتيالا لا يتكلمها أحد فى كايس، ورغم ما تحظى به لغة الخاسونكى من أهمية فى كايس، فإن أحداً لا يستخدمها فى كوتيالا...إلخ. وهنا تكمن فائدة استخدام نموذج التجاذب للوقوف على هذا الوضع، شريطة زيادة عدد مستويات النموذج، وإيجاد "مستوى خامس" يشتمل على لغات طرفية تصير بدورها لغات مركزية بالنسبة للغة البمبارا.

وعلاوة على ذلك، فإن النظام اللغوى لمدينة كايس الذى تعرض لغزو خارجى من قبل لغة الولوف، يؤكد لنا ما تشهده أطراف كل كوكبة من مناطق عدم اتزان وتغيرات فى الجذب؛ فكل من البمبارا والولوف تقعان فى مركزى كوكبتين متجاورتين، لكن وضعهما يتأرجح من خلال منظورين هما:

– المنظور الأفقى الذى يجعل اللغة المركزية فى كوكبة ما لغة طرفية فى الكوكبة المجاورة .

- المنظور الرأسى الذى يجعل اللغة المركزية فى كوكبة ما لغة طرفية فى الكوكبة التى تعلوها، وهذا ما سيوضحه الشكل الوارد فيما بعد.

ونحن هنا إزاء تداخل مجالات التجاذب؛ فالمواقع التى تشغلها بعض اللغات الطرفية مثل البول والخاسونكى قد تؤهلها إلى الانتماء فى آن واحد لكوكبتين مختلفتين ككوكبتى البمبارا والولوف، بيد أن هاتين اللغتين الرئيسيتين قد تصيران أيضًا مركزين لكوكبتين أخريين صغيرتين للغاية.

ولا يعنى مطلقًا الشكل الموضح فيما بعد أن لغات المستوى الأقل تنحدر من لغات المستوى الأعلى، لكنه يهدف إلى تصور نظام ذى ثلاثة أبعاد: تُعد كل من كوكبة البمبارا وكوكبة الولوف بمثابة قمرين للغة الفرنسية، ولكل من هاتين اللغتين مجموعة من الأقمار الأخرى التى قد يكون لكل منها أقمار تتبعها.

الفرنسية				
البمبارا				الولوف
الميناكا **البول** البوبو **السنفى** (كوتيالا)	**الخاسونكى** **البول** **الولوف** البوبو البوزو (كايس)	**السنفى** **البول** الدوجون (جينى)	الجولا المنجاك **البول** (كازامنس)	الخاسونكى ... الخ البمادا البول (إقليم النهر)

رسم تخطيطى لمجرتى البمبارا والولوف

(يشير الخط العريض إلى اللغات التى تظهر فى نظامين أو نظامين فرعيين)

مجرة أنظمة الكتابة

بيد أنه هناك المئات من أنظمة الكتابة، أى أنواع الكتابات المختلفة، فإن العدد الفعلى لهذه الأنظمة لا يعادل عدد اللغات ذاتها. ولسنا هنا بصدد رصد تاريخ الكتابات أو أنواعها، بل نهدف إلى تطبيق نموذج التجاذب على تلك الأنظمة.

ولدت الكتابة على الأقل ثلاث مرات بصورة منفصلة فى ثلاثة أماكن على مستوى العالم هى: بلاد ما بين النهرين أى العراق (الكتابة المسمارية)، والصين (الحروف الصينية)، وأمريكا الوسطى (الرسومات العمودية المايانية)[١]. وعلى الرغم من أنه لم يكن هناك أى ارتباط بين اللغات المكتوبة، أى السومرية[٢] والصينية والمايانية، فإنها كانت تشترك فى أمر واحد هو كون كلماتها أحادية المقطع. وهذا الأمر ليس بغريب على ظهور الأنظمة الكتابية؛ لأنه رغم اختلافها الشديد فقد كانت دومًا تشترك فى كتابة المقاطع. ولم تعد الكتابة المايانية مستخدمة على الإطلاق، على خلاف الكتابة الصينية التى ما زالت تُستخدم حتى يومنا هذا، بل كثيراً ما تعرضت للاقتراض والتطويع، من أجل كتابة بعض اللغات الأخرى مثل الكورية والفيتنامية واليابانية. أمًا الكتابة السومرية فقد شهدت تطوراً بطيئًا أسفر عن نشأة مجموعة أبجديات العالم الغربى. ومن هنا تشترك كل الأبجديات المتواجدة على سطح الكرة الأرضية فى وحدة الأصل؛ لأن اختراع الأبجدية لم يحدث سوى مرة واحدة فقط .

يمكننا بالتالى عرض مجموعة الأنظمة الكتابية فى إطار التصنيف "السلالى" مع توضيح الفروع المختلفة: من أصل واحد تولدت ثلاثة فروع لغوية نفترض أنها تُسمى "اليونانية" و"الهندية" و"العربية"، وهى الفروع التى أدت بدورها إلى ظهور كل أبجديات العالم، بواسطة سلسلة من التحولات وعمليات التطويع المتتابعة. لكننا نهدف هنا إلى عرض العلاقات بين تلك الأنظمة بشكل آخر؛ فمثلما ترتبط اللغات فيما بينها عن طريق ثنائيي اللغة، ترتبط الكتابات كذلك عن طريق "ثنائيي الكتابة"؛ لأنه يوجد على مستوى العالم أفراد يجيدون قراءة وكتابة اثنين أو أكثر من الأنظمة الكتابية. ومن ذلك ما نلاحظه فى الدول العربية، حيث نجد عدداً من السكان الذين يستطيعون قراءة الأبجديتين العربية واللاتينية على حدٍ سواء، مثلهم فى ذلك مثل الأفراد الروسيين الذين يستطيعون قراءة الأبجديتين السيريلية[٣] واللاتينية، كما أن اليابانيين المتعلمين يعرفون

(١) [لغات هندية بائدة كانت مستخدمة فى هندوراس وجواتيمالا الشمالية فى أمريكا الوسطى.]
(٢) [لغة آسيوية بائدة كانت مستعملة فى العراق من ٤٠٠٠ ق.م حتى ٢٠٠ ق.م.]
(٣) [أبجدية لها علاقة بأبجدية سلافية قديمة يقال إن مخترعها هو القديس سيريل.]

بالتأكيد نظام "الكانا"(١) kana وعدداً من الحروف الصينية (الكانچيس kanjis) التى تُستخدم فى كتابة لغتهم، وتتيح لهم فهم النصوص الصينية البسيطة، فضلاً عن معرفة الأبجدية اللاتينية، بل إن معظم اليونانيين الذين يعرفون الأبجدية اليونانية يعرفون أيضاً الأبجدية اللاتينية...الخ.

قد يناظر الوجود المتزامن لنظامين كتابيين أو أكثر لدى شخص ما أو فى مكان ما، وجود لغتين أو أكثر فى الوقت ذاته. وكما سبق أن عرضنا فى الفصل السابق، نلاحظ أنه فى المغرب تُستخدم الأبجدية العربية فى كتابة اللغة العربية وأحياناً البربرية، بينما تُستخدم الأبجدية اللاتينية فى كتابة اللغة الفرنسية وأحياناً البربرية، كما أن البربرية تُكتب بأبجدية خاصة بها هى "التيفناغ". ونلاحظ كذلك فى إسرائيل استخدام كل من الأبجدية العبرية لكتابة اللغة العبرية، والأبجدية اللاتينية لكتابة اللغة الإنجليزية أو غيرها من اللغات الأجنبية الأخرى. إلا أنه من الممكن أن ترتبط بعض الأنظمة الكتابية المختلفة بلغة واحدة، ومن ذلك حروف اللغة الصينية التى يمكن كتابتها باستخدام إحدى نظم الرومنة (٢)Pin yin، ويمكن كذلك كما سبق أن رأينا كتابة لغة مثل البربرية باستخدام ثلاثة نظم هى: البربرية والأبجدية العربية والأبجدية اللاتينية. وأخيراً فإن بعض اللغات مثل اللغة السواحيلية أو الملايية قد تمت كتابتها أولاً بالحروف العربية ثم بالحروف اللاتينية.

فى إطار هذا الخضم من الأنظمة الكتابية لابد من سيادة إحدى الأبجديات؛ فكما هو الحال بالنسبة لنظام التجاذب اللغوى، حيث تقع اللغة الإنجليزية فى مركز كل الكوكبات التى تتكون بدورها من لغات طرفية تدور حول لغة مركزية، تقع الأبجدية اللاتينية فى مركز مجرة الكتابات، وترتبط بالأبجديات الأخرى أو بالأنظمة الكتابية الأخرى عن طريق ثنائيى الكتابة .

(١) [نظام الكتابة المقطعية اليابانية.]

(٢) [الرومنة هى تحويل الأبجدية غير الرومانية للغة ما إلى أبجدية رومانية .]

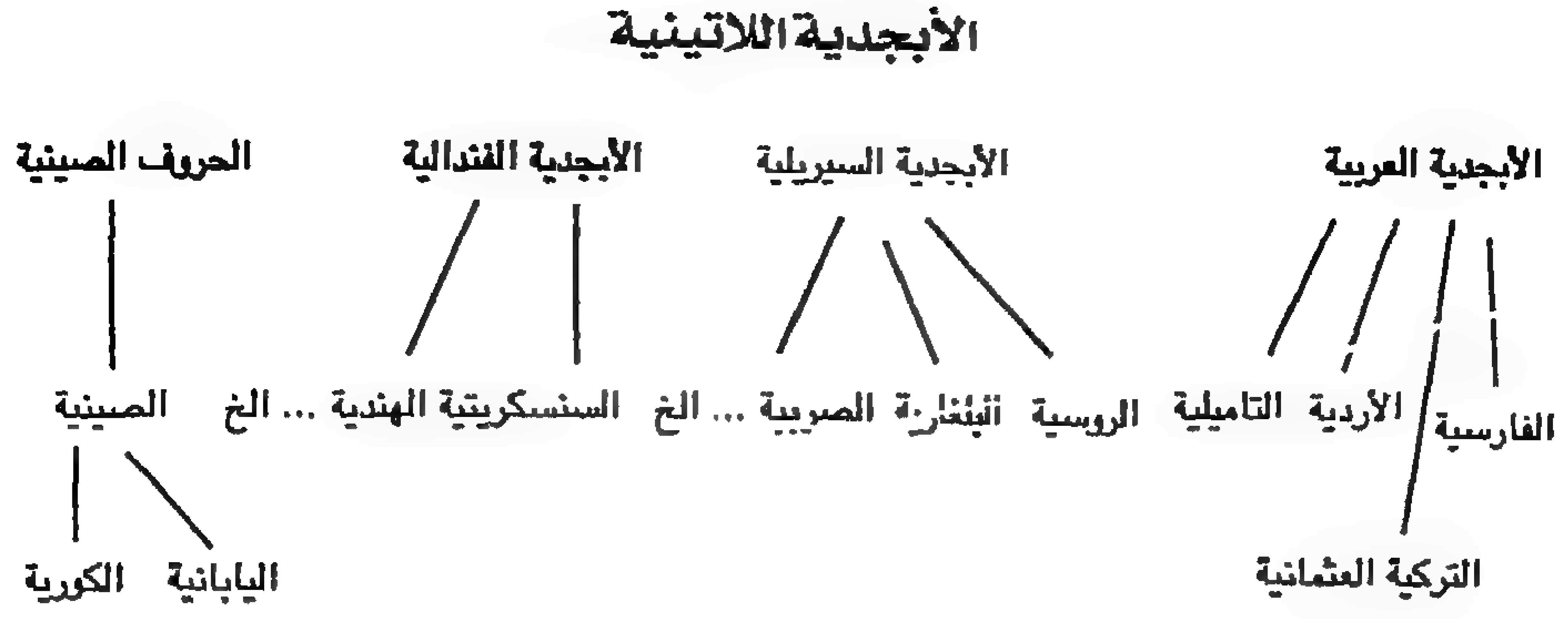

وهكذا، نجد أنفسنا إزاء نظام واحد فائق المركزية (الأبجدية اللاتينية)، وبعض النظم المركزية (الأبجديات العربية والسيريلية والفندالية والحروف الصينية)، بالإضافة إلى النظم الطرفية التى نتجت عن تطويع اللغات السالفة. ونلاحظ أن مستخدمى أنظمة كتابة اللغات الطرفية ينزعون نحو تعلم نظامين أو ثلاثة أنظمة كتابية (نظام اللغة الطرفية ونظام اللغة المركزية والأبجدية اللاتينية)، بينما يميل مجيدو كتابة اللغات المركزية إلى تعلم نظامين كتابيين فقط (كتابة لغتهم الأصلية والأبجدية اللاتينية)، فى حين يتجه مستخدمو الأبجدية اللاتينية نحو الأحادية الكتابية، أى استخدام نظام كتابى واحد فحسب .

ومركز الأنظمة الكتابية المتمثل فى الأبجدية اللاتينية هو نظام رمزى متغير، بسبب ما يطرأ أحيانا من تغيرات على العلاقة بين الصوت والجرافيم[1]. ونعنى بذلك أننا نستطيع استخدام الأبجدية نفسها فى كتابة عدة لغات مختلفة، لكن مع اختلاف التناظر بين الأصوات والحروف؛ ومن ذلك على سبيل المثال الوحدة المكتوبة ch التى تختلف طريقة نطقها باختلاف اللغة التى تستخدمها كالفرنسية والإسبانية والألمانية، وكذلك الحرف u الذى يختلف نطقه من الإيطالية إلى الفرنسية...إلخ. لكن هذا الأمر يعكس سمة عامة للكتابات؛ فالأبجدية العربية قد تعرضت للتغيرات اللازمة لاستخدامها

(١) [الجرافيم هو رمز مجرد لصوت كلامى، ويعد أبسط وحدة كتابية.]

فى كتابة اللغة الفارسية، كما يختلف نطق الحروف الصينية عند استخدامها فى كتابة اللغة اليابانية...إلخ .

وحرىٌ بنا الإشارة هنا إلى علاقة التشابه الجلى بين نظامى اللغة والكتابة؛ فكتابة اللغة الإنجليزية فائقة المركزية تتم باستخدام نظام كتابى فائق المركزية هو الآخر ألا وهو نظام الأبجدية اللاتينية، كما يمكن الاستعانة بأنظمة الكتابة المركزية الأربعة فى تدوين لغة واحدة شديدة المركزية على الأقل، حيث نلاحظ استخدام الأبجدية الفندالية فى كتابة اللغة الهندية، والأبجدية العربية فى كتابة اللغة العربية، والأبجدية السيريلية فى كتابة الروسية، وأخيراً يتم استخدام الحروف الصينية فى كتابة اللغة الصينية. ولكن تظل دوماً السيادة للأبجدية اللاتينية بشكل يجعلنا نتساءل إذا ما كان استخدام نظام كتابى آخر هو بمثابة عقبة أمام انتشار اللغات. فعلى سبيل المثال، تتواجد اللغة الإنجليزية على الإنترنت بنسبة ٩٠٪، بينما تشغل اللغات الفرنسية والألمانية والإسبانية النسبة المتبقية؛ مما يُعد بالطبع أحد النواتج الفرعية للنظام اللغوى، بل أحد نواتج أنظمة الكتابة بشكل أو بآخر. كما يجب أن نشير إلى أن اللغات شديدة المركزية المكتوبة باستخدام نظام آخر ، عدا الأبجدية اللاتينية، تواجه فى الواقع عدداً من الصعوبات عند استخدامها فى العلامات الإرشادية على "الطرق السريعة"، حيث يصعب بوجه عام جعلها لغة إعلامية. ومن المؤكد أن هذا الأمر يرتبط ببداية برامج الإنترنت التى تمت صياغتها باللغة الإنجليزية؛ مما أدى إلى ظهور بعض المشكلات التى كان يتعين إيجاد الحلول المناسبة لها، مثل كتابة العلامات الخاصة بالحروف المتحركة فى اللغة الفرنسية "accents"، إلا أن تلك الإمبريالية التى تسود مجال الحاسب الآلى ليست سوى أحد تداعيات النظام التجاذبى لموازين القوى بين اللغات والأنظمة المستخدمة فى كتابتها.

وكما هو الحال بالنسبة للغات، فإن تجاذب الكتابات هو من صنع التاريخ، وانعكاس لإحدى فترات تطوره، حيث يمكن ملاحظة هذا التطور بشكل واضح. ومن ذلك على سبيل المثال ما حدث فى نهاية الألفية الرابعة قبل التاريخ، حينما انتشرت لغة

جنوب بلاد ما بين النهرين بالعراق، أي اللغة "السومرية" ونظامها الكتابي، على نطاق هائل بشكل أكَّدَ بقاءها لدى مستخدميها على مدار أزمنة طويلة. إلا أن الكتابة المسمارية قد تعرضت للتطويع من أجل كتابة اللغة الأكادية(١) التي ظهرت على شكل لهجتين هما الأشورية(٢) في الشمال والبابلية(٣) في الجنوب، حيث صارت تلك اللغة البابلية نحو عام ١٥٠٠ قبل الميلاد اللغة الناقلة في هذا الإقليم، بينما لم يعد أحد يتكلم اللغة السومرية، رغم أنها ظلت اللغة المستخدمة في الكتابة؛ فقد كان جميع الكُتَّاب من ثنائيي اللغة الذي يجيدون اللغتين السومرية والأكادية. وفي عام ١٢٦٩ قبل الميلاد، تم توقيع معاهدة قادش بين ملك الحيثيين وفرعون مصر الملك رمسيس الثاني، حيث حُررت المعاهدة باللغة الأكادية التي كانت بمثابة اللغة الدولية آنذاك. فقد تخلى كل من طرفي المعاهدة عن الكتابة بلغته الأصلية، أي الحيثية والمصرية القديمة، من أجل استخدام اللغة فائقة المركزية في المحيط البيئي اللغوي السائد آنذاك، ألا وهي اللغة الأكادية .

وعقب الغزو الآرامي عند نهاية الألفية الثانية قبل الميلاد، حلت اللغة الآرامية(٤) محل اللغة الأكادية كلغة ناقلة، مع استمرار استخدام اللغتين الأكادية والسومرية في النصوص المكتوبة. ثم جاء غزو الإسكندر الذي جعل من اللغة اليونانية أكثر اللغات انتشاراً. وهكذا، تحولنا خلال ثلاث ألفيات من سيادة اللغة السومرية إلى اللغة الأكادية التي اختفت بدورها مع انتشار اللغة الآرامية التي اختفت كذلك لتحل محلها اللغة اليونانية في هذه المنطقة، وقد صاحب ذلك كله تحول سيادة الأنظمة الكتابية ذاتها. واستمر تطور هاتين الكوكبتين إلى أن حلت اللاتينية محل اليونانية، وحلت الفرنسية

(١) [لغة سامية شرقية بائدة استخدمت في العراق بين القرن الثامن والعشرين والقرن الأول قبل الميلاد، وهي من العائلة السامية الحامية.]

(٢) [لغة سامية شرقية بائدة من العائلة السامية الحامية.]

(٣) [لغة سامية شرقية بائدة من العائلة السامية الحامية.]

(٤) [لغة سامية بائدة استخدمت في سوريا وشمال العراق في الألف الثانية قبل الميلاد، وقد تحولت إلى السريانية فيما بعد، وهي من ضمن العائلة السامية الحامية.]

محل اللاتينية، ثم جاءت اللغة الإنجليزية لتتبوأ موقعها فى مركز كوكبة اللغات، كما حلت الأبجدية اللاتينية محل الأبجدية اليونانية فى مركز كوكبة الأنظمة الكتابية. ومن هنا يتضح لنا تمامًا أن الوضع الحالى ما زال قيد التطور سواء على مستوى اللغات ذاتها أو على مستوى أنظمتها الكتابية.

الخاتمة

وهكذا، يُخوِّل لنا النموذج الأول الذى استخدمناه، أو بالأحرى التشبيه الأول، إمكانية توضيح النظام اللغوى العالمى شديد الطبقية والملتصق بواسطة ثنائيى اللغة. إلا أن هذه الطبقية قد تتعرض للتغيير أو التعديل فى إحدى مواضعها، بل قد تتعرض للاضطراب؛ لأن التاريخ يؤثر على نظام التجاذب اللغوى مثلما يؤثر على اللغات ذاتها، مما يعرضه – مثله فى ذلك مثل اللغات– لعمليات التطويع المحلى. ومن ذلك ما توضحه لنا الأحداث السياسية الأخيرة التى تشهدها رواندا أو زائير، وما قد تسفر عنه الحرب الأهلية أو تغيير السلطة من تغيرات لغوية لم نقف بعد على كل آثارها؛ فهناك حركة تحول من الفرنسية إلى الإنجليزية، وعلى المستوى المحلى هناك تحول من اللينجالا إلى السواحيلية (سنعرض لهذه الحالة فى الفصل الخامس).

كما سنعرض فى الفصول التالية من هذا الكتاب للعوامل المؤثرة فى هذا النظام، مع محاولة الإجابة على التساؤلات الخاصة بكيفية تطور أحد الأنظمة البيئية اللغوية أو أسباب اضطرابه. وسنبدأ الفصل التالى بتناول عملية ضبط الأنظمة اللغوية من خلال استخدام نموذج آخر هو النموذج الضبط الذاتى.

الفصل الثالث

الضبط والتغيير

نموذج الضبط الذاتى

عرضنا فى موضع آخر لما يمكن أن نجنيه من وراء استخدام المعالجة التوجيهية (التوجيه والتحكم والاتصال) فى تحليل الأوضاع اللغوية. حينما أصدر نوربير ڤينر Norbert Wiener عام ١٩٤٨ كتابه حول الأنظمة التوجيهية، فإنه كان يهدف إلى تناول كل الظواهر التى تستخدم المعالجة المعلوماتية. يعتقد ڤينر أن الآليات الأوتوماتيكية والكائنات الحية تشترك فى كونها تعمل مثل آلات الضبط الذاتى التى تنضبط حركاتها وأعمالها وفقًا لتوازن مُحدد سلفًا. حيث يتلقى نظامها معلومات خارجية يتحدد على أثرها رد فعل تلك الآلات، كى تستجيب لهذه المؤثرات. ومن هذا المنطلق، تكمن وظيفة جهاز الضبط الذاتى فى المحافظة على الحالة المعتادة للأشياء، كحرارة الجسم على سبيل المثال. وقد اتسع فى الواقع نطاق العلم التوجيهى، حيث لم يعد مقصوراً على دراسة التحكُّم والاتصال لدى الحيوان أو فى الآلة فحسب، بل امتد ليشمل كل الأنظمة التى تتعلق بالتحكُّم والاتصال. ومن ثمَّ صار من الممكن إخضاع المجتمع لدراسات العلم التوجيهى؛ فلم يعد جهاز الضبط الذاتى مجرد نظام يعمل من أجل المحافظة على الوضع المعتاد، بل لم يعد أمراً مستغرباً فى الصراعات والتغييرات المختلفة. ويستلزم نموذج الضبط الذاتى حدوث عملية استجابة لمؤثرات خارجية؛ مما قد يبعث على إحداث حالة من التغيير، أى أن عملية الضبط هى رد فعل لمؤثر خارجى ينجم عن حدوث تغيير داخلى يهدف إلى تحييد آثار هذا المؤثر. ومن هنا فإن المجرة اللغوية التى سبق أن

عرفْناها فى الفصل السابق لا تتشكل مرة واحدة فحسب، بل تتعرض لحالة من التطويع والتعديل، وفقًا لمتطلبات عملية الاتصال؛ مما قد يسفر عن اختفاء بعض اللغات الطرفية أو تغيُّر اللغة المركزية. وقياسًا على المجال اللغوى، نجد بالتالى أن هذا النموذج يستلزم التمييز بين حاجات المجتمع اللغوية من جهة ووظائف اللغة الاجتماعية من جهة أخرى، كما نجد أن نظام عمل اللغات والمجتمع يماثل عمل آلة ميكانيكية ذاتية الضبط .

وليس بجديد علينا ذكر مفهوم حاجات المجتمع اللغوية؛ لأنه ظهر آنفًا عام ١٩٢٩ فى كتاب هنرى فرى Henri Frei الذى ذكر فيه أن: "المجتمع يؤثر بشكل أساسى فى اللغة من خلال كيفية تحديد قدر الاحتياجات اللغوية للغة ما ، أو لإحدى الطبقات الاجتماعية ، أو حتى لعصر من العصور". ومن ثَمَّ تصير اللغة بمثابة استجابة لمطلب اجتماعى، لكن هذا الأمر ينطوى على فكرة شديدة العمومية تجعل من العسير مناقشتها بشكل واقعى. إلا أن فرى قد تطرق إلى أكثر من ذلك حينما افترض أن العامل الرئيسى هو النطاق الجغرافى والاجتماعى لاستخدام لغة ما. وقد كان رأيه فى غاية البساطة، حيث استند إلى التمييز بين "لغات محدودة الانتشار" و"لغات واسعة الانتشار". واللغات محدودة الانتشار هى تلك التى تستخدمها جماعات صغيرة من أجل الوفاء بوظيفة أطلقنا عليها اسم "الوظيفة التجميعية"، مثل الجماعات التى ذكرها فرى: "المجتمعات المتدنية والعشوائية"، والأوساط المهنية، والطوائف المختلفة...الخ. كما أشار فرى إلى "شدة تأثير حاجة مثل هذه الجماعات إلى الاختلاف عن الآخرين، وتحقيق التماثل بين أفرادها؛ مما أسفر عن كثرة المفردات المغايرة لديهم، وندرة المصطلحات الشاملة، وغزارة بل تعقيد القواعد النحوية...الخ. لكن اللغات واسعة الانتشار تمتد على نطاق أكثر اتساعًا، حيث تضطلع بوظيفة أطلقنا عليها اسم "الوظيفة الناقلة"؛ ويعتقد فرى "أن تلك اللغات يتم استخدامها من قِبل الحضارات التى تتصف بقوة التبادل اللغوى"، بل تتسم "بميلٍ شديد نحو الاقتصاد فى اللغة (الإيجاز والثبات)".

إن دور الوظيفتين "التجميعية" و"الناقلة" لا يقتصر فحسب على الصعيد الوظيفى، بل يمتد ليشمل الصعيد الشكلى، أى لا يقتصر على تعريف الوظائف الاجتماعية للغات؛

لأن الوظيفة لابد أن تنعكس على الشكل. وانطلاقًا من منظورنا البيئى، يمكن تفسير تلك الظواهر فى إطار التكيُّف مع البيئة. فمن المعروف أن الأجناس التى تشغل بيئة واحدة أو بيئة متشابهة تبدى ميلاً نحو التوافق الشكلى. إننا نلاحظ على سبيل المثال فى الأجواء الباردة أن درجة تسرب حرارة جسم الحيوان عبر الجلد تختلف باختلاف حجمه؛ فالحيوانات الكبيرة هى التى يسهل عليها الحفاظ على ثبات درجة حرارتها الداخلية. ومن ثَمَّ نلاحظ كِبر حجم الحيوانات القطبية، بل يؤكد علماء الحفريات أن الحيوانات كبيرة الحجم هى التى نجحت فى البقاء لأطول فترة ممكنة خلال العصور الجليدية.

ماذا يعنى التكيُّف مع البيئة فى علم اللغويات؟ أو بعبارة أخرى، ما هو أثر النظام البيئى على لغة ما تم إدخالها فى بيئة جديدة؟ وما هو أثر إدخال هذه اللغة على اللغات الأخرى المتواجدة بالفعل فى البيئة الجديدة؟ ولا مجال هنا لذكر العوامل البيئية الطبيعية كالظروف المناخية؛ فالبيئة التى نعنيها هنا هى البيئة المحيطة بلغة ما، والتى تتألف من النظام الاجتماعى، وحجم جماعات المتكلمين، ووظائف اللغات، والدور الاجتماعى للمتكلمين، ودرجة التعددية اللغوية...إلى آخر تلك العوامل التى من شأنها التأثير على شكل اللغات.

وحرِىٌّ بنا أن نوضح مدى تأثير البيئة على شكل اللغات، من خلال المثال الذى عقد فيه إيمانويل دروشيل Emanuel Drechsel مقارنة بين ثلاثة أنواع من لغات البيدجين الهجين الهندية بأمريكا الشمالية (AIPE: American Indian Pidgin English) ألا وهى "الموبيليان" mobilian jargon بحوض نهر الميسيسيبى فى جنوب شرق الولايات المتحدة الأمريكية، و"الشينوك" chinook فى الشمال الغربى، و"الديلاوير" delaware فى الشمال الشرقى. وهذه اللغات ليست سوى ثلاثة أشكال للغات ناقلة كان يستخدمها الهنود الذين تختلف لغاتهم، من أجل التخاطب فيما بينهم ومخاطبة الأوروبيين، خلال الحقبة الممتدة بين القرن الثامن عشر وبداية القرن العشرين. ولا توجد أية روابط تاريخية بين تلك الأشكال الثلاثة بسبب تباعدها الجغرافى؛ مما أسفر بالتالى عن شدة

اختلافها من حيث الأصوات والتراكيب النحوية والمفردات، ولا سيما أنها قد تأثرت باللغات الهندية المحلية التى تختلف كل منها عن الأخرى بشكل كبير. إلا أن دروشيل الذى لم ينكر تلك الحقائق قد أشار إلى وجود بعض أوجه التوافق الجلىّ بين "الموبيليان" و"الشينوك" و"الديلاوير" على الصعيدين اللغوى وغير اللغوى، ومن بين أوجه التوافق اللغوى التى عرض لها دروشيل نذكر:

– وجود مفردات مختلطة ترجع فى الأساس إلى اللغات الهندية المختلفة، بالإضافة إلى عدد صغير من حالات الاقتراض من اللغات الأوروبية أو غير الأمريكية، من أجل تسمية المصطلحات الثقافية المقترضة.

– بناء التركيب النحوى على نظام الترتيب الثابت لتوضيح وظائف الكلمات، مع وجود قدر قليل من التصريف والإطناب فيما يخص المورفيمات النحوية.

– وجود سمات مميزة للغات المحلية بكل منطقة على حدة فيما يخص ترتيب الكلمات، دون وجود تأثير واضح من قِبل لغات المهاجرين الذين قدموا بعد الكولومبيين.

– بساطة العبارات مع بعض الأبنية المُركَّبَة وعلامات التبعية النحوية.

– وجود تأثير واضح للغات الأولى على التغييرات المعجمية والصوتية.

ومن بين أوجه التوافق غير اللغوى نذكر:

– وجود لغة إشارات على الأقل فى لغتى "الشينوك" و"الموبيليان، على خلاف اللغات الأولى، حيث نلحظ قلة استخدامها.

– استخدام تلك اللغات الناقلة فى علاقات التماس اللغوى بين القبائل وفى العلاقات التجارية والتحالفات السياسية والعلاقات مع الأوروبيين.

– استخدام تلك اللغات الناقلة لتلبية بعض الاحتياجات التى تفوق عملية التواصل البسيطة مثل الرواية والشعر...الخ.

– تواجد مثل هذه الأشكال اللغوية إلى جوار بعض وسائل الاتصال الأخرى، مثل الثنائية أو التعددية اللغوية لبعض متكلمى اللغات المحلية، والاستعانة بالمترجمين، أو استخدام لغات أوروبية فى الاتصال بالمهاجرين.

– وجود العديد من المؤشرات التى تؤكد أن أصل تلك اللغات يرجع إلى ما قبل الحقبة الأوروبية.

لكننا نشير مجدداً إلى أن التباعد الجغرافى بين تلك الأشكال اللغوية والاختلافات النوعية بين اللغات المتواجدة فى المناطق الثلاثة الخاضعة لتلك الدراسة، تحول دون تفسير أوجه الاتفاق من خلال الاستناد إلى تأثير اللغات المحلية. "فقد كانت الأصول اللغوية لتلك اللغات البيدجين الهجين شديدة الاختلاف على الصعيدين التاريخى والتركيبى، بشكل يصعب معه إفراز حالات اتفاق لغوى متشابهة ظهرت بمحض الصدفة وبكل سهولة ويسر." وهكذا، لا يبقى أمامنا سوى الرجوع إلى العوامل البيئية اللغوية. ويذكر دروشيل على سبيل المثال أن الحالات الثلاثة التى نعرض لها توجد فى مناطق ساحلية ("الموبيليان" على خليج المكسيك، و"الشينووك" على المحيط الأطلنطى، و"الديلاوير" على المحيط الهادى)؛ مما يستلزم وجود علاقات تماس لغوى مع السكان القادمين من بلاد ما وراء البحار. ومن ثَمَّ يمكننا أن نفترض أن توافق الوظائف والبيئات قد أسفر عن التوافق الشكلى. ومما قد يفسر أيضًا أسباب وجود أوجه مشتركة بين التراكيب النحوية لمختلف لغات الكريول الهجين فى العالم أجمع. وليس هناك أدعى إلى معرفة أسباب تلك النقاط المتشابهة من السعى وراء إثبات ما لم تتح الدراسة التاريخية تأكيده، ألا وهو وحدة الأصل الأفريقى المشترك؛ لأن كل لغات الكريول تشترك فى بعض الظروف التاريخية التى صاحبت نشأة كل منها، وتشترك كذلك فى بعض الوظائف والاستخدامات التى قد تسهم على الأقل فى تفسير أسباب هذا التشابه. أى أن الوضع البيئى (البيئة والوظائف) ينتقى بعض الاتجاهات التطورية من بين عدد من الاحتمالات المتاحة. إلا أن بعض أشكال الكريول الفرنسية تظهر أيضًا فى اللغة الفرنسية الشعبية؛ مما يحتم علينا الأخذ فى الاعتبار الضبط الداخلى للغة والضبط الاجتماعى للأوضاع اللغوية.

ولنضرب هذا المثال البسيط: فى كثير من الأحيان كنا نطلب من الطلاب ابتكار فعل فرنسى لا وجود له فعلياً فى اللغة الفرنسية، لكن من الممكن أن تقبله هذه اللغة إذا

ما وُجِد، وكنا دومًا نحصل على النتيجة نفسها؛ لأن خيال الطلاب كان يقودهم نحو البحث عن جذر أصلي كاسم شخص ما أو زميل أو معلم، أو اسم نشاط لا وجود لفعله في اللغة الفرنسية... إلخ، لكنهم كانوا دومًا يبتكرون فعلاً من المجموعة الأولى ينتهي بالحرفين er، مثل فعل biérer أي "يشرب البيرة"، وفعل piper أي "يدخن الغليون"...الخ. وإننا نلحظ الظاهرة نفسها في اللغة الفرنسية الأفريقية التي شهدت تشكيل أفعال على غرار ما ذكرناه، مثل فعل siester أي "يرتاح وقت القيلولة" من أصل الاسم sieste، وفعل gréver أي "يُضرِب عن شيء ما" من أصل الاسم ...grève إلخ. ورغم أنه توجد في اللغة الفرنسية عدة أشكال أخرى لنهايات الأفعال، والعديد منها يكثر استخدامه، مثل --ir (te-nir)، و-ire (dire)، و-endre (prendre)، و-oir (vouloir)، إلا أن نسق المجموعة الأولى هو الأكثر انتظامًا والأكثر سهولة في التصريف(١)؛ لذا لا يتم مطلقًا ابتكار أية أفعال خارج إطار هذه المجموعة، وهو ما استند إليه بناء الفعل alunir المُشتق من lune أي "القمر"، ويعني "الهبوط على القمر"، وكذلك الفعل atterrir المشتق من terre، ويعني "الهبوط على الأرض". وتوليد مثل هذه المفردات الجديدة هو نتاج عاملين هما: عامل داخلي يستند إلى الاتجاه نحو خلق أفعال جديدة وفقًا لنموذج محدد، وعامل خارجي يستند إلى مطالب المجتمع والحاجة إلى تسمية بعض أنشطته.

وهكذا، نجد أنفسنا إزاء ثنائية اللغة والمجتمع التي يخضع طرفاها لضغوطهما الداخلية؛ فاللغة تتغير بسبب وجود ضغط اجتماعي، لكن هذا التغيير يسير في اتجاه محدد، كما أن الأوضاع اللغوية تتطور تطوراً ليس تطوراً آليًا فحسب ينتج عن العرض والطلب، بل هو نتاج قوى داخلية وخارجية. وقد استعرنا لفظي العرض والطلب من المعجم الاقتصادي، مثلهما في ذلك مثل لفظي التكلفة والربح اللذين تم استخدامهما بصفة خاصة في مجال التخطيط اللغوي. ويساعدنا استخدام هذه الاستعارة على معرفة شيئين هما:

(١) هذا هو السبب الذي جعل الفعل solutionner يحل محل الفعل résoudre؛ لأنه فعل شاذ يصعب التصريف، على الرغم من رفض الذين يعتدون بنقاء اللغة قبل كل شئ.

١- يتوقف مستقبل اللغات إلى حد ما على النسبة بين الحاجة الاجتماعية من جهة (الطلب) والوظائف الممكنة للغات المتواجدة من جهة أخرى (العرض).

٢- يمكن تعرُّض العرض والطلب للتغيير إذا ما تدخل الإنسان فى طرفى تلك الثنائية .

ويمكننا بكل يسر توضيح هذين الافتراضين من خلال بعض الأمثلة. فنلاحظ على سبيل المثال المشكلة التى تتعرض لها بعض الدول بمجرد حصولها على الاستقلال، حيث يتعين عليها اختيار لغتها المحلية أو الرسمية؛ مما يعد تعبيراً عن حاجة ما (الطلب) يجب تلبيتها عن طريق اختيار لغة ما من بين اللغات المتواجدة لديها (العرض)، وهى اللغة التى يتراءى لها أنها الأكثر ملاءمة لتلبية حاجتها. وهنا يظهر دور الافتراض الثانى، فتلك الثنائية ليست ثابتة؛ لأننا نستطيع تغيير حالة العرض عن طريق "إعداد" اللغات وإمدادها ببعض الوسائل اللازمة كالمفردات مثلاً، كى تستطيع الوفاء بالحاجة المطلوبة؛ فإننا نستطيع على سبيل المثال صياغة مفردات لغة ما، بحيث تخلو من المصطلحات الرياضية أو النحوية؛ كى يتم استخدامها فى العملية التعليمية. ويمكننا كذلك تغيير حالة الطلب بطرق عديدة، كصياغة بعض المشروعات الفيدرالية التى تقضى باستخدام العديد من اللغات الإقليمية لا الاقتصار على اختيار لغة واحدة قومية، أو الاستمرار فى استخدام لغة العصر الاستعمارى كلغة رسمية للبلاد. وهكذا، يتضح لنا أن منظور الضبط الذاتى لتطور الأوضاع اللغوية ليس عملاً ميكانيكيًا؛ لأنه يتضمن إدخال عنصر النشاط البشرى فى وصف البيئة اللغوية. ويتعين علينا بالتالى التسليم بوجود ضبط ذاتى للأوضاع اللغوية وضبط داخلى للغات، وهو ما سنشرع بداية فى دراسته.

مثال الضبط الداخلى: اللغات الفرنسية الشعبية "العامية"

" ***Nous*** **autres** ***on*** **s'amuse** " : بعض اتجاهات تصريف الأفعال :

سبق أن أشار فيليب مارتينون **Philippe Martinon** عام ١٩٢٧ إلى اتجاه اللغة الفرنسية نحو استخدام الضمير on بدلاً من "كل الضمائر الأخرى ، حتى فى لغة الكلام العادية". وقد فسَّر هنرى فرى عام ١٩٢٩هذا الاتجاه على النحو التالى: "تتمثل الفائدة

الكبرى لاستخدام الضمير المرن on فى تحقيق التبادلية الخاصة بالأشخاص والأنواع والأعداد. بل يضطلع هذا الضمير بعدة وظائف أخرى، منها على سبيل المثال تجنُّب التكرار العرضى لنفس المقاطع: nous, nous nous amusons > nous on s'amuse . كما يتيح بصفة خاصة الاقتصاد فى استخدام خواتيم الأفعال:nous nous amusons ." nous on s'amuse > وقد جلب فى الواقع تناوُب الضميرين -on /nous وهو أمر شائع فى اللغة الفرنسية الشعبية- نوعًا آخر من التناوب الذى امتد إلى خواتيم الأفعال، ألا وهو Vø /Võ أى الفعل+e /الفعل+ ons بالنسبة للأفعال القياسية، مع اختفاء أحد أشكال تصريف الفعل. وهذا ما نلاحظه فى الأمثلة التالية:

on s'en va بدلاً من nous nous allons (أو nous partons)

on mange chez moi بدلاً من nous mangeons chez moi .

on fait quoi ? بدلاً من ... qu'est-ce que nous faisons إلخ.

لذا، يبدو أن شكل الفعل allons, mangeons, faisons محكوم عليه بالاختفاء، وقد فسَّرت فرانسواز جاديه Françoise Gadet تلك النزعة بما يلى: "من الممكن أن نتكهن باختفاء كل اللواحق الشخصية فى الفعل الفرنسى، باستثناء اللواحق الخاصة بالضمير vous."

إلا أن استخدام الضمير on للتعبير عن جمع الشخص الأول، أى ضمير المتكلمين nous، لا يقتصر فحسب على اللغة الفرنسية المستخدمة فى فرنسا؛ لأننا إذا ما توسعنا فى ملاحظة بعض اللغات الفرنسية الطرفية، سنجد مثلاً شيوع مثل هذا الاستخدام فى اللغات الفرنسية اللويزيانية، حيث نلاحظ استخدام شكل موحَّد لكل من المفرد والجمع عند تحقيق الشخص الثالث، أى ضمير الغائب. ومن ثَمَّ نجد ما يلى فى أفعال المجموعة الأولى، مع مراعاة أن الرمز V يُعبِّر عن الفعل:

المفرد	الجمع
je V	on V
tu V	vous V-ez
i V	i V

كما نجد هذا النظام نفسه فى اللغة الفرنسية الأكادية (لهجة كندية)، مع زيادة استخدام الشكل nuzot/on بالإضافة إلى تحويل استخدام vous إلى vuzot :

المفرد	الجمع
je V	nous + autres = on/nuzot on V
tu V	vous + autres = vuzot V
i V	i V

وهذا هو حال اللغة الفرنسية أيضًا فى ميسورى:

المفرد	الجمع
je V	on V
tsu V	vuzot V
il/i V	i V

ونجد الأمر ذاته فى غالبية لغات الكريول الفرنسية؛ فنلاحظ استخدام شكل مثل zot للتعبير عن جمع ضمير الشخص الثانى، أى جمع ضمير المخاطب، وأحيانًا يُستخدم فى جزيرة لارينيون La Réunion للتعبير عن جمع ضمير الغائب .

ومن ثمَّ تؤكد كل تلك العناصر المختلفة نزوع اللغة الفرنسية الشعبية "العاميّة" نحو توحيد جذر الفعل :

– نجد بالنسبة لأفعال المجموعة الأولى التى ينتهى مصدرها بالحرفين er، أن استخدامها فى زمن المضارع يتضمن حذف كل خواتيم الفعل، ومن ذلك الفعل parler الذى يصبح [parl] أمام الضمائر je tu i on، مع استثناء الضمير vous/vuzot الذى يصير الفعل أمامه [parle]. بينما يكون مثل هذا الفعل على شكل [parle] عند تصريفه فى زمن الماضى المستمر، وذلك أمام كل الضمائر je tu i on vous/vusot .

– ونجد بالنسبة لأفعال المجموعة الثانية التى ينتهى مصدرها بالحرفين ir، أن استخدامها فى زمن المضارع يتضمن توحيد خاتمة الفعل فى حرف الـ i، مثل الفعل

finir الذى يصبح [fini] أمام الضمائر je tu i on ، مع استثناء الضمير vous/vuzot الذى يصير الفعل أمامه [finise] . بينما يتم توحيد مثل هذا الفعل فى [finise] عند تصريفه فى زمن الماضى المستمر، وذلك أمام كل الضمائر je tu i on vous/vusot i.

وغالبًا ما يتم تصريف الفعل فى المستقبل باستخدام الفعل + aller مصدر الفعل.

كما تؤكد كل تلك العناصر وجود اتجاه مشابه فى جميع اللغات الفرنسية الطرفية ولغات الكريول الفرنسية. فكل ما تم رصده بشكل منفصل فى أثناء وصف مختلف الأشكال الإقليمية للغة الفرنسية يقودنا نحو مبدأ واحد، ويسلك الاتجاه نفسه نحو التغيير. ومن هنا نستخلص أن اللغة تتطور دومًا باتجاه واحد فى بعض نقاط النظام اللغوى، على الرغم من وجود بعض الاختلافات الخارجية، ونعنى بها الاختلافات البيئية .

وهذا التطور هو بالتالى نتاج النظام اللغوى بأكمله، ونحن هنا بصدد نظام اللغة الفرنسية. ونجد فى الواقع داخل مجموعة لغات العالم مبدأين رئيسيين يختلفان تمام الاختلاف، فنجد أنفسنا إزاء أنظمة لغوية تعمد إلى استخدام الضمائر لتحديد الأشخاص دون الحاجة إلى تغيير جذور الأفعال، مثل بعض اللغات التى تختلف عن بعضها البعض، كالصينية والإنجليزية والبمبارا على سبيل المثال. إلا أنه هناك بعض الأنظمة اللغوية الأخرى التى تكتفى بخواتيم الأفعال لتحديد الأشخاص؛ مما يفقد الضمائر أهميتها، مثل اللغة الإيطالية أو الإسبانية. لذا نلاحظ أن لغة مثل اللغة الصينية تستند إلى تصريف الضمائر (wo, ni, ta, women, nimen, tamen : yao : أنا، أنت، هو، نحن، أنتم، هم: يريدون)، بينما تستند لغة مثل اللغة الإسبانية إلى تصريف الأفعال canto, cantas, canta, cantamos, cantais, cantan) أنا، أنت، هو، نحن، أنتم، هم: يغنون). ففى الحالة الأولى، كان الجذر (yao) خاليًا من أية إضافات؛ مما يؤكد ضرورة وجود الضمائر التى تختلف باختلاف الشخص، أمًا فى الحالة الثانية، فقد تمت إضافة عدد من الخواتيم المختلفة إلى الجذر الرئيسى وفقًا للشخص المُراد التعبير عنه، مما يؤكد عدم أهمية وجود الضمائر. وقد جمعت اللغة الفرنسية بين هذين المبدأين، أو بالأحرى وقفت فى منتصف الطريق بين هذا وذاك: je, tu, il, on, ils

[chant], vous [chante] . ويلحظ فى الجزر الأنجلو نورماندية، بل بصورة أكبر فى أقاصى إقليم نورماندى، وجود شكل من أشكال التناوب الذى يؤكد هذا الاتجاه المزدوج: يتم التعبير عن جمع الشخص الأول أى جمع ضمير المتكلمين باستخدام "أنا" بمعناها المُحدد الذى يعنى أنا وأنت + الفعل + خاتمة الفعل لجمع المتكلمين مثل je mangeons، أو باستخدام "نحن" بمعناها غير المُحدد + الفعل بدون خاتمة جمع المتكلمين مثل nous mange . أى أنه من أجل التفريق بين "نحن" المُحددة و"نحن" غير المُحددة يتم اللجوء إلى تصريف الفعل كما هو الحال فى اللغة الإسبانية، أو اللجوء إلى تصريف الضمائر مثل اللغة الصينية.

وهكذا يوضح كل ما ذكرناه الاتجاه نحو ضبط نظام غير قياسى، وهو ما حلله البعض باعتباره أحد نواتج العملية التعليمية[1]، لكنه يدلل بوجه خاص على عملية الضبط الذاتى للنظام لغوى وعلى حدوث تغيير انطلق من داخل اللغة ذاتها.

اللغة الفرنسية الباريسية واللغة الفرنسية المارسيلية:

يبدو أن كل الدراسات الوصفية التى تناولت مختلف اللغات الفرنسية الشعبية "العاميّة" قد تناولت الشىء ذاته، ولا سيما فيما يخص مجال القواعد النحوية، بيد أنها قد افترضت تقديم عدد من البدائل الإقليمية. وسوف نتعرض سريعًا لاثنتين من هذه الدراسات، نُشرت إحداهما عام ١٩٢٠، حيث تناولت "الكلام الباريسى"، بينما ترجع الأخرى إلى عام ١٩٣١، حيث تعرضت "للكلام المارسيلى". ونحن هنا بصدد منطقتين جغرافيتين متباعدتين ومختلفتين تمام الاختلاف من الناحية الاجتماعية؛ فالأولى هى عاصمة البلاد التى يتشكل فيها الشكل الشرعىّ "الرسمى" للغة الفرنسية؛ والأخرى هى نتاج الثنائية اللغوية بين الفرنسية والبروڤانسية، حيث تأثرت بالتواجد القوى للأجانب،

(١) "بالنسبة للغات ذات التصريف الفعلى، يتعلم الطفل أولاً أشكال الفعل الخاصة بضمير الغائب المفرد، مما يجعله يفرط فى تعميمها بغير علم على كل أنواع السياق الأخرى."

ولا سيما فى عهد الإيطاليين الذين قدموا مع موجات من المهاجرين، وأثَّرت لغاتهم على الكلام المحلى وعلى مفرداته بوجه خاص .

ويمكننا فى الواقع استقراء وضع مارسيليا وتاريخها من خلال مفرداتها . فنلاحظ أن بها على سبيل المثال أحد أشكال اللغة الشعبية "العاميَّة" التى يفهمها الجميع ويستخدمها قطاع عريض من السكان، ومن ذلك: mettre le pàti (mettre du désordre) أى "بث الفوضى"، وكذلك مصطلح quel pàti (quel bordel!) الذى يعنى "أى فوضى هذه!" . فقد كانت كلمة pàti تعنى فى بادئ الأمر باللغة البروفانسية المكان الذى نضع به قطعان الماشية، ومن هنا جاء تعبير sèmblo un pàti (ça ressemble à une étable) الذى يعنى "إن هذا يشبه الإسطبل"، أو المصطلح curo-pàti (vidangeur) أى "مُنظِّف المراحيض" (الأمثلة التى ساقها ميسترال Mistral). فقد أصبحت كلمة pàti تُعبِّر عن "المرحاض"، ثم أصبحت تعنى "الفوضى" استنادًا إلى النموذج الفرنسى planter la merde, أو mettre la merde أى "إشاعة الفوضى". إلا أنه خلال التسعينيات، ظهرت مصطلحات أخرى مُرادفة استخدمها الشباب بدلاً من كل ما سبق، وحلَّت كلمة ouaille محل كلمة pàti، ورغم أنها صارت تُكتب بطرق عديدة مثل: ouaille أو oai أو oaï ...إلخ، إلا أنها كانت تستخدم مثل كلمة pàti : planter le ouaille, mettre le ouaille. ويبدو أن تلك الكلمة قد أطلقها الفريق الغنائى Massilia Sound System، حينما رددها فى إحدى أغنياته قائلاً: " on met le oai partout"، ويوضح لنا نص الأغنية معنى تلك الكلمة باعتبارها: "نوع من الثورة وتعبير عن المشاركة والإعلام (...) فلا داعى للبحث بعيداً لأن le oai، أى "الفوضى هى الحل".

وفى الوقع، لا تُعد كلمة oai من اختلاق فريق Massilia Sound System ، لكنه أسهم فحسب فى إطلاق كلمة كانت مُتاحة من قبل، مثلما ساهمت أغنية Renaud عام ١٩٧٠فى نشر مصطلح شعبى كان موجوداً من قبل ولا يعرفه سوى عدد قليل، ألا وهو laisse béton (laisser tomber) الذى يعنى "دَعكَ من هذا الأمر".

وبالرجوع مرة أخرى إلى مارسيليا، نتساءل عن أصل كلمة oai : هل هى كلمة ذات أصول بروفانسية؟ وتأتينا الإجابة من خلال ما كتبه فريدريك ميسترال Frédéric

Mistral في القاموس الخاص به، حيث قال إن: " oai هي كلمة تعجُّب تُعبِّر عن الدهشة والنفور والانزعاج والألم". إلا أنه لا يستطيع تبيُّن العلاقة الدلالية بين تعريف تلك الكلمة وطريقة استخدامها كما سبق أن ذكرنا. لكن هذا الغموض الذى يكتنف أصل تلك الكلمة يرجع إلى عوامل خارجية؛ لأنها قد اشتُقَّت من الكلمة الإيطالية guaio التى تعنى "الشقاء"، ويشيع استخدامها على شكل كلمة uaio المنتشرة فى جنوب إيطاليا (نابولى وصقلية)، حيث نسمع دومًا المصطلح che uaio أى "يا للفوضى!"، كما نسمع Mi hai messo nei uaio أى "لقد تسببت لى فى حالة من الفوضى". وهكذا نتبيَّن الأثر الذى خلفته إحدى الفترات التاريخية لتلك المدينة، حيث يمكننا استقراء مدى ثقل الهجرة الإيطالية من خلال التحول إلى استخدام كلمة ouaille بدلاً من pàti ، ومطابقة التأثير الإيطالى على التأثير البروفانسى .

وقد ظهرت كذلك خلال التسعينيات كلمة أخرى هى khra التى تأخذ أحيانًا شكل khla، من خلال كلمات فرقة أخرى من كبرى الفرق الموسيقية بتلك المدينة ألا وهى فرقة IAM، حينما قالت: " On fait khla dans la boîte" أى "نُشيع الفوضى". وقد انتشر بعد ذلك استخدام تلك الكلمة لدى شباب أحياء المدينة الشمالية، حيث نجد بكثرة المهاجرين من ذوى الأصول المغربية. وعلى خلاف كلمة oai التى افترضنا أنها ذات أصل بروفانسى، فإن كلمة khra لا تمت بصلة للجذور الرومانية؛ لأنها مقترضة من اللغة العربية، حيث تعنى "المخلفات". ومن ثَمَّ نلاحظ أن المتوالية pàti>ouaille>khra تؤكد تأثُّر اللغة الفرنسية الإقليمية المارسيلية باللغات البروڤانسية والإيطالية والعربية على التوالى .

ورغم وجود هذه الكلمات الثلاثة جنبًا إلى جنب، فإنه يوجد اختلاف فى الطبقات العمرية التى تستخدمها، حيث نلاحظ أن أعمار مستخدمى كلمة pàti تزيد على أعمار مستخدمى كلمتى ouaille و khara . كما يوجد اختلاف بين الأحياء التى ينتشر بها استخدام هذه الكلمات وفقًا للأصول التى ترجع إليها كل كلمة؛ فكلمة ouaille يكثُر استخدامها فى الأحياء الجنوبية، مما يعكس مصدرها البروڤانسى، رغم أنها كما سبق

أن ذكرنا ترجع أصولها إلى اللغة الإيطالية. بينما يكثُر استخدام كلمة khra في الأحياء الشمالية؛ مما يعكس الرجوع إلى أصلها المغربي، وإن كان الجميع يستخدم تلك الكلمة. وهكذا يوضح لنا هذا المثال المُختصر كيف أسفر محيط البيئة اللغوية بمارسيليا عن تغيُّر المفردات، ولا سيما أن هذه الكلمات الثلاثة غير مفهومة، بل غير مُستخدمة على الإطلاق في كل من باريس أو تولون أو ليون. ويمكننا بالتأكيد التعرُّض للعديد من الأمثلة الأخرى الخاصة بمارسيليا أو باريس، من أجل توضيح كيفية إنتاج هذين المحيطين البيئيين لمفردات تختلف عن بعضها تمام الاختلاف .

إلا أنه إذا كان هذان الشكلان اللغويان اللذان وصفهما كل من بوش Bauche عام ١٩٢٠ وبران Brun عام ١٩٣١، قد اختلفا من حيث المفردات والصوتيات، فإنهما قد اتفقا من حيث القواعد النحوية بصورة تجعلنا أحيانًا نكاد نُجزم أننا بصدد الأمثلة والتفسيرات ذاتها لدى كل منهما. فقد أشار بران إلى أنه "مهما اختلف نوع الضمير الموصول الذي تتطلبه قواعد النحو (qui, que, dont, à qui, où)، فإننا نجد أنفسنا دومًا أمام استخدام للضمير .que كما أشار بوش إلى "أن الضمير que يستخدم على الدوام في اللغة العاميَّة، وإن كان يُستخدم في غير محله". ونلاحظ كذلك مدى التشابه الشديد بين الأمثلة التي عرض لها كل منها:

- C'est vous *que* vous avez sonné?: هل أنت **من** قرع الجرس؟ (بران)، و C'est vous *que* vous venez?: هل أنت **الذي** حضرت؟ (بوش).

- Cet homme que je ne sais pas son nom: هذا الرجل **الذي** أجهل اسمه (بران)، و La chose *que* j'ai besoin: الشيء **الذي** أحتاجه (بوش).

- Je lui empêcherais bien de recommencer: قد **أمنعه** من إعادة الأمر مرة أخرى (بران)، و Je lui *ai empêché de partir*: لقد **منعته** من الرحيل (بوش)...الخ .

كما أشار هذان الكاتبان إلى الخلط بين الفعلين المساعدين الفرنسيين être وavoir، وعرضوا لعدد من الأمثلة تتشابه فيما بينها تشابهًا شديد الوضوح :

– Je suis été malade: لقد **كنت** مريضاً (بران)، و Je suis été: لقد **كنت** (بوش).

– *J'ai entré*: لقد **دخلت** (بران)، وIl a rentré ce matin: لقد **دخل** هذا الصباح (بوش) .

– *J'ai sorti* sur le tantôt : **لقد خرجت** ظهر اليوم (بران)، و *J'ai sorti* le tantôt : لقد **خرجت** ظهر اليوم (بوش).

وقد أشار هذان الكاتبان كذلك إلى الاستخدام الشائع لصيغة النفى ne......pas التى يتم اختصارها والاكتفاء بالجزء الثانى منها فقط، حيث ذكر بران إنه: "قد صار تقريباً أمراً محتوماً فى اللغة الفرنسية البروفانسية حذف ne من جميع صيغ النفى المعروفة: ne...pas و... ne...jamais الخ. فأصبحنا نسمع: j'ai rien vu وj'ai guère mangé و j'ai pas sorti de tout le jour . "وذكر بوش أنه:"يتم دوماً حذف حرف النفى ne فى اللغة العامية"...الخ.

وعلاوة على ذلك، فإن بران يدرك تماماً مواطن الاتفاق بينه وبين بوش، حيث يقول إن: "تلك الأخطاء التى رصدها كل منّا لا تقتصر فحسب على اللغتين البروفانسية أو المارسيلية، بل تمتد إلى كل مواطن ضعف اللغة الفرنسية على صعيد النحو أو الصرف، وهى المواطن التى أبدت اللغة دوماً إزاءها حالة من التردد". ثم يتوصل فى نهاية الأمر إلى الفكرة نفسها بعدما يستشهد بما ذكره بوش قائلاً إن: "اللغة الفرنسية المارسيلية لم تقدم أى جديد بالمعنى المعروف على صعيد النحو أو الصرف؛ فلم تَستحدث شيئًا من حيث تصريف الأفعال أو تركيب العبارات أو ترتيب الكلمات، ولم يكن هناك أى ابتكار عفوى على الإطلاق. فالنظام النحوى يبدى فى مجمله نوعاً من المقاومة، فى حين يتم التعرُّض فقط للأجزاء الواهية منه، مثل الأجزاء التى يتسم استخدامها بقدر من الضعف، والأجزاء التى أبدت اللغة من خلالها قدراً من التردد على مدار التاريخ، بل الأجزاء التى ضاعف فيها النحاة القواعد المعيارية. وعند هذه الأجزاء فحسب تتجاهل اللغة العاميةّ عن عمد- سواء فى مارسيليا أو فى باريس- كل رموز الاتصال الرسمية والقواعد الموضوعة، من أجل الاستجابة لميولها التبسيطية."

كما أشار باتريس براسور Patrice Brasseur إلى ظاهرة مماثلة تخص لغات الكريول الهجين واللغات الفرنسية الهامشية فى أمريكا الشمالية، مثل لغة Terre-Neuve ولغة ...Saint-Pierre إلخ، حينما ذكر أنه: "تتعرض دومًا بدرجات مختلفة اللغات الفرنسية الهامشية والكريول للعديد من الظواهر (...). ويبدو أن كل تلك التغيرات التى قد تؤدى فى حالة لغات الكريول إلى الكثير من إعادة البناء النحوى والصرفى ترتبط ارتباطًا وثيقًا بطبيعة نظام اللغة الفرنسية."

ومن المثير للاهتمام هنا حدس بران بشأن "مواطن الضعف" فى اللغة أو "أجزائها الواهية": فنلاحظ أنه قد وقف على النقاط التى يسعى النظام اللغوى من خلالها إلى تحقيق التوازن. وهكذا، فإنه من خلال كل تلك الأمثلة التى عرضناها، كمثال تصريف الأفعال المذكور أعلاه، بل مثال المتوالية pàti>ouaille>khra ، نجد أنفسنا إزاء ظاهرة الضبط الذاتى الداخلى، أى كيفية تطور اللغة من أجل ضبط ذاتها. وسوف نشرع الآن فى تحليل حالات الضبط الذاتى الناتجة عن تفاعل العلاقات بين اللغة والبيئة المحيطة بها.

السفن واللغات :

كريستوفر كولومبوس ولغة الفرنجة

لا يثير اهتمام عالِم اللغويات فى الميثولوچيا التى تزخر بقصص القراصنة سوى اثنتين من الشخصيات البارزة فحسب، ألا وهما ميسون Misson ولويس Lewis . فى عام ١٧٢٤، تم نشر مؤلَّف حُرِر فى عهد القراصنة دون معرفة اسم مؤلفه، على هيئة كتاب يحمل اسم "التاريخ العام للسرقات وجرائم القتل التى ارتكبها أشهر القراصنة" General History of The Robberies and Murders of the most notorious Pyrates، إلا أنه أُسند حاليًا إلى دانييل دوفوى Daniel Defoe . نجد بهذا الكتاب عرضاً لشخصية لويس، واستعراضاً طويلاً لـ"تاريخ القبطان ميسون وطاقمه".

يخبرنا دانييل دوفوى عن لويس قائلاً إنه "كان يمتلك موهبة كبيرة فى التحدُّث بالعديد من اللغات كالهندية والفرنسية والإسبانية والإنجليزية. وقد ذكرنا اللغة

الإنجليزية؛ لأننا لم نتمكن مطلقًا من معرفة إذا ما كان لويس إنجليزيًا أو فرنسيًا، حيث ظلت أصوله دومًا مجهولة." ويعتقد دوفوى أنه كان حَرِيٌّ بميسون تدوين مذكراته بنفسه باللغة الفرنسية؛ فقد وُلد ميسون فى أسرة بروڤانسية ميسورة الحال، وبلغ مبلغًا جيدًا فى دراسته، لكنه بدلاً من الانضمام إلى سلاح الفرسان تحقيقًا لرغبة والده، آثر خوض حياة المغامرة، وأبحر من مارسيليا، والتقى فى إيطاليا براهب هجر الرهبانية يُدعى كاروسيولى Carrocioli، واتخذه مستشارًا خاصًا له. وأخيرًا استقر ميسون على سواحل مدغشقر، حيث اقام عند خليج Diego Suarez ما يشبه مجتمع المدينة الفاضلة، وأطلق عليه اسم ليبيرتاليا Libertalia . كان ميسون يرغب فى مقاومة جميع أشكال العنصرية والتعصب، معتقدًا أن اختلاف اللغات هو أساس الفرقة بين البشر؛ مما جعله يحاول خلق لغة واحدة من مجموع اللغات المتعددة المتواجدة فى منطقته، كما لو كان يعود إلى عصر ما قبل برج بابل، حيث "كان هناك سعى نحو مزج اللغات المختلفة فى لغة واحدة فحسب".

إلا أنه لا يمكن التسليم بصحة الحقائق التاريخية الخاصة بهاتين الشخصيتين، فلم يكن هناك سوى مرجع واحد فقط يؤخذ به على الدوام عند تناول شخصية لويس، ألا وهو نص دوفوى الذى نجده مذكورًا بالفعل فى إحدى المؤلفات اللاحقة، ولكن بعد انتحال النص الأصلى بشكل واضح. ولم يكن هناك أيضًا سوى مرجع واحد فقط للوقوف على شخصية ميسون؛ فقد ذكر البعض أن هذا الاسم لم يكن سوى اسم مستعار، غير أننا لم نتمكن من اقتفاء أثره، لكن جيل لابوج Gilles Lapouge هو الذى قارب بين هاتين الشخصيتين، حيث عرض أولاً لميسون من خلال الكلمات التالية:

"لم يخدعه حدسه على الإطلاق. وإذا ما كان ظهور اللغات المنفصلة هو أحد عواقب الخطيئة المتأصلة، فمن المناسب الرجوع إلى العصر الذى سبق حصن بابل، من أجل بلوغ تلك العصور التى كانت تتسم بالحفاظ على الطبيعة كما هى أمام الناظرين الذين يستقرئون من خلالها آثار قدرة الله عليها. وقد أدرك ميسون جيدًا ضياع هذا الاستقراء البرىء للعالم المحيط بنا، كما أدرك حجم الملوثات التى أحاطت بالأرواح

النقية. وإننا لنستطيع على الأقل بذل المزيد من الجهد لتحقيق الوحدة المفقودة من خلال إعادة فكرة خلق لغة مصطنعة، ولا سيما أن ميسون قد ابتكر لغة الإسبيرانتو espé-ranto الاستوائية، بالإضافة إلى مفردات خاصة بالقراصنة وحدهم."

ثم يتجه لابوج إلى وصف لويس قائلاً: "تؤكد بعض الشواهد أن لويس كان به مس ما؛ فقد أطلع البحارة المصاحبين له على ساعة وفاته، وأخبرهم أنه فى انتظار الموت. كما كان يمتلك موهبة فذة فى التحدث بالعديد من اللغات؛ فهذا الصبى الذى لا أب له ولا وطن كان يجيد الإنجليزية والفرنسية والإسبانية والكاريبية، وهى هبة خصَّته بها الروح القُدُس من دون الآخرين تفضيلاً له، فصارت من بين مميزاته الخاصة. ويؤكد الفصل المُخصص للويس أن الشيطان قد تملكه، ولا سيما أننا نعلم مسبقًا ما ورد بشأن ساحرات النهضة اللاتى كنَّ يتميزّن بتعدد لغاتهن."

ويستخلص لابوج من كل ذلك أن: "شخصيتى ميسون ولويس اللذين يُعدان من أبرز شخصيات القرصنة قد كشفا بذلك عن التقارب الخفى بينهما؛ فكل منهما قد ارتبط باللغات على نحو غير مألوف. فقد تمسَّك ميسون الذى يمثِّل الجانب الخيِّر بإحياء الوحدة المفقودة بين لغات الإنسانية جمعاء. بينما لم يهتم كثيراً الجانب الشرير المتمثل فى لويس باختلاف اللغات؛ فلم الاستياء وقد كان سيده هو سبب بث فرقة الكون واللغات، مدفوعًا بحدة الخطيئة المتأصلة بداخله؟. لذا تقبَّل لويس تعدد أشكال الكلام، لكنه اكتسب من سيده تميزه فى الوقوف على كل معانيه."

وكما نرى فإننا هنا بصدد تأويل تاريخى يستند بأكمله إلى الخيال، ويعتمد بشكل محدود على أحكام المراجع. إلا أن أدب القراصنة قد عرض لنا العديد من الأمثلة الحقيقية التى تميزت بتعدد لغاتها. ولنذكر من بين هذه الحالات باربوروس Barbe-rousse الذى كان يتحدث العربية والتركية والإيطالية والفرنسية، وفقًا لما ذكره كاتب سيرته الذاتية. كما عرض لنا إدوارد چون تريلاوناى Edward John Trelawnay مثالاً آخر لقرصانٍ متعدد اللغات هو دو رويتر De Ruyter :

" لقد اخترق دو رويتر بكل سهولة إحدى المجاهل السكانية، وكان يتحدث مع أفراد هذا المكان مستخدمًا تعبيراتهم الاصطلاحية المختلفة، بل كان ينطق بالسهولة

نفسها الصرخات الحلقية المتوحشة لأصحاب اللغات الملايية، والأصوات الأكثر إنسانية لمستخدمى اللغات الهندية، أو حتى اللغة الفارسية التى كانت تتسم بقدر كبير من العذوبية والتناغم". كما كان ينسب لنفسه عدداً من القدرات: "لقد كنت أنادى عليهم بست لغات مختلفة، إلا أنهم كانوا يلبون ندائى عن طريق إصدار حركات صوتية أو إطلاق صرخة حادة."

لقد كان بوسعنا أن نعرض للعديد من الأمثلة الأخرى المشابهة، لكنها كانت ستقودنا حتماً إلى النتيجة ذاتها؛ لأن كل ذلك يمثل فى الواقع انعكاساً لصورة أفراد يستطيعون – على خلاف المعتاد – التحدُّث بعدة لغات.

إلا أن الحقائق الكامنة وراء الأساطير تثير تجذب الاهتمام وتثير العديد من التساؤلات: كيف كان يتواصل الرجال لغوياً داخل مجتمع مغلق على متن إحدى السفن ؟ وماذا كان شكل الاتصال بين السفن المختلفة ؟ بل ماذا كان شكل الاتصال بين هذه السفن والموانئ التى كانوا يترددون عليها؟ يعرض لنا تريلوناى Trelawnay على سبيل المثال قائمة خاصة بمتعددى اللغات على متن إحدى السفن: "لقد كان بصحبتنا أربعة عشر أوروبياً كانوا يمثلون جزءاً أساسياً من الطاقم؛ ومن بينهم سويديون وفلمنديون وبرتغاليون وفرنسيون. كما كان هناك أيضاً أمريكيون وبعض الأعداد القليلة من سكان الهند الذين وهبوا أنفسهم للبحرية، بالإضافة إلى بعض العرب والهنود المسلمين وبعض العمال من دكا والشرق الأقصى وبلاد فارس. وكان رئيس الخدم وسكرتير السفينة من الفرنسيين المهجنين، بينما كان البَحَّار الصغير المسئول عن الغرف من الإنجليز، وكان جَرَّاح السفينة هولندياً، فى حين كان صانعو الأسلحة والمقاتلون من الألمان." كيف كان إذن يتواصل أفراد هذا الطاقم بيد أنهم كانوا يتحدثون أكثر من عشر لغات تعتبر كل منها لغة متكلمها الأولى ؟...

وفقًا لعلم اللغويات الاجتماعية، لا ينتج عن مثل هذه المواقف سوى احتمالين: إمَّا أن تفرض إحدى اللغات المتواجدة نفسها كلغة ناقلة، أو تتشكل لغة أخرى ناقلة مُركَّبَة من مختلف اللغات المتواجدة. لكن مواجهة مشكلة التعددية اللغوية فى الحياة

الواقعية يستلزم فترة زمنية طويلة، مما يزيد من تعقيدات الأمور؛ لأن أفراد الطاقم يتغيرون باستمرار، حيث يصعد على متن السفينة عدد من البحارة الجدد ويغادرها عدد آخر من البحارة الموجودين بالفعل. كما أنه لا شك فى ضرورة التمييز بين: ١- لغات القيادة، ٢ - واللغات التى كان يستخدمها ضباط الصف فى نقل أوامر القيادة لأفراد الطاقم، ٣- واللغات التى كان يستخدمها أفراد الطاقم فيما بينهم. وكان يكفى فحسب فى الحالتين الأولى والثانية مجرد الوقوف على فحوى لغة القيادة دون امتلاك القدرة على التحدث بها، بينما كانت تستلزم الحالة الثالثة قدرة أفراد الطاقم على التواصل فيما بينهم، وبالتالى وجود رموز لغوية مشتركة.

سوف نتناول كل تلك المسائل فى إطار منطقة البحر المتوسط، من خلال اعتبار السفن بمثابة مجموعات اجتماعية مصغرة تغوص فى نظام بيئى لغوى أكثر اتساعًا، وكذلك من خلال فحص نواتج هذه الأنظمة فى الداخل ونحو الخارج، عن طريق دراسة آثارها على الممارسات الفردية والأشكال اللغوية الموحدة. وسيستلزم منا هذا الأمر التعرض لحالتين: حالة فردية تتعلق بكريستوفر كولومبس، وحالة تتعلق بأحد الأشكال اللغوية الموحدة إلى حد ما، حيث كانت تستخدم كلغة ناقلة فى موانئ البحر المتوسط، ألا وهى لغة الفرنجة Lingua Franca .

يعد كريستوفر كولومبس خير مثال على آثار مثل هذا النظام البيئى على الممارسات الفردية. تتكون المادة اللغوية التى بين أيدينا من عدة مخطوطات تتمثل فى بعض الكتابات الذاتية مثل الخطابات والتقارير والتعليقات المكتوبة على بعض الكتب، وتتمثل بصفة خاصة فى يومياته البحرية التى أُعيد نسخها عقب وفاته بفترة وجيزة، فى كتاب بارتولومى دو لاس كازاس[1] Bartolomé de las Casas الذى يحمل عنوان Historia de Las Indias، وكذلك فى كتاب Historia المنسوب إلى ابنه فرناندو كولون Fernando Colon. إن هذه النصوص التى كُتبت غالبيتها باللغة الإسبانية، واحتوت

(١) مع احترام النصوص بشكل كامل، أشار كازاس إلى أن كولومبس "لم يكن يفهم معنى كلمات اللغة القشتالية".

على بعض التعليقات باللغتين الإيطالية واللاتينية، تعكس بشكل مثير للغاية ما كانت عليه الممارسات اللغوية للملاحين، واللغات التى كانوا يتكلمونها وكيفية التحدث بها، حيث يتيح لنا تحليل قواعدهم النحوية ومفرداتهم وطريقة كتابتهم الإملائية، إعادة تشكيل ما كان عليه نظامهم اللغوى. وقد خضعت هذه النصوص بالطبع لتحليلات عديدة أجراها المُؤرِّخون، ولكن بصورة أقل من اللغويين، ومن ذلك على سبيل المثال الدراسة التى أجراها مننديز بيدال Menendez Pedal ، وتلك التى أجراها أرس J. Arce ، بالإضافة إلى المقدمة المسهبة التى صاغها جوان جيل Juan Gil عند نشر نصوصه بأكملها. كما حُرر مؤخراً مقال فرنسى حول هذا الموضوع، وإن كان الكاتبان قد اعتمدا على نص منقول من المصدر الأصلى، حيث داوما على الاستشهاد بمقدمة جوان جيل، ناسبين إياها لكونسولو ڤاريلا Consuelo Varela، كما أرجعا تاريخ دراسة مننديز بيدال حول لغة كريستوفر كولومبس La Lingua de Critobal de Colon إلى عام ١٩٤٤، رغم أنها نُشرت لأول مرة عام ١٩٤٠، بل مرا مرور الكرام على ما يثير الاهتمام فى هذه الوثائق، ألا وهو ما تعكسه السيرة الذاتية اللغوية لكولومبس بشأن شكل اللغة الإسبانية المكتوبة وبلا شك المُتكلمة.

لماذا كان كولومبس يكتب باللغة الإسبانية؟ متى وأين تعلم تلك اللغة؟ هناك العديد من الاحتمالات التى قد تقودنا إلى الإجابة على هذه التساؤلات. افترض البعض أنه قد ولد لأبوين إسبانيين ويهوديين أو يهوديين فحسب، بينما اعتقد البعض الآخر أن أصوله ترجع إلى إقليم جاليسيا. لكن مننديز بيدال أوضح بطريقة مُقنعة أنه إذا ما كان هذا الأميرال قد استخدم اللغة الإسبانية فى الكتابة قبل قدومه إلى إسبانيا، فإن لغته لا تمثل بأى شكل من الأشكال اللغة الأولى لصاحبها؛ لأننا لا نجد بها أى أثر للغة الإسبانية اليهودية، كما أن تعدد الأساليب البرتغالية فى كتاباته ينفى تمامًا أصوله الجاليسية، وهذا ما سنعرض له فيما بعد. والفروق الكبيرة بين اللغتين الجاليسية والبرتغالية توضح لنا بجلاء استخدام كولومبس للأشكال اللغوية البرتغالية.

استخدم كولومبس أحيانًا فى كتاباته باللغة الإسبانية، بعض الكلمات الإيطالية أو البرتغالية مثل كلمة deter بدلاً من detener، و fugir بدلاً من huir، كما أن طريقة كتابته تعكس نطقًا برتغاليًا. ومن ذلك على سبيل المثال مداومته على كتابة:

- الصـائت الثنائى oe بدلاً من ue (poerto بدلاً من puerto ، و soerte بدلاً من suerte، و coerpo بدلاً من ... cuerpo إلخ.).

- الصـائت الثنائى e بدلاً من ie (quer بدلاً من quier، و pensamento بدلاً من pensamiento، و intenda بدلاً من ... entienda إلخ.).

- الحرف الختـامى u بدلاً من o (deseu بدلاً من deseo، و correu بدلاً من correo ... إلخ.).

- الحرف الختامى الشفوى m بدلاً من n (um بدلاً من un) .

يستخلص جوان جيل من كل ذلك أن "هذا الملاّح العظيم لم يتمكن من التعبير بطريقة صحيحة بأى لغة من اللغات"، ويرجع هذا الأمر إلى سبب بسيط، ألا وهو أن كولومبس كان فى الأساس بَحّاراً "اعتاد على الرطانة بألف لغة، دون التمكن من إجادة التعبير بأى منها". ويعتقد جيل أن كولومبس قد تعلم الإسبانية بعد وصوله إلى إسبانيا، فى أعقاب رحلته إلى البرتغال؛ مما قد يفسر تعدد المصطلحات البرتغالية التى سبق أن ذكرناها.

ومن جانبه، قَسَّم مننديز بيدال حياة كولومبس إلى ثلاث فترات كبيرة.

ولد كولومبس عام ١٤٥١ أو عام ١٤٥٢ فى مدينة چنوا، لأب يعمل بالنسيج، وظل بهذه المدينة حتى شهر أغسطس عام ١٤٧٣، وعلاوة على لغته الأولى أى لغة أهل چنوا، تعلم كولومبس- خلال هذه السنوات العشرين- اللغة اللاتينية التجارية السائدة آنذاك (تحدثًا وكتابة)، وربما يكون قد تعلم أيضًا بعض الإيطالية. "لابد أن كولومبس قد تمكن فى چنوا من تعلم اللغة اللاتينية التجارية من أجل مباشرة أعماله، وهى اللغة اللاتينية التى كان الأسبان يسخرون منها، ويطلقون عليها اسم Latín Genovisco أى اللاتينية الخاصة بأهل چنوا؛ فقد أجاد كولومبس التحدث بهذه اللغة وكتابتها على حدٍ سواء."

وفى مرحلة تالية امتدت بين عامى ١٤٧٣ و١٤٧٦، سافر كولومبس عبر البحر المتوسط، فى إطار عمله كوكيل تجارى لإحدى شركات چنوا التجارية. وقد صدَّقت

ماريان مانلوط Marianne Mahn-Lot على هذا الأمر قائلة إن كولومبس قد انضم إلى "بعض الشركات التجارية الكبيرة بجنوا التى كانت تعمل ببيع الصوف وشراء الشب والتوابل والسكر، وأبحر فى حوض البحر المتوسط حتى وصل إلى إنجلترا. ومن المفترض أنه قد تمكن خلال هذه الفترة من اكتساب اللغة الإسبانية فى موانئ البحر المتوسط، لكن بيدال يؤكد عدم العثور على أى أثر للغة الأندلسية لديه. ومن ثمَّ فمن المحتمل أنه قد تعلم لغة أخرى خلال هذه الفترة؛ فقد ذكر جوان جيل أن: "كولومبس كان يتواصل مع زملائه خلال فترة شبابه باستخدام لغة "رطانة" كانت تعرف باسم لغة Levantin، أى لغة المشرق أو لغة البحر المتوسط بشكل عام". وسوف نعرض لهذا الأمر فيما بعد.

بدأت المرحلة الثالثة عام ١٤٧٦ حينما استقر كولومبس فى البرتغال، وانتهت عام ١٤٨٥، حينما أقام فى منطقة كاستيلا. إلا أنه قد تعلم الإسبانية قبل عام ١٤٨٥، وفقًا لما تؤكده الخطابات المحُرَّرَة بهذه اللغة قبل هذا التاريخ. ويوضح منندين بيدال أن الأميرال قد تعلم الإسبانية فى البرتغال، حيث كانت تسود آنذاك اللهجة الكاستيللية، وكان العديد من الشعراء يكتبون باللغة الإسبانية رغم استخدامهم لعدد من الصيغ "الخاطئة" المشابهة لتلك التى كان يستخدمها كولومبس، بل كان النبلاء آنذاك يتكلفون التحدث بهذه اللغة...الخ. ومن هنا كان من الطبيعى أن تتأثر لغة كولومبس الإسبانية بالمكان الذى تعلمها فيه، أى أن كولومبس قد تعلم اللغة الإسبانية البرتغالية .

وهكذا، تشكلت السيرة الذاتية اللغوية لكولومبس من تراكم اللغات الرومانية التى اكتسبها الواحدة تلو الأخرى. كانت لغة أهل جنوا هى لغته الأم بحكم مولده فى هذه المدينة، ثم تعلم بعد ذلك اللغة اللاتينية التجارية تحدثًا وكتابةً. وأسفر ارتحاله عبر البحر المتوسط عن اكتسابه بعض الإيطالية، كما أسفر بلا شك عن تعلمه لغة الفرنجة. وكانت إقامته فى البرتغال سببًا فى تعلمه اللغتين البرتغالية والإسبانية التى صارت لغته الثانية فى الكتابة بعد اللاتينية. وتعكس كتابات كولومبس باللغة الإسبانية – من خلال هجاء الكلمات – طريقة نطقه المتأثرة بحصيلة سيرته الذاتية اللغوية، حيث كان

يتوجه بقصص رحلاته إلى سادة منطقة كاستيللا، كما توضح مفرداته أحيانًا وجود خلط بين بعض اللغات التى كان يستخدمها. وفضلاً عن ذلك، هناك دليل مثير للاهتمام على طريقة كلام كولومبس، ألا وهو ما ساقه جارسيا فيراندو Garcia Ferrando الذى التقى به عام ١٤٩١، وذكر أنه كان يتحدث الإسبانية بطريقة الأجانب، حينما وصل بصحبة ولده دييجو إلى دير La Rabida . ويفسر بيدال هذا الأمر قائلاً: "حينما حدثت تلك الواقعة عام١٤٩١، وبعد خمس سنوات قضاها كولومبس فى بلاط كاستيللا، ظل كولومبس يتحدث الإسبانية بلكنة أجنبية". كما تعكس طريقة كتابة كولومبس ممارساته اللغوية، حيث كان يكتب ما يعتقد أنه من اللغة الإسبانية، ونعنى هنا الإسبانية المكتوبة، إلا أنها كانت بالطبع لغة غير صائبة فى أغلب الأحيان، وإن كانت تصدر عن كاتب مجتهد؛ لأن هذا الملاَّح كان يتوجه بكلماته إلى الحكام، ولم يكن بوسعه أن يخاطب سادته بلغة أخرى غير لغتهم الأصلية. ويسوق جوان جيل ملحوظة جديرة بالاهتمام حول لغة كولومبس الإسبانية: "خلاصة القول إن السمة المميزة لكتابات كولومبس تتمثل فى الاقتصاد اللغوى، حيث كان يسعى دومًا وراء استخدام أكثر الصيغ المفهومة فى أكبر عدد من اللغات، معتمدًا على أن المُخاطَبين أو القراء سيتمكنون بكل سهولة من اكتشاف الالتباس اللغوى. لذا، يصعب علينا الجزم بشأن إرجاع استخدام per إلى التعبيرات البرتغالية أو التعبيرات الإيطالية". وفكرة الاقتصاد تلك تهدف إلى البحث عن الصيغ المشتركة بين العديد من اللغات، وهى أفضل النقاط للانتقال إلى الموضوع الذى نرغب فى تناوله الآن .

لقد رأينا من قبل أن كولومبس كان يتواصل مع المحيطين به خلال رحلاته الأولى، باستخدام شكل لغوى مختلف تمام الاختلاف، ألا وهو لغة "الرطانة" المعروفة باسم لغة الفرنجة(١) التى يبدو أنها قد تواجدت خلال القرن الحادى عشر أو الثانى عشر وحتى منتصف القرن التاسع عشر، حيث تُعد من اللغات الناقلة التى انتشرت فى أثناء

(١) لغة الفرنجة بمعنى لغة الفرنسى، وهو تعبير قد يكون منقولاً من التعبير العربى لسان الفرنجة.

الحملات الصليبية عند حدوث أول علاقات التماس اللغوى بين متحدثى اللغات الرومانية ومتكلمى اللغتين العربية والتركية. وبيد أننا لا نملك سوى عدد قليل للغاية من الوثائق الخاصة بلغات هذا العصر، إلا أنه من المحتمل أن تكون لغة الفرنجة قد نشأت من جراء علاقة "التماس اللغوى بين متكلمى اللغات الرومانية ومتكلمى اللغات غير الرومانية". ويوضح هوجو شوشاردت Hugo Schuchardt هذا الأمر ذاكراً أن: "لغة الفرنجة هى لغة اتصال تشكلت من مفردات رومانية تطورت خلال العصور الوسطى عند اتصال الرومان بالعرب والأتراك". ثم أضاف قائلاً: "تعد الجزائر العاصمة بمثابة البقعة الجغرافية الرئيسية للغة الفرنجة؛ وذلك ليس لأنها كانت منطقة تماس دوائر السلطة الإيطالية والإسبانية، بل لأنها كانت تضم قلعة حصينة وشبكة من القراصنة على طول ساحل البحر المتوسط ".

حَرِىٌّ بنا أن نذكر دييجو دو هايدو Diego de Haedo عند التعرض للمصادر التى تناولت هذه اللغة؛ لأنه عرض لنا ما يشبه "اللغة الإسبانية الأساسية" "basic Spanish" المستخدمة فى الجزائر العاصمة، حيث اختلطت بها بعض الكلمات الإيطالية أو الصقلية :

"Mira cane como hazer malato, mirar como mi estar barbero bono, y saber curar, si estar malato, y correr bono. Si cane dezir doler cabeça, tenter febre no poder trabajar mi saber como curar, a Fé de Dios abrusar vivo; trabajar, no parlar que estar malato ".

("انظر، أيها الكلب، إنك تتصنع المرض. انظر كم أنا طبيب جيد، وكم أستطيع علاجك. وإذا ما كنت مريضًا، فستجرى جيداً. أيها الكلب، إذا قلت إنك تعانى من ألم فى الرأس، وارتفاع فى الحرارة، ولا تستطيع أداء عملك؛ فأنا أعلم جيداً كيف أداويك. أقسم بالله أن أحرقك حيًا. قم بعملك، ولا تقل إنك مريض".)

لا يسهل دومًا إسناد مثل هذه العناصر إلى معجم لغوى محدد؛ فكلمات مثل mira و correr يمكن أن تكون إيطالية (mirare , correre) أو إسبانية (mirar, correr)، وكلمة

مثل abrusar يمكن أن تكون إسبانية أو فينيسية. لكن أصل كلمات مثل:-cane, parlar, cur ar, malato يرجع بالتأكيد إلى اللغة الإيطالية، ومن الواضح أن كلمات مثل :,cabeça, hazer barbero, saber, doler, trabajar هى كلمات إسبانية. ونلاحظ هنا البساطة الشديدة التى تتسم بها القواعد النحوية، مثل وجود شكل واحد فحسب للضمائر الشخصية (mi, ti, etc)، واستخدام الأفعال فى صيغة المصدر...إلخ. ووفقًا لما ذكره شوشاردت، فإن مصدر الفعل كان يضطلع بوظيفة المضارع والماضى، أى أن mi andar تعنى "أذهب" و"ذهبت"، و-mi sen tir تعنى "أفهم" و"فهمت" على حد سواء، بينما كان يتم أحيانًا التعبير عن المستقبل باستخدام كلمة bisogno مثل bisogno mi andar أى "سأذهب".

عرض الكاتب موليير فى روايته المسرحية التى تحمل عنوان-Le Bourgeois Gentil homme، فقرتين يبدو أنه قد حصل عليهما من صديقه لوران دارفيوLaurent D'Arvieux الذى كان يعمل وزيرًا مفوضًا فى تونس. فقد وردت أولاً فى سياق المسرحية الفقرة التالية:

Si ti sabir ti repondir, si non sabir tazir tazir, mi star Mufti, ti star ci? Non – entendir, tazir, tazir:

(أجب إن كنت تعلم، واصمت إن كنت لا تعلم. أنا المفتى، فمن أنت؟ وإن كنت لا تفهم شيئًا فاصمت.)

وفى نهاية المسرحية، يقول المفتى للبرجوازى:

"Se ti sabir ti repondir, si non sabir tazir tazir ".

ويجيبه البرجوازى قائلاً:

"Mohametta per Giourdina, mi pregar sera é mattina, voler far un Paldina de Giourdina ".

نلاحظ فى هاتين الفقرتين الاستخدام المنهجى نفسه لمصادر الأفعال والضمائر ذاتها (mi,ti)، كما سبق أن رأيناها فى الأمثلة التى ساقها هايدو.

وبعد مرور قرن من الزمان، أى فى عام ١٧٦١، عمد كذلك جولدونى Goldoni إلى استخدام لغة الفرنجة فى كتابه L'impressario de Smyrne . ويعتقد حاليًا بعض اللغويين أنه يمكن الاعتماد على هذه المادة اللغوية المحدودة، واعتبارها بمثابة دليل على مدى استقلالية لغة الفرنجة عن لغات المصدر التى انبثقت عنها. وتوضح لنا المقاطع التالية أنه لم يطرأ سوى تغيير طفيف على المبادئ الأساسية لتلك اللغة، حيث نلاحظ الاستخدام الدائم لمصادر الأفعال، وغياب حروف الجر بشكل كبير، باستثناء بعض الإضافات القليلة التى دخلت على نظام الضمائر الشخصية (io, me, mi) .

- Si voler andar Turchia, io ti mandar Constantinopoli.

(إذا ما أردت الذهاب إلى تركيا، سأرسلك إلى القسطنطينية.)

- Star omo o star donna ?

(هل أنت رجل أم امرأة ؟)

- Andar Diavolo ! Seder presso di me ! Non mi romper testa !

(فلتذهب إلى الجحيم! اجلس بجوارى! ولا تزعجنى!)

وعلاوة على ذلك، يعرض لنا الجنرال فيدهرب Faidherbe عدداً من الأمثلة على ما أسميناه لغة "السابير" Sabir(١)، مثل " Moi meskine, toi donnar sordi" أى "أنا فقير، اعطنى بعض النقود"، و" Sbanjoul chapar bourrico, andar labrisou" أى "لقد سرق الإسبانى حماراً وسيودع السجن"، وأخيراً نجد هذا المثال "Quand moi gagner drahem, moi achetir moukère " أى "حينما أربح بعض النقود، سأقوم بشراء امرأة". ويشير فيدهرب إلى "أن استخدام تلك اللغة يجعل الجندى على قناعة تامة بأنه يتحدث العربية، ويجعل العربى على يقين تام أنه يتحدث الفرنسية". إلا أن لغة "السابير" قد تعرضت للاندثار بصورة بطيئة، ولم يتبق منها سوى بعض الآثار

(١) [اللغة الفرنسية الممزوجة بكلمات عربية أو بربرية أو إسبانية ...الخ.]

الموجودة فى اللغة الفرنسية الشعبية بشمال أفريقيا؛ ومن ذلك على سبيل المثال كلمة moukère المأخوذة عن الكلمة الإسبانية mujer، وكذلك makache bono وهى صيغة نفى أصلها عربى مع إضافة نعت ذى أصل رومانى...إلخ.

لكن، هل هناك بالفعل اتصال مستمر بين كل هذه الأشكال المختلفة؟ يلقى هذا الرأى معارضة شديدة من قبل بول سيبلو Paul Siblot؛ لأنه يرى أن افتراض وجود أية صلة بين لغة الفرنجة التى تعتبر بمثابة "مزيج بدائى من اللغات الرومانية واليونانية والتركية والعربية المستخدمة فى عمليات التبادل التجارى"، وبين لغة السابير الخاصة بالجزائر العاصمة، هو من قبيل "الخلط". بل يؤكد سيبلو على التعريف الذى ساقه أو بلوخ O.Bloch وڤون وارتبورج W.Von Wartburg للغة السابير فى قاموسهما الخاص بأصول الكلمات: "إنها لغة رطانة ممزوجة بكلمات إيطالية وإسبانية وفرنسية وعربية، يتكلمها أهالى شمال أفريقيا، حينما يرغبون فى التحدث مع الأوروبيين." لكن مثل هذا الاستشهاد الذى يسوقه سيبلو لتعريف القاموس يبدو منقوصًا؛ إذ إن هذين المؤلفين يعقدان بعد ذلك بعدة أسطر مقارنة بين لغة السابير ولغة الفرنجة باعتبارهما "لغتى رطانة من النوع نفسه المستخدم فى الولايات البربرية"، بل يسوق سيبلو المثال المقتطع من رواية ... Bourgeois Gentilhomme وإن روبرت هال الابن Robert Hall Jr قد سبق سيبلو فى دفاعه عن الموقف ذاته المتمثل فى أن لغة الفرنجة الخاصة بالعصور الوسطى كانت فى الأساس مكونة من عناصر اللغة البروڤانسية، وأن ما نعرض له بالتالى بصدد لغة الفرنجة لم يكن سوى لغة البيدجين الإسبانية الخاصة بالقرن السابع عشر ولغة البيدجين الفرنسية الخاصة بالقرن التاسع عشر.

وبأى حال من الأحوال، هناك العديد من الكُتَّاب الذى ينزعون نحو وجود تواصل مستمر بين كل هذه الأشكال اللغوية، مثل كيث وينوم Keith Whinnom الذى عمد إلى دحض أطروحة هال بالاستناد فى الأساس إلى الدلائل اللغوية الداخلية: تؤكد لنا النصوص التى لدينا – ومن ذلك ما سبق أن ذكرناه أعلاه – وجود ما يربط بين كل تلك الأشكال اللغوية المختلفة، مثل الضمائر ونظام تصريف الأفعال. كما يتبنى سالڤاتور

سانتورو Salvatore Santoro هذا الرأى، حيث عرّف لغة الفرنجة باعتبارها لغة ثابتة شهدت بنيتها المورفولوچية عدداً من عمليات التبسيط، كما هو شائع فى عدد من اللغات التى عرفت إعادة البناء؛ كما يعتقد أن "لغة الفرنجة قد تعرضت للتطور مثل أى لغة أخرى، وشهدت عدداً من التغيرات على مدار ثمانية قرون على الأقل، وهى حقبة زمنية تثير الانتباه بالنسبة لإحدى لغات التماس".

ولا جرم أنه لا يمكن أن تظل لغة ما على حالها خلال عدة قرون. وإذا ما كانت المقاطع المأخوذة عن هايدو - التى ذكرناها من قبل - توضح لنا وجود مزيج من المفردات التى ترجع أصولها فى الأساس إلى اللغتين الإيطالية والإسبانية، فإن بعض الكُتّاب الآخرين قد وصفوا بالتالى لغة الفرنجة على اعتبار أنها مزيج من الإيطالية والفرنسية والإسبانية، أو خليط من الفرنسية والرومانية والإسبانية. وعلى أية حال، تعرض لنا لغة الفرنجة نظاماً نحوياً مختصراً للغاية؛ لأنه بمثابة نقطة الالتقاء المشتركة بين لغتين أو ثلاث لغات رومانية. وعلاوة على ذلك، فقد تطورت بصورة هائلة الأوضاع الاجتماعية اللغوية الخاصة باستخدام لغة الفرنجة، فيما بين الأمثلة التى ساقها هايدو فى بداية القرن السابع عشر وأمثلة جولدونى فى منتصف القرن الثامن عشر وأمثلة فيدهرب فى نهاية القرن التاسع عشر. إلا أن محيط البيئة اللغوية قد ظل على حاله بوجه عام، مع ضرورة الأخذ فى الاعتبار وجود تغير دائم مصاحب لاستمرارية هذه اللغة. لقد تنقلت دوماً لغة الفرنجة على مدار تاريخها الطويل عبر حوض البحر المتوسط، وتعرضت لعمليات تطويع وإعادة تشكيل مفرداتها؛ فقد استندت بلا شك إلى أصولها من اللغة اللاتينية المتأخرة، وأدخلت عليها عدداً من الكلمات الخاصة بلغات ڤينيسيا وچنوا وبروڤانس، ثم أضافت إليها كلمات إسبانية وفرنسية، وبانتقال لغة الفرنجة البطىء من الغرب إلى الشرق، انتهى بها الأمر فى شمال أفريقيا تحت اسم "لغة المورا الصغيرة" petit mauresque أو "السابير" sabir، وهى فى الأساس أحد أشكال الفرانكو أراب. وقد تضمنت المادة التى قدمها فيرهرب مزيجاً من الكلمات الفرنسية العربية، مثل كلمتى meskine أى "مسكين"، و maboul أى "مخبول"، بالإضافة إلى بعض السمات الصوتية العربية، مثل الأشكال اللغوية التى تعبِّر عن غياب

حرف الـ p في اللغة العربية، ومن ذلك كلمتى sbanioul و labrisou؛ مما يوضح ما آلت إليه لغة الفرنجة من الآن فصاعد كلغة اتصال بين الفرنسيين والعرب، ولا سيما في الجزائر بوجه خاص. إن كل هذه التقلبات تجعلنا نعتقد أننا إزاء لغة ناقلة ذات جغرافية متغيرة"، لغة أخضعها مستخدموها للتطويع والتعديل، وفقًا لمقتضيات الأوضاع المحيطة بها والعصور التي تواجدت خلالها. ويوضح لنا هذا الشكل النهائي للغة الفرنجة "السابير"، ووظيفتها المتمثلة في اتصال الفرنسيين بالجزائريين، أن وجود مثل هذه اللغة هو نتيجة لكون الفرنسيين لا يتحدثون العربية والعرب لا يتحدثون الفرنسية. ومن ثمَّ، فإن تطور استخدام اللغة الفرنسية في الجزائر سيسفر عن تراجع، بل اختفاء لغة الفرنجة؛ لأن لغة المستعمر قد حلت محل تلك اللغة الناقلة....

وهكذا، نجد أنفسنا هنا إزاء نظام بيئة لغوية ذات خصوصية شديدة، حيث يدفعنا وضعها المتغير إلى تدبر الظروف الخاصة بكيفية التفاهم بين عدد من المتكلمين يتحدثون لغات مختلفة. وسوف ننطلق بداية من الافتراض التالي: في ظل الأوضاع المذكورة أعلاه، كان الاتصال الأولى يفتقر إلى الإتقان، ويتم في أضيق الحدود بشكل مباشر انعكس أولاً من خلال المفردات، حيث كان تبادل كلمات مشتركة يستلزم نوعًا من "التفاوض" الصوتي؛ ونعني بذلك البحث عن شكل لغوى عام ومشترك، أي الدخول في نقطة التقاء مشترك على الصعيد اللغوى. وقد أعقب ذلك إثارة مشكلة القواعد النحوية اللازمة لتحقيق اتصال أكثر تحديداً وأكثر دقة. ونحن نعي تمامًا أننا نبدو وكأننا نخالف التيار السائد الذي يعد اللغة بمثابة انعكاس لنظام تصوري أو لثقافة بأكملها. ورغم أننا نستبعد تمامًا فكرة إنكار وجود روابط بين اللغة والمعرفة، فإننا نرغب فحسب في التأكيد على وجود مستويات مختلفة لعملية "الاتصال" يناظر كل منها شكل لغوى يتسم بقدر من الإتقان. ووفقًا للأبحاث الميدانية العديدة التي أجريناها داخل أسواق متعددة اللغات، أدركنا أنه على المستوى التقني على سبيل المثال، لا تستلزم عملية التجارة والبيع والشراء سوى الوقوف على عدد قليل للغاية من الكلمات، بالإضافة إلى معرفة الأرقام واثنين أو ثلاثة تراكيب نحوية(١).

(١) يضاف إلى ذلك – على المستوى الرمزي – صيغ إلقاء التحية، لكن ذلك كله لا يشكل لغة كاملة.

وهذا ما كان ينطبق بلا شك على مجال الملاحة، حيث نفترض أنه قد تشكل تدريجيًا أقل قدر ممكن من المفردات اللغوية المركبة التى انتقلت بدورها من سفينة إلى أخرى، ومن ميناء إلى آخر، بل انتقلت عبر الجزر المختلفة. وهكذا، كانت السفن فى الواقع هى نقطة انطلاق هذه المفردات وانتشارها. ومثال ذلك ما أوضحه ريموند أرفييه Raymond Arveiller بشأن المسيرة الملتوية لبعض الكلمات ككلمة ananas) لغة الجوراني guarani عن طريق البرتغال)،حيث قال: "خلاصة القول إننا نرى أنه من الممكن الاستدلال على كون الكلمة المذكورة كانت تنتمى إلى المفردات التجارية الدولية الخاصة بالبحارة الساعين وراء المنتجات المنعشة فى جزر الأنتيل الكبرى والصغرى والبرازيل." وفى الفقرة التى خصصها لكلمة banane، نلاحظ أن الاستخدامات الأولى تتجلى جغرافيًا فى منطقة المحيط الهندى وجزر الأنتيل. وعلاوة على ذلك، نلاحظ ظهور كلمة caïman أى "تمساح كيمان"، فى إطار نصوص تتناول جزر الأنتيل ودولتى جويانا والمكسيك، ثم فى نصوص تتناول كل من غينيا والكونغو، كما نلاحظ استخدام كلمة ouragan أى "إعصار" فيما يخص جزيرة موريشيوس منذ عام ١٦٧٩، رغم ظهورها فى جزر الأنتيل عام ١٦٤٠، كما تم استخدام كلمة canot للإشارة إلى زوارق أمريكا الجنوبية وزوارق كندا على حد سواء، وكذلك استخدام كلمة caye فيما يخص المحيط الهندى وجزر الأنتيل...الخ. ويبدو أنه توجد بعض الكلمات المقترضة فى الوقت ذاته من لغة هندية أو إسبانية أو برتغالية، فى حين توجد كلمات أخرى مقترضة ومترجمة فى آن واحد. وهكذا نجد أنفسنا هنا إزاء ما أطلق عليه روبرت شودنسون Robert Chaudenson اسم "مفردات الجزر"، ومن ذلك على سبيل المثال المفردات التى نلاحظ تزامن استخدامها بكل من جزيرة لاريونيون وجزر الأنتيل، والتى انتقلت من جزيرة إلى أخرى على متن سفن شركة الهند الغربية خلال القرن السابع عشر، حيث كانت تحتكر التجارة بدءًا "من الرأس الأبيض وحتى رأس الرجاء الصالح". كما تزامن ظهور كلمة habitation بمعنى "النشاط الزراعى" فى المحيط الهندى وفى جزر الأنتيل، وتزامن كذلك ظهور كلمة ajoupa بمعنى "كوخ من الخشب أو من ورق الشجر" فى كل من لاريونيون ولويزيانا وهاييتى والمارتينيك، وأخيرًا كانت تستخدم كلمة pistache بمعنى "فول سودانى" فى كل من لاريونيون والمارتينيك وهاييتى على حد سواء...إلخ.

ومن ثَمَّ، سرت تلك المفردات من مصدر إشعاعي واحد تمثل في السفن والبحارة. والأمثلة التي ذكرناها تنتمي لمناطق جغرافية متباعدة مثل البحر الكاريبي والمحيط الهندي؛ مما يجعلنا ندرك مدى شدة انتشار هذه المفردات في محيط مغلق مثل البحر المتوسط. ووفقًا لعلم أصول الكلمات، فإن كلمة البحر المتوسط Méditerranée تنطوي ذاتها على سمتها الرئيسية؛ لأنها تعني "وسط اليابس". وهذا الوضع الجغرافي هو أساس ما نسعى إلى إثارته. عند التنقل عبر الموانئ واللغات، تتراكم لدى المسافرين المفردات والأشكال الصوتية والصيغ النحوية؛ مما يؤدي أولاً إلى وجود ممارسات شخصية للأفراد المتواجدين في زمن ما داخل هذا النظام البيئي، حيث تختلف وفقًا لتاريخ كل فرد وسيرته اللغوية. وهذا ما شهدناه في كتابات كريستوفر كولومبس من تأثير إحدى الأنظمة البيئية اللغوية على مدى كفاءة إحدى اللغات التي تتمثل هنا في اللغة الإسبانية. إلا أنه في ظل الزمان والمكان ذاتهما، أسفرت علاقات التفاعل الداخلي بين الممارسات الفردية – بواسطة الضبط الذاتي – عن وجود منطقة مشتركة بين مجموع هذه الممارسات، بصورة أتاحت التواصل داخل نظام دقيق تمثل في السفينة والميناء، أو داخل نظام أكثر اتساعًا تمثل في البحر المتوسط، حيث ظهرت لغة الفرنجة. وقد تطورت هذه اللغة، بل تكيفت مع الأجواء الجديدة، واستجابت لمطالب المجتمع الجديدة، إلا أنها ظلت في الوقت نفسه شاهدة على التاريخ.

ومن هذا المنطلق، نلاحظ تميُّز وصف هايدو للجزائر العاصمة في بداية القرن السابع عشر، حيث عمد إلى التمييز بين خمس جماعات مختلفة تمثل خمس عشرة لغة (الأتراك والمسيحيون المرتدون والمسيحيون الأسرى واليهود والمورا)، إلا أن لغة الفرنجة كانت هي اللغة الوحيدة المشتركة التي تربط بينهم: "كان التحدث بلغة الفرنجة أمرًا شائعًا، ولم يكن هناك منزل يخلو من هذه اللغة. الأتراك والمورا، والكبار والصغار، والرجال والنساء كانوا يتكلمون هذه اللغة، بل كانوا في الغالب يجيدون التحدث بها."لذا، كانت دومًا لغة الفرنجة عرضة لإعادة تشكيلها، حيث كانت تتغير باستمرار في إطار التفاعلات الداخلية، وتعكس بالتالي شكل العلاقات التي تربط بين اللغات المختلفة، أي تعكس الدور الذي تضطلع به الدول التي يتكلم سكانها هذه اللغات. لقد

كانت لغة الفرنجة فى بادئ الأمر لغة إيطالية - إسبانية، ثم تطورت عبر أربعة أو خمسة قرون، وانتهى بها المطاف عند الشكل العربى- الفرنسى "الفرانكو أراب". ويبدو أنه لا يوجد سوى أقل القليل الذى يربط بين النصوص التى ساقها هايدو وتلك التى عرضها فيدهرب، إلا أن هذا الشكل اللغوى المتغير باستمرار قد اضطلع دومًا بوظيفته الدائمة كلغة ناقلة. ولا جدوى من محاولة الحصول على آية آثار لهذا الـ"البرنامج الحيوى" الخاص بالتركيبات اللغوية الفطرية. إن الأمر كله يتمثل بالأحرى فى "تعديل وقتى" امتد على مستوى الفرد فى حالة كريستوفر كولومبس، وعلى مستوى المجتمع كله فى حالة لغة الفرنجة. وانطلاقًا من هذا المنظور، يعد ذلك الشكل الخاص بتلك اللغة الناقلة البحر متوسطية، بمثابة خير مثال على كيفية إنتاج نظام بيئى لمواد لغوية كان فى حاجة إليها.

إضفاء الصبغة المحلية والتكيف مع البيئة:

اللغات الفرنسية الأفريقية

أدخل ليوبولد سنجور Léopold Songhor تعديلاً طفيفًا على عنوان المؤلف المخصص لمفردات اللغة الفرنسية السنغالية، حينما تصدى عام ١٩٧٩ لكتابة مقدمة هذا الكتاب، بحيث صار العنوان: "مقدمة مفردات اللغة الفرنسية فى السنغال". ولعلنا نلاحظ أن إحلال الجار والمجرور "فى السنغال"- بدلاً من نعت *اللغة الفرنسية* بكونها "سنغالية"- يثير جدلاً حول الأشكال التى اتخذتها اللغة الفرنسية فى أفريقيا. فهل يتعين علينا الاعتقاد بشكل أكثر اتساعًا فى وجود متغير أفريقى واحد *للغة الفرنسية*، أم أننا بصدد ظهور لغات فرنسية محلية، أى لغات فرنسية سنغالية ومالية وكاميرونية وكوت ديفوارية وجابونية...الخ. أو بعبارة أخرى، هل تقف اللغة "*الفرنسية الأفريقية*" من اللغة الفرنسية النموذجية موقف الفرنسية المارسيلية؟ أى هل تمثل كل منهما اللغة ذاتها مضافًا إليها بعض السمات الإقليمية؟.. أم تعد مثل هذه اللغات بمثابة البشائر الأولى لجيل جديد من *اللغات* التى ستماثل مكانتها بالنسبة للغة الفرنسية المكانة التى تشغلها اليوم كل من الفرنسية والإسبانية والإيطالية أو الرومانية بالنسبة للغة اللاتينية؟

تعددت الدراسات حول مفردات اللغة الفرنسية الأفريقية، منذ نشر "قائمة المفردات الخاصة باللغة الفرنسية فى أفريقيا السوداء" عام ١٩٨٣:-Inventaire des particulari tés lexicales du français en Afrique noire. ولنذكر على سبيل المثال الدراسة التى أجراها برينيتز Prignitz عام ١٩٨٤ حول بوركينا فاسو، ودراسة وينيزوى-ديشون Wenezoui-Déchamps عام ١٩٨٨ حول منطقة وسط أفريقيا، وكذلك دراسة كيفلك ونيانجونا Queffelec et Niangouna عام ١٩٩٠ بشأن الكونغو، ودراسة فيرال Féral عام ١٩٩٣ حول الكاميرون...إلخ. من خلال كل هذه الأبحاث المختلفة، يمكننا إجراء تصنيف نوعى لمفردات اللغة الفرنسية فى أفريقيا أو اللغة الفرنسية الخاصة بأفريقيا، وفقًا لطريقة نشأة هذه المفردات:

١- تشكلت بعض الكلمات الفرنسية من جذور فرنسية؛ أى أنها تعد من الكلمات الجديدة القائمة على الالتزام بكل قواعد الاشتقاق الخاصة بهذه اللغة، لكنها لا تتواجد فى إطار معيار لغة فرنسا نفسها. ومن ذلك على سبيل المثال الكلمات التالية: gréver أى "يقوم بإضراب" (faire la grève)، و siester أى "يأخذ راحته وقت القيلولة" (faire la sieste)، و couiller أى "يجامع" (faire l'amour)، و essencerie أى "محطة خدمة السيارات" (station service)، و douchière أى "مكان الاستحمام" ("coin douche", "bac à douche")، و alphabète أى "شخص يجيد القراءة والكتابة"، و cigaretter أى "يعطى السجائر"، و misérer أى "يحيا فى حالة من البؤس"، و boyerie أى "مكان إقامة الخدم...إلخ.

٢- تشكلت بعض الكلمات الفرنسية من جذور أفريقية. ومن ذلك استخدام كلمة مندينجية مثل dibi أى "قطع من اللحم"، من أجل اشتقاق كلمة dibiterie فى السنغال للدلالة على مكان بيع اللحوم المشوية، وذلك على غرار نموذج فرنسى منتج للغاية لكلمات مثل bijouterie و épicerie ومؤخرًا كلمات مثل animalerie و croissanterie. وقد يكون مصدر تشكيل هذه الكلمة هو الفعل الفرنسى débiter المستخدم بمعنى تقطيع اللحم (débiter la viande en morceaux). وبالطريقة نفسها، صيغت فى زائير

كلمة ziboulateur أى "الفتّاحة" المشتقة من الفعل Ko zibula بمعنى "يفتح". كما اشتقت العديد من الكلمات من كلمة أصلها عربى هى toubab التى تشير إلى الرجل الأبيض فى كل من مالى والسنغال؛ ومن هذه المشتقات نذكر كلمة toubabesse أى "المرأة البيضاء"، والفعل se toubabisser أى "ينزع إلى التشبه بالبيض"، وكذلك كلمة toubabisme ... إلخ.

٣- استخدمت بعض الكلمات الفرنسية فى غير معناها المعروف باللغة الفرنسية النموذجية، مثل استخدام الفعل gagner بمعنى "يمتلك" لا "يكسب"، وambiance بمعنى "عيد" لا بمعنى "الوسط المحيط"، بل اشتقت منها كلمة ambiancer بمعنى "الابتهاج بالعيد"، وكذلك استخدام كلمة interner بمعنى "وضع شخص فى مدرسة داخلية"، وكلمة mazout بمعنى "كوكتيل الكولا والويسكى"، و maquis بمعنى "سرى" أو "خفى"، و connaître بمعنى "يعرف"، و gâter بمعنى "يتلف أو يدمر..."،...إلخ.

٤- استخدمت بعض الكلمات أو المصطلحات المقترضة من لغات أفريقية، مثل كلمتى abana و karamoko أى "انتهى الأمر" و"مرابط" بلغة البمبارا، وكلمة borom أى "رب العمل" بلغة الولوف، وكلمة tchapalo أى "البيرة المصنوعة من الذرة البيضاء" بلغة السنوفو...إلخ.

وتستخدم بعض هذه الكلمات فى كل المناطق الأفريقية الفرانكوفونية، مثل gagner و connaître و gâter و gréver وما إلى ذلك من كلمات أخرى. بينما تستخدم بعض الكلمات الأخرى على نطاق أضيق فى بعض البلدان الأفريقية أو فى دولة واحدة فحسب، مثل استخدام كلمة brin بمعنى "كبريت"، و dibiterie أو filiation بمعنى "هوية" فى السنغال، وكلمة caillase بمعنى "عملة" فى النيجر، و communiste بمعنى "شخص غير أمين" فى رواندا، و matabiche بمعنى "إكرامية" أو كلمة cigaretter فى زائير والكونغو، و payé-cousu بمعنى "ملابس جاهزة" فى الكاميرون...إلخ. وأخيراً، هناك بعض الكلمات التى يختلف معناها باختلاف الدول التى تستخدمها، مثل الفعل tailler الذى يعنى فى السنغال "أخذ مقاسات شخص ما"، بينما يعنى فى الكاميرون "صرف العاشق" و"عدم الرد على شخص ما".

كان يستلزم هذا التصنيف النوعى السريع قدراً أكبر من التمحيص، لكن حسبنا أنه يوضح لنا مدى تنوع المفردات والدلالات الخاصة باللغة الفرنسية الأفريقية واختلافها. وحرِيٌّ بنا الإشارة إلى دور العوامل السكانية والهجرات فى التأثير على هذه المفردات وإكسابها أحياناً أشكالاً محلية مختلفة. وخير الأمثلة على ذلك هو مثال دولة الجابون التى شهدت قدوم هجرات متعددة من مختلف الدول الأفريقية. فوفقًا لتعداد عام ١٩٩٣، بلغت نسبة الأجانب فى البلاد ١٩,١٥٪ من مجموع السكان، و٢٢,٣٪ من مجموع سكان العاصمة ليبرڤيل، وينقسم هؤلاء الأجانب إلى:

- ١٠٪ من شرق أفريقيا الفرانكفونية الناطقة بالفرنسية
- ٧,٦٪ من أفريقيا الوسطى
- ٣,١٪ من مناطق أفريقية مختلفة
- ١,٦٪ من غير الأفارقة

وإننا لنجد فى اللغة الفرنسية المستخدمة بمدينة ليبر ڤيل عدداً غير معتاد من الكلمات التى تشير كلها إلى هؤلاء الأجانب، ألا وهى:

- كلمة aofiens للإشارة إلى المهاجرين الذين ترجع أصولهم إلى غرب أفريقيا، أى الغرب الأفريقى الفرانكوفونى AOF الذى وقع تحت نير الاستعمار، كما تستخدم عدة كلمات أخرى للإشارة إلى هؤلاء المهاجرين مثل: الـ ouestafs والـ haussas والـ yoros والـ popos .

- كلمة arranger-arranger من أجل الإشارة إلى المهاجرين الغانيين، وهم فى الغالب من الإسكافيين الذين لا يجيدون التحدث باللغة الفرنسية ويتجهون إلى زبائنهم قائلين: " arranger-arranger" لسؤالهم عن مدى رغبتهم فى إصلاح أحذيتهم.

- كلمة equato للإشارة إلى المهاجرين الذين ترجع أصولهم إلى غينيا الاستوائية.

– كلمة kalaba للإشارة إلى مهاجرى نيجيريا الذين يُعرفون أيضًا باسم naïdjés الذى يعد اختصاراً للاسم الإنجليزى Nigerian .

– كلمة malien أو maloche للإشارة إلى المهاجرين الذين ترجع أصولهم إلى غرب أفريقيا، ولا سيما البقالين منهم، بل الذين لا يبيعون المواد الكحولية بصفة خاصة .

تنطوى كل هذه الكلمات ضمنيًا على معان عنصرية، بل تذكرنا تسمية الأجانب فى ليبرڤيل بما يطلق على الأجانب فى فرنسا، حيث ينتج عن تواجد عدد هائل من المهاجرين فى محيط إحدى البيئات اللغوية، ظهور مفردات متنوعة ومنفرة تستخدم فى تسمية هؤلاء الأجانب، إلا أننا لا نجد هذه المفردات بمثل هذه النسب الكبيرة فى مالى أو بوركينا فاسو على سبيل المثال، حيث يقل عدد المهاجرين إلى حد كبير.

ولا يسعنا حصر نطاق لغة ما فى إطار مفرداتها فحسب؛ فلابد من التطرق إلى المسائل الصوتية والنحوية، من أجل الإجابة على التساؤلات التى تجول بخاطرنا بشأن وضع اللغة أو اللغات الفرنسية الأفريقية. وقد وردت معلومات مثيرة للاهتمام حول الجانب الصوتى، فى الدراسة التى أجريت بمعرفة كل من مارى لويز مورو Marie-Louise Moreau ونداياسى تيام Ndiassé Thiam وسيسيل بوڤوا Cécile Bauvois، حيث أعدوا شريطًا صوتيًا يتكون من ٦٧ وحدة صوتية مدة كل منها ٢٠ ثانية مأخوذة من ٦٧ حديثًا لمتكلمين جامعيين ينتمون لثمانى دول مختلفة (بنين وبوروندى والكاميرون وكوت ديڤوار والنيجر ورواندا والسنغال وزائير). لم تتضمن هذه الوحدات الصوتية ما يُمَكِّنُنا من الاستدلال على أصول المتكلمين، حيث كانت الأحاديث تدور حول تصحيح الهجاء فى فرنسا، وقد وقع الاختيار على مقاطع تخلو من أية إشارة إلى جنسية المتحدثين أو أية مفردات تخص لغة بعينها. ثم حرص معدو هذا الشريط على إسماعه لـ١٠٤ طالب من طلاب جامعة دكار، وأخبروهم بأنه يخص ٦٧ متكلمًا ممن ترجع أصولهم إلى المناطق الأفريقية الفرانكوفونية، وأخيراً طالبوهم بتحديد جنسية كل واحد من هؤلاء المتكلمين. وجاءت نتيجة هذا البحث بالأرقام على النحو التالى:

١- تم التعرف على المتكلمين السنغاليين بنسبة ٨٤,٣٪.

٢- تم التعرف على المتكلمين غير السنغاليين بنسبة ٧١,٤٪.

٣- تم التعرف على جنسية المتكلمين غير السنغاليين بشكل محدود للغاية.

٤- تم التعرف على الأصل العرقى للمتكلمين السنغاليين بشكل محدود للغاية.

وهكذا، تمكن الأفراد الخاضعون للبحث من التفريق بكل سهولة بين هوية مواطنيهم وهوية الأجانب، إلا أنهم لم يتمكنوا من التعرف بدقة على أصول هؤلاء الأجانب، بل لم يتمكنوا من الوقوف على الأصول العرقية المختلفة لمواطنيهم. ووفقًا لما ذكره معدو هذا البحث، "يبدو أنه من الممكن تحديد هوية هؤلاء المتكلمين بصفة أولية من خلال لغتهم الفرنسية على المستوى القومى، لا على المستوى العرقى". ويبدو أن كل ذلك يشير إلى ظهور طريقة نمطية سنغالية للتحدث باللغة الفرنسية، ويمكن التعرف على معاييرها الصوتية، إلا أنها لا تحمل أية آثار تشير إلى الأصل الجغرافى أو العرقى أو إلى كليهما معًا؛ أى أنه سواء كان المتحدثون من متكلمى البول أو الديولا أو الولوف، فإنهم يُصَنَّفُون كسنغاليين من دون التعرف على أصولهم العرقية. ويمكننا بالتالى التسليم بوجود معيار محلى للغة الفرنسية داخل الأوساط الجامعية السنغالية، وهو إلى حد ما من نتاج المدينة. ولعلنا ندرك أهمية عامل المدنية فى تشكيل المعايير القومية؛ فإن التحام السكان والتحام اللغات المختلفة أو الأشكال المحلية للغة نفسها يسهم فى بزوغ نوعًا لغويًا ناقلاً يفرض وجوده شيئًا فشيئًا أمام اللغات المتواجدة. كما تلعب المدنية دورًا فى التأثير على قدرة الأفراد الخاضعين للبحث بشأن التمييز بين الأصول الوطنية للمتكلمين: "تمكن أكثر المستمعين- الذين قضوا مرحلتى الطفولة والمراهقة فى بيئة مدنية – من التمييز بين السنغاليين وغير السنغاليين". وقد اختتم معدو البحث عرضهم له بالإشارة إلى أن طبيعة هذا المعيار الداخلى "تحد من شعور المتكلمين بعدم الأمان اللغوى، وتُعَزِّزُ الإحساس بأن اللغة الفرنسية قد صارت من الآن فصاعدًا جزءًا من التراث السنغالى". وقد يكون بالطبع من الضرورى إجراء أبحاث مماثلة فى دول أفريقية أخرى، بغية التحقق من وجود معايير داخلية أخرى تتسم بنفس هذا القدر من

الوضوح، وحسبنا الآن أننا نحظى هنا ببيان مثير للاهتمام، على الأقل فيما يخص السنغال .

إلا أننا نجد أنفسنا إزاء مشكلة كيفية تصنيف كل هذه الأنواع اللغوية، حيث إنه يدور في الغالب الحديث بهذا الصدد حول عملية تشكيل لغات البيدجين الهجين pidgin-isation، بدون أن يوضح أصحاب تلك الفكرة ما يعنونه بالتحديد بهذه العملية. ففى عام ١٩٧٩، ذكر جبريل مانسى Gabriel Manessy عند تناوله لما أسماه "اللغات الإقليمية الأفريقية" أن: "عملية تشكيل لغات البيدجين تسهم فى زيادة توظيف اللغة (...) أى زيادة فاعليتها كأداة اتصال، على حساب الوظائف الأخرى التى تكتسبها اللغة بشكل طبيعى"، فى حين أن عملية تشكيل لغات الكريول الهجين créolisation تتمثل بالأحرى فى "مضاعفة المؤشرات ذات الدلالات الخاصة بعلم ما وراء اللغة". وإنه يعنى بذلك استخدام ثنائية البيدجن/الكريول فى التمييز بين استخدام اللغة كوسيلة اتصال بحتة واستخدامها فى تحقيق الهوية، وذلك "حينما صار هذا النمط اللغوى من ممتلكات مجموعة اجتماعية ثقافية تتمتع بالاستقرار الكافى وبسمات خاصة تكفى لإشعار أفرادها بمدى تفردها". وعند طرح المشكلة نفسها عام ١٩٨٥، سلّم جبريل مانسى بوجود علاقة تشابه بين عملية مواءمة اللغة الفرنسية للعبيد- التى نتجت عنها لغات الكريول - وعملية إضفاء الصبغة المحلية على اللغة الفرنسية فى أفريقيا، حيث حرص على تعريف هذه العملية مراراً وتكراراً بطرق مختلفة نذكر منها على سبيل المثال التعريف الذى ساقه عام ١٩٩٤ باعتبارها: "مجموعة من الظواهر التى تنتج عن إدراك جماعة من المتكلمين الواضح وبصورة كافية للروابط المتواجدة بين أفراد هذه الجماعة، والمصالح التى تجمعهم، وتوقعاتهم المشتركة بشأن بلوغهم حالة من التفرد من خلال سلوكهم اللغوى."

وبأى حال من الأحوال، فإن عملية إضفاء الصبغة المحلية هى ظاهرة تتمثل فيما تشهده أحد الأشكال اللغوية من عملية انتقال من وظيفتها كلغة ناقلة إلى وظيفة تحقيق الهوية، ويمكننا التسليم بأننا قد شهدنا مثل هذه العملية على صعيد لغات الكريول، بل

نشهدها حاليًا فى اللغات الفرنسية الأفريقية. ويفترض مانسى أن هذه العملية الشكلية ليست نحوية، وفقًا "للإشاعة" الراسخة، بل هى عملية دلالية نحوية sémantaxique . ومن هنا يقول مانسى: "لقد تعمدنا استخدام هذه الكلمة المهجنة sémantaxe أى "الدلالة النحوية"، للتأكيد على أن هدفنا لا يتمثل فى إعادة إحياء التفسير الساذج الذى كان يتم من خلاله تعريف لغة الكريول باعتبارها نتاج تركيبة مؤلفة من المفردات الأوروبية وقواعد نحوية غريبة عنها". إنه يعتقد فى وجود صبغة خاصة تضفيها بعض العناصر الدلالية الصرفية على اللغة أو على اللغات الفرنسية الأفريقية، لكننا لن نسهب فى التعرض لها هنا، بل سنتناول اتجاه واحد فقط هو تعدد المعانى التى تكتسبها فى أفريقيا بعض الأفعال أو الأسماء الفرنسية التى تقل معانيها المتعددة بطبيعة الحال .

وفى مقاله الأكثر وضوحًا – حول ما أسماه الدلالة النحوية – الذى يحمل عنوانًا شديد الإيحاء هو "انقلاب اللغات الوافدة" "Subversion des langues importées"، أشار منسى إلى أننا كثيرًا ما نصادف – عند تصفح معاجم اللغات الأفريقية – قوائم طويلة تتضمن قبول الكلمات الشاذة بشأن مداخل الأفعال، وإننا لنجد ما يشبه الصدى لهذه المنظومة عند معالجة الكلمات الفرنسية. وقد أشرنا أعلاه إلى المعانى المختلفة للفعل gagner أى "يغلب" وفقًا للغة الفرنسية النموذجية، ولكنه يعنى أيضًا: "يحصل على" و"يمتلك" و"يجد" و"يتلقى" و"يملك"...إلخ، كما أشرنا إلى الفعل gâcher أى "يفسد" و"يدمر" و"يتلف" و"يلطخ"...إلخ. وعلاوة على ذلك، نجد منظومات دلالية تتسم بقدر من الغرابة بالنسبة لمنطق اللغة الفرنسية، مثل الفعل pardonner الذى يمكن أن يعنى على حد سواء "طلب الصفح ومنحه"، إلا أنه قد يعنى أيضًا "إبراء من الدين" و"المتاجرة"، ومثل الفعل prêter الذى يعنى "يقترض" بالإضافة إلى معناه المعروف فى اللغة الفرنسية النموذجية أى "يُقرض". وعلى صعيد الأسماء ، حرِىٌ بنا أن نذكر المعانى المختلفة لكلمة مثل ventre أى "البطن" التى تعد جزءًا من جسم الإنسان، لكنها قد تعنى أيضًا "القلب" و"الروح" و"موطن الانفعالات" و"الأعضاء التناسلية"، كما أنها تدخل فى العديد من التعبيرات الأخرى، مثل avoir un ventre أى "امرأة حامل"، وavoir le ventre amer أى "الامتلاء بالحقد"، و avoir le ventre sec أى "يعانى من الإمساك"، و dire son ventre أى "الإعلان عن حملها"، و gâter le ventre أى "أجهضت"...إلخ.

وبعيداً عن التداخلات المعتادة فى إطار المواقف التعليمية، أى إسقاط بعض التراكيب الخاصة باللغة الأولى على اللغة الأجنبية، يتمثل افتراض منسى فى اعتبار هذه الحالات الخاصة أحد آثار كيفية رؤية وتنظيم الأشياء الأجنبية بالنسبة للغة الفرنسية، وتعد "الدلالة النحوية" صناعة أفريقية بحتة. وإذا ما توسعنا فى تناول كل هذه الأمور، فلابد من الإشارة إلى أن المنطق يحتم ضرورة انتهاء محاولة زراعة لغة ما فى بيئة جديدة، إما برفض هذه اللغة أو قبولها أى تكيفها مع هذه البيئة. وبعبارة أخرى، يشبه هذا الأمر عملية زرع الأعضاء؛ فمن الممكن أن تنجح أو تفشل عملية زرع لغة ما، إلا أنه فى حالة نجاح العملية، تستلزم عملية قبول اللغة إجراء عدد من التعديلات وإجراءات التطويع أو "الانقلابات" كما سبق أن ذكر منسى من قبل. وهكذا، سنجد أنفسنا فى الواقع إزاء تعديل وظائف اللغة الفرنسية فى أفريقيا، حيث كانت اللغة الاستعمارية، ثم أصبحت لغة السلطات الأفريقية، وصارت فى الوقت ذاته اللغة الناقلة المستخدمة بين الجماعات العرقية أو بين الولايات، بل صارت شيئًا فشيئًا فى بعض المواقف بمثابة لغة أو لغات تحقيق الهوية. وفى إطار الصراع بين المعيار الخارجى (معيار اللغة الفرنسية النموذجية) والمعايير الداخلية (معايير اللغات الفرنسية المحلية)، يمكن أن يعكس الشكل المحلى الرغبة فى غرس اللغة الفرنسية داخل الواقع الاجتماعى الأفريقى. وقد ذكر على سبيل المثال أوجست موسيرو- موياما Auguste Moussiro-Mouyama أنه فى الصحافة الجابونية المعارضة، يدل استخدام المعايير الداخلية على "قول الحق"، ومثل هذا الاستخدام من قِبَل الكتَّاب الهزليين وبعض ممثلى المسرح يتيح بشكل رمزى فحسب "كسر شوكة المعيار الرسمى".

لغات الرطانة الأفريقية ومحيط البيئة اللغوية

مثال بوكاڤو Bukavu

هناك سلسلة من الوقائع التى تؤكد وجود هذه الوظيفة الأخيرة، ولا سيما فيما يخص ما شهدته دول مختلفة بشأن ظهور عدد من لغات الرطانة التى تغلب عليها

أحياناً المفردات الفرنسية، أو تغلب عليها فى أحيان أخرى المفردات الواردة من لغة أو عدة لغات أفريقية. لذا، تنمو فى كوت ديڤوار لغة النوشى التى سبق أن تحدثنا عنها فى الفصل الأول، كما يتم استخدام لغات رطانة تخص كل من بوركينا فاسو والسنغال ومالى والكونغو الديمقراطية، حيث نجد لغة الإندوبيل indoubil القائمة على أساس فرنسى وإنجليزى، إضافة إلى لغة أفريقية تختلف باختلاف المدن التى تتواجد بها: اللينجالا فى كنساشا، والسواحيلى فى بوكاڤو... وما إلى ذلك من لغات أخرى.

وسوف نتوقف عند هذا المثال الأخير؛ لأنه أفضل الأمثلة الموصوفة. فإن ديدييه جوڤيرس Didier Goyvaerts الذى درس حالة الإندوبيل فى بوكاڤو بجمهورية الكونغو الديمقراطية، قد توصل إلى أن هذه اللغة هى "وسيلة التعبير عن الهوية لدى مجموعة عمرية خاصة، تستخدمها فى تدعيم أواصر التضامن بين أفرادها"، كما يضيف أن الإندوبيل - مثل غيرها من اللغات الناقلة الحضرية - تمحو كل آثار الانقسام العرقى. ولا يشير مصطلحى لغات الرطانة واللغات الناقلة إلى نفس الظاهرة؛ لأن لغة الرطانة تفترض وجود لغة مشتركة تقوم بتحويلها، أو وجود عدة لغات تقوم بمزجها، فى حين يتمثل دور اللغة الناقلة في تعويض غياب اللغة المشتركة. إلا أنه من المحال وصف شكل ووظيفة اللغة أو اللغات الفرنسية الأفريقية، بدون التطرق إلى علاقاتها مع اللغات والأشكال اللغوية الأخرى المتواجدة فى المحيط اللغوى نفسه. وبعبارة أخرى، نجد فى كل محيط بيئى علاقة داخلية تربط بين الممارسات اللغوية المتعددة التى تتشكل داخل الجماعات السكانية المختلفة.

لقد عمدنا مرات عديدة إلى وصف الأوضاع اللغوية باستخدام مصطلحات الثلاثية الوظيفية: اللغات الجماعية/اللغات الناقلة/اللغة الرسمية. وفى هذه الثلاثية التى تفرق بالتالى بين لغات الحياة اليومية ولغات علاقات التبادل الجماعى ولغات مباشرة شئون الدولة، تضطلع الوظيفة الناقلة بدور رئيسى يشبه دور اللوحة الدوارة فى محطة السكك الحديدية. تمتد اللغات الناقلة على محاور اتصال كبيرة، مثل استخدام الديولا فى الشوارع والطرق، ولغة المونوكوتوبا فى محطات السكك الحديدية، واللينجالا على طول

النهر، واستخدام السواحيلى فى بداياتها على طول السواحل والموانئ. كما تعد اللغات الناقلة من لغات المدن الكبرى، ولا سيما فى الوقت الحالى؛ مما يؤدى بالتالى إلى تنوع وظائفها. إنها تحقق الاتصال بين المتكلمين الذين تختلف لغاتهم الأولى، وتتيح كذلك الاندماج اللغوى داخل المدينة، بل يمكنها أن تضطلع بدور فى تهدئة وتحييد الأجواء، فى ظل سياق تشتد به العداءات العرقية سواء كانت خفية فى بعض الأحيان، أو شديدة الوضوح فى أحيان أخرى. وبالنظر إلى ما نلاحظه اليوم من زيادة الاتجاه نحو المدنية فى أفريقيا، لابد من محاولة الوقوف على وظائف اللغة الفرنسية من داخل محيط البيئة اللغوية التى تشكل المدينة الأفريقية، والوقوف كذلك على وظائف اللغات الأفريقية ذات الصبغة المحلية واللغات الناقلة، بالإضافة إلى فهم وظائف مختلف لغات الرطانة أو اللغات السرية المتواجدة فى مثل هذا المحيط.

ومن هذا المنظور، تعد بوكاڤو مثالاً نموذجيًا لابد من عرضه. نلاحظ فى الواقع أن هذه المدينة التى بلغ تعداد سكانها عام ١٩٨٥ ٢٤٠,٠٠٠ نسمة، وهى عاصمة إقليم كيڤو (زائير سابقًا)، تشتمل على ما يقرب من أربعين أو خمسين لغة من بينها ثلاث لغات ناقلة هى السواحيلى والفرنسية والإندوبيل. تعد السواحيلى والفرنسية من الأشكال الخارجية التى تكيفت مع البيئة، حيث وفدت اللغة الفرنسية مع الاستعمار البلجيكى، ووفدت لغة السواحيلى من تنزانيا الواقعة فى جهة الشرق. وفيما يخص لغة الإندوبيل، فإنها تمثل إعادة تشكيل مفردات لغة السواحيلى الناقلة، عن طريق استخدام لغات مختلفة متواجدة فى المحيط نفسه مثل اللينجالا واللغة الفرنسية؛ وهذا ما أسميناه فى الفصل الأول إعادة التشكيل الداخلى للمفردات، بل يمكن أحيانًا استخدام اللغة الإنجليزية، وهذا ما أطلقنا عليه اسم إعادة التشكيل الخارجى للمفردات. وهذه الأشكال الثلاثة هى الأقل تأثرًا بالسمات العرقية، أو بالأحرى هى أكثر الأشكال المتفق عليها. إلا أنها تحمل بعض السمات الاجتماعية؛ فوفقًا لما ذكره جوڤيرس، تستخدم السواحيلى كلغة ناقلة بين المسنين وفى إطار المواقف الرسمية، بينما يستخدم المتعلمون اللغة الفرنسية فى جميع المواقف الحياتية، لكن لغة الإندوبيل هى لغة الشباب، ولا سيما فى إطار المواقف غير الرسمية.

وهكذا، تشكلت مفردات لغة الإندوبيل من كلمات سواحيلية أو أجنبية اكتسبت بالتالى بعض المعانى المختلفة تمام الاختلاف؛ مما أدى إلى توليد كلمات جديدة، منها ما نشأ على سبيل المثال من خلال إضافة المقطع الأول من كلمة فرنسية إلى المقطع الأول من كلمة سواحيلية تحمل المعنى نفسه. وهذا يعد كلاماً غير مفهوم لغير المطلعين عليه، بل يمكن بالتالى اعتباره بمثابة لغة سرية أو لغة رطانة خاصة بأصحابها. إلا أنه وفقًا لجوڤيرس، لا تغلب وظيفة التخفى تلك على لغة الإندوبيل؛ لأنها تضطلع بالأحرى بدور ما على صعيد تحقيق الهوية عند استخدامها كرموز بين شباب المدينة، كما تلعب دوراً فى تحييد الأجواء؛ لأنها تتجاوز الاختلافات والعداءات العرقية. وعلاوة على ذلك، هناك لغتان أخريان "تختص" بهما بوكاڤو، ألا وهما الكينوم Kinyume والقيبالية Kiba-lele. والكينوم هو مصطلح شامل يعبّر عن عملية عكس ترتيب مقاطع الكلمات، كما يحدث فى لغة الرطانة الفرنسية الـ verlan . تستخدم هذه اللعبة اللغوية فى الأساس من قبل الشابات فى المدن والقرى، من أجل إشباع رغبتهن فى اللهو، وإضفاء الغموض على أحاديثهن عن طريق استخدام أية لغة محلية. وتعد لغة القيبالية هى الأخرى من الرموز السرية التى تستخدم لإخفاء معانى الكلام فى البيئة "الحضرية". ومن الناحية الشكلية، تماثل القيبالية لغة الكينوم من حيث عكس مقاطع الكلمات، ولكن مع إضافة حرف الـ l إلى آخر الكلمة، متبوعًا بصائت المقطع الأول. فنلاحظ مثلاً أن الكلمة السواحيليsoko أى "السوق" تصبح kosolo، وشكل كلمة nushele أى "لدينا" يصبح kinushele، بينما تصير كلمة lobi التى تعنى "غداً" فى لغة اللينجالا على شكل ... bilolo إلخ.

من أجل تحليل مختلف وظائف اللغات المتواجدة، انطلق الكاتب من فكرة وجود تعايش بين عدد من الطبقات الاجتماعية والعرقية، أى الطبقة الاجتماعية التى تحدد على سبيل المثال الحى الذى يقطنه شخص ما والحانة التى يتناول بها شرابه، بينما تحدد انتماءاته العرقية الأشخاص المصاحبين له فى أثناء تناول شرابه، واللغة التى يستخدمها فى الحديث معهم. وفى ظل هذا التوازن بين التوترات المختلفة، لم تعد بالتالى لغتى الكينوم والقيبالية بالنسبة لهذا الشخص مجرد لغات سرية، بل صارت من وسائل الاتصال العرقى التى تتسم بالحيادية وتحمل سمات اجتماعية. وهكذا، فإن لعبة

اللغات قد تتأرجح بين ما أطلق عليه جوڤيرس اسمى "التكيُّف" و"التميُّز"، فى حركة تشبه حركة بندول الساعة. لذا، نسق جوڤيرس مختلف اللغات المتواجدة على شكل نصف دائرة تشبه مسار حركة البندول، حيث يمثل الطرف الأيمن موضع "التميز" (والقيبالية هى لغة تتعمد الغموض) والطرف الأيسر موضع "التكيف" (وهو ما يمكن تفسيره بالتأقلم مع البيئة). على صعيد تحقيق التواصل، يعد المركز بمثابة موضع "الاتحاد" (يعكس استخدام لغة السواحيلى رغبة فى توسيع نطاق الاتصال بين أكبر عدد ممكن)، بينما تعد الأطراف بمثابة موضع الاستلاب (يعكس استخدام لغة القيبالية أو لغة القبائل الرغبة فى حصر نطاق الاتصال داخل الدائرة التى تضم أفراد جماعة واحدة). ووفقًا لجوڤيرس، يوضح الشكل التالى كيفية توزيع مختلف اللغات المتواجدة فى بوكاڤو:

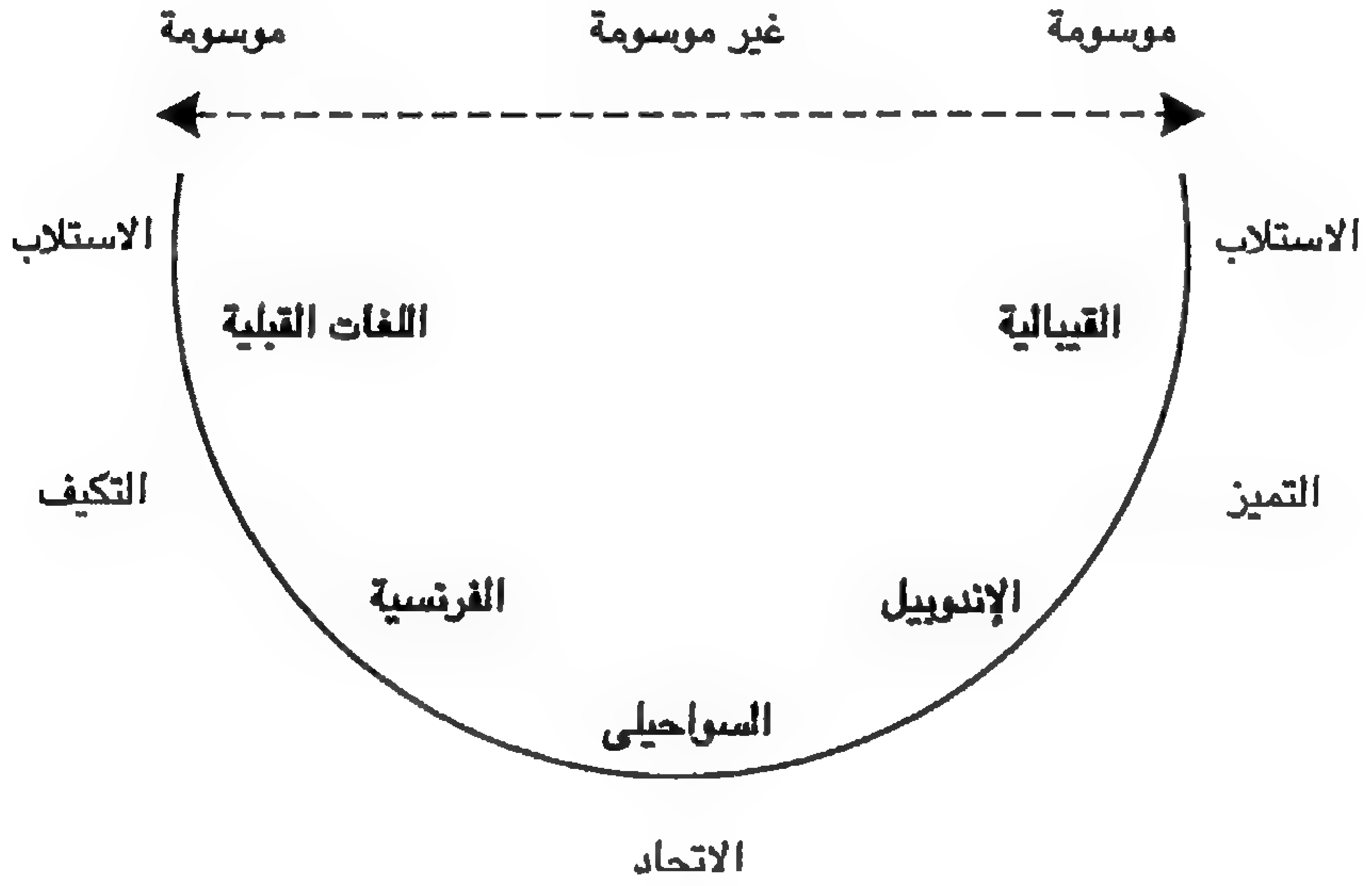

كلما ابتعدنا عن المركز، ازداد حجم "وسم" اللغات وانحصر نطاقها (الاستلاب)، وكلما اتجهنا جهة اليمين، ازدادت درجة غموض اللغات ("التميز")، لكن كلما اتجهنا نحو اليسار تزيد نزعة اللغات التجميعية ("التكيف"). إلا أنه لا يمكن تعميم هذا اللغة

الذى يعرض أهمية محاولة تحليل وظائف مختلف اللغات المتواجدة فى بوكاڤو، ويوضح أن اختيار لغة ما من شأنه أن يشير إلى مكانة المتكلم والجماعة التى ينتمى إليها؛ لأن مختلف المصطلحات المستخدمة لا تظهر فى جميع المواقف. تعد بوكاڤو فى الواقع حالة خاصة للغاية، حيث تمثل الإندوبيل إعادة تشكيل لمفردات لغة السواحيلى، فى حين أن جميع لغات الرطانة التى سبق أن ذكرناها بأعلى هى إعادة تشكيل لمفردات اللغة الفرنسية. وعلاوة على ذلك، ليس من الإنصاف التحدث عن اللغة الفرنسية فى أفريقيا الفرانكوفونية وكأنها لغة واحدة نموذجية. فضلاً عن اللغة الفرنسية النموذجية التى تدرس فى المدارس والجامعات، نجد فى الواقع فى الوقت ذاته لغة فرنسية محلية هى تلك التى أسميناها اللغة الفرنسية الأفريقية، ولغة فرنسية تم إعادة تشكيل مفرداتها تنعكس من خلال لغات "الرطانة". فقد تعرضت بعض اللغات العرقية (هى تلك التى أسماها جوڤيرس اللغات القبلية) لإعادة تشكيل مفرداتها، مثل لغة القيبالية. ومن أجل إمكانية تعميم هذا الشكل، لابد من تعديله على النحو التالى:

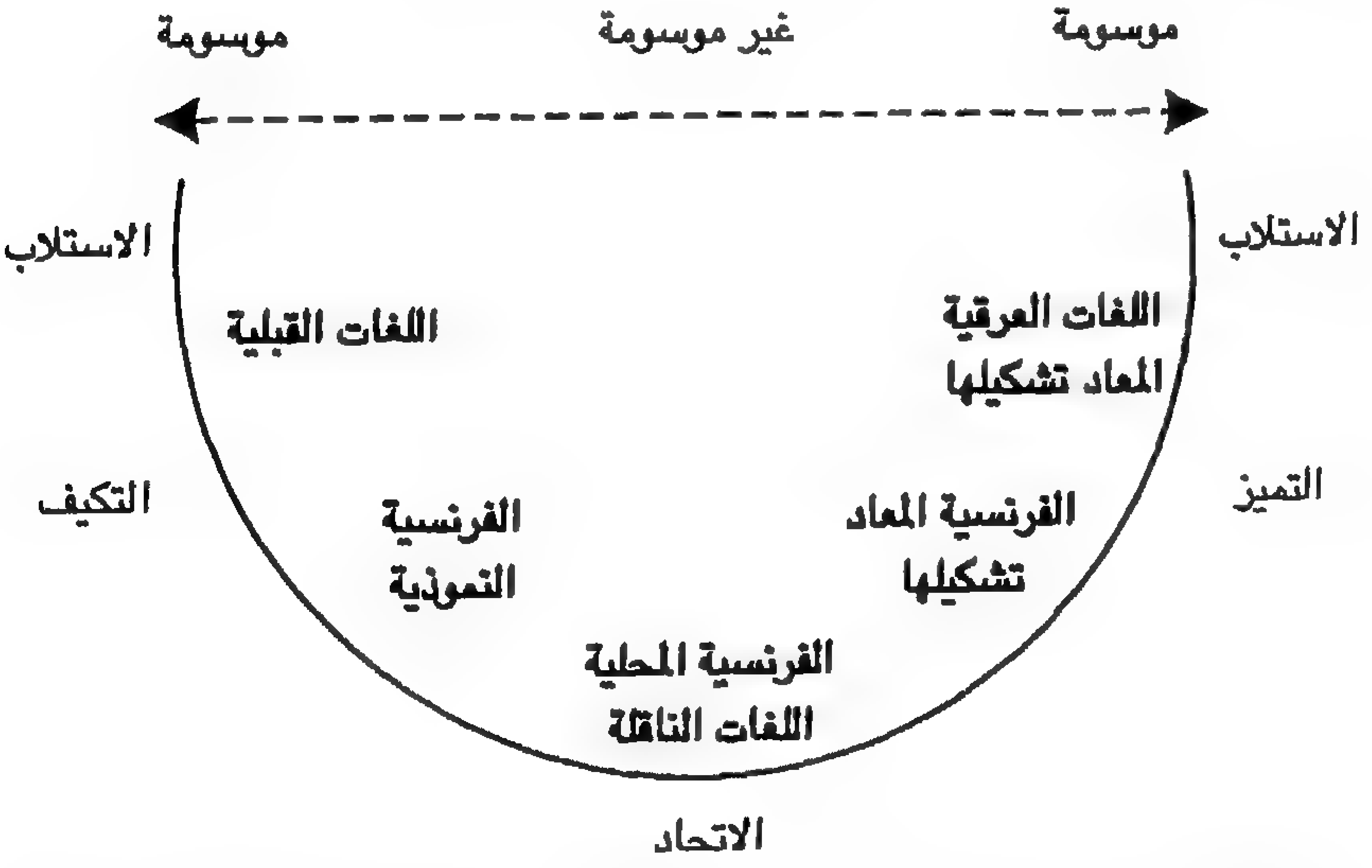

تنزع اللغة الفرنسية المحلية واللغات الناقلة الأفريقية إلى الاضطلاع بالوظيفة التوحيدية نفسها، وتقوم اللغة الفرنسية النموذجية بوظيفة التكيف، بينما تقوم اللغة

الفرنسية المعاد تشكيل مفرداتها بوظيفة التمييز، بشكل يماثل ما تقوم به اللغات العرقية، وما لها من أشكال محتملة أعيد تشكيل مفرداتها. إلا أننا لا نلمس فى جميع الأوضاع هذه الأنواع الخمسة للغات المتواجدة فى هذا الشكل، إذ لابد من اعتبارها بمثابة تمثيل لعدد من الاتجاهات فحسب. فنجد بالتالى اتجاهاً نحو التوحيد يمكن أن نلمسه من خلال لغة أو أكثر من اللغات الناقلة (اللغات ذات الأصول الأفريقية المتواجدة فى برازافيل أو فى دكار، واللغة الفرنسية المحلية فى أبيدجان). كما نجد اتجاهاً نحو نزعة تجميعية واضحة المعالم يمكن أن نلمسها من خلال استخدام اللغات العرقية، واتجاهاً نحو السرية نلمسه فى مختلف أشكال لغات "الرطانة". وترتبط كل هذه الوظائف المتنوعة ارتباطاً وثيقاً، حيث ينعكس أثر تعديل أى منها على غيرها من الوظائف. ووفقاً لخصائص المحيط اللغوى الذى نعرض له، يمكن أن تنتج هذه الوظائف عن إعادة تشكيل اللغة الفرنسية (كما هو الحال بالنسبة للغة النوشى)، أو إعادة تشكيل لغة محلية (كما هو الحال بالنسبة للإندوبيل). لذا لا يمكن الفصل بين ظهور الأشكال المستعصية للغات "الرطانة" وبين تحليل جميع الأشكال اللغوية الأخرى.

فى إطار الصراع بين الجمود والتطور اللغوى، نرى أنه من الصواب وضع الرطانة فى جهة التطور؛ فقد اختتمت جيزيل بريينيز Gisèle Prignitz بالعبارة التالية دراسة حول رطانة بوركينا فاسو قائلة: "وماذا إذا ما كانت الاستخدامات الأفريقية يوماً ما سبباً فى إنقاذ اللغة الفرنسية؟". إنها تعنى بهذه العبارة أن الكلمات الشعبية الأفريقية المستحدثة يمكن أن تحدث توازناً أمام شيوع المفردات الإنجليزية، لكن يبدو أنها قد تجاهلت حقيقة أن التطور لا يكون قطعياً على الدوام، أى أنه لا ينتقل بالضرورة من الحالة "أ" إلى الحالة "ب"، بل يمكن أن يؤدى إلى اختلاف الحالات باختلاف المواقف، مثل ظهور الحالات "ب." و"ب.." و"ب..." ...إلخ، كما هو موضح بالشكل التالى:

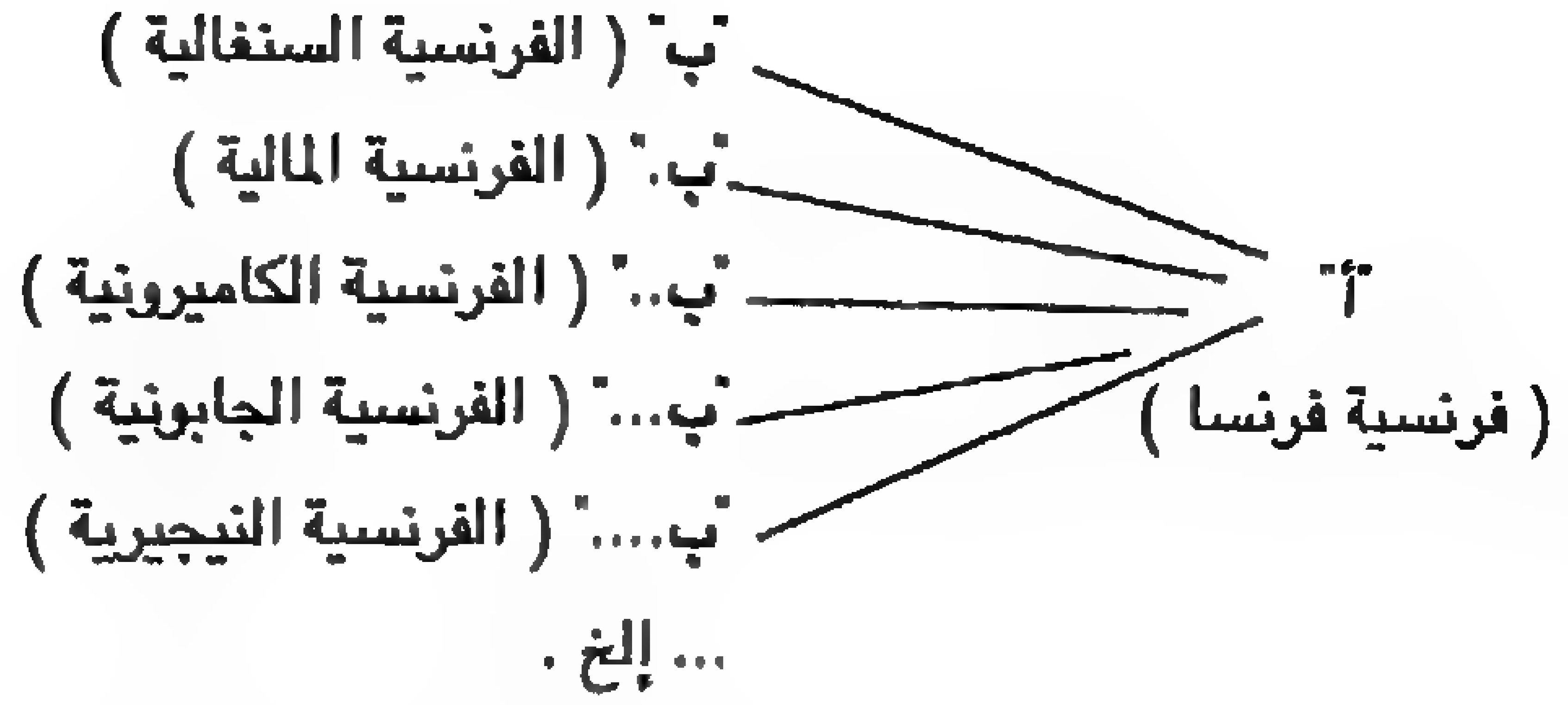

لكننا نفترض أننا نستطيع اعتبار كل حالات التكيف تلك بمثابة نتاج التأقلم مع البيئة، ومنها ما هو بغرض التخفى أو اللهو أو مجرد انعكاس لأحوال اللغة الوافدة، كما أنه نتاج الانتقال من وظيفة اللغة الناقلة إلى لغة تحقيق الهوية وما يصاحب ذلك من تغييرات شكلية تختلف وفقًا لكل سياق وموقف على حدة .

الخاتمة: التأقلم والتكيف

إذا ما كانت عملية الضبط الذاتى الداخلى سببًا فى التعديلات التى طرأت على نظام تصريف الأفعال فى اللغة الفرنسية، كما سبق أن رأينا، فإن لغة الفرنجة واللغة الفرنسية المارسيلية أو اللغات الفرنسية الأفريقية تعد من أمثلة عملية الضبط الذاتى البيئى، أى تفاعل لغة ما أو عدة لغات مع البيئة المحيطة. ومن منظور علم البيئة اللغوية، يمكن تحليل هذه المعطيات باستخدام مصطلحى "التأقلم" و"التكيف". يستخدم علم البيئة مصطلح "التأقلم" من أجل الإشارة إلى تمكن كائن ما من البقاء على قيد الحياة بعد انتقاله من بيئة إلى أخرى، بينما يشير مصطلح "التكيف" إلى تمكن هذا الكائن من التكاثر فى هذه البيئة الجديدة. ومن هنا، يعد "التأقلم" بمثابة استجابة لمؤثر خارجى تسفر عن حالة تكيف انتقالية، حيث يتأقلم هذا الكائن مؤقتًا مع البيئة الجديدة من أجل البقاء على قيد الحياة. وتستلزم عملية "التكيف" تطور بعض خصائص هذا الكائن بصورة تتيح له التكاثر فى بيئته الجديدة. ونحن نعتقد أن هذا هو ما يحدث بالنسبة للغات. فقد تعرضت مثلاً اللغة الهولندية عند احتلال إندونيسيا، لمرحلة تأقلم مؤقت؛ لأنه

عقب استقلال إندونيسيا لم يعد بها من يتحدث *اللغة الهولندية*؛ فى حين أن اللاتينية تعد خير مثال على عملية تكيف لغة رومانية داخل بيئات مختلفة، ونتيجة ذلك نراها اليوم بكل وضوح من خلال مجموع *اللغات الرومانية*.

ويبدو أن اللغة الفرنسية هي الأخرى فى طريقها إلى التكيف فى أفريقيا، والاضطلاع هناك بوظيفة تحقيق الهوية، واتخاذ أشكال نوعية قد تنذر فى النهاية ببزوغ جيل جديد من اللغات المستقلة، من أجل الإجابة على التساؤل الذى انطلقنا منه فى البداية. فإن مواءمة لغة ما واستخدامها لأغراض تتصل بالهوية يستلزم إخضاعها لعملية تطويع. وقد ذكر فويه لاروسى **Foued Laroussi** أنه "كى تصبح فى الواقع لغة ما شكلاً معبراً عن الهوية، لا فى المغرب فحسب ولكن فى أفريقيا الفرانكوفونية بأكملها، لابد لها أن تتكيف وتتحول". وتتضح هذه المقولة من خلال الأوضاع الأفريقية التى أثرناها الآن. إلا أن نوعية هذه الأوضاع ترتبط بحقيقة أنه إزاء هذه المعايير الداخلية التى تتخذ طريقها إلى الظهور، يوجد معيار خارجى أبدى الدوام، ألا وهو اللغة الفرنسية النموذجية التى تحصل أمامها اللغات الفرنسية الشعبية على الاستقلالية. وقد ذكر منسى فى كتابه أن "استقلالية كلام ما – لابد من تواجده إلى جوار اللغة التى اشتق منها لا اتباعها– تنتج عن مواءمته من قِبل مجموعة اجتماعية فى طريقها إلى الانشقاق". ونحن نحبذ من جانبنا التحدث عن الانشقاق الاجتماعى المؤدى إلى انشقاق لغوى أو ما يماثله من حالات انشقاق أخرى. إلا أنه من المحال معرفة مدى إمكانية ظهور مثل هذا الجيل من اللغات، أو بعبارة أخرى معرفة ما سيئول إليه الأمر من "تأقلم" أو تكيف"؛ لأنه ستثور مشكلة انتقال الأوضاع اللغوية التى سنعرض لها فى الفصل الخامس .

ولم يعد أمامنا سوى تساؤل أخير حول الصفة التى نخلعها على هذا الاحتمال الوارد بشأن "جيل جديد من اللغات". هل يجب علينا التطرق إلى اللغات الهندية الأوروبية، أم إلى اللغات الرومانية، أم اللغات الفرنسية أو حتى "اللغات الفرنسية الجديدة" على غرار ما ذكره موفوينى بشأن "*اللغات الإنجليزية الجديدة*"؟. لقد أشرنا

فى المقدمة إلى أن التشبيه الخاص بالـ"العائلات اللغوية" وفكرة وجود "لغات أم" و"لغات شقيقة" قد أثقلت البحث بسبب تفضيل التفريع الخطى القائم على حساب فكرة "الإنتاج المشترك". ولدينا هنا مثال جيد بصدد ما يمكن أن يبلغه زرع اللغة الفرنسية فى أفريقيا من عملية تكيف تتمثل نواتجها المختلفة فى وجود "لغة فرنسية" و"لغات أفريقية" على حد سواء .

الفصل الرابع

التمثيلات اللغوية والتغيير

فى رواية ستانيسلاس ليم Stanislas Lem التى تحمل عنوان La voix du maître تروى إحدى الشخصيات ذكرياتها حول حالات الإعدام الجماعى على يد القوات الألمانية فى إحدى مدن بولندا، حيث تصف حالة شاب محكوم عليه بالإعدام رميًا بالرصاص وهو يهرع فجأة إلى أحد الجنود، ويصيح قائلاً إنه ليس يهودياً. لكنه تحدث باللغة اليدية[1] yiddish ... يمكن قراءة هذه الطرفة على مستويات مختلفة، حيث يمكننا على سبيل المثال تفسيرها بكل بساطة فى إطار التناقض بين المعنى الدلالى والمعنى الضمنى؛ لأن فحوى خطاب الشاب اليهودى يدل على أنه ليس يهودياً، بينما يتضمن الشكل اللغوى لليدية خلاف ذلك. ويوجد كذلك عدد كبير من القصص التى تحوى قدراً من السخرية نتيجة لما تكشف عنه اللغة بشأن حقيقة صاحبها. ومن أشهر تلك القصص ما روى بشأن الجاسوسين الألمانيين اللذين هبطا بالمظلات فى إنجلترا فى أثناء الحرب، ودخلا إحدى الحانات حيث طلبا بلغة إنجليزية سليمة مشروبين من المارتينى:

– Waiter, please, two Martinis

– وأجابهما النادل: yes, dry?

– فأسرع أحد الألمانيين قائلاً: Nein, zwei، مما يعد بلا شك خطأ فادحاً[2].

(١) [لهجة ألمانية تكثر بها الكلمات العبرية.]

(٢) [وقع التباس لغوى بسبب التشابه بين نطق كلمة dry بالإنجليزية وكلمة drei التى تعنى بالألمانية "ثلاثة".]

وهناك قصة أخرى بشأن دخول أحد العملاء مطعم يهودى فى نيويورك، حيث استقبله مدير الخدم اليابانى متوجهًا إليه باللغة اليدية، وساعده على اتخاذ مكانه ومعرفة طلبه، مع التزام الحديث باليدية. ثم قدم المدير المسئول لتحية هذا العميل الذى كان من أصدقائه القدامى؛ فقال له العميل: "إن مدير الخدم يجيد التحدث باللغة اليدية رغم كونه يابانيا". فطلب منه المدير أن يخفض صوته، لأن "هذا اليابانى يعتقد أنه يتعلم اللغة الإنجليزية".

يمكننا تحليل كل تلك القصص بطرق مختلفة؛ فمن وجهة النظر المنطقية على سبيل المثال، ليس هناك ما يحول دون الإعلان باللغة اليدية عن عدم كون الإنسان يهوديًا، أو الإعلان باللغة الفرنسية عن عدم كون الإنسان فرنسيًا. لكنه من غير المنطقى على الإطلاق إعلان شخص ما بلغة فرنسية تامة عن عدم إجادته التحدث بالفرنسية... إلا أنه إزاء بعض الممارسات اللغوية، يظل يحدونا الاعتقاد فى إمكانية استخلاص بعض الاستنتاجات؛ أى أنه بما أن شخص ما يتحدث اليدية فلابد أن يكون يهوديًا. لكن كون هذا الافتراض مقبولاً على الصعيد الإحصائى لا يحول دون إمكانية أن يكون مغلوطًا؛ لأن اليابانى يستطيع التكلم باليدية دون أن يكون يهوديًا. وتعكس لنا الطرفة الأولى عددًا من التفسيرات الأخرى، حيث نعتقد أن التحدث باليدية قد كشف حقيقة الشاب اليهودى، وهو ما يتضح تمامًا فى حالة الجاسوس الألمانى الذى سمع كلمة drei أى "ثلاثة" بالألمانية بدلاً من كلمة dry بالإنجليزية أى "بدون ماء"؛ مما جعله يسرع فطريًا بتصحيح مطلبه قائلاً بالألمانية nein zwei أى "لا، اثنان". ولعل الشاب اليهودى كان مذهولاً إزاء فكرة الموت التى دفعته بشكل لاشعورى إلى استخدام اليدية كى يقول "أنا يهودى"، لكنه بدا على النقيض تمامًا مؤكدًا خلاف ذلك، أو أنه لم يدرك مطلقًا استخدامه اليدية. إننا لا نعنى هنا أنه يجهل اسم لغته – وهو ما ليس بالأمر الهام– لكنه قد يجهل حقيقة اعتبار الآخرين لهذه اللغة من الرموز اليهودية. وبلا شك، فإن هذا التمثيل بشأن اليدية هو محور تفسيراتنا؛ لأنه يوجد – على الجهة الأخرى من سلسلة الاتصال – الجندى الألمانى الذى سمعه يقول باللغة اليدية "أنا لست يهوديًا"، ويمكنه

هو الآخر أن يستخلص عدة استنتاجات، أو لا يفهم مطلقًا ما يقوله هذا الشاب. وبهذا الصدد، يبقى الافتراض الأكثر احتمالاً، ألا وهو أن هذا الشاب لا يتحدث سوى اليدية، ويرغب فى إنكار كونه يهودياً، بينما يفهم الجندى الألمانى ما يقوله، بل يدرك أنه قد تحدث باليدية؛ فيستنتج فى نهاية الأمر أنه يهودى. ونحن هنا بصدد بعد شديد الخصوصية لعملية التواصل اللغوى؛ لأنه إلى جوار استخدام الرموز اللغوية، أى الممارسات اللغوية، نجد أفكار وافتراضات وقوالب فكرية ثابتة بشأن هذه الرموز، مما يعد جزءاً من موضوع هذا الفصل الذى يتناول التمثيلات اللغوية.

مع الأخذ فى الاعتبار أننا نطرق بابًا جديداً، حرىٌّ بنا أن نذكر أنه منذ عدة سنوات، أضاف علم اللغويات – إلى دراسة الممارسات والأشكال اللغوية – دراسة مجال كان مهملاً، بل كان مجهولاً؛ وهو مجال يمكننا أن نعرّفه بصورة مبهمة باعتباره أقوال المتكلمين واعتقاداتهم بشأن اللغات التى يتحدثونها أو بشأن طريقة كلامهم، فضلاً عن أقوالهم واعتقاداتهم بشأن لغات الآخرين أو طريقة تحدثهم. يذكرنا هذا التعريف الذى تعمدنا إثقاله على هذا النحو بكل التمثيلات الخاصة بالمادة التى يصفها عالم اللغويات، حيث يتعين عليه إضافتها إلى وصف هذا المادة وهذه الممارسات؛ لأنها تعد جزءاً من الأمر برمته، بل إنها تؤثر على حركة تطوره، كما سنرى فيما بعد.

ساد طويلاً داخل هذا الميدان الجديد مفهومان هما مفهوم القوالب الفكرية الثابتة والمواقف المختلفة، ومفهوم عدم الأمان اللغوى الذى صرنا نصادفه على الدوام منذ بداية التسعينيات، حيث ازدهرت المقالات والمؤلفات وبرامج البحث والندوات التى خُصصت له، كما تزدهر التعريفات المتناقضة فى أغلب الأحيان، بل المبهمة فى أحيان أخرى. لذا، رغبنا بداية فى الرجوع إلى مصادر هذه المفاهيم ومتابعة طريقة تقدمها فى الأدب اللغوى. ومن هنا، سنعرض أولاً فيما يلى معالجة تمثيلات المتكلمين، ثم سنحاول دراسة بعض الأوضاع اللغوية على الصعيد النظرى؛ من أجل الوصول فى نهاية الأمر إلى وضع إطار نظرى جديد.

عدم الأمان اللغوى والتمثيلات:

معالجة تاريخية

فى بداية الستينيات، أرسى والاس لامبير -Wallace Lambert أحد دارسى الثنائية اللغوية الفرنسية/الإنجليزية فى مونتريال- دعائم منهجية عُرفت باسم "المتكلم المُقَنّع" أو "الأزواج الخاطئة"، وهو ما يعرف فى اللغة الإنجليزية باسم matched guise . لقد أجرى بحثه على عدد من المتكلمين من ثنائيى اللغة الفرانكوفونيين والأنجلوفونيين، حيث سجل لكل منهم نصّين أحدهما بالفرنسية والآخر بالإنجليزية، رغبة منه فى معرفة "مواقف" هؤلاء المتكلمين إزاء هاتين اللغتين. ثم عرض هذه التسجيلات على "حُكام" باعتبارها تخص أشخاصًا مختلفين، من أجل تقويم مستويات المتكلمين، بدءًا من الأقل وانتهاءً بالأعلى، من حيث الطول، وجاذبية الشكل، والقدرة على الإدارة، وروح الدعابة، والذكاء، ودرجة التدين، والثقة بالنفس، وإمكانية الاعتماد عليهم، والمرح، والطيبة، والطموح، والتعامل الاجتماعى، والطباع الشخصية، ودرجة القبول. وقد أخبر والاس هؤلاء الحُكام أنهم بصدد التحقق من إمكانية الحكم على الأشخاص من خلال أصواتهم.

أسفرت تلك التجربة عن نتائج مثيرة للاهتمام بدرجة هائلة. فهؤلاء "الحُكام" لم يدركوا مطلقًا أن لكل شخص من المتكلمين تسجيلين صوتيين باللغتين الفرنسية والإنجليزية. وقد منح الحُكام الأنجلوفون درجات أفضل للمتكلمين الأنجلوفون فى سبعة جوانب هى: الطول، وجاذبية الشكل، والذكاء، وإمكانية الاعتماد عليهم، والطيبة، والطموح، والطباع الشخصية؛ بينما لم يمنحوا المتكلمين الفرانكوفون درجات جيدة سوى فى الجانب الخاص بروح الدعابة. ومن جانبهم، منح الحُكام الفرانكوفون المتكلمين الأنجلوفون درجات أفضل من الآخرين فى غالبية هذه السمات السلوكية، ولم يتساو فى رأيهم الأنجلوفون والفرانكوفون سوى فى الطيبة ودرجة التدين. مما يدل على أن الحُكام لم يقيّموا المتكلمين من منطلق أصواتهم كما طُلب منهم، بل من منطلق

لغاتهم، مستندين فى ذلك إلى أفكارهم بشأن هذه اللغات والعلاقات التى تربطهم بها. ومن هذا المنظور، كان من المثير حقًا قيام الحُكام الأنجلوفون بتقويم المتكلمين الفرانكوفون بشكل أفضل من الحكام الفرانكوفون ذاتهم.

وبعد هذه التجربة بعدة سنوات، لجأ و. شين W.Cheyne لاستخدام تقنية مشابهة؛ من أجل تحليل ردود الأفعال إزاء اللكنات اللغوية، حيث أجرى تسجيلات صوتية لبعض دارسى فن الدراما الذين تحدثوا فى آن واحد باللكنتين الإنجليزية والإسكتلندية، وكان يتعين على الحكّام - الذين ينحدرون من جلاسجو ولندن - تقويم شخصيات هؤلاء المتكلمين وأوضاعهم المهنية، باستخدام مستويات سلوكية مستوحاة من لامبير. وهنا أيضًا كانت النتائج مثيرة للاهتمام، حيث جاء تقدير الإنجليز والاسكتلنديون بصورة أفضل للكنة الإنجليزية فيما يخص القيم التى تمس الكفاءة، بينما جاء أفضل تقدير للاسكتلنديين بالنسبة للكنة الاسكتلندية فيما يخص صفات الكرم، والقبول، والتمتع بروح الدعابة ... ومنذ ذلك الحين، تعددت الدراسات المستوحاة من دراسة لامبير. ولنذكر مثالاً غير أوروبى يتعلق ببحث أُجرى فى مدينة كانتن Canton الصينية، وأسفر عن نتائج مماثلة لما سبق، حيث استند إلى استخدام تقنية المُتكلم المقنَّع مع عدد من الطلبة الكانتنيين وغير الكانتنيين الذين تمت دعوتهم لإصدار أحكام بشأن متحدثين يتكلمون لغة الماندرين mandarin بطريقة سليمة أو يتكلمونها بلكنة كانتنية شديدة، لقد اتفق "الحُكام" كافة على ضرورة إجادة لغة الماندرين بطريقة سليمة من أجل التطلع إلى الارتقاء الاجتماعى، إلا أن "الحكّام" الكانتنيين ولا سيما الرجال منهم قد أبدوا تعاطفًا إزاء الماندرين الموسومة بلكنة كانتنية شديدة.

وهكذا، تعكس تلك الحالات الثلاث الاتجاه نفسه نحو متكلمى لغة ما أومستخدمى أحد الأشكال التابعة (الفرانكوفونيون والاسكتلنديون والكانتنيون)، حيث ماثلت الأحكام الصادرة النماذج الفكرية الثابتة لمتكلمى أحد الأشكال اللغوية السائدة، إلا أنه فى الوقت ذاته عبّر هؤلاء الحكام إلى حد ما عن ارتباطهم بالشكل اللغوى الذى ينتمون إليه. وبعبارة أخرى، كانت تنطوى كل تلك التجارب على توقع ظهور ما أُطلق عليه

فيما بعد اسم عدم الأمان اللغوى، وهـو ما يتضح فى حالة الناطقين بالفرنسية فى مونتريال أو الاسكتلنديين فى جلاسجو، وكذلك ظهور حالات التضامن بين أبناء الهوية الواحدة (أحكام أبناء جلاسجو على اللهجة الاسكتلندية، وأحكام الكانتنيين على الماندرين ذات اللكنة الكانتنية على سبيل المثال).

إلا أن اختلاف اللكنات فى هذين البحثين الأخيرين (بحث شين W.Cheyne وبحث إيفان كالمان Ivan Kalman وزونج يونج Zhong Yong وزياو هونج Xiao Hong)، كان فى إطار لغة واحدة فحسب، أى اختلاف اللكنة بين لندن وجلاسجو بالنسبة للغة الإنجليزية، واختلاف اللكنة بين بكين وكانتن بالنسبة للغة الماندرين. لكن أحد الأبحاث - التى أجريت مؤخرًا فى جنوب أفريقيا- قد أوضح مدى الأهمية الكبرى لإظهار هذا الاختلاف فى إطار عدة لغات. فقد استخدمت ڤيڤيان دو كليرك Vivian de Klerk وباربرا بوش Barbara Bosch تقنية الأزواج الخاطئة مع ثلاثة متكلمين يتحدثون ثلاث لغات هى: اللغة الأفريقانية[1] واللغة الإنجليزية ولغة الخوسا[2]، وطلبا منهم قراءة نص مكتوب بهذه اللغات الثلاثة، ثم تم عرض هذه التسجيلات الجديدة على ٢٩٨ حكمًا معظمهم من أحاديى اللغة[3]. وقد أظهرت بوجه عام نتائج هذا البحث ما يلى:

١- تم الحكم على اللغة الإنجليزية بشكل أفضل من اللغتين الأفريقانية والخوسا، رغم اختلاف اللكنات المستخدمة فى نطقها. كما تجدر الإشارة إلى أن متكلمى الخوسا واللغة الأفريقانية يحملون صورة إيجابية للغة الإنجليزية بشكل يفوق تلك التى يحملها الأنجلوفون ذاتهم.

٢- لكن فى المقابل، كان الحكم على اللكنة الإنجليزية ولكنة الخوسا- عند التحدث باللغات الثلاث- أفضل من الحكم على اللكنة الأفريقانية.

(١) [لهجة هولندية مبسطة مستخدمة فى جنوب أفريقيا.]
(٢) [لغة أفريقية تنتمى إلى مجموعة البانتو ضمن العائلة النيجيرية الكونغولية.]
(٣) كانوا يتحدثون الإنجليزية و٦٨ الأفريقانية و٧٢ الخوسا و٣٦ أو يزيد ممن يتكلمون اثنتين أو أكثر من هذه اللغات .

وفيما يخص على وجه التحديد مطالبة الحكام بمحاولة إسناد بعض المهن لهؤلاء المتكلمين المُقنَّعين، افترض الحكام أن من يحمل اللكنة الإنجليزية لابد أن يتولى مهنة ذات مستوى اجتماعى مرتفع (مدرس- رجل أعمال- وزير- محامى...إلخ)، بينما يتولى من يحمل اللكنة الأفريقانية أو لكنة الخوَوصا مهنة ذات مستوى اجتماعى متوسط (فنى - عامل - موظف...). وتفسر القائمات على هذا البحث تلك النتائج بأنها تخالف الفكرة المتوارثة بشأن ما تتمتع به لغة السلطة من وضع إيجابى وفقًا للنماذج الفكرية الثابتة، حيث يرجع هذا التناقض إلى حقيقية رفض الجميع لسلطة جنوب أفريقيا التى وقعت منذ عام ١٩٤٨ تحت احتلال الأفارقة البيض، بينما تحظى اللغة الإنجليزية على وجه العموم بصورة إيجابية فى أفريقيا بأكملها. وكما سبق أن ذكرنا فى بحث شين، فإن ما يعنينا هنا هو أن "الدال"- الذى يجلب ردود الأفعال الناجمة عن النماذج الفكرية الثابتة - لا ينعكس فحسب من خلال لغة ما، بل ينعكس أيضًا من خلال تأثير اللكنة فى حالتين من بين كل ثلاث حالات تخضع للدراسة. وقد ذكرت كليرك وبوش أن "التمييز العنصرى ضد الأشخاص قد يرتبط باللغة التى يستخدمونها"، كما استخلصتا من ذلك عدة نتائج تتعلق بالسياسة اللغوية وتعليم اللغات فى ظل التعددية اللغوية. إلا أن مثل هذه الأبحاث وغيرها توضح أهمية النماذج الفكرية اللغوية الثابتة فى الحياة الاجتماعية والروابط المتواجدة بين هذه النماذج والأوضاع اللغوية الاجتماعية.

وهكذا، سيستعير علم اللغويات منهجية مثل هذه الأبحاث التى تتم فى إطار علم النفس الاجتماعى، ويُخضعها لعملية تطويع كبيرة؛ من أجل تحليل فكرة عدم الأمان اللغوى فى بادئ الأمر، ثم تحليل التمثيلات اللغوية بصورة أكثر اتساعًا. وهذه هى المقدمة التى نستهل بها مجال دراسى جديد فى حقل علوم اللغة الذى سنبدأ على الفور فى تناوله.

مصادر المفهوم: إينار هوجن Einar Haugen ووليم لابوڤ William Labov

حرر إينار هوجين مقالاً غير ذائع ورد ذكره مرات نادرة، تحت عنوان "الانفصام اللسانى والمعيار اللغوى". يتناول المقال بشكل رئيسى اشتراك هوجين فى إحدى

الندوات حول الثنائية اللغوية، حيث تطرق بقدر من السخرية لأعراض مرض يصيب المتكلم من جراء تعرضه لأكثر من نوع لغوى يختلف عن لغته؛ فيصاب بألم فى الحجاب الحاجز والأحبال الصوتية مع الشعور بعدم الأمان اللغوى وزيادة الاهتمام بالشكل من دون جوهر اللغات. ثم أضاف أنه فى بعض الحالات الشديدة، يمكن أن يصير المصاب بالانفصام اللسانى من علماء اللغة المتمرسين، كما هو الحال بالنسبة للمصابين بمرض الانفصام الشخصى الذين صاروا من المحللين النفسيين، رغبة منهم فى دراسة أعراض مرضهم لدى الآخرين...

إن هذا المرض المتفشى فى الولايات المتحدة- على حد قول هوجين- هو نتاج حالات الصراع بين المعايير فى تلك الدولة. ومن المحقق أن اللغة الإنجليزية تعيش فى عالم معيارى يتضح على سبيل المثال من خلال رواية "بجماليون" Pygmalion للكاتب برنارد شو والكوميديا الموسيقية المأخوذة عنها "سيدتى الجميلة" : My fair Lady لا خلاص لمن لا يتمكن من نطق صوت الـ H الهائى، ولا شيء عدا الازدراء لمن لا يلتزم بطريقة النطق التى تلقى الحظوة لدى البعض...الخ. ومن هذا المنطلق، بدت خصوصية الصعوبات التى واجهها مترجمو اللغات المختلفة من أجل ترجمة الاختلافات بين اللغتين الإنجليزيتين لكل من البروفيسور هيجينز Higgins وإليزا دوليتل Eliza Doolittle. ومن ثمَّ استخدم هوجين مفهوم "عدم الأمان اللغوى" بالاستناد إلى مواقف شهدت تواجد معايير مختلفة، بل أشكال مختلفة للغة ذاتها. إلا أن وليم لابوف قد طور هذا المفهوم فى بعض النصوص التى تم تجميعها فى كتاب Sociolinguistic Patterns (1973)، ثم ترجمتها إلى اللغة الفرنسية عام ١٩٧٦، حيث تُعد هذه النسخة هى المرجع الذى نعود إليه فى هذا السياق.

يشير هذا الكتاب بصفة خاصة إلى كيفية حساب "مؤشر عدم الأمان اللغوى" IIL، حيث "نعرض على أحد الأفراد ثمانى عشرة كلمة تختلف طريقة نطقها بشكل واضح للغاية مثل: ... vase, aunt, escalator الخ، ونطلب منه اختيار الشكل الصحيح من وجهة نظره (...) ثم نطالبه بتحديد أكثر الأشكال التى اعتاد على استخدامها. وتمثل عدد

حالات اختلاف هذين الاختيارين مؤشراً على عدم الأمان اللغوى .(IIL) ويبلغ هذا المؤشر أعلى درجاته داخل الطبقة البرجوازية الصغيرة." ثم يقترح لابوف إعداد جدول لـ"توزيع قيمة مؤشر عدم الأمان اللغوى من خلال الطبقات الاجتماعية الاقتصادية"، (لقد أدرجنا فى هذا الجدول أربعة أرقام بالخط العريض):

الطبقات الاجتماعية الاقتصادية				
	٠–٢	٣–٥	٦–٨	٩
IIL	٪٤٤	٪٥٠	٪١٦	٪٢٠
١–٢	٢٥	٢١	١٦	٧٠
٣–٧	١٢	٢٥	٥٨	١٠
٨–١٣	١٩	٠٤	١٠	—

وقد تعترينا الدهشة إزاء تفسير لابوف الذى يشدد فيه بصورة أساسية على عدم الأمان اللغوى فى الطبقة البرجوازية الصغيرة، ولا يشير إلى عدم الأمان اللغوى لدى العمال الكادحين والطبقات العاملة والمتوسطة والبرجوازية العليا، حيث انصب اهتمامه بكل وضوح على الطبقة البرجوازية الصغيرة:

"ينزع بوجه خاص متكلمو الطبقة البرجوازية الصغيرة نحو الشعور بعدم الأمان اللغوى".

"ينعكس عدم الأمان اللغوى لديهم من خلال وجود تنوع لغوى هائل...".

"تعد الظواهر التالية من علامات الشعور العميق بعدم الأمان اللغوى لدى متكلمى الطبقة البرجوازية الصغيرة: التقلبات الأسلوبية، والحساسية المفرطة نحو سمات موصومة يستخدمها الفرد ذاته، ونظرة الفرد الخاطئة لخطابه الشخصى".

ولا يهتم لابوف فى الواقع بعدم الأمان اللغوى فى حد ذاته، بل إنه يحتل لديه المرتبة الثانية، لكنه يُعنى بالإفراط فى عملية التصحيح، وما يمكن أن يسفر عنه ذلك بشأن التغييرات اللغوية.

وهكذا، فإن مفهوم عدم الأمان يمثل النسبة بين الحكم المعيارى (الاستخدام الصحيح وفقاً للمتكلم) والتقدير الذاتى (الاستخدام الشخصى وفقاً للمتكلم)، ولابد

أن نكرر مجدداً أن لابوف لم يول أية أهمية لهذا المفهوم؛ لأنه لم يكن سوى انعكاس هامشى لطريقة معالجته التى تمثلت فى البحث داخل النسيج الاجتماعى عن سبب التغير اللغوى. وسنرى لاحقًا أن هذه المعالجة قد ظلت على حالها حتى يومنا هذا فى معظم الدراسات التى استندت إليها واستخدمت مفهوم عدم الأمان اللغوى، وهى بكل تأكيد معالجة لغوية داخلية، حيث انصب عمل لابوف على لغة واحدة فقط، أى دراسة اللغة الإنجليزية فى جزيرة Martha's Vineyard أو فى مدينة نيويورك.

المعايير الثلاثة: الآن ريى Alain Rey

لم تتم ترجمة نصوص لابوف سوى عام ١٩٧٦، لكن عام ١٩٧٢ قد شهد ظهور نوعية جديدة من المقالات على يد الآن ريى الذى تناول فى مقاله مفهوم المعيار، مع التمييز بين المعيار الموضوعى والمعيار الذاتى والمعيار الإلزامى. وقد ذكر ريى فى كتاباته أن مفاهيم المجالات التى شملها مفهوم المعيار "قد تشكلت بطريقة ملتبسة أضفت الأيديولوجية عليها سمة الغموض، وإننا لنعتقد أن الالتباس هو محرك هذه المفاهيم". تنطوى كلمة norme باللغة الفرنسية على معنيين مختلفين: يحمل المعنى الأول فكرة التوسط والاعتياد، وهو ما يتوافق مع النعت normal أى "الطبيعى" أو "المعتاد"؛ بينما يحمل المعنى الثانى فكرة الخضوع لحكم تقديرى أو لقاعدة ما، وهو ما يتوافق مع النعت normatif أى "المعيارى".

كانت إصدارات وليم لابوف آنذاك قليلة للغاية، إلا أن ريى قد رأى فى هذه الإصدارات منذ عام ١٩٧٢، "عملاً مثاليًا يربط بين الوصف والتحليل الموضوعى للبدائل من جهة ووضع المتكلمين ممن لوحظ لديهم هذه البدائل ومعايير التقدير من جهة أخرى (أحكام ما وراء اللغة). ويتيح هذا الجانب الأخير بصفة رئيسية الربط بين دراسة المعايير الموضوعية ودراسة المعيار التقديرى الذى هو أساس المعيار المُلزم، والربط كذلك بين الطبيعى normal والمعيارى normatif " .

وبعبارة أخرى، على خلاف ما ادّعاه معظم اللغويين، "يمكننا وصف مواقف المتكلمين إزاء استخداماتٍ لغتهم"، حيث تمثل هذه المواقف التقديرية الأساس الاجتماعي للسلوكيات المعيارية، والمعيار المشترك لهؤلاء المتكلمين هو دعامة المجتمع اللغوى.

وقد ذكر ريى أنه:

"يمكن إرساء دراسة المعايير الذاتية وأحكام تقويم اللغة وآثارها الرجعية على استخدامها، على أساس لغويات المعيار الموضوعى فحسب، بجميع بدائله وأنواعه المتوارية خلف البدائل الناجمة عن استخداماتها المختلفة، وإجراء دراسة نظامية لمواقف ما وراء علم اللغة، داخل إحدى الجماعات التى تستخدم النظام اللغوى نفسه (لغة ما أو لهجة ما وفقًا لتعريف النظام)؛ وهى دراسة من شأنها تشكيل علم اجتماعى يرتبط بالنظريات التقويمية".

تفوق ريى على لابوڤ من حيث نفاذ بصيرته واتساع رؤيته، والاختلاف الوحيد الذى يحتل أهمية كبرى يتمثل فى أنه لم يستند إلى بحث ميدانى. وقد ميز ريى آنذاك بين:

- المعيار الموضوعى من داخل النظام اللغوى الذى أظهر أهميته عالم اللغة الوصفى.

- المعيار الذاتى الذى نجده فى مواقف المتكلمين وأحاديثم حول اللغات.

- المعيار المُلزم، أى التدخل فى معيار الاستخدام (يجب التحدث مثل هذا وعدم التحدث مثل ذاك)، مما يشكل شبه نظام.

وفى المقابل، لم يشر ريى إلى مفهوم عدم الأمان اللغوى الذى ذكرنا من قبل أنه قد ورد فى عدة مقاطع من كتاب لابوڤ اللغويات الاجتماعية" الصادر عام ١٩٧٣ باللغة الإنجليزية، والمترجم إلى اللغة الفرنسية عام ١٩٧٦ .

الخلفاء

غاب مفهوم عدم الأمان اللغوى لفترة طويلة عن المؤلفات الفرنسية المخصصة لعلم اللغويات الاجتماعية فى خطواته الأولى. فنجد على سبيل المثال أن چ.ب

مارسيلزى J .B. Marcellesi و ب.جاردين B.Gardin– اللذين خصصا جزءاً صغيراً من كتابهما للابوف لم يتطرقا إلى عدم الأمان اللغوى سوى فى عدة أسطر فحسب:

"يحيا عدد كبير من سكان نيويورك فى حالة عدم أمان لغوى غير واضح؛ لأنهم لا يدركون أن المعيار يتكون من الأشكال التى يعرفونها، فهناك تناقض بين سلوكهم والمعايير التى يعترفون بها."

سارت الأمور على المنوال نفسه بالنسبة لمعظم الكتابات الفرنسية حول علم اللغويات الاجتماعية، حتى نهاية فترة السبعينيات. وفى عام ١٩٨٢، عرض بيير بورديو Pierre Bordieu ما أسماه لابوف عدم الأمان اللغوى"، بشكل يحوى قدراً طفيفًا من الاختلاف، حيث استخدم مصطلحات مثل "السوق اللغوى" و"القهر الرمزى"، وأشار إلى "الجهد الجهيد الذى بذله المقهورون كى يُدخلوا– بشكل شعورى أو لاشعورى– التصويبات الدقيقة أو الدائمة على الجوانب المنبوذة من طريقة نطقهم ومفرداتهم (بجميع أشكال التورية) وقواعدهم النحوية". إلا أن هذه الرؤية لم تغير من الأمر شيئًا، حيث وضعت فحسب مفهوم عدم الأمان اللغوى فى إطار مفاهيم الكاتب ذاته.

وقد سارت الأمور على نحو أفضل بالنسبة لمعايير ريى الثلاثة (الموضوعى والذاتى والملزم)، فى ظل أبحاث نيكول جونييه Nicole Gueunier وجونوفرييه Genouvrier وخومسى Khomsi،١٩٨٣ ، ١٩٧٨)، وبوجه خاص فى ظل أبحاث هودوبين Houde-bine التى أدخلت بعض التحليل النفسى على هذا الشكل ذى الاتجاه الاجتماعى (١٩٨٢،١٩٨٥). وغالبًا ما يصاحب التقدم العلمى فقدان لبعض الجوانب؛ فنلاحظ أن لابوف قد فقد فى مسيرة أبحاثه بُعد التعددية اللغوية، كما أن أبحاث هودوبين التى بدأت من حيث انتهى لابوف وريى، قد افتقدت بدورها البعد الاجتماعى للمشكلة أو وضعته على الأقل فى المرتبة الثانية. وتعد بحق ضرورة تناول الفرد فى المعالجة اللغوية من الأمور المعقدة، حيث تنطوى على بعدين اثنين هما البعد الفردى والبعد الجماعى، كما هو الحال بالنسبة لضرورة تناول الجماعات الاجتماعية الذى يستلزم تحليل للظواهر اللغوية الداخلية، أى هيكل اللغات المتواجدة، وتحليل للظواهر اللغوية البينية، أى العلاقات التى تربط بين اللغات.

سيصير افتراض هودوبين بشأن "التخيل اللغوى" مادة للعديد من التعريفات المتتالية التى تتسم بتعدد الفئات الفرعية فى معايير ربى الثلاثة، ويوضع الأمر برمته تحت غطاء مفهوم التخيلات واستخدام خطاب المحلل النفسى لاكان Lacan الذى يزداد وضوحًا. وهكذا، يغلف مفهوم التخيل اللغوى مجموعتان من المعايير هى المعايير الموضوعية والمعايير الذاتية. وتنقسم المجموعة الأولى إلى معايير نظامية ومعايير إحصائية، بينما تنقسم المعايير الذاتية إلى أربعة أنواع من المعايير: التواصلية والخيالية والملزمة والتقديرية التى تنقسم فى النهاية إلى تقدير ذاتى وتقدير جماعى. تؤيد هودوبين "التزامنية الديناميكية"، حيث تعتبر هذه التزامنية على وجه التحديد كفكرة تجريدية منهجية، وتقترح اعتبارها بمثابة "وجود استخدامات متنوعة ذى ثقل لا يضاهى بشكل متزامن من شأنه التأثير بصور مختلفة على عملية التطور". ولابد فى نظرها أن نعكف على بحث مواطن الضعف فى اللغة (حالات التقلب والتحييد)؛ لأنها هى التى تستند إليها السلوكيات التى "تتأرجح بين هذا الاتجاه أو ذاك، بين كبح زمام التطور أو زيادة سرعته، أى بين المحافظة والتجديد". لكنها لم تُعرِّف آنذاك بطريقة دقيقة المصطلحات التى استخدمتها؛ مما جعلنا نعجز عن الوقوف على الفروق التى ساقتها بين المواقف والتمثيل والتخيل اللغوى. إلا أنها قد اقترحت فى المقابل التمييز بين التزامنية اللغوية الديناميكية التى تعنى بالوجود المتزامن لعدد من البدائل وقت حدوث الاتصال، وبين التطور اللغوى التاريخى الذى لا علاقة له بهذا الوجود المتزامن، حيث يعنى بتسلسل هذه البدائل وتعاقبها على مر الزمان. وقد ساهم هذا التمييز بصفة خاصة فى إظهار المقابلة بين التزامنية اللغوية والتطور التاريخى وعدم مهاجمة إحدى الانقسامات الثنائية المؤسسة لفكر سوسور، لكنه لم يوضح لنا الاختلافات بين المفاهيم التى نحن بصددها.

ساقت سيسل كانو Cécile Canut عام ١٩٩٥- فى الرسالة التى أعدتها تحت إشراف هودوبين- التعريف التالى للتخيل اللغوى: "هى مجموعة المعايير التقديرية الذاتية التى تتصف بها تمثيلات الأفراد بشأن اللغات والممارسات اللغوية، ويمكن تحديد معالمها من خلال أقوال المتكلمين وأحاديثهم بشأن اللغات. وتفسر هذه المجموعة

العلاقة الشخصية التى تربط بين الفرد واللغة." وهكذا، يمكننا أن نفهم أن هذه الأحاديث هى الدال على التخيل اللغوى الذى قد يصير بالتالى جزءًا من مواقف المتكلمين أو معادلاً لها. وفيما يخص "المعايير التقديرية الذاتية"، فإننا بصدد المعايير المستخلصة من "وصف مواقف المتكلمين، وبشكل مباشر وصف أقوالهم وأفكارهم بشأن اللغات."

ساقت هودوبين فى نص أكثر حداثة تعريفًا آخر لمفهوم "التخيل اللغوى" (IL) باعتباره: "علاقة الفرد باللغة lalangue كما عرضها لاكان Lacan، وعلاقته بمفهوم اللغة la langue وفقًا لتعريف سوسور؛ وهى العلاقة التى يمكن تحديد معالمها والاستدلال عليها من خلال الشروح التقديرية حول الاستعمالات اللغوية أو اللغات (طرف التقديرات اللغوية الأحادى اللغة أو المتعدد اللغات)". وبعد ذلك بعام واحد، أعادت هودوبين ترديد هذه الكلمات حرفيًا قائلة إنه: "يمكن تعريف التخيل اللغوى باعتباره علاقة الفرد باللغة (Lacan,Saussure)، والتى يمكن تحديد معالمها من خلال شروحه التقديرية بشأن الاستعمالات اللغوية أو اللغات (طرف التقديرات اللغوية الأحادى اللغة أو المتعدد اللغات)."

وعلاوة على ذلك، عرّفت سيسيل كانو التخيل اللغوى كمرادف للتمثيلات اللغوية، حيث أشارت إلى "دراسة تمثيلات المتكلمين (أو دراسة التخيل اللغوى)." وفى إطار النص ذاته، أضافت هودوبين لهذا المفهوم معنى أكثر عمومية أو بالأحرى معنى عام، حيث قالت: "جاء هذا المفهوم شاملاً لكل ما اتُفق على الإشارة إليه باعتباره الوعى اللغوى أو الأيديولوچية أو الآراء اللغوية أو حتى الأحاسيس اللغوية، وكلها مصطلحات تطرح مشكلة وجود مفاهيم لم تُعرّف جيداً أو عُرِّفت بصورة سيئة." إلا أن عبارة "مفاهيم لم تُعرّف جيداً أو عرفت بصورة سيئة" لا تعطى بالضرورة مفهومًا ذا تعريف جيد. وهكذا، تتراكم بالتالى التراكيب مثل: المعايير الإحصائية والنظامية الموضوعية والتواصلية والتقديرية والخيالية، وكذلك اللغة المثالية والمثل اللغوى الأعلى، على غرار مفاهيم فرويد: أنا المثالى، ومثلى الأعلى، والاضطراب التقديرى، والاضطراب

السلوكى... والتخيل اللغوى- الذى عرَّفته هودويين عام ١٩٩٦ باعتباره "مفهوم ما"- قد صار عام ١٩٩٧ من النظريات المأخوذ بها فى الإطار ذاته: "على نطاق أكثر اتساعًا يتضح من خلاله أننا بصدد الحديث عن إحدى النظريات، تفترض دراسة التخيل اللغوى (...) الربط بين المعايير الذاتية والمعايير الموضوعية..."

لقد تم تعميم كل حالات التردد تلك فى الكتابات التى تتناول مثل هذه الموضوعات، ولا يسعنا سوى الاتفاق مع دومينيك لافونتين Dominique Lafontaine حينما ذكر أنه قد تم "استخدام مصطلح الموقف اللغوى بشكل مماثل لا يتضمن اختلافًا حقيقيًا فى المعنى عن مصطلحات التمثيل اللغوى والمعيار الذاتى والتقدير الذاتى والحكم والرأى، من أجل الإشارة إلى كل الظواهر الخاصة بأقوال وأفكار المتكلمين التى تتصل باللغة". وقد ذكر فى إطار هذه الجزئية نفسها أن مصطلح الموقف اللغوى له معنى أكثر تحديداً فى علم النفس الاجتماعى للغة، حيث يشير إلى "كيفية تقويم الأفراد للغات أو لأنواع أو بدائل لغوية تخص فى الغالب متكلمين يعبرون عن أنفسهم باستخدام لغات أو أنواع لغوية خاصة"

كما أشارت نيكول جونييه Nicole Gueunier فى الكتاب ذاته إلى أن "مفهوم التمثيل اللغوى قد اختلط طويلاً بمفهوم الموقف"؛ مما دفعها إلى التمييز بينهما بطريقة مختلفة: "إذا ما اشترك مفهومى التمثيلات والمواقف اللغوية فى كونهما يحملان السمة نفسها التى تتعلق بتناول أفكار المتكلمين وأقوالهم بشأن اللغات، والتى تميزهما عن الممارسات اللغوية وتحليلات ما وراء علم اللغة، فإنهما يختلفان على الصعيد النظرى، لما للتمثيلات من طابع أقل نشاطًا (الأقل اتجاهاً نحو السلوك) وهو الأكثر استدلالاً ومجازًا." وقد أوضحت مارى- لويز مورو Marie Louise Moreau أن المعايير الذاتية (أو التقديرية) "تتواجد على أرض المواقف والتمثيلات"، و"ترتكز على ربط هذه القيم الجمالية الشعورية أو الأخلاقية بالأشكال اللغوية".

إزاء هذا الإبهام الاصطلاحى الذى لا يسهم مطلقًا فى تقدم هذه النظرية، سنسعى إلى تبسيط الأمور، انطلاقًا من فئتين كبيرتين هما الممارسات والتمثيلات

اللغوية. على صعيد الممارسات، نجد بكل تأكيد ما يصدر عن المتكلمين، أى طريقة كلامهم، وطريقة تكيفهم من أجل إتمام التواصل، وكيفية تطويع ممارساتهم مع مختلف المواقف الاتصالية مثل ممارسات المُخاطَبين وتوقعاتهم. وعلى صعيد التمثيلات، نجد طريقة تفكير المتكلمين بشأن هذه الممارسات، وموقفهم إزاء غيرهم من المتكلمين الآخرين، بل إزاء الممارسات الأخرى، وكيفية تحديد وضع لغتهم بالنسبة للغات الأخرى، أى كل ما ينبثق عن أفكار المتكلمين وأقوالهم بشأن اللغات. وكما سنرى فإن هذه التمثيلات تحدد:

- بعض الأحكام الصادرة على اللغات وكيفية التحدث بها، حيث تنتشر فى الغالب على هيئة قوالب فكرية ثابتة.

- بعض المواقف المتخذة إزاء اللغات واللهجات، أى فى الواقع إزاء المتكلمين أنفسهم الذين يعانون من التمييز بسبب القوالب الفكرية الثابتة.

- بعض السلوكيات اللغوية التى تهدف إلى التوفيق بين لغة المتكلم وأحكامه ومواقفه. ومن هنا تؤثر التمثيلات على الممارسات وتُغيِّر من "اللغة".

من الممكن أن يقتصر تأثير هذه التمثيلات على بعض النقاط المحدودة أو حتى على كلمة واحدة فحسب. ومن ذلك على سبيل المثال ما ترويه روزالين هوارد مالفيرد Rosaleen Howard-Malverde بشأن ما حدث عند تحدثها بلغة الكينشو مع سيدة بوليڤية أحادية اللغة، واستخدامها لكلمة pachamama التى تعنى "ربَّة الأرض". لكن المرأة سرعان ما عاجلتها قائلة إن "كلمة pachamama هى كلمة إسبانية، ونحن نستخدم فى لغة الكينشو كلمة Wirhina" ، إلا أن هذا القول يحمل خطأً مزدوجًا؛ لأن كلمة pachamama لا تمت للإسبانية بأية صلة، بل إنها تستخدم فى كل مناطق الكينشو، فى حين أن Wirhina هى الكلمة المقترضة من الإسبانية وتعنى "العذراء". لكن التمثيلات اللغوية تؤثر فى أغلب الأحيان على مجمل اللغة، ويمكن أن يمتد هذا التأثير إلى نشر الأمان أو عدم الأمان فى مجالات مختلفة سنعرض لها لاحقًا، حيث يمتد تأثيرها بأثر رجعى إلى استخدامات اللغة بصورة تؤدى إلى تعديلها. ومن هنا، فإن

تحليل التمثيلات اللغوية – الذى يتم منهجياً فى إطار الدراسة اللغوية التزامنية – لابد أن يمس تغيير وتطور الأشكال اللغوية؛ فينبثق فى الوقت ذاته عن الدراسة اللغوية التاريخية.

وكما سبق أن رأينا، نشأ مفهوم عدم الأمان اللغوى فى سياق أحادى اللغة، أو على أقل تقدير فى إطار تحليلات تعتبر المجموعة أو الجماعة الخاضعة للدراسة أحادية اللغة. إلا أنه نادراً ما تكون الأوضاع اللغوية أحادية اللغة؛ فلابد من تدبر العلاقات بين عدم الأمان والتعددية اللغوية: هل من الممكن أن يرتبط عدم الأمان اللغوى بوظيفة اللغة مثلما ارتبط بشكلها كما ورد فى الأبحاث المذكورة أعلاه؟ وعلاوة على ذلك، ألا تؤدى حقيقة الشعور بالثقة فى النفس عند التحدث بلغة أخرى إلى إنتاج استراتيجيات خاصة لا يحظى بها أحاديو اللغة ؟ إننا هنا بصدد اتجاه بحثى يجد تربة خصبة فى ظل الأوضاع الأفريقية بوجه خاص. وبعد هذه النبذة التاريخية، سنشرع على الفور فى تناول المشكلات النظرية.

بعض المشكلات النظرية: المعالجة الأولى

الأمان/عدم الأمان إزاء الشكل و/أو إزاء الوضع

فى دراسة لغوية مخصصة لعدم الأمان اللغوى لدى متكلمى الفرنسية من البلچيكيين، افترض ميشيل فرانكار Michel Francard أن "عدم الأمان اللغوى هو مظهر السعى الفاشل وراء الشرعية". إنه يعتقد فى وجود أربعة أوجه لعدم الأمان كما يبدو فى بلچيكا الفرانكوفونية:

– التبعية اللغوية بالنسبة لفرنسا.

– التقليل من شأن الأشكال اللغوية التى تعانى من عدم الشرعية.

– استخدام هذه الأشكال قليلة الشأن داخل "الأسواق اللغوية المحدودة"، وقد يصاحبها حالات سخرية من هؤلاء المتفرنسين، أى الذين يحاكون الفرنسيين.

- الرؤية التشاؤمية إزاء مستقبل اللغة الفرنسية.

تظهر من وراء كل ذلك فكرة رئيسية تتمثل فى أن المدرسة ذاتها تدعم عدم الأمان اللغوى؛ لأنها تنقل الشكل النموذجى، وخلف هذه الفكرة الرئيسية يوجد تعريف ضمنى لعدم الأمان الذى يعتبر بمثابة نتاج الصراع بين لغة شرعية وشكل آخر لهذه اللغة غير شرعى أو قليل الشأن. إلا أن هذا المفهوم الخاص بعدم الأمان اللغوى محدود للغاية، حيث ينطلق فى الواقع من الأرض البلچيكية، تاركًا إلى جواره مشكلتين على الأقل، ألا وهما:

- الأوضاع الشائعة التى ينتج فيها عدم الأمان اللغوى عن العلاقات بين لغات غير مرتبطة على الإطلاق، ومن ذلك على سبيل المثال ما نشهده فى أفريقيا بين اللغات الأفريقية من جهة واللغات الأوروبية الرسمية وأحيانًا اللغة العربية من جهة أخرى. ولا يمكننا فى مثل هذه الحالات الاستدلال بمفاهيم مثل الشكل الشرعى والشكل قليل الشأن للغة نفسها.

- حقيقة أن عدم الأمان اللغوى لا ينتج فى الغالب أو لا ينتج فحسب إزاء شكل اللغة عند مقارنته بالشكل الشرعى، بل ينتج أيضًا إزاء حالة اللغة النوعية أو الوضعية، ومن ذلك على سبيل المثال ما يتصوره أحد المتكلمين من أنه لا يتحدث إحدى اللغات بل لهجة ما أو لهجة محلية.

إلا أنه يبدو أن ميشيل فرانكار، وويليام لابوڤ لا يقفان على عدم الأمان اللغوى سوى من خلال أوضاع التغيرات اللغوية الداخلية، ونعنى بذلك تغيرات تحدث داخل اللغة ذاتها فى إطار العلاقات التى تربط بين ما نعتبره بمثابة بدائل للغة نفسها، حيث يضعان هذا المفهوم فى إطار المقابلة بين "الاستخدام الشخصى" و"الاستخدام الصحيح". إلا أن عدم الأمان قد ينتج أيضًا عن التعددية اللغوية من خلال العلاقات التى أسميناها العلاقات اللغوية البينية؛ لأنها تربط بين لغات مختلفة. وبعبارة أخرى، يمكن أن ينتج أيضًا عدم الأمان عن عقد مقارنة بين كلام الفرد والكلام الشرعى(ونحن هنا بصدد مشكلة الشكل اللغوى فى إطار لغة واحدة)، كما يمكن أن ينتج عن الوضع

الممنوح لهذا الكلام الذى استبطنه المتكلم (إننا هنا بصدد الوضع اللغوى الناجم عن المقارنة بوضع لغة أخرى). وهذا الموقف الذى عرضناه فى إحدى الدراسات المخصصة لوضع الناطقين بالكريولية فى لويزيانا، والذى سنتعرض له فى الفصل الأخير من هذا الكتاب، قد قادنا نحو الشكل التالى الذى يتضمن مجموعة متصلة تبدأ من الأقل إلى الأكثر أمانًا من خلال شكل اللغة أو وضعها، حيث نجد أربع مواضع نظرية رئيسية:

النموذج الأول (الأمان /عدم الأمان)

الأمان إزاء الشكل

	سالبة	موجبة
الأمان إزاء الوضع	– ٠١ عدم الأمان إزاء الشكل والوضع	٠٢ الأمان إزاء الشكل وعدم الأمان إزاء الوضع
	+ ٠٣ عدم الأمان إزاء الشكل والأمان إزاء الوضع	٠٤ الأمان إزاء الشكل والوضع

سوف نعود لاحقًا للحالات الأربع الواردة فى هذا الشكل؛ لأننا نرى أنه ضرورة إضافة متغير واحد على الأقل لهذا الجدول.

الأمان/ عدم الأمان التقديرى

لقد ذكرنا من قبل أنه قد يكون من الممكن التمسك بثنائية اللغة التى تفرق بين الممارسات كما يستشعرها عالم اللغة ويصفها، والتمثيلات التى تتمثل فى أقوال وأفكار المتكلمين بشأن ممارساتهم وممارسات الآخرين. وحسبنا أن نشير على الفور إلى تمثيلات عالم اللغة ذاته؛ لأنه علاوة على أسلوبه المنهجى، فإنه يمتلك رؤية خاصة يمكن أن تؤدى إلى تحويل بل تبديل ما يخضع لوصفه. ومن ثمَّ فإن القاموس الذى لا يُعد بدقة بواسطة المادة اللغوية يمكن أن يعطينا تمثيلات مُحرِّره أكثر من حقيقة الممارسات،

حيث يجب أن تحدد الأمثلة المعنى والاستخدام وليس العكس، إلا أن هذه قضية أخرى تنبثق عن مبحث العلوم. وهكذا، تتشكل التمثيلات من خلال الصور والمواقف الأيديولوچية والاعتقادات التى يحملها المتكلمون بشأن اللغات المتواجدة والممارسات اللغوية التى تخصهم أو تخص غيرهم من المتكلمين. وتستند التمثيلات بقدر ما إلى التقييم الذاتى للمتكلم؛ مما يثير مشكلة الوقوف على المقدار الحقيقى لمعرفة المتكلم بشأن ما يتحدث به، أو بعبارة أخرى بشأن كيفية تقييمه لذاته.

تناولت سيسيل كانو Cécile Canut وبونيفاس كيتا Boniface Keita هذه المشكلة فى إطار إحدى مناطق دولة مالى حيث توجد مجموعة متصلة (تبدأ بالشكل الذى أسميناه لغة "المالينكى" وتنتهى بما أسميناه لغة "البمبار") تأثرت بالحركة الاجتماعية التى تثير تطور التمثيلات والممارسات اللغوية. لقد تناولت سيسيل كانو مجدداً فى رسالتها هذه الأمور، وهذا ما استندت إليه فيما يلى، حيث اقترحت بادئ ذى بدء التمييز فى المواقف اللغوية بين الوعى واللاوعى (معرفة المتكلم بالبيئة اللغوية)، وبين الرفض والقبول (قبول أو عدم قبول اللغة السائدة)، وكذلك بين مفهومى الأمان وعدم الأمان اللذين ساقت بصددهما ثمانية مفاهيم أخرى، هى:

١- العقدة اللغوية التى تشبه فى نظرها مفهوم الشعور بالذنب اللغوى لدى روبير لافون Robert Laffont .

٢- الاستقرار اللغوى التقديرى حينما يؤكد المُتحدث أنه يتكلم اللغة "أ" وهو بالفعل يتكلم اللغة "أ".

٣- عدم الاستقرار اللغوى التقديرى حينما يؤكد المُتحدث أنه يتكلم اللغة "أ" بينما يتكلم اللغة "ب".

٤- الاستقرار اللغوى حينما يتكلم المتحدث لغة جماعته.

٥- عدم الاستقرار اللغوى حينما لا يتكلم المتحدث لغة جماعته.

٦- الأمان اللغوى التقديرى حينما يؤكد المتحدث أنه يتكلم اللغة "أ" وهو بالفعل

يتكلم اللغة "أ" ويعتقد فى وجوب التحدث باللغة "أ"، أو يؤكد أنه يتكلم اللغة "أ" وهو يتكلم اللغة "ب" لكنه يعتقد فى وجوب التحدث باللغة "أ".

٧- عدم الأمان اللغوى التقديرى حينما يؤكد المتحدث أنه يتكلم اللغة "أ" وهو بالفعل يتكلم اللغة "أ" ويعتقد فى وجوب التحدث باللغة "ب"، أو يؤكد أنه يتكلم اللغة "ب" وهو يتكلم اللغة "أ" ويعتقد فى وجوب التحدث باللغة "أ".

٨- عدم الأمان اللغوى التقديرى الكامل حينما يؤكد المتحدث أنه يتكلم اللغة "أ" أو "ب" وهو بالفعل يتكلم اللغة "أ" أو "ب" لكنه يعتقد فى وجوب التحدث باللغة "ج".

تعكس الطريقة التى استخدمتها كانو فى عرض الأمور تقدمًا ملحوظًا بالنسبة للتعريفات السابقة لعدم الأمان اللغوى، إلا أنه يبدو لنا أنها قد وضعت أحيانًا فى الفئة نفسها(مثل الأمان اللغوى التقديرى) بعض المواقف المختلفة (يؤكد المتحدث أنه يتكلم اللغة "أ" وهو بالفعل يتكلم اللغة "أ" ويعتقد فى وجوب التحدث باللغة "أ"، أو يؤكد أنه يتكلم اللغة "أ" وهو يتكلم اللغة "ب" ويعتقد فى وجوب التحدث باللغة "أ").

وإننا لنجد أنفسنا هنا فى مواجهة ثلاثة أمور هى:

١- الممارسات اللغوية، أى ما يتكلمه الأشخاص وكيفية تحدثهم، وهذا ما يمكن لعالم اللغة أن يلاحظه ويصفه.

٢- التقدير الذاتى لهذه الممارسات، أى معتقدات المتكلمين وأقوالهم بشأن ما يفعلونه، وهو ما يستطيع الباحث أن يقف عليه من خلال الاستفتاءات أو/و الحوارات.

٣- التمثيلات بشأن هذه الممارسات، أى ما قد يرغب المتكلمون فى عمله أو يفكرون فى وجوب حدوثه.

يفرز تشابك الممارسات والتقدير الذاتى لدى كانو حالتين فقط على الشكل التصويرى (الاستقرار/عدم الاستقرار التقديرى)، فى حين توجد عليه أربع حالات نتيجة لإضافة التمثيلات الخاصة بهذه الممارسات. ولنتناول على سبيل المثال الوضع الذى تتواجد به اللغتان الفرنسية والكريولية: إذا ما أحدثنا تشابكًا بين ممارسات

المتكلمين أي ما يتكلمونه، وبين تقديراتهم الذاتية أي ما يقولونه أو يعتقدون أنهم يتكلمونه، فسوف نحصل نظرياً على أربعة احتمالات:

	يتكلم الفرنسية	يتكلم الكريولية
يؤكد التحدث بالفرنسية	١	٢
يؤكد التحدث بالكريولية	٣	٤

يتعادل لدى كانو الوضعان ١ و٤ (استقرار تقديري)، لكن هذا التعادل لن يحدث سوى في حال قيام المتكلم بمنح القيمة نفسها لكل من اللغة الفرنسية والكريولية، وهو أمر بعيد المنال. ومن أجل توضيح هذا البعد، يتعين علينا إحداث تشابك بين التقدير الذاتي للممارسات اللغوية والتمثيلات التي يحملها المتكلمون بشأن هذه الممارسات؛ مما يقودنا إلى النتيجة التالية:

النموذج الأول (الأمان /عدم الأمان)

الأمان إزاء الشكل

	موجبة	سالبة
جيدة	٠١ الأمان التقديرى والتمثيلى	٢ ٠ الأمان التقديرى وعدم الأمان التمثيلى
سيئة	التقديرات ٣ ٠ عدم الأمان التقديرى والأمان التمثيلى	٠٤ عدم الأمان التقديرى والتمثيلى

١- **الأمان التقديرى والتمثيلى** : يتحدث المتكلمون بما يقولون إنهم يتكلمونه ويحملون له صورة جيدة. تتطابق هذه الحالة مع الجزئية الأولى لما أسمته كانو "الأمان اللغوى التقديرى" (يقول المتحدثون إنهم يتكلمون اللغة "أ"، وهم بالفعل يتكلمون اللغة "أ"، ويعتقدون فى وجوب التحدث باللغة "أ").

٢- **الأمان التقديرى وعدم الأمان التمثيلي**: يعرف المتحدثون ماهية ما يتكلمونه، لكنهم يعتقدون فى ضرورة التكلم بشيء آخر. ومن ذلك على سبيل المثال: "أنا أتكلم الكريولية، إلا أننى أرغب فى التكلم بالفرنسية"، أو "يجب التحدث بالفرنسية من أجل تحقيق النجاح". تتطابق هذه الحالة مع الجزئية الأولى لما أسمته كانو "عدم الأمان اللغوى التقديرى" (يتحدث المتكلمون اللغة "أ"، ويقولون إنهم يتحدثون اللغة "أ"، لكنهم يعتقدون فى وجوب التحدث باللغة "ب").

٣- **عدم الأمان التقديرى والأمان التمثيلي**: لا يعرف المتحدثون ماهية ما يتكلمونه، لكنهم يعتقدون أنهم يتحدثون ما يجب التكلم به. تتطابق هذه الحالة مع الجزئية الثانية لما أسمته كانو "الأمان اللغوى التقديرى" (يتحدث المتكلمون اللغة "ب"، ويقولون إنهم يتحدثون اللغة "أ"، ويعتقدون فى وجوب التحدث باللغة "أ").

٤- **عدم الأمان التقديرى والتمثيلي**: لا يعرف المتحدثون ماهية ما يتكلمونه، ويرغبون فى التحدث بشيء آخر. تتطابق هذه الحالة إلى حد ما مع ما أسمته كانو "عدم الأمان اللغوى الكامل" (يتحدث المتكلمون اللغة "ب"، ويقولون إنهم يتحدثون اللغة "أ"، ويعتقدون فى وجوب التحدث باللغة "ج").

بعض المقترحات

تناولنا فى المقطع السابق عدم الأمان التقديرى دون مناقشة هذا المفهوم، بيد أنه يثير عدداً من المشكلات. تكمن بالطبع المشكلة الأولى فى الكلمة ذاتها التى يصعب التخلص منها لكثرة استخدامها منذ عهد ويليام لابوف، حيث اكتسبت إلى حد ما حق ذكرها على الدوام. لكن المعانى الضمنية لهذه الكلمة محددة للغاية؛ مما يقودنا نحو عدد من المشكلات الأخرى. فى النموذج الأول المذكور أعلاه، أخذنا فى الاعتبار أمرين: ما يعتقده المتكلمون بشأن طريقة تحدثهم (الأمان/عدم الأمان إزاء الشكل)، والقيمة التى يمنحونها لما يتكلمون به (الأمان/عدم الأمان إزاء الوضع). أى أننا حرصنا على تشابك معطيات تأتى فحسب من المتكلمين أنفسهم، تاركين جانباً مشكلة

أخرى تتمثل فى مطابقة تقديرات المتكلمين بشأن ممارساتهم. إذا ما استطاعت لغة ما فى الواقع إثارة الأمان أو عدم الأمان لدى متكلمها، عند مقارنتها بلغة أخرى أو بشكل آخر لنفس اللغة ، فهل يسعنا التساؤل حول مقاييس معرفة هذا المتكلم الحقيقية بشأن ما يتكلمه، أو بعبارة أخرى حول كيفية تقييمه لذاته؟ إلا أن هذا الجانب يثير مشكلات هائلة ؛ لأنه يفترض وجود شخص ما يتمثل هنا فى عاليم اللغة الذى يقرر مدى صحة أو خطأ تقويم المتكلم لذاته. لقد تناولنا هذه المشكلة فى موضع آخر، وسوف نتعرض لها فى الفصل الأخير من هذا الكتاب؛ لذا لن نتطرق إليها هنا سوى بطريقة مختصرة.

هناك العديد من الأوضاع التى لا يتفق فيها المتكلم وعالم اللغة حول أسماء اللغات: يقول الكرواتيون على سبيل المثال إنهم يتحدثون اللغة الكرواتية لا الصربية، فى حين لا يرى عالم اللغة هنا سوى لغة واحدة هى اللغة الصربية-الكرواتية. وكما هو الحال بالنسبة لعدم وجود الفونيم، حيث لا توجد سوى طبقة صوتية واحدة، ولا يوجد ما يمكن تعريفه بكونه لغة؛ لأن اللغة ليست سوى مجموعة من الممارسات والتمثيلات؛ فالمشكلة المثارة هنا حول وجود لغة أو لغتان تدور بالتالى حول معرفة "اللغة" التى لابد أن يسند إليها هذا الفعل الكلامى أو ذاك. ومن هنا، تعد "تسمية" اللغة – أى القيام بإطلاق اسم عليه – من الأمور المقررة سلفًا، انطلاقًا من تصور كل من المتكلم وعالم اللغة . ولا يجب بالضرورة أن تتطابق أحكام عالم اللغة وتمثيلات المتكلمين، ولنتساءل مجدداً: هل هناك لغتان صربية وكرواتية، أم أنهما لغة واحدة صربية – كرواتية؟[1] وهل يجب علينا بالتالى أن نتطرق إلى سلطة عالم اللغة الذى قد يكون محقًا فى معارضته لتمثيلات المتكلم؟ لقد ترددنا بعض الشىء فى مواصلة هذا الطريق؛ لذا نعتقد أنه من الأفضل التمسك بمعالجة معطيات تأتى من المتكلمين ذاتهم، على غرار ما فعله لابوف حينما اكتفى بإحداث تشابك بين أمرين

(١) تطرح هذه المشكلة بالطبع بالنسبة للصرب فحسب، ولنتذكر على سبيل المثال التشيك والسلوفاك أو الهندية والأردية...إلخ.

فحسب هما: الأشكال التى يعتبرها المتكلمون صائبة، والأشكال التى يعتقدون أنهم يستخدمونها.

وقد يجيب البعض على تساؤلاتنا بقولهم إن عالم اللغة قد يكون أكثر موضوعية وكفاءة من المتكلم العادى، وإن "المعتقدات" الشعبية الخاصة باللغة لا تتجاوز درجة جديتها المعتقدات الخاصة بالخرافات كالشعور بالتشاؤم عند رؤية القطط السوداء، وما إلى ذلك من أمور أخرى. لكن هناك تبايناً شديداً حول اشتهار العلماء بالموضوعية أو الكفاءة، بسبب بعض تجاوزات علم اللغة، ومن ذلك على سبيل المثال الخطاب الاستعمارى الذى يفرّق بين اللغات (الأوروبية) واللهجات (الأفريقية)، بل إنه قد استند فى أغلب الأحيان إلى مصادر "علمية" من أجل صياغة حججه وبراهينه. إلا أن الأمور قد صارت اليوم أكثر تعقيداً. ولنذكر أولاً أنه من الممكن أن يقع التقدير الذاتى على ظاهرة ما، مثل تأكيد المتكلم أنه ينطق الفونيم /g/ فى حين أنه ينطق الفونيم /k/؛ كما يمكن أن يقع على لغة ما، كقول المتكلم أنه يتحدث لغة البمبارا فى حين أنه يتحدث المالينكى، ومثل هاتين الحالتين تطرحان بطريقة مختلفة للغاية مشكلة مدى معرفة العالم المختص. ويمكننا فى الحالة الأولى أن نأخذ أكثر بما يسمعه العالم المتخصص فى وصف اللغة؛ لأنه أفضل من المتكلم من حيث القدرة على التمييز بين الـ g والـ k. كما يمكننا فى الحالة الثانية أن ننظر بعين الاعتبار إلى كون عالم اللغة يمتلك تعريفاً محدداً للغات؛ مما يجعله قادراً على معرفة مواطن الاختلاف بين البمبارا والمالينكى (النظام الصوتى والنحو والمفردات...إلخ). لكن ذلك كله لا يغير من حقيقة أنه فى حالة وجود تمثيلات المتكلم، لا يمكن كذلك إغفال وجود تمثيلات تخص عالِم اللغة. ويكفينا على سبيل المثال أن نعيد اليوم قراءة كتاب Meillet حول اللغات فى أوروبا؛ كى نعلم أن هذا العالِم الموثوق به قد اتخذ مواقفاً تنبثق عن تمثيلاته الخاصة لا عن العلم، ولا سيما فيما يخص اللغة المجرية. وكثيراً ما نجد لدى بعض المتخصصين فى إحدى اللغات بعض المواقف التى لم يدركوها بشكل جيد، لكنها تعنى الكثير عندا الاشتغال بالتخطيط اللغوى. ولسنا هنا بصدد وضع تمثيلات علماء اللغة والمتكلمين على قدم المساواة، لكننا نهدف إلى ذكر ما يلى:

– توجد تمثيلات خاصة بعالم اللغة، والموضوعية العلمية التى نأمل فيها بكل تأكيد هى هدف نقترب منه دون أن نتمكن من الوصول إليه.

– تؤثر تمثيلات المتكلم على الممارسات والأوضاع اللغوية، رغم أنه من الممكن دحضها باستخدام الخطاب العلمى. ومن المحتمل أن اللغويين كانوا محقين منذ خمسين عامًا فى مطالبتهم باعتبار الهندية والأردية لغة واحدة، كما أنهم قد يكونوا اليوم محقين فى اعتبار اللغة الصربية – الكرواتية لغة واحدة . وتظل تمثيلات المتكلمين تؤثر فى مختلف الأوضاع، فضلاً عن العوامل السياسية والاجتماعية والإيديولوچية ؛ ولها أثر أكيد على استمرار التباعد بين الأردية والهندية، مثلما قد يستمر التباعد بين الصربية والكرواتية. أى أننا لسنا هنا بصدد "علم اللغة الشعبى" الذى يتناول المعتقدات الخاصة باللغات، وهو ما أطلق عليه البعض اسم "الحديث بشأن اللغات"، لكننا فى جوهر علم اللغة حيث نسعى وراء إحدى عوامل التغيير.

حرصًا منا على تبسيط الأمور، نقترح التمييز بين الممارسات والتمثيلات اللغوية، وسوف نشرع الآن فى الدخول فى تفاصيل هذه الأمور. تتعلق التمثيلات بثلاثة مجالات على أقل تقدير: شكل اللغات (كيفية تحدث الأشخاص وكيفية وجوب تحدثهم)، ووضع اللغات (اللغة "الشرعية" التى يجب الحديث بها)، ووظيفة اللغات فى تحقيق الهوية (سمات كل جماعة).

سنعمد أولاً إلى إحداث ثلاث مداخلات بين هذه المعطيات بشكل يتيح حساب ثلاثة معدلات :

١– معدل الأمان إزاء الوضع (من ٪ إلى ١٠٠٪): النسبة بين عدد المتكلمين الذين يقولون أنهم يتحدثون اللغة "أ" وعدد من يعتقد منهم فى وجوب التحدث باللغة "أ".

٢– معدل الأمان إزاء الهوية (من ٪ إلى ١٠٠٪): النسبة بين عدد المتكلمين الذين يقولون أنهم يتحدثون اللغة "أ" وعدد من يعتقد منهم أن اللغة "أ" تميز جماعتهم.

٣- معدل الأمان إزاء الشكل (من ٪ إلى ١٠٠٪): النسبة بين عدد المتكلمين الذين يقولون إنهم يتحدثون بطريقة ما وعدد من يعتقد منهم فى ضرورة التحدث بطريقة أخرى.

فى هذه الجزئيات الثلاثة، ينجم معدل "الأمان" (إزاء الوضع والشكل والهوية) عن تداخل تقديرات المتكلم وتمثيلاته، دون تدخل عالم اللغة بأى من أحكامه؛ لأننا فى نهاية الأمر بصدد وضع المتكلم فى مواجهة ذاته من خلال تصريحاته الخاصة.

وقد يبدو أن كل ما سلف هو من قبيل الأعمال النظرية البحتة ، إلا أن كل هذه التعريفات هى تعريفات أساسية ؛ لأنها توجد فى جوهر بعض مشكلات وصف الأوضاع اللغوية وتطورها. لكن كيف تسهم هذه المقترحات فى دفع الأمور؟ لقد طرحنا فى بادئ الأمر موضوع كون التمثيلات اللغوية تؤدى إلى الأمان/عدم الأمان، وهو العامل المحرك للتغيير اللغوى؛ لأن علاقة المتكلم بممارساته تنعكس على هذه الممارسات. ثم حاولنا التمييز بين مختلف أنواع عدم الأمان اللغوى: عدم الأمان إزاء الوضع (النسبة بين عدد المتكلمين الذين يقولون إنهم يتحدثون اللغة "أ" وعدد من يعتقد منهم فى وجوب التحدث باللغة "أ") وعدم الأمان إزاء الهوية (النسبة بين عدد المتكلمين الذين يقولون إنهم يتحدثون اللغة "أ" وعدد من يعتقد منهم أن اللغة "أ" تميز جماعتهم)، وهذان النوعان يندرجان فى إطار معالجة اللغويات الداخلية، وأخيراً هناك عدم الأمان إزاء الشكل (النسبة بين عدد المتكلمين الذين يقولون إنهم يتحدثون بطريقة ما وعدد من يعتقد منهم فى وجوب التحدث بطريقة أخرى). والنوع الأخير هو الوحيد الذى يتوافق مع تعريف لابوف دون أن تطرأ عليه تغييرات كبيرة . لقد أضفت الحالتان الأوليان بعداً كان مهملاً قبل ظهورهما، وهو بعد لا يتعلق بالشكل فحسب (العناصر التى تحدث عنها لابوف ، بل يتعلق أيضًا باعتبار اللغة ككيان مميِّز لجماعة ما أو لإحدى المعايير الاجتماعية. من خلال تشابك هذه الأنواع الثلاثة، نحصل على ثمانية أوضاع يمكن تصويرها كالتالى:

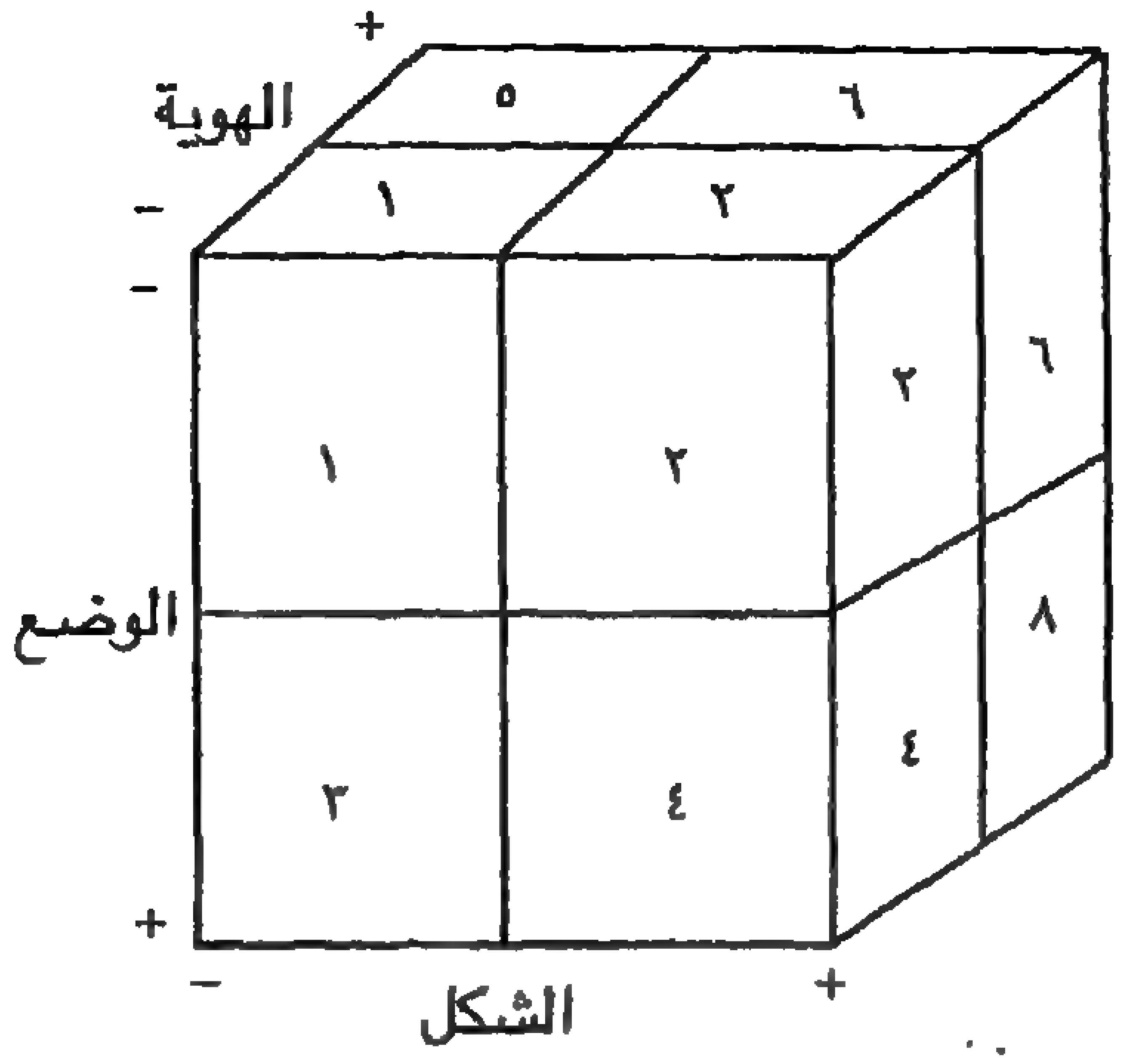

ويمكن كذلك تصوير تلك الحالات من خلال الجدول التالى:

الأمان	إزاء الهوية	إزاء الوضع	إزاء الشكل
١	–	–	–
٢	–	–	+
٣	–	+	–
٤	–	+	+
٥	+	–	–
٦	+	–	+
٧	+	+	–
٨	+	+	+

ويمكن توصيف هذه الأوضاع الثمانية على النحو التالى:

١- عدم الأمان إزاء الوضع والشكل والهوية

يتجلى من خلال الأوضاع التى يعتقد فيها المتكلمون أنهم لا يجيدون التحدث بأحد الأشكال اللغوية التى "لا تشكل لغة ما"، ولا تميز الجماعة التى يفكرون أو يرغبون فى الانتماء إليها. وهذا ما ينطبق على الهندى الإكوادورى الذى يعتقد فى عدم تمكنه من لغة الكيشوا kichua، ويعتبرها إحدى اللهجات (أو يدفعه على وجه التحديد الكلام

السائد الراسخ فى الشعور والوجدان إلى اعتبارها مجرد لهجة)، كما أنه يرغب فى الانتماء إلى مجتمع الناطقين باللغات الهسبانية.

٢- الأمان إزاء الشكل وعدم الأمان إزاء الوضع والهوية

يتجلى من خلال الأوضاع التى يعتقد فيها المتكلمون أنهم يجيدون التحدث بشكل ما يعدونه غير شرعى على الصعيد الوضعى، بل غير مميز للجماعة التى يفكرون أو يرغبون فى الانتماء إليها. وينطبق ذلك على متكلم اللغة الكتلانية الذى يعد لغته "غير شرعية"، ويعتقد أنه يتكلمها على النحو الصحيح، لكنه يرغب فى الانتماء إلى جماعة الناطقين باللغات الهسبانية.

٣ - الأمان إزاء الوضع وعدم الأمان إزاء الشكل والهوية

يعتقد متكلمو إحدى اللغات التى تحظى بمكانة شرعية أنهم يتكلمون شكلاً غير شرعى للغة نفسها، وهو شكل لا يميز الجماعة التى يفكرون أو يرغبون فى الانتماء إليها. ومن ذلك حالة المهاجر الإسبانى الذى يعتقد أنه يتكلم اللغة الإسبانية بشكل سيئ، ويرغب فى الانضمام إلى مجتمع الناطقين بالفرنسية "الفرانكوفونيين".

٤ - الأمان إزاء الوضع والشكل وعدم الأمان إزاء الهوية

المتكلمون هنا على يقين تام من إجادتهم للغة تحتل وضعًا لا خلاف عليه، لكنها تختلف عن لغة الجماعة التى يفكرون أو يرغبون فى الانتماء إليها. ومن ذلك على سبيل المثال متكلمو أحد أشكال اللغة الإنجليزية المعروف باسم "oxbridge"، والذين قد يتسم وضعهم فى الولايات المتحدة بنوع من الأمان المزدوج، حيث إنهم واثقون من وضع لغتهم ومن الشكل الذين يستخدمونه فى طريقة تحدثهم، لكنهم يشعرون بعدم الامان إزاء الهوية؛ لأنهم يستخدمون شكلاً مختلفًا عن شكل الجماعة المحيطة بهم.

٥ - الأمان إزاء الهوية وعدم الأمان إزاء الشكل والوضع

يعتقد المتكلمون هنا أنهم يتحدثون الشكل اللغوى ذاته الذى تستخدمه الجماعة التى يفكرون أو يرغبون فى الانتماء إليها، لكنهم يعتقدون فى الوقت نفسه أنه شكل غير

شرعى، بل يعتقدون أنهم يتكلمونه بطريقة سيئة. وقد يكون هذا هو حال المهاجر المغربى فى فرنسا، حيث يعتقد أنه يتحدث بصورة سيئة أحد أشكال "اللهجات" التى يتكلمها بقية المهاجرين.

٦ - الأمان إزاء الهوية والشكل وعدم الأمان إزاء الوضع

يعتقد المتكلمون أنهم يجيدون التحدث بلغة جماعتهم، لكنهم لا يعتبرونها لغة بالمعنى المعروف للغات. وقد ينطبق ذلك على متكلم الجاليسية Galicien الذى يعتقد أنه يجيد التحدث بلغة جماعته، لكنه يعتبرها من الأشكال الأقل شأنًا من القشتالية أو البرتغالية.

٧ - الأمان إزاء الهوية والوضع وعدم الأمان إزاء الشكل

يعتقد المتكلمون أنهم يتحدثون بطريقة سيئة لغة جماعتهم التى يعدونها ذات شأن كبير. وقد ينطبق ذلك على البريتانى الذى يعتبر لغة جماعته البريتانية Breton ذات شأن كبير، لكنه يتكلمها بطريقة سيئة.

٨ - الأمان إزاء الشكل والوضع والهوية

يعتقد المتكلمون أنهم يجيدون التحدث بلغة يعدونها عظيمة الشأن، وتميز فى الوقت نفسه جماعتهم. وهذا ما قد ينطبق على متكلم الـ oxbridge المذكور فى الفقرة رقم ٤، لكنه يحيا هنا فى إنجلترا، ويعد هذا الوضع - الذى يتسم بأقصى درجات الأمان - من سمات القدرة اللغوية والشرعية المطلقة.

بصدد عدم الأمان التقديرى أو عدم الاستقرار التقديرى، لنذكر مجدداً أن هذه المفاهيم تستلزم بالضرورة أن تكون معرفة عالمِ اللغة أفضل من معرفة المتكلمين بشأن ما يتكلمونه؛ مما يمثل طريقة لخفض تمثيلات المتكلمين اللغوية إلى درجات تقريبية ذات تأثير أقل إزاء معرفة علماء اللغة. ونحن نعتقد من جانبنا - وهذا هو مكمن الخطورة - أن تمثيلات المتكلمين واللغويين هى مجموعة أبنية من شأنها التأثير على الأوضاع اللغوية؛ مما يستوجب بالتالى إدراجهم فى إطار وصف هذه الأوضاع. ومن أجل

توضيح هذه المشكلة، لنذكر مثالاً بسيطًا يتعلق بأحد المتكلمين على جزيرة سانت بارتيلمى Saint-Barthélemy، حيث يصرح هذا المتكلم أنه يتحدث لهجة محلية، رغم أن عالم اللغة يؤكد أنه يتحدث الفرنسية. وهناك كذلك أحد المتكلمين الكروات الذى يقول إنه يتحدث اللغة الكرواتية، رغم أن عالم اللغة يؤكد أنه يتحدث اللغة الصربية- الكرواتية. فهل يتعين علينا أن نستخلص من ذلك أن مثل هذا المتكلم يوجد فى إطار حالة عدم أمان تقديرى، أم يتعين علينا أن نستخلص أن المتكلم الأول يحمل تصوراً للغة الفرنسية يتضمن اللهجة المحلية، وأن تصور المتكلم الثانى يفصل بين اللغتين الصربية والكرواتية؟ أى هل من الممكن أن يخلط التصور الأول بين اللغة الفرنسية واللهجة المحلية ويفرق التصور الثانى بين الصربية والكرواتية؟ يحتل هذا التساؤل درجة من الأهمية على الصعيدين النظرى والعملى. وبلا شك، فإن مجال النقاش مفتوح حول هذه الجزئية، إلا أنه لا يجب منهجياً تسوية الصراعات بين تمثيلات المتكلمين واللغويين من طريق الإعلان عن تواجد المتكلمين فى ظل حالة من عدم الأمان التقديرى أو عدم الاستقرار التقديرى؛ لأن ذلك قد يجعل عالِم اللغة محقًّا على الدوام...

بعض المشكلات الوصفية

لقد أشرنا بأعلى إلى أنه لا يجب اعتبار عدم الأمان أو الأمان اللغوى بمثابة عملة ذات وجهين (سالب أو موجب)؛ لأننا هنا بصدد قيم مستمرة يجب عرضها بواسطة استخدام النسب المئوية، فالأمر لا يعنى مجرد وجود أو عدم وجود الأمان، بل وجود هذا الأمان بنسب مختلفة: ٢٠٪ أو ٣٠٪ أو ٦٠٪ أو ٨٠٪. لكن لابد أن نعود مجدداً إلى مفهوم الأمان أو عدم الأمان اللغوى الذى لا يعد مفهومًا فطريًا، بل هو بالتأكيد أمر مكتسب وثمرة الأوضاع الاجتماعية اللغوية. ومن هذا المنطلق، يتعين علينا التمييز بين الأمان/عدم الأمان من جهة (وهما من سمات تمثيلات المتكلم) والتأمين/عدم التأمين من جهة أخرى (وهما من سمات خطاب الآخر وتأثير البيئة الاجتماعية اللغوية على المتكلم). وهذا التأمين (أو عدم التأمين) يتعلق بأنواع الأمان الثلاثة (أو عدم الأمان) التى سبق أن ذكرناها. ولنذكر ثلاث حالات بشأن عدم التأمين، من أجل توضيح هذا المفهوم :

١- عدم التأمين إزاء الشكل: يسهم خطاب الآخر والتصويبات الاجتماعية وردود الأفعال فى إفهام المتكلم أنه لا يجيد التحدث. وهذه حالة شائعة يمكن ملاحظتها بكل يسر.

٢- عدم التأمين إزاء الوضع: يسهم الخطاب الاجتماعى والإيديولوچية السائدة فى إثارة الاعتقاد لدى المتحدث بأن قيمة ما يتكلمه تقل عن غيره من الأشكال اللغوية المتواجدة، وأنه يتكلم لهجة ما أو لهجة محلية لا لغة بالمعنى المعروف.

٣- عدم التأمين إزاء الهوية: تسهم المجموعة أو الجماعة السكانية فى إشعار المتحدث بأنه لا يتكلم الشكل نفسه الذى يستخدمه نظراؤه، وأنه غير معترف به مثلهم بسبب ما يتكلمه أو طريقة كلامه.

تعكس هذه الأشكال الثلاثة لعدم التأمين أحد أشكال "حرب اللغات". ويتيح لنا بالتالى هذا التمييز بين عدم الأمان وعدم التأمين إدراج مسألة إنتاج التمثيلات وكيفية بزوغها فى إطار عملية إنتاجها، كما يذكرنا بحقيقة وجود هذه التمثيلات. والأمر واضح بشأن عدم الأمان إزاء الوضع؛ حيث لا يخترع المتكلم وحده فكرة تحدثه بلهجة ما أو لهجة محلية لا لغة بالمعنى المعروف، بل يرث وضعًا يتسم بالازدراء مثل هذا الذى ينقله الخطاب الاستعمارى الذى وصفناه منذ فترة طويلة فى كتاب "علم اللغة والاستعمار" Linguistique et colonialisme . ويسير الأمر على المنوال نفسه بالنسبة لعدم الأمان إزاء الشكل الذى ينتج عن الخطاب المعيارى أو خطاب المجتمع أو الجماعة أو معلم المدرسة. إلا أن طريقة ظهور عدم الأمان إزاء الهوية تتسم بقدر أكبر من التعقيد؛ لأنه يتعلق باختيار المتكلم لهويته، أى اختيار الجماعة التى يرغب أو يفكر فى الانتماء إليها، كما يتعلق بفكرة الفرد حول لغة هذه الجماعة، فضلاً عن ردود أفعالها إزاء الفرد ذاته ولغته .

لا تعد هذه الظواهر الخاصة بالتأمين أو عدم التأمين من الظواهر الساكنة؛ لأنها تنتج شكلاً لغويًا، وتؤثر على الأوضاع اللغوية. وخير مثال على ذلك السلوك اللغوى لأبناء المهاجرين، مثل الذين ولدوا فى فرنسا لآباء ذوى أصول مغربية. إن وضعهم

الاجتماعى والثقافى (تفكك أسرى، ورفض عنصرى، وفشل دراسى، وشعور بعدم إجادة التحدث بلغة الآباء أو لغة الدولة المضيفة...إلخ) يجعلهم من أصحاب الحالة رقم ١ (عدم الأمان إزاء الوضع والشكل والهوية) بالنسبة للغة العربية واللغة الفرنسية. وبسبب وضعهم المتأرجح، انتهى بهم الأمر إلى خلق لغة تخصهم وثقافة تحقق هويتهم، مثل لغة الراب وغيرها. وتؤدى معاناتهم من عدم التأمين إلى السعى وراء هوية خاصة بهم، وإنتاج شكل لغوى جديد من خلال الرموز اللغوية السائدة؛ مما يجعلهم يتجهون نحو الحالة رقم ٨ التى تخص الأمان إزاء الشكل والوضع والهوية؛ لأنهم بذلك يتحكمون فى المعيار، ويعتقدون أنهم يتحدثون لغتهم الخاصة لا لغة "الغاليين". وبلا شك، هناك كذلك حالة الأمريكيين السود الذين- بمساعدة الفكر "السياسى الصحيح"- ينزعون شيئًا فشيئًا نحو اعتبار اللغة التى كانت تحمل من قبل اسم إنجليزية السود Black English كلغة مختلفة عن اللغة الإنجليزية، وقد صارت تسمى فيما بعد بالإنجليزية الأمريكية الأفريقية African American English، لكن البعض يطلق عليها حاليًا اسم الـ Ebonics .

السنغيون Songhays وجيرانهم

يقيم الشعب السنغى على ضفتى نهر النيجر، حيث يعيش فى منطقة تمتد على وجه التقريب بين مدينة موبتى فى مالى ومدينة نيامى فى النيجر، مرورًا بمدينتى تُمبكتو وجاو؛ فقد جعل منهم موقعهم الجغرافى جيرانًا ملاصقين للطماشقة Tamasheqs شمالاً والبمباريين Bambara جنوبيًا، كما هيأ لهم الارتباط بعلاقات كثيرة مع متكلمى لغة الفولانى "البول" Peuls فى كل مكان. وسوف نرى كيف ينتج الجانب الاجتماعى فى هذه البيئة الخاصة تمثيلات يمكن ملاحظتها من خلال أسماء الأشخاص واللغات، ومن خلال الأحكام والقوالب الفكرية الثابتة بشأن هؤلاء الأشخاص وهذه اللغات.

فى إحدى الرسائل المخصصة لوضع السنغى اللغوى فى مالى، أجرى أميدو مايجا Amido Maïga تحليلاً لتمثيلات السنغيين بشأن جيرانهم. فنجد أنهم يشيرون

إلى الطماشقة كما يشيرون إلى شعب المورا بكلمة واحدة هى الـ Surguboro التى تعد تسمية ازدرائية؛ لأن boro تعنى "الرجل" بلغة السنغى، و surgu قد تكون هى ذاتها الكلمة البمبارية suruku التى تعنى "الضبع"؛ مما يعد كافيًا لمعرفة تصورهم بشأن الطماشقة كقراصنة قساة القلوب لا يعرفون الرحمة، فهم بالنسبة إليهم رجال مثل الضباع. وقد أسهم التاريخ الحديث فى تضخيم هذه الصورة التى هى من صنع التاريخ القديم؛ فمنذ عدة سنوات، شهدت مالى صراعًا مسلحًا قام به الطماشقة ضد الدولة، وكان للنزعة القومية فى الخطابات السياسية والإعلامية دورًا فى رسم صورة لهم تبدو فى غاية السلبية، وهى التى تبناها السنغيون. ورغم أن الطماشقة هم الرجال الضباع أى الـ Surguboro، فإن لغتهم لا تُدعى surgu ciini أى "لغة الضباع" كما هو متوقع، بل تسمى لغة البيلا: bella ciini. والبيلا هم عبيد الطماشقة الذين شكلوا فئة اجتماعية محتقرة؛ وإطلاق مثل هذا الاسم على لغة الطماشقة يعكس ملمحًا إضافيًا من رؤية السنغيين بشأن جيرانهم. إن الطماشقة فى نظرهم مجموعة من "الأشرار" الذين يتكلمون لغة "تافهة" و"ثقيلة"، وهذا ما لخصته تمامًا العبارات التالية:

- "لا يعجبنى الطماشقى، وليحفظنا الله منه".
- "عسى أن يظل الطماشقة بعيدين عنا".

أما رجل البول "الفولانى" فإنه يتسم فى نظرهم بالمكر والدهاء، لكن وفقًا لما ذكره مايجا Maïga، فإنهم يعتبرونه من الناحية الشكلية جميلاً ونبيلاً وحسن الإيمان. كما تعد لغته لغة شعرية ("لغة الفولانى هى الذكاء بعينه لأنها نتاج الفكر")، كما أنها نبيلة وجميلة وغنية، لكنها فى الوقت ذاته لغة الشحاذين والثرثارين. وهكذا، فإن صورة شعب الفولانى "البول" تحمل قدرًا من التباين الناتج عن الحذر والإعجاب، على خلاف الصورة القاطعة لكل من اللغتين الطماشقية والبمبارية.

ويرجع ذلك إلى أن صورة شعب البمبارا هى نتاج تراكمات متتالية شديدة السلبية؛ حيث كان يعتبر قبل الاستعمار شعبًا كافرًا يفتقر إلى الإيمان، ثم أصبح ينظر إليه إبان فترة الاستعمار باعتباره مواليًا لإدارة المستعمر العسكرية، ويعتبر حاليًا

خطراً إمبريالياً قد يبتلع الثقافات الأخرى، ولا سيما الثقافة السنغية. وعلى الصعيد اللغوى يعتبر شعب البمبارا مثل الـ meeberaw أى "الذين بدلوا اللغة"، ومثل قدماء السنغيين الذين تخلوا عن لغتهم. وتوصف لغتهم بأنها "حادة" و"سيئة" بل ترمز إلى الخشونة. وعلاوة على ذلك، ينظر إلى البمبارا كشعب يرفض الحديث بغير لغته. وقد بلغت هذه التمثيلات ذروتها فى الأحكام الجمالية :

– "البمبارا لغة ثقيلة تستلزم امتلاك شفاه غليظة ولسان عريض للغاية من أجل إجادة التحدث بها. يتكلم شعب البمبارا بحدة، مثلهم فى ذلك مثل الألمان الذين لا يستطيعون التحدث بعذوبة."

– "حينما يتكلم شعب البمبارا، يثور لدينا الانطباع بأنهم قد تأخروا فى اللحاق بركب توزيع اللغات. يا للعجب، إنها خليط لغوى يثقل على اللسان نطقه."

– يبدو كلام شعب البمبارا عند الاستماع إليه وكأنه صادر عن مجموعة من الأغنام أو الماعز: إنهم يجيبون التحية بكلمة /nba/ بالنسبة للرجال، وبكلمة /nse/ بالنسبة للنساء...إلخ.

وهذا لا يحول دون اعتقاد بعض المتكلمين فى فائدة هذه اللغة واضطلاعها بوظيفة ما.

وهكذا، نرى أنه لا يوجد أى تعارض أو حتى انفصال بل هناك اتفاق بين التمثيلات الاجتماعية (تصور السنغيين بشأن جيرانهم) والتمثيلات اللغوية؛ فالأحكام الصادرة على اللغات تُعد فى الواقع أحكامًا على الأشخاص ذاتهم، حيث تصدر نتيجة للمواقف الاجتماعية المختلفة. لقد شعر السنغيون بتهديد من قِبل البمباريين الذين تولوا زمام الدولة، وأصبح الطريق خاليًا أمام تعميم لغتهم الناقلة فى مالى، وكذلك من قِبل الطماشقة جيرانهم الملاصقين لهم الذين أظهرهم الخطاب الرسمى كمجموعة من المقاومين الإرهابيين، إلا أنهم لم يشعروا بمثل هذا التهديد من قِبل شعب الفولانى "البول" الذين صدر الحكم على لغتهم بصورة إيجابية إلى حد ما، على خلاف ما رأيناه بالنسبة للغتى البمبارا والطماشقة .

وليس بجديد علينا أن نرى مثل هذه القوالب الفكرية الثابتة التى بلا شك صاحبت على مر الأزمان كل علاقات التماس بين الشعوب المختلفة. وقد عرض توليو دو مورو Tullio de Mauro عدداً من هذه الأفكار التى ترجع إلى أحد العصور البعيدة: "على ما يبدو، اعتاد شارل كينت Charles Quint أن يقول إنه إذا أراد مخاطبة الأشخاص فإنه يتكلم بالفرنسية، وإذا أراد مخاطبة جواده فإنه يتكلم بالألمانية و...، أما إذا أراد مخاطبة الله فإنه يتكلم بالإسبانية"، وهذه بالطبع هى النسخة الفرنسية الإسبانية لرواية هذه الطرفة؛ فبالنسبة للإيطاليين كانت الفرنسية هى اللغة المخصصة للنساء، والإيطالية هى بالطبع "لغة الرجال". كما تعرضت اللغة الألمانية للإساءة فى أحد الأمثال التى ترجع إلى القرن السابع عشر، والتى تقول إن : "الألمانى يعوى، والإنجليزى يبكى، والفرنسى يغنى، والإيطالى يهزل، والإسبانى يتكلم." وينطوى هذا المثال الأخير على دلالة خاصة؛ لأنه من الواضح أنه يخلط بين الرجال واللغات: فالألمانى يعوى تعنى أنه يتحدث الألمانية... وإن تعرضه لمثل هذه الإساءة – على حد قول مورو – يرجع بكل تأكيد إلى أسباب تاريخية.

وهكذا، توضح لنا كل هذه الحالات المختلفة – بما فيها مثال السنغيين– أن الجانب الاجتماعى يولد بعض التمثيلات الخاصة بالأشخاص ولغاتهم على حد سواء. وسوف نرى على الفور كيف يمكن أن ينتج شكل لغوى بواسطة هذه التمثيلات، من خلال الإفراط فى التصحيح بصفة أساسية.

من القرية إلى المدينة : مثال المالينكى– البمبارا

تناولنا فى الفصل الثانى – فى إطار نموذج التجاذب – ممارسات بعض المتكلمين،[١] واستخدامهم للغات فى إطار الكوكبة اللغوية المتمركزة حول لغة البمبار.

(١) فيما يخص ترتيب اكتساب اللغات، إننا بصدد الممارسات كما وصفها المتكلمون أنفسهم، لكن هذه مسألة أخرى ذات طبيعة منهجية.

وسنتناول هنا فى النطاق نفسه دراسة التمثيلات، وآثار هذه الممارسات والتمثيلات اللغوية على شكل اللغات ومستقبلها. وسوف تساعدنا الدراسة التى قامت بها كانو وكيتا على تأدية عملنا. تقع الأراضى محل الدراسة بين بماكو وكايس، فى منطقة المندينج mandingue، حيث تشكل على الصعيد اللغوى مجموعة متصلة تضم المناطق الخاضعة للبحث التى تتمثل فى قريتى بندوجو Bendugu وسجابارى Sagabari ومدينة كيتا المتوسطة والعاصمة بماكو: فى المنطقتين الطرفينين، أى فى بماكو وسجابارى، نلاحظ وجود شكلين مختلفين هما البمبارا والمالينكى، لكن الوضع يبدو أكثر تباينًا فى بندوجو وكيتا حيث تتجلى فى آنٍ واحد حالات الخلط والتحويلات اللغوية. وفى هذا النطاق حيث نلحظ أهمية الحراك الاجتماعى، وهو فى الغالب داخل الجيل الواحد أو بين الأجيال وبعضها (الهجرة من القرية إلى المدينة المتوسطة ثم إلى العاصمة)، تسود حالة من شبه التفاهم المتبادل، بل تطور التمثيلات والممارسات. وهناك بعض الكُتَّاب الذين تساءلوا بشأن "مصاحبة المجموعة اللغوية المتصلة التى تواجدت بين قرية المالينكى والعاصمة (...) لمجموعة متصلة أخرى على مستوى المواقف"؛ مما دفعهم إلى البدء بتقديم وضع اللهجات من خلال ثلاثة مداخل تمثلت فى المالينكى وكلام الكيتا المختلط والبمبارا، مع التأكيد على الاختلافات القائمة بين هذه الأشكال الثلاثة من حيث الأصوات والمفردات والصرف. وسنعرض من جانبنا معطياتهم بطريقة نوضح من خلالها أن التغييرات الصوتية تفسر معظم التغيرات الأخرى.

نظام الصوائت

يمكن التعبير عن هذا النظام باستخدام الشكل التالى، وتحد الأقواس الصوائت التى تقبل التغيير.

i u

(e) (o)

a

يناظر الصائت المتغير (e) بديلان هما /e / و/ A /، ويناظر الصائت المتغير أيضاً (o)التقابل المفتوح نفسه، كما تتواجد كل هذه الفونيمات الصوتية تحت الشكل الأنفى، وتبدى عند أحد أقطاب المجموعة المتصلة (بماكو) نوعاً من التقابل الطولى(١).

نظام الصوامت

لن نذكر بصدد الصوامت سوى المتغيرات الرئيسية وبدائلها المناظرة بما يتيح الوقوف على التغييرات الخاصة باللهجات:

– يناظر المتغير (c) بديلان هما / c/ و/k/، وقد تحقق الصامت الغارى فى بماكو، بينما تحقق الصامت الانفجارى فى البقاع الثلاث الأخرى موضوع البحث.

– يناظر المتغير (f) بديلان هما / f/ فى بماكو وكيتا و/ h/ فى بندوجو وسجابارى.

– يناظر المتغير (r)البيصائتى ثلاثة بدائل هى r// فى بماكو وكيتا و/ d/ فى بندوجو و/ t/ فى سجابارى.

– يناظر المتغير (k) بديلان هما / k / فى بماكو وكيتا و/ x / فى كيتا وسجابارى وبندوجو.

البدائل المفرداتية والصرفية

تتيح البدائل الصوتية تفسير معظم الاختلافات بين الأحاديث المندينجية. ولنذكر بعض الأمثلة فى هذا الشأن :

(١) يمكننا التسليم بأن هذا الطول يرجع فى الواقع إلى وقوع صامت بيصائتى، وهو الصامت الذى يقع بين صائتين. ولا نهدف هنا إلى مناقشة هذا الافتراض، لكن هناك العديد من الأمثلة التى تؤكد صحته مثل: كلمة baa التى تستخدم فى التعبير عن احترام الرجال، وقد تكون مشتقة من كلمة baba أى "بابا"، وكلمة dooni أى "قليلاً" من كلمة dogoni، وهى تصغير dogoأى "صغير"، وتنحدر كذلك كلمة kaale أى "مغزل" من كلمة kala أى "عصا طويلة"، وهناك تناوب فى استخدام كلمتى lahiya و laaya للتعبير عن المعنى نفسه أى "أضحية العيد"، وفى استخدام كلمتى kaafiri و kafiri بمعنى "كافر".

– يمكن تفسير اختلاف كلمة "الحقل" من خلال المتغير (f) والمتغير (r) على حد سواء، حيث نجد أنها تكون hutu في سجاباري، و hudu في بندوجو، و foro في بماكو.

– يمكن تفسير اختلاف كلمة "مجنون" من خلال المتغير (f)، حيث نجد أنها تكون hato في سجاباري وبندوجو، و hato أو fato في بماكو.

– يمكن تفسير اختلاف عبارة "هذا جيد" من خلال المتغير (k)، حيث نجد أنها تكون a xa nyi في سجاباري وكيتا وبندوجو، و a ka nyi في بماكو.

– يمكن تفسير اختلاف عبارة "لقد رحلوا" من خلال المتغير (r)، حيث نجد أنها تكون alu tagata في سجاباري، و alu tagada في بندوجو، و u tagara في بماكو...إلخ.

وحسبنا في الواقع أن نتصفح المعجم الذي أعده دولافوس Delafosse، من أجل جمع عدة عشرات من البدائل المفرداتية المماثلة، ولم تتبق سوى بعض الاختلافات التي يعد بعضها أيضًا من البدائل، مثل اختلاف ضمير الغائب في صيغة الجمع (alu/u)، بالإضافة إلى قلة نادرة من المفردات ذات الأصول المختلفة.

التمثيلات

يستطيع عالم اللغة أن يصف هذه التمثيلات، ثم يستخلص أنه – في إطار لغة واحدة – لا يوجد اختلاف كبير بين هذا الوضع ووضع اللغة الفرنسية الباريسية بالنسبة للفرنسية المارسيلية على سبيل المثال. إلا أن المتكلمين في هذه المنطقة يفصلون بين أربعة أنواع كلامية، ويطلقون عليها أسماء مختلفة: الـ bakokan أي "كلام ما وراء النهر" بالنسبة لقرية سجاباري، والـ kitakan بالنسبة لكيتا، والـ bendugukan بالنسبة لبندوجو، والـ bamakokan بالنسبة لبماكو. إنهم يدركون حجم الاختلافات التي عرضناها، لدرجة أن كلام "القرويين" عند ذهابهم إلى العاصمة يثير الضحك، ولا سيما فيما يخص الشكل الأكثر تطرفًا أي شكل لغة سجاباري :

– "إننا نضحك من متكلمي المالينكي حينما يخرجون من بيئتهم".

- "إننى أضحك من متكلم المالينكى السجابارى".

- "إننا نضحك من لغة المالينكى السجابارى، لأنها ثقيلة للغاية".

يواجه المهاجرون عند قدومهم إلى المدينة مشكلة إخفاء أصولهم القروية بواسطة إحلال الـ u محل الـ alu على سبيل المثال، أو استخدام الـ/ f/ بدلاً من الـ/...h/ / إلخ؛ مما قد يؤدى أحياناً إلى الإفراط فى التصحيح بشكل يكشف المتكلم أكثر من طريقة نطقه الأصلية:

"هرباً من وضعهم الجغرافى والاجتماعى، يعمد متكلمو المالينكى إلى تغيير كلامهم؛ مما قد يسفر أحياناً عن الإفراط فى التصحيح، ومن ذلك على سبيل المثال استخدام حرف الـ/ f / بدلاً من كل حروف الـ/ h /، كقولهم: foron أى "ولد صغير" بدلاً من horon أى "نبيل"، وكلمة foron لا وجود لها فى لغة البمبارا."

وبعد استعراض طويل لنتائج أبحاثهم حول التمثيلات، توصل المؤلفون إلى أن المجموعة اللغوية المتصلة - التى تتجه من القرية إلى المدينة - تكون مصحوبة بمجموعة مواقف متصلة؛ لأنه كلما اقتربنا من المدينة ازداد التقدير لمتكلم البمبارا ومحاولة التشبه به. ونضيف من جانبنا أن ما يمكن التمثل به فى هذا الوضع هو أن الجانب الاجتماعى يولد جانباً لغوياً، وأن الأوضاع البيئية اللغوية تنتج ممارسات بواسطة التمثيلات؛ مما يسفر عن ظهور الشكل اللغوى. إن الممارسات اللغوية لمتكلمى سجابارى أو بندوجو خلال تواجدهم فى بماكو هى نتاج أثر انجذاب المالينكى إلى البمبارا (الاتجاه نحو تحقيق بدائل بماكوية لدى شباب المهاجرين)، وهى فى الوقت ذاته نتاج استراتيجيات الإخفاء أو استراتيجيات الاندماج (الاتجاه نحو إخفاء أصولهم والانصهار).

وهكذا، تتعرض كوكبة البمبارا لإعادة التشكيل بفعل التمثيلات اللغوية التى اخترقتها وما يتولد عنها من شعور بعدم الأمان، وتتغير الممارسات (اللغات المستخدمة وشكل اللغات) بسبب تأثير هذه التمثيلات. وإننا لنستطيع اتخاذ موقعنا فى المستوى الأعلى، ودراسة طريقة تحول لغة البمبارا بدورها باعتبارها لغة طرفية فى كوكبة اللغة الفرنسية. وبالتالى فإن العلاقة الجدلية بين هذين الاتجاهين، أى الممارسات

والتمثيلات، هى محرك عملية التغيير: إن العرض الذى صغناه – فى إطار فكرة الكوكبات والمجرات – قد يجعلنا نعتقد فى سكون هذه المعالجة، إلا أن هذه الجدلية توضح لنا تواجد الحركة بشكل دائم.

الخاتمة

لقد أشرنا فى بداية هذا الفصل إلى أن تناول التمثيلات فى إطار دراسة الوقائع اللغوية هو أمر حديث نسبيًا. ويرجع ذلك إلى سبب واضح هو أن كل ما ينبثق عن أفكار المتكلمين وأقوالهم بشأن الممارسات اللغوية كان يعتبر خارجًا عن المباحث العلمية. وقد أشار بيير بورديو إلى هذا الأمر حينما كتب قائلاً:

"إنه لأمر شائك الخوض فى مشكلة انقسام ميدان العلم حول مسألة اشتمال نظام المعايير المؤثرة على الخواص الموضوعية (مثل الأصل والأرض واللغة والدين والنشاط الاقتصادى...إلخ)، بل الخواص الذاتية أيضًا (مثل مشاعر الانتماء...إلخ) أى التمثيلات التى يصنعها الفاعل الاجتماعى من خلال انقسامات الواقع، والتى تسهم فى وقوع هذه الانقسامات. انطلاقًا من ثقافاتهم واهتماماتهم المحددة، ينزع الباحثون نحو اعتبار أنفسهم بمثابة الحُكام الذين يصدرون جميع الأحكام، والنقاد الذين يحددون جميع المعايير؛ مما يحول دون إدراكهم للمنطق الخاص بكل صراع..."

إن التأخر فى تناول هذه التمثيلات، وما أسفر عنه ذلك من تضخم اصطلاحى،قد دفعنا إلى حد ما نحو الانغماس فى الاتجاه المعاكس؛ فلا أحد ينكر اليوم أهمية هذه التمثيلات، وقد وقفنا على مدى أهميتها فى فهم عملية التغيير. لكننا حاولنا فى الوقت ذاته أن نوضح أن العلماء قد دخلوا ميدان هذه الدراسة مسلحين بتمثيلاتهم الخاصة، وأن هذا المتغير لابد أن يصير من الآن فصاعدًا فى جوهر أفكار المبحث العلمى.

فى ظل التدفق الاصطلاحى الحالى، رأينا أنه من الممكن تبسيط الأمور دون فقدان شىء، ولا سيما عند طرح ما تؤدى إليه التمثيلات اللغوية من أمان أو عدم أمان،

وهو ما يعد بمثابة محرك التغيير اللغوى، ويمكن تقسيم ثنائية الأمان/عدم الأمان إلى ثلاث فئات هى: الأمان/عدم الأمان إزاء الوضع والهوية والشكل. لكننا رفضنا تناول مشكلات الأمان التقديرى، كى لا نضع أحكام وتصنيفات المتكلم فى مواجهة أحكام وتصنيفات عالم اللغة؛ فلم نحدث تداخلاً سوى بين معطيات تأتى من المتكلمين ذاتهم. وقد أوضحت لنا بعض الأمثلة السريعة ما الذى يمكن أن نجنيه من وراء هذه المعالجة (مثال السنغى ومثال المالينكى/البمبار). وسوف نتطرق مجدداً إلى هذه الأمثلة فى الفصل السادس عند عرض خمس حالات بحثية.

وختامًا، لنذكر مثالاً فرنسيًا يتسم بالبساطة والوضوح. فقد ساد الاعتقاد فى مدينة هافر Havre أن سكانها يتمتعون بلهجة خاصة، إلا أن إحدى الدراسات التى أجريت مؤخراً قد أوضحت أنه لا يمكن التمييز بين طريقة نطقهم واللغة الفرنسية الشعبية الباريسية. وعلاوة على ذلك، خلال البحث الذى تم إجراؤه على غرار البحث المذكور فى بداية هذا الفصل "المتكلم المقنع"، عجز "الحُكام" من هافر أو من غيرها عن التعرف على المتكلمين المحليين. وضربوا فى المقابل المثل المعتاد بشأن هذه "اللهجة": غالبًا ما يقول سكان هافر "dè" التى تعد أحد الأشكال المحلية للفعل !dis وهكذا، نكون فى مواجهة أسطورة لغوية، ويمكننا أن نظل كذلك إذا ما استخلصنا أنه رغم كل الأحاديث الدائرة بشأن اللغات فإن لهجة هافر لا وجود لها، ونحن بصدد تمثيلات لغوية. إلا أن الكتاب يجنحون بعيداً حينما يطرحون التساؤل التالى: "هل استشعر أهالى هافر حاجة لاشعورية لصياغة لهجة خاصة بهم؛ مما يمثل تصريح مرور نحو الحصول على هوية ؟ هل تولدت لديهم الرغبة فى ربط هذه اللهجة بما تبقى من هويتهم: البحر والميناء ؟" وهذا الافتراض يلقى ضوءاً جديداً على الوقائع التى تم تجميعها. ومن ذلك على سبيل المثال أنه فى كل مرة يثور فيها أمر هذه "اللهجة"، يذكر من تطرح عليهم الأسئلة كلام عمال المرافئ أو كلام العمَّال. وقد ذكر المؤلفون أن "هناك ارتباطًا بين أسطورة لهجة هافر وأسطورة لهجة عمال المرافئ؛ مما يسهم فى إضفاء الشرعية التى يسعى إليها سكان تلك المنطقة". إننا هنا بصدد تعبير نوعى عن الرغبة فى تحقيق الهوية: نحن سكان هافر نحظى بوجود مستقل، والدليل على ذلك ينعكس من خلال

لهجتنا. وإن كانت هذه "اللهجة" لا تعلق بالأذن مثل اللهجة المارسيلية على سبيل المثال، فإن ذلك لا يغير من الأمر شيئًا بصدد محاولة السعى وراء الاختلاف. وحقيقة أن هذا الاختلاف يتأكد على الصعيد الاجتماعى(عمال المرافئ) أكثر من الصعيد الجغرافى، توضح لنا أنه وراء هذا المطلب الخاص بالتميز اللغوى، يكمن شعور بالحنين إلى ما يميز هذه المدينة ومرفأها: تشرف ساحة الميناء على الاحتضار، وذكرى سفينة فرنسا ستظل على الدوام...إلخ.

يظل أمامنا أن نعلم إذا ما كانت هذه التمثيلات تنتج ممارسات، وإذا ما كان سكان هافر يستخدمون بكثرة لها دلالتها صيغة الـ dé التى ذكرناها أعلاه، بغية تحقيق هويتهم، وهى السمة الوحيدة التى يتفق عليها جميع الإخباريين. ولا يتطرق بحث هوشكورن Hauchecorne وبال Ball إلى هذه الجزئية، لكن كل ما افترضناه ينطوى على أنه فى كل أوضاع الاتصال الودية والتجميعية والأوضاع الخاصة بتحقيق الهوية، من المحتمل أن هذا الشكل وعناصر المفردات التى تشكل السمة الحقيقية المميزة لكلام هافر، قد يتفق على ظهورها بصورة شديدة التزايد. وقد رأينا كيف أنه حينما يرغب متكلمو المالينكى فى إخفاء أصولهم، فإنهم ينزعون نحو التحدث مثل متكلمى البمبارا، مع احتمال أن تصدر عنهم أحيانًا بعض الأشكال المفرطة فى التصحيح التى لا وجود لها (/ foron / بدلاً من horon / وقد يكون لدينا هنا سلوكًا عكسيًا هو من قبيل التفاخر لا التخفى. إلا أن هذين السلوكين يؤكدان الظاهرة نفسها، ويؤكدان أهمية التمثيلات وأثرها على الممارسات وعلى التغير اللغوى .

الفصل الخامس

الانتقال والتغيير

إن طريقة التنبؤ بالأحوال الجوية تحمل قدراً من الإجحاف، حيث يعرف المتخصصون أن حالة الجو فى اليوم التالى ستكون على وجه التقريب هى ذاتها حالة اليوم السابق، وهو ما يحد إحصائياً من احتمال وقوع الأخطاء. لكن الاكتفاء بقبول مثل هذه الحقيقية يحول دون وقوفنا على كبرى الحركات الباطنية التى تقف وراء عملية التغيير. وهذا هو ما يحدث بالنسبة للغات والأوضاع اللغوية، حيث تبدو وكأنها لن تتغير، ونكاد نجزم أنها ستظل غداً على ما كانت عليه اليوم. إلا أن علم التنبؤ قد يستطيع أن يكتشف ما وراء هذا الثبات الظاهرى من حالة عدم الاتزان الذى يؤدى إلى حدوث التغيير. لأنه إذا ما كان تاريخ اللغات يوضح لنا أمراً ما، فهو بالتأكيد أن التغير وعدم الثبات هما من الثوابت، ويجب أن تنظر النظرية بعين الاعتبار إلى هذا التغيير وعدم الثبات. "يعد التغيير من خواص اللغة التى تتخذ مساراً طبيعياً؛ لأنه من غير الطبيعى أن تظل ثابتة أو حتى تقترب من حالة الثبات": لا مجال للشك فى هذه العبارة المأخوذة عن فرديناند دو سوسور بشأن شكل اللغات. وقد سبق أن رأينا فى الفصل الثالث كيف أن الضبط الداخلى للغات وللأوضاع اللغوية يسهم فى عملية التطور. إلا أننا سنتناول بالتحليل فى هذا الفصل عاملاً آخر من عوامل الضبط والتطور،" ألا وهو انتقال اللغات والأوضاع اللغوية. مهما بلغ حجم الاحتقار والعنصرية الذى كنا نجده فى الخطاب الاستعمارى، والذى تناولناه بالتحليل فى موضع آخر، فإننا نعتقد دوماً فى حسن نية "فرسان الجمهورية الفرنسية" والمؤسسات العلمانية الجمهورية التى حرصت أولاً على تخليص متكلمى اللغات الطرفية البريتانية Breton أو الأكسيتانية Occitan من "تعبيراتهم الاصطلاحية الفظة"، قبل الإقدام على الشىء نفسه فى المستعمرات

الأفريقية. ومن المفارقات العجيبة أنهم اعتقدوا أن هذه الطريقة من شأنها دفع مسيرتهم نحو الثقافة والحضارة بل دفعهم نحو التقدم التاريخى.

يتضمن منظور هؤلاء الأشخاص نزعة داروينية مصحوبة بنزعة إنسانية. وينعكس الجانب الدروينى من خلال فكرة تطور المجتمعات واللغات التى أدت إلى اعتبار اللغات الغربية واللغات التصريفية بمثابة ذروة التقدم، بينما انعكست النزعة الإنسانية من خلال موقف بعض الأبرار من أصحاب هذه اللغات وهذه الثقافات، حينما أبدوا استعدادهم لاقتسام لغاتهم وثقافاتهم مع مثل هؤلاء "المتوحشين" الذين اكتشفهم علم الإنسان الجديد "الأنثروبولوچى". وكان چول فيرى Jules Ferry خير تجسيد لهذا الغرب ذى الوجهين، حيث كان استعمارياً ومستعمراً على حد سواء. ويذكر لنا من جانبه كلود ليفى شتراوس Claude Levi-Strauss فى كتاب Tristes Tropiques رواية روسو لهذا التاريخ ذاته: كان الأفراد الخاضعين لبحث علم الإنسان من المتوحشين "الطيبين"، لكنهم كانوا من المتوحشين بأى حال من الأحوال... تستند هذه الرؤية فى الأصل إلى التصوير الذى يشبّه المجتمعات بالكائنات الحية التى يعتمد تطورها على انتخاب الأنواع "the survival of the fittest" أى "البقاء للأصلح"، وقد وجد هذا التصوير منذ البداية فى علم اللغويات. وكى يزداد اقتناعنا بهذا الأمر، حسبنا أن نذكر أسماء المؤلفات التالية: "حياة اللغة ونموها" The Life and Growth of Language (W.Whitney,1867)، و(K.Nyrop,1902) ordenes Liv، و"حياة المفردات" la Vie des mots (A.Darmesteter, deuxième édition, 1918)، أو حسبنا كذلك أن نشير إلى أهمية بعض التشبيهات فى حياتنا اليومية مثل "اللغات الحية" و"اللغات الميتة"(١).

لكننا سنعرض الأمر بطريقة مختلفة؛ لأننا لسنا بصدد "حياة اللغات" بل حياة الأشخاص الذين يباشرون احتياجاتهم التواصلية من خلال ممارساتهم الاجتماعية

(١) إن أشليشر هو بلا شك أول من استخدم تصوير شجرة العائلات اللغوية على غرار شجرة الأجناس، فى كتابه :
Compendium der vergleichenden Grammatik der indogermanischen Sprachen (1861-1862).

اليومية. فالتأثير الذى تشهده اللغات هو بمثابة حل لمشكلات التواصل الاجتماعى، وهو ما تحدده جزئيًا التمثيلات الجماعية التى تشكل تدخلاً فى شكل ووظائف اللغات. ومن هذا المنطلق، تطرقنا إلى الضبط الذاتى؛ لأننا لسنا بصدد الحفاظ على اللغة بل تطويعها وضبطها. وكما سبق أن ذكرنا، فإن أحد العوامل المواتية الرئيسية هو عدد المتكلمين للغة ما. ويتغير هذا العامل من خلال طريقتين: التزايد الطبيعى فى عدد المتكلمين (شريطة أن يكون هذا التزايد مصحوبًا بانتقال اللغة من الآباء إلى الأبناء)، أو اكتساب لغات ثانوية يمكن أن تتحول إلى لغات ناقلة. وفى ظل هذه العملية، يُحكم على بعض اللغات بالاختفاء وترك مكانها لغيرها، بينما تظهر بعض اللغات الأخرى وتزدهر. وبعبارة أخرى، فإن انتقال اللغات والأوضاع اللغوية لا يعنى الحفاظ على اللغة؛ لأن هناك بعض العوامل الأخرى التى تتدخل فى هذه التحركات :

١- انتقال اللغة داخل الخلية الأسرية الذى يتوقف بدوره على البيئة، والعلاقات بين لغة الأسرة وبقية اللغات المتواجدة فى البيئة المحيطة، وكذلك شبكات الاتصال .

٢- التمثيلات اللغوية، أى تصور المتكلمين بشأن لغتهم ومدى نفعها ومستقبلها...إلخ .

٣- شدة علاقات التجاذب .

٤- أشكال التدخل الخارجى، ولا سيما تدخل الدولة بواسطة السياسة اللغوية.

ومن هنا، يثور التساؤل التالى: متى يبدأ التغيير يطرأ على محيط بيئة لغوية ما؟ أو بعبارة أخرى، متى تؤدى هذه التحركات الدائمة إلى تغيير وضع ما؟ قد يسعنا الاعتقاد أن محيط البيئة اللغوية يتغير إذا ما طرأت تغييرات على اللغات وعلاقاتها البينية والبيئية. إلا أن هذه الإجابة تحمل قدراً كبيراً من العمومية بحيث يصعب الإفادة منها، لذا سنشرع هنا أيضًا فى تناول تفاصيل الأوضاع الملموسة.

انتقال اللغات الأولى وأسطورة اللغة الأم

لقد تعرضنا فى الفصل الثانى لاكتساب اللغات، مع التمييز بين طريقة الاكتساب واتجاهه: التعليم المنهجى للغة ما أو التعليم العفوى غير الرسمى الذى يتحول إلى ثنائية لغوية رأسية أو ثنائية لغوية أفقية. وهذا الأمر يتعلق باكتساب لغات ثانوية، على خلاف ما تجرى عليه الأمور بشأن اللغات الأولى، حيث لا مجال لطرح مشكلة الأفقية أو الرأسية، وحيث يكون التعليم عفويًا ثم منهجيًا. وبوجه عام، فإن هذا النوع من التعليم هو من صنيع الأسرة، والطريقة التقليدية المتبعة فى تسمية اللغة الأولى (اللغة الأم: langue maternelle، mother tongue، Mutter Sprache، ... lingua materna إلخ.) هى من خصائص التصور التالى: يسود لدينا الاعتقاد بأن الأطفال يرثون لغة أمهاتهم. إلا أن العديد من الحالات تؤكد خطأ هذا التصور، كما سيتضح من خلال الأمثلة التالية.

اللغة الأم ليست حتمًا لغة الأم

لا يرث الأطفال على الدوام لغة آبائهم؛ ويتضح ذلك جليًا من خلال الأوضاع الأفريقية التى لا يندر فيها اختلاف اللغة الأولى لكل من الزوجين، أى للرجل والمرأة.

ومن ثمَّ، أظهر البحث الذى أجرى فى السنغال أن أطفال الأزواج من ذوى اللغات المختلطة يرثون فى الغالب لغة الولوف؛ لأنها هى اللغة السائدة، سواء كانت لغة الأب، أو لغة الأم، أو لم تكن لغة أى منهما. وعلى المنوال نفسه، يرث أبناء الأزواج المختلطين فى بماكو- عاصمة مالى- لغة البمبارا على اعتبار أنها اللغة السائدة فى هذه البيئة. فى حين تعد الهوسا hawsa والزارما zarma اللغتين السائدتين فى نيامى بالنيجر، حيث يفرضان وجودهما فى ظل الظروف السابقة ذاتها. بينما كشفت عن الظاهرة نفسها أحد الأبحاث الأخرى التى أجريت فى كوتيالا بجنوب مالى. من بين ١٨٨ شخصًا خضعوا لهذا البحث، وصرحوا بأن لغتهم الأولى هى البمبارا، كانت البمبارا هى :

- لغة الأب بالنسبة لـ٢١ حالة.

- لغة الأم بالنسبة لـ٣٥ حالة.

- لغة الوالدين بالنسبة لـ ٤٨ حالة.

- لم تكن لغة أى من الوالدين بالنسبة لـ٧٤ حالة.

وبوجه عام، فإنه فى ١٧,٤٨٪ من الحالات كانت البمبارا هى لغة آبائهم الأولى، وفى ١٣,٦٤٪ كانت البمبارا لغة أمهاتهم الأولى، وفى ٤١,٩٥٪ من الحالات كانت هى لغة الوالدين الأولى، ولم تكن اللغة الأولى لأى من الوالدين فى ٢٦,٩٢٪ من الحالات.

تؤكد كل هذه الأمثلة أن اللغة التى حلت محل لغة الوالدين كلغة أولى هى اللغة السائدة فى محيط البيئة اللغوية، أى الولوف فى دكار، والبمبارا فى بماكو أو فى كوتيالا، والهوسا أو الزارما فى نيامى، وهى فى كل مرة لغة أفريقية ولغة سائدة من داخل المنطقة المعنية، حيث تضطلع بالوظيفة الناقلة التى يشتد تأثيرها حتى تصل إلى داخل الأسر ذاتها.

نجد فى ليبرفيل بالجابون وضعاً يختلف اختلافًا طفيفًا، لكنه يصل بنا إلى نتيجة مشابهة[1]. أدى غياب وجود لغة أفريقية ناقلة هناك إلى منح اللغة الفرنسية وضعاً لم تحظ به فى أى مكان آخر بأفريقيا. فعلى سبيل المثال، تسود اللغة الفرنسية الأسواق هناك أمام لغات الفانغ[2] fang والبونو punu ، بينما تؤكد جميع الأبحاث التى أجريت داخل أسواق بعض العواصم الأفريقية الأخرى غياب اللغة الفرنسية بصورة فعلية من هذا الميدان؛ مما يجعلها بالنسبة لليبرفيل لغة خارجية اضطلعت بالوظيفة الناقلة التى تقوم بها اللغة الأفريقية فى أماكن أخرى. إلا أن هذه اللغة الخارجية ستلعب مع الأزواج المختلطة دور اللغة الداخلية السائدة فى الأوضاع

(١) تأتى المعطيات التالية من بحث تمهيدى أجرى خلال شهرى فبراير ومارس ١٩٩٨ مع بعض الدارسين والباحثين فى المعهد العالى للمعلمين فى ليبرفيل.
(٢) [إحدى لغات مجموعة البانتو ضمن العائلة النيجيرية الكونغولية.]

المذكورة آنفًا: يرث هنا أطفال الأزواج المختلطة لغة أمهاتهم فى ٤٣٪ من الحالات، وفى ١٦٪ من الحالات يرث الأطفال لغة آبائهم، بينما يرثون بنسبة ٩٪ لغتى الوالدين، ويرثون اللغة الفرنسية بنسبة ٣٢٪ من إجمالى الحالات موضع البحث. بينما يرث أطفال الأزواج المتجانسين لغويًا لغة والديهم بنسبة ٨٢٪، ويرثون اللغة الفرنسية بنسبة ١٨٪ من إجمالى الحالات. وهكذا، نرى أن اللغة الفرنسية تجنى نفعًا من وراء اختلاط لغة الأزواج، إلا أنها تفرض نفسها بنسب لا يستهان بها فى ظل تجانس الأزواج على الصعيد اللغوى. مما يعنى أن اللغة الفرنسية هى اللغة السائدة فى ليبرفيل حيث تضطلع بدور اللغات الأفريقية الناقلة فى مواضع أخرى، بل تسهم فى تغيير الوضع الكلى بسبب تدخلها فى نظام انتقال اللغات.

ومن ثَمَّ، توضح لنا هذه الأمثلة القليلة أنه لا يوجد انتقال أتوماتيكى للغة "الأم" ولا حتى للغة "الأب"؛ لأن اللغة السائدة فى البيئة تخترق أحيانًا الخلية الأسرية، وتفرض وجودها. وقد شهدت كل من بماكو ونيامى و ليبرفيل الظاهرة نفسها (سوء انتقال لغات الوالدين)؛ مما يؤكد شدة ضعف بعض اللغات الأسرية، وهى ظاهرة تعرض لنا بعض التغيرات (اللغة البديلة فى كل من نيامى ودكار وبماكو هى لغة داخلية، فى حين أنها لغة خارجية فى ليبرفيل)؛ مما يوضح لنا الاختلافات القائمة بين أشكال محيط البيئات اللغوية المذكورة.

هناك مشكلة أخرى تتمثل فى معرفة مدى انتقال لغة المهاجرين إلى أبنائهم، وقد وردت معلومات دقيقة ومثيرة للاهتمام حول فرنسا فى أحد أبحاث الـ INSEE والـ INED . من خلال الإجابة على سؤالين فحسب (ما هى اللغة أو اللهجة التى اعتاد الوالدين استخدامها عند التحدث إليكم فى فترة طفولتكم؟ وما هى اللغة أو اللهجة التى تستخدمونها فى التحدث مع أبنائكم؟) أوضحت الدراسة أن ثلث عدد الخاضعين للبحث - ممن لم يكن آباؤهم يخاطبونهم باللغة الفرنسية - لا يخاطبون بدورهم أولادهم باللغة الفرنسية: فقدت اللغة الإسبانية على مدى جيلين ٨٠٪ من متكلميها داخل أسر المهاجرين، بينما فقدت اللغات الأفريقية نسبة ٧٥٪، وفقدت اللغة العربية ٥٠٪...إلخ.

وردت حديثًا معلومات إضافية فى دراسة فابيين لوكونت Fabienne Leconte حول الجيل الثانى للمهاجرين الأفارقة فى منطقة روان Rouen حيث نجد أكثرية المهاجرين الأفارقة بعد المنطقة الباريسية. داخل الأسر التى ترجع أصولها إلى الكونغو، يتحدث ٨٠٪ من الأبناء مع آبائهم باللغة الفرنسية، وتبلغ نسبة مخاطبة الأمهات لأبنائها بلغة اللينجالا linguala 18%، وباللغة الفرنسية ٣٢٪، وباللغتين معًا ١٤٪، أو بمزيج من اللغتين ٣٦٪. ونجد الوضع نفسه داخل جماعات أخرى، ولكن بنسب مختلفة. ويتكلم الأطفال السنغاليون مع والديهم باللغة الفرنسية بنسبة ٥٦٪ من إجمالى الحالات، بينما يتكلمون الولوف بنسبة ٣٣٪، ويستخدم متكلمو الولوف مزيجًا من لغتين من أكثر اللغات صمودًا مثل البولار pulaar والسنينكى ... soninké إلخ. إننا هنا بصدد متوسطات عددية؛ لأن الوضع يختلف حسب درجة إجادة الوالدين للغة الفرنسية. وقد أوضحت فابيين لوكونت أن استخدام هذه اللغة يعتمد بصورة مباشرة على التعليم المدرسى؛ فكثرة ذهاب الوالدين إلى المدرسة تزيد من استخدامهم للغة الفرنسية فى مخاطبة أبنائهم.

وهكذا، يرجع مفهوم "اللغة الأم" إلى الجانب الأسطورى والإيديولوچى على حد سواء. لا تعد الأسرة بالضرورة موطن انتقال اللغات؛ فنلحظ فيها أحيانًا انقطاع روابط الاستمرارية، وهو ما ينعكس فى الغالب من خلال تغيير اللغة، حيث يكتسب الأبناء كلغة أولى اللغة السائدة فى البيئة. ولا تتجلى هذا الظاهرة فى أفريقيا فحسب، بل تتصل بجميع أوضاع التعددية اللغوية وبأغلب أوضاع الهجرة. لذا يتجلى النزوع نحو التغيير فى فيض الكتابات حول الحفاظ على اللغات أو تغييرها (language maintenance and language shift) بالولايات المتحدة الأمريكية. لكن هناك استثناءات واضحة، مثل حالة الصينيين، حيث بلغ عام ١٩٩٠عدد السكان من ذوى الأصول الصينية المتواجدين على الأراضى الأمريكية ١,٦٤ مليون نسمة، من بينهم ٦٦,٨٪ قد ولدوا فى الخارج "foreign born" . إلا أنه هناك بعض الأسر التى تواجدت بالولايات المتحدة منذ قرنين ومازالت تتحدث اللغة "الصينية"، أى تتحدث واحدة من لغات الشعب الصينى المعروفة باسم لغات الهان han، أو واحدة من "اللهجات" الصينية كما يطلق

عليها فى الصين. كانت فى البداية هذه الجماعات تتكلم بوجه خاص اللغتين الكانتونية cantonnais والتواشانية toishannais، وتتكلم اللغة الإنجليزية كلغة ناقلة تستخدم فى علاقات التماس بين الصينيين الذين تختلف لغتهم. بينما فى الوقت الحالى، ومع قدوم المهاجرين الجدد من تايوان ومن شبه القارة الصينية، انتشرت كلغة ناقلة (لغة بوتونج هوا Putong Hua أو جوو يو Guo yu كما يطلق عليها فى تايوان، وهى اللغة المندرية وفقًا للمسمى الغربى). وتعيش هذه الجماعات بصفة خاصة فى المدن الكبرى، حيث تتجمع فى "مدن صينية" "Chinatowns" تبدى اتجاهًا واضحًا نحو الاتساع (فى نيويورك وسان فرانسيسكو) والتزايد (فى شيكاغو وهيوستون...إلخ). وقد ذكر زيا Xia أن "الصينيين قد أقاموا مدنًا داخل مدن الولايات المتحدة، وشكلوا جماعات داخل جماعاتها"، ويعكس لنا هذا الوضع– حيث تكثر حالات الزواج بين أفراد هذه الجماعات– مدى محافظة هذه المجموعات السكانية على خصوصيتها. وتشكل كل "مدينة صينية" محيطًا صغيرًا لبيئة لغوية بصورة تماثل طريقة الجماعات السكانية الهسبانية التى تفد من كوبا والمكسيك، والتى تتجمع فى كاليفورنيا أو فلوريدا، حيث تحافظ على لغتها لأسباب مشابهة. لكن هناك العديد من المهاجرين الآخرين الذين تخلوا عن لغتهم من أجل اللغة الإنجليزية، مثل الإيطاليين والبولنديين والفرنسيين...إلخ.

إلا أن هذا التغيير أو هذا الـ shift لم يتجل فحسب من خلال تخلى الوالدين عن لغتهما من أجل لغة البيئة المحيطة، حيث يمكن أن يؤثر كذلك على لغة هذه البيئة، ويؤدى إلى تحولها، كما سنرى فى إطار دراسة الحالة التالية.

حالة اللغة الإسبانية فى بوينس أيريس

شهدت اللغة الإسبانية فى أمريكا الجنوبية تطورًا أدى إلى ظهور بعض الاختلافات المحلية، ولا سيما على مستوى المفردات التى قد تتغير من دولة إلى أخرى، كما أدى إلى ظهور شكل موحد على مستوى الأصوات والصرف. إن الخصائص

الرئيسية لتلك الإسبانية الأطلنطية التى جاء تحليلها فى الغالب على اعتبار أنها نتاج التأثير الأندلسى- وهو ما ليس بالأمر الصحيح فى مجمله - هى كالتالى :

- الـyeismo، أى التحول من / ly / إلى/ j / أو /z/ أو /dz/، فى كلمات مثل calle, lluvia, llano ... إلخ.

- الـ seseo، أى اختفاء التقابل بين /G/ و /s/ ، حيث تنطق مثلاً كلمتى ciento و siento بالطريقة نفسها.

- هائية حرف الـ s الختامى، مثل الصيغة الخاصة بالإسبانية الأرجنتينية بشأن نطق ma o meno بدلاً من mas o menos، أى "على وجه التقريب".

- اختلاف نظام الضمائر الشخصية وتصريف الأفعال عن نظام اللغة الإسبانية النموذجية؛ فالإسبان يقولون على سبيل المثال tu tienes أى "أنت تملك"، و vosotros teneis أى "أنتم تملكون"، بينما يقول الأرجنتينيون vos tenes وustedes tienen . وفضلاً عن ذلك، يوجد فى اللغة الإسبانية الأرجنتينية شكلاً صوتيًا هو الـ "شى" che، ومن هنا استمد شى جيڤارا لقبه ... Che Guevara وعند منتصف القرن التاسع عشر، لاحظنا استمرار حالة التقلب بين هذه الأشكال الإسبانية والمحلية، واستمرار تطورها إلى أن بلغت النظام الأرجنتينى الحالى.

تجلت كل هذه السمات من خلال كلام بوينس أيريس بالأرجنتين ، حيث وجد البعض منها فى دول أخرى هسبانية فى أمريكا الجنوبية منذ القرن السابع عشر. ووفقًا لما ذكرته أنجيل روزنبلا Angel Rosenblat، فقد تحددت بالفعل اللغة الإسبانية الخاصة بأمريكا اللاتينية منذ القرن السادس عشر من خلال اللغة القشتالية التى تتكلمها طبقات المتوسطة والعليا فى مجتمع الغزاة الأوائل: "من الواضح أنه عقب القرن السادس عشر، ولا سيما مع تدفق الهجرات منذ القرنين التاسع عشر والعشرين، هرعت أكثر القطاعات السكانية تدنيًا إلى قارة كانت مطروقة بالفعل. لكنهم جلبوا بعض ممتلكاتهم، وانضموا إلى مجتمع هسبانى أمريكى تشكلت بالفعل قاعدته اللغوية منذ القرن السادس عشر".

وقد يتساءل القارئ عن جدوى هذه الأفكار، فى إطار فصل مخصص لانتقال اللغات والأوضاع اللغوية. ومن جانبنا نقول إن لغة بوينس أيريس، أى كلام البرتينو porteño الذى تأثر بالتطور العام للغة الإسبانية الخاصة بأمريكا الجنوبية، قد وسمت مؤخراً هى الأخرى بعدم انتقال إحدى لغات المهجر ألا وهى اللغة الإيطالية. فى بادئ الأمر، كان النمو السكانى بهذه المدينة يتسم بالبطء فيما بين عامى ١٨١٠ و١٨٨٧ (٤٠,٠٠٠ نسمة عام ١٨١٠، و٥١,٠٠٠ نسمة عام ١٨٢٠، و٦٢,٠٠٠ نسمة عام ١٨٣٦، و٨٥,٠٠٠ نسمة عام ١٨٥٢)، ثم تزايد النمو السكانى بصورة مفاجئة منذ النصف الثانى من هذا القرن (١٢٨,٠٠٠ نسمة عام ١٨٦٢، و٢٨٦,٠٠٠ نسمة عام ١٨٨٠، و ٤٣٣,٠٠٠ نسمة عام ١٨٨٧).

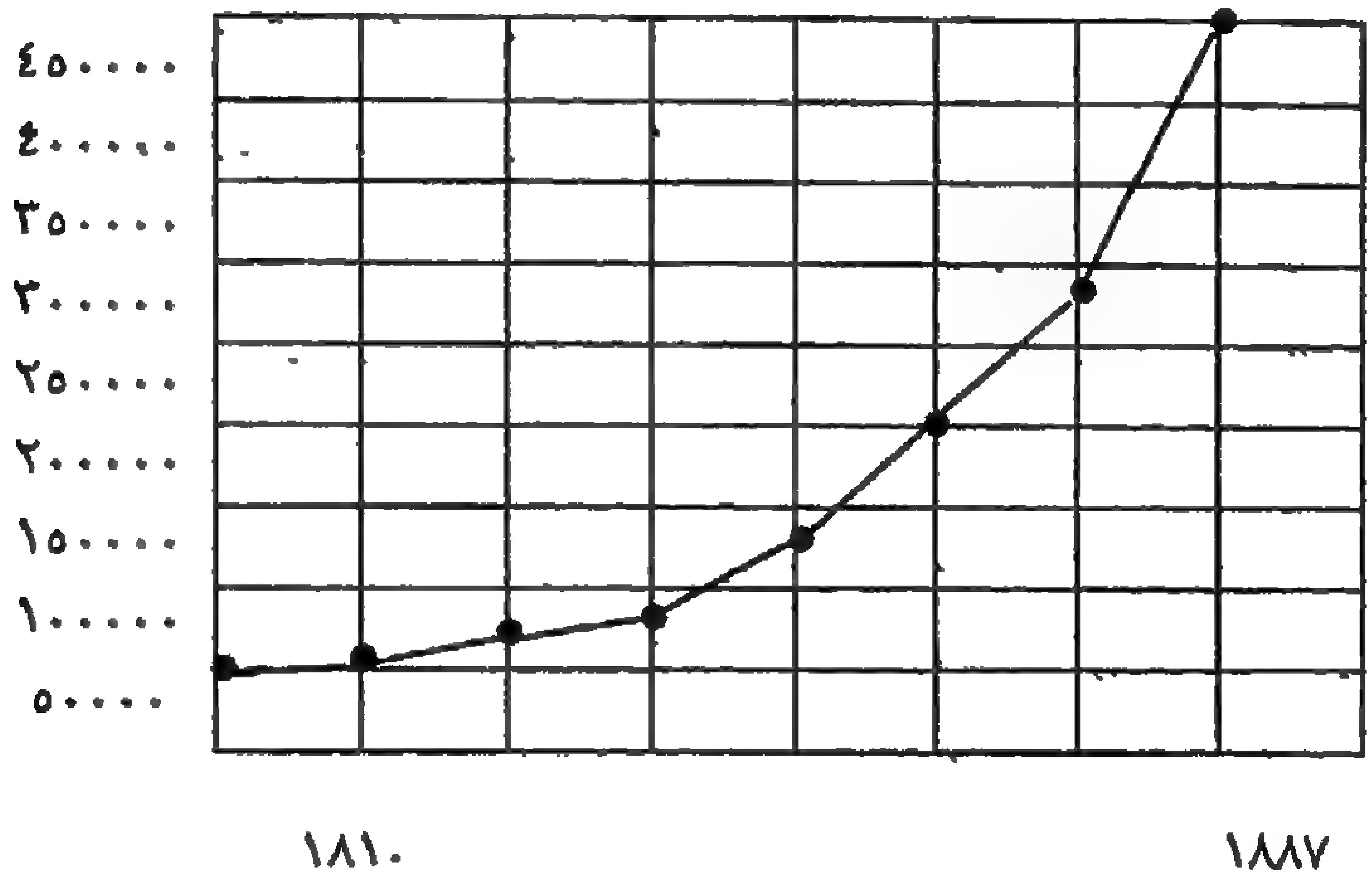

يوضح لنا هذا المنحنى أننا لسنا بصدد تزايد طبيعى، بل إزاء إحدى ظواهر الهجرة التى ترجع فى الأساس إلى وفود المهاجرين من أوروبا، والتى تتابعت بصورة مستمرة، حيث بلغ عدد السكان ٢,٢٥٤,٠٠٠ نسمة عام ١٩٣٠ , جاء المهاجرون سعياً وراء الثراء على ضفتى نهر لابلاتا، وصاروا يشكلون أكثر من نصف السكان؛ فأصبح لهذا الوضع السكانى تداعيات هامة على لغة هذه المدينة. ووفقاً لتعداد عام ١٨٨٧، نجد ما يلى :

- ٤٧,٤٪ من الأرجنتيين
- ٣٢,١٪ من الإيطاليين
- ٩,١٪ من الإسبانيين
- ٤,٦٪ من الفرنسيين
- ٦,٩٪ من الأجانب الآخرين.

إلا أن تحديد جنسية السكان لا يمدنا بالمعلومات الدقيقة حول لغاتهم. فقد لا تكون بالضرورة اللغة الإسبانية هى اللغة الأولى لهؤلاء الأرجنتينيين الذين يمثلون ٤٧,٤٪ من إجمالى السكان؛ لأنهم قد يكونوا من أبناء المهاجرين الذين ورثوا لغة آبائهم. وكان فى الغالب الإيطاليون آنذاك من متكلمى بعض اللهجات الإيطالية لا اللغة الإيطالية النموذجية. كما كان غالبية الإسبانيين من جاليسيا، ومن المحتمل أن الفرنسيين كانوا يتكلمون لغة الباسك...إلخ. وإذا ما أضفنا إلى نسبة الإيطاليين التى قُدِّرت بـ٣٢,١٪ أبناء الإيطاليين الذين ولدوا فى الأرجنتين، وتعلموا لغة آبائهم، فسوف نستخلص أن أكثر من نصف السكان يتكلمون "الإيطالية"، وأن هناك ثلاثة أشكال لغوية تسود فى هذه المدينة هى: الإسبانية واللهجات الإيطالية وبصورة أقل الفرنسية. كيف إذن سيتطور هذا الوضع الحضرى متعدد اللغات؟ وما اللغات التى ستنتقل من جيل إلى آخر ومن المهاجرين إلى أبنائهم؟ حددت ماريا بيتريز فونتانيللا **Maria Beatriz Fontanella** ثلاثة أوضاع نوعية بشأن الإيطاليين الموزعين عليها بصورة متساوية:

١- فقدان المهاجرين وأبنائهم بالتبعية لممارسة اللغة، ولا سيما الرجال الذين قدموا إلى الأرجنتين وهم أطفال أو شباب؛ لأن النساء يعتبرن أكثر تحفظًا من الناحية اللغوية.

٢- حفاظ المهاجرين على لغتهم، والمعرفة السلبية لهذه اللغة لدى بعض الأبناء؛ يتكلم الآباء بالإيطالية ويجيب الأبناء بالإسبانية .

٣- حفاظ المهاجرين على لغتهم وحرصهم على نقلها إلى أبنائهم، وغالبًا ما يحدث ذلك مع المهاجرين الذين قدموا إلى الأرجنتين بعد نضوجهم، حيث يحيا الأبناء فى

كنف آباء يحرصون على التحدث بالإيطالية في المنزل. وفى بعض العائلات، يتعلم أكبر الأبناء فحسب اللغة الإيطالية. أى أن تغيير اللغة يمكن أن يقع فى إطار جيل واحد.

وهكذا، نجد أنفسنا أمام سكان هسبانيين، وسكان من ذوى الأصول الإيطالية يتكلمون- وفقًا لمستوياتهم الاجتماعية - لهجات مختلفة أو/و يتكلمون اللغة الإيطالية النموذجية، وفى إطار هذه المجموعة الثانية، سيظهر الـcocoliche .

ولنأخذ هنا وقتًا كافيًا من أجل استعراض أصل هذه الكلمة. لا يندر فى الواقع اشتقاق الأسماء العامة من أسماء الأعلام. ومن ذلك على سبيل المثال كلمة poubelle الفرنسية التى تخلد الحاكم Poubelle . وتأتى بعض هذه الأسماء من المؤلفات الأدبية، مثل pipelette أى "حارس البناية"، وهو لقب اثنين من حراس البنايات فى الرواية التى كتبتها Eugène Sue تحت عنوان Mystères de Paris . وسار الأمر على النحو نفسه بالنسبة لكلمة cocoliche ؛ فقد يرجع ذلك إلى الممثل الهزلى جوزيه بودستا José Podestà الذى حول فى بداية القرن مسلسل Juan Moreira إلى رواية مسرحية، مضيفًا إليها شخصية Cocoliccio الذى يتحدث مزيجًا من لغتى الـ calabrais والبرتينو porteno، أى لغتى بوينس أيريس. وقد لاقت هذه الشخصية نجاحًا كبيرًا، وصارت عاملاً مشتركًا فى العديد من الروايات الشعبية؛ مما أسفر عن ظهور تعبير hablar cocoliche أى "كلام الـ cocoliche"، وهو ما يعنى التحدث بلغة المهاجرين.

عرّفت بيتريز لاڤانديرا Beatriz Lavandera هذا الشكل اللغوى على النحو التالى: "الـ cocoliche هو الاسم الذى أطلقه - فى الأرجنتين وأوروجواى- ناطقو الهسبانية كلغة أولى من أحادیی اللغة على الأشكال المتنوعة للغة الإسبانية التى يستخدمها المهاجرين الإيطاليون فى تعاملاتهم الداخلية مع أفراد السكان المحليين". ومن جانبه، عرّف هذا الشكل چيوڤانى ميو زيليو Giovanni Meo Zilio الذى نشر فى منتصف الخمسينيات العديد من المقالات حول هذا الشكل باعتبارها "من النتائج اللغوية لالتقاء الإيطالية والإسبانية فى ريو دو لا بلاتا" أو باعتبارها "اللغة المختلطة للإيطاليين فى ريو دو لا بلاتا". وإن كلمة cocoliche كانت تشير فى بداية القرن إلى اللغة الإسبانية التى كان يستخدمها الأجانب ولا سيما الإيطاليون، إلا أنها لم تعد اليوم تشير لشىء عدا

طريقة الملبس التى تتسم بقدر من الغرابة. ويعرّف معجم المصطلحات الأرجنتينية الذى نشر فى بداية هذا القرن هذه الكلمة باعتبارها-castellano chapurreado y macarron" ico que hablan los extranjeros ignorantes, en especial los italianos "، أى أنهـا "أحد أنواع القشـتالة غير المفهـومة والمختـلطة التى يتحدث بها الأجـانب الجهـلاء ولا سيـما الإيطاليـون". ونحن هنا بالتأكيد إزاء أحد أنواع التـمثيلات اللغوية، وفقًا للمعنى الذى سبق أن سقناه لهذا المفهوم، إلا أنه رغم العنصرية التى تحيط بهذا التصور، فإن هذا التعريف يعطينا فكرة جيدة بشأن ماهية هذا الشكل اللغوى. ويبدو فى الواقع كلام الـ cocoliche بمثابة ثمرة وضع تعليمى؛ فهو "نوع غير مكتمل وأكثر بساطة من اللغة الإسبانية" إلى درجة أن من يتكلمونه بطلاقة "لا يستخدمون كثيراً بعض إمكانات اللغة الإسبانية الخاصة ببوينس أيريس". وهكذا، فإننا قد نكون بصدد إسبانية الإيطاليين غير المكتملة والمنتقصة: "قد يسعنا القول إن كلام الـ cocoliche هو أحد أنواع الإسبانية المنتقصة، حيث تفتقر إلى العديد من الأشكال المستخدمة، ولا سيما من أجل التعبير عن الفروق الدلالية والأسلوبية". وقد اختتم لاڤانديرا كلامه بثلاث ملاحظات هى:

١- استخدام البدائل القائمة على اللهجة الإيطالية لا يحمل للمستمع الأرجنتينى أية دلالات اجتماعية أو أسلوبية؛ لأنه يفسرها بعدم إجادة اللغة الإسبانية، بل يجد أحيانًا صعوبة فى فهمها.

٢- الطرف الإسبانى فى الحصيلة المعرفية للمتكلم الإيطالى لا يتضمن متغيرات اجتماعية لغوية للغة الإسبانية الخاصة ببوينس أيريس.

٣- ومن ثمّ، تظهر استحالة صياغة بدائل من النوع الشكلى/غير الشكلى.

وفى هذا الصدد، كانت ماريا بيرتيز فونتاميلا دى ڤينبرج أكثر تحديداً وأقل معيارية. فإنها تعتبر الـ cocoliche أولاً بمثابة مجموعة متصلة:

"يغطى هذا المصطلح نطاق يبدأ بلغة إيطالية ذات تداخلات إسبانية، وينتهى بلغة إسبانية ذات تداخلات إيطالية، مع المرور بأشكال مختلطة يستحيل إسنادها إلى إحدى

هاتين اللغتين، وتشكل مجموعة متصلة لها قطبان هما الإسبانية والإيطالية". ويؤكد ميو زيليو بالطريقة نفسها أننا لسنا بصدد لغة ثالثة ناقلة، بل هذا شكل غير واضح "يميل إلى الاقتراب من الإسبانية والابتعاد عن الإيطالية". إن هذا الشكل "المائع" يختلف من متكلم إلى آخر، ومن حى إلى آخر، ويحمل سمات مختلف اللهجات الإيطالية، إذ إنه بمثابة ثمرة وضع تعليمى أو اكتسابى يحمل الأثر اللغوى لحالة "انتقال". ولا يمكن بالطبع تدبر هذه المجموعة المتصلة سوى بين لغتين متقاربتين، وتضيف فونتانيللا دى وينبرج أن الـ cocoliche يظهر لدى الإيطاليين الذين يتكلمون لهجات مختلفة، ولا يعرفون اللغة الإيطالية النموذجية:

"يعزز أهمية انخفاض المستوى الثقافى فى ظهور الـ cocoliche واستخدامه حقيقة غياب هذه الظاهرة فعليًا على صعيد المستويات الأكثر ارتفاعًا من بين الإيطاليين الذين إذا ما وجدنا لديهم تداخلات منطقية فى كلا النظامين فإن كل منهما يظل مختلفًا عن الآخر بصورة واضحة."

وهكذا، فقد نكون بصدد مجموعة متصلة ذات وظيفة مزدوجة تحولت إلى التواصل مع الناطقين بالهسبانية والناطقين باللهجات الإيطالية على حد سواء. ويضاف إلى ذلك بعد اجتماعى مهنى، فقد فاق الرجال النساء من حيث استخدام أنواع أكثر هسبانية؛ لأن أنشطتهم المهنية كانت تحدد مدى اتساع الأنواع المستخدمة. إلا أن هذه المجموعة المتصلة قد كانت فى الوقت ذاته إحدى مراحل اكتساب اللغة الإسبانية أيضًا، وعدم انتقال الأشكال الإيطالية فى فترة من الفترات، حيث كانت شكلاً انتقاليًا تحول إلى اكتساب الإسبانية على مدار جيل واحد أو جيلين:

"إن التعددية اللغوية المعممة فى بوينس أيريس- خلال الفترة الممتدة بين عامى ١٨٨٠ و١٩٣٠- تؤدى فى أغلب الأحيان إلى تغير اللغة بصورة سريعة، بحيث يصير أبناء المهاجرين بل أحفادهم من أحاديى اللغة الإسبانية، ولا سيما فى حالة الإيطاليين".

كما أشارت فونتانيللا دى ڤينبرج إلى وجود عدد من العوامل التى تعجّل بتغيير اللغة:

– الحركة الحضرية والصناعية فى الأرجنتين.

– عظم حجم الهجرة بشكل يحول دون انفصال المهاجرين عن بقية المجتمع بأكمله .

وقد تبدو الجزئية الثانية متناقضة ظاهرياً، رغم أنها تُعد من الأمور الرئيسية. فإن حجم الأقلية يحدد مدى وفائها اللغوى، وهناك حد فاصل لحجم المجموعة إذا ما تم تعديه صار من المستحيل وجود هذه الأقلية اللغوية، ولاسيما حينما يقدم المجتمع العديد من إمكانات الاندماج. فقد ذكرت كريستين ديبريز Christine Deprez أنه فى فرنسا تستطيع جماعة صغيرة للغاية – مثل الجماعة الأرمينية – أن تحافظ على لغتها أكثر من جماعة أكبر حجماً مثل العرب هناك. ومن هنا، يتضح لنا أن هذا التناقض هو مجرد تناقض ظاهرى .

– هناك إمكانات ارتقاء اجتماعى وتعليمى، ولا سيما مع وجود نظام مدرسى فعال ومجانى فى كلا المرحلتين الابتدائية والثانوية، بشكل يتيح الاندماج اللغوى.

– نجد فى لغة أغلبية المهاجرين الإيطاليين تنوعاً لهجياً كبيراً، وتقارباً لغوياً مع اللغة الإسبانية، بالإضافة إلى تدين هذه الجماعة، ووجود أوجه تشابه ثقافى.

أكد چيوڤانى ميو زيليو على الطابع الانتقالى لـ cocoliche الذى يعد من المظاهر "اللغوية البينية": "يختلف مدى الـ cocoliche وامتداده من متكلم لآخر ومع توالى الأيام، حيث تنزع بعض الأشكال إلى الاختفاء بينما تظهر أشكال جديدة، إلا أنه يسعنا بوجه عام أن نقول إن كلام الـ cocoliche يميل دوماً لدى كل متكلم نحو الاقتراب أكثر من الإسبانية والابتعاد عن الإيطالية". كما كانت فونتانيلا دى ڤينبرج أكثر وضوحاً فى تصريحها الأخير الذى اختتمته قبل وفاتها بعدة أيام. فقد أوضحت أن الأرجنتين هى الملتقى الثانى للمهاجرين بعد الولايات المتحدة، ولكن قبل كندا والبرازيل وأستراليا، حيث أحصينا فى الأرجنتين – بين عامى ١٨٩٥ و١٩٣٠– ما يقرب من ٢٥٪ من المهاجرين. وقد تمكنت فى الوقت الحالى الجماعات الصغيرة المنعزلة من الحفاظ على لغاتها، مثل الجرمان القادمين من الفولجا أو الدانمركيين أو الغال غير الحضريين. لكن الإيطاليين يفقدون من جانبهم لهجاتهم نتيجة للأسباب التى عرضناها، وعدم الانتقال هذا قد أثر فى اللغة الإسبانية المحلية.

ونضيف، إلى ذلك أن الـ cocoliche لا يمثل مجموعة متصلة خطية، بل يتخذ شكلاً مروحيًا تعتبر فيه الإسبانية قطبًا أحاديًا، فى حين تتشكل الأقطاب الأخرى من مختلف أنواع اللهجات وقد عرضت فونتانيلا الشكل التالى :

مجموعة متصلة بسيطة

A B

مجموعة الـ cocoliche المتصلة

اللهجـات الإيطـاليـة

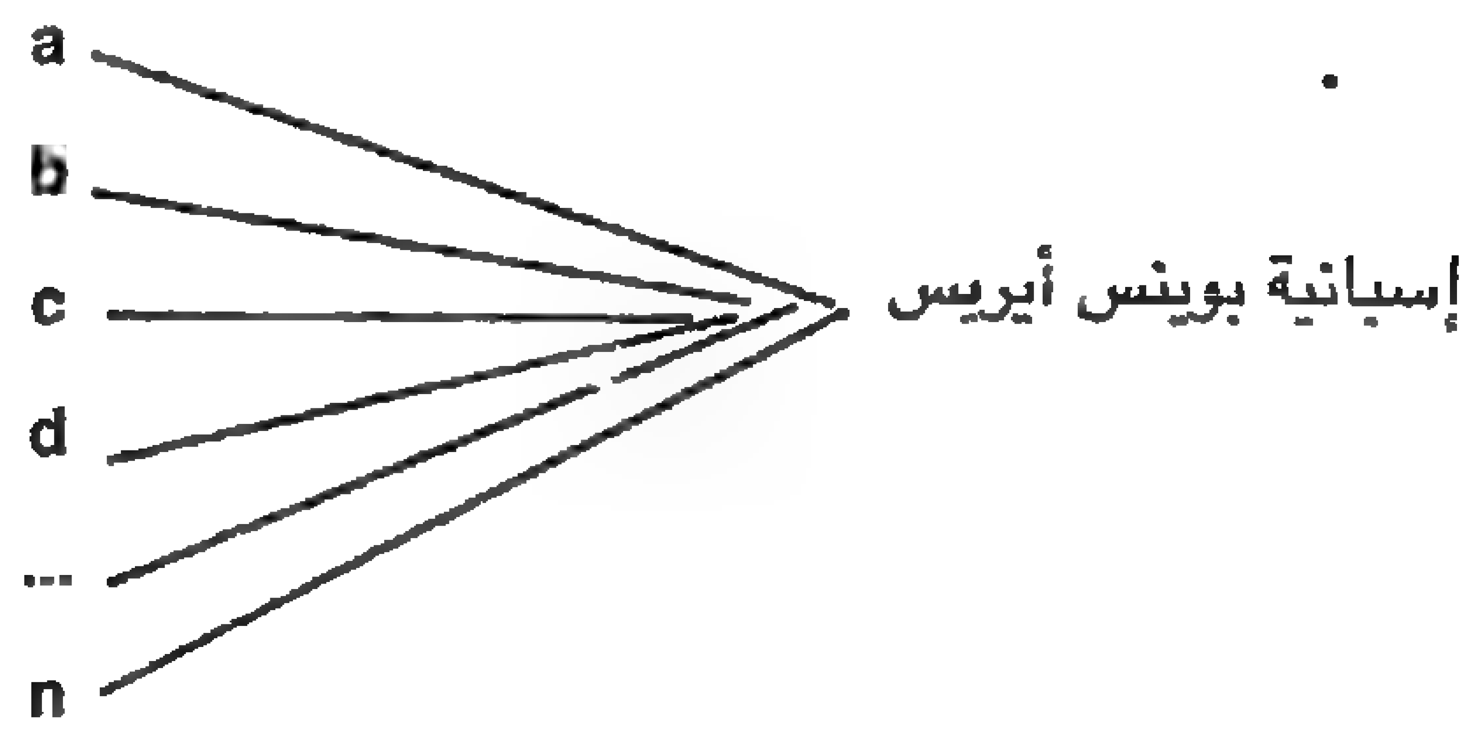

ثم أضافت :

"تجدر الإشارة إلى أنه إذا ما كان الاستخدام الفعال للـ cocoliche محدوداً لدى المهاجرين المنحدرين من أصل إيطالى، فإن معرفة هذا النوع الكلامى بشكل سلبى كانت منتشرة فى مجتمع بوينس أيريس اللغوى، حيث كان الغالبية العظمى يفهمونه. وفى حالة الناطقين بالهسبانية، كانت المناطق الأكثر اقتراباً من القطب الإسبانى هى التى يمكن فهمها، وكان متكلمو الـ cocoliche يحاولون الاقتراب من هذه الأنواع عند تحدثهم مع أشخاص ليسوا من ذوى أصول إيطالية".

فى بادئ الأمر، كان لتعايش الإسبانية ومختلف اللهجات الإيطالية بعض التداعيات على هاتين المجموعتين. وصف چيوڤانى ميو زيليو هذه العملية من وجهة النظر الإيطالية، وشدد بالتالى على حقيقة أنه بالتوازى مع تغييرات اللغة الإيطالية، انعكس هذا التعايش من خلال تأثير الإيطالية فى الإسبانية. وما أسميناه بالـ cocoliche

كان بالتالى شكلاً وسطيًا متحركًا غير محدد، ويتم استخدامه على حد سواء بين الإيطاليين والإسبانيين وبين متكلمى اللهجات الإيطالية، كما يعد نتاج إحدى فترات اضطراب أوضاع البيئة اللغوية، مع الزيادة الهائلة فى دخول أشكال اللهجات الإيطالية إلى الإسبانية، ودخول أشكال إسبانية إلى الإيطالية؛ فنتج عن هذا الاضطراب ظهور لغة بينية، لكنه أسفر بالتالى عن تشكيل إسبانية البرتينو porteño بواسطة:

١- العديد من حالات الاقتراض المباشر من المفردات الإيطالية فى مفردات بيونيس أيريس مثل:... chau, pibe, nono, cucha, capo, chimento, toscano, tratavita إلخ.

٢- ظهور نوع من الرطانة فى نهاية القرن الماضى، ألا وهو اللونفاردو lunfardo الذى ترجع ٥٠٪ فحسب من مفرداته إلى أصول إسبانية، وهى رطانة ستخترق شيئًا فشيئًا اللغة الشعبية، ولا سيما بواسطة التانجو. فنجد على سبيل المثال فى البيت الأول- من قصيدة Mi noche triste للشاعر Pascual Contursi (1917) التى أداها Carlos Gardel – مفردات تنم عن "موقف لغوى مجدد"، وهو "خطاب غير رسمى فى الأنشودة الشعرية":

"Percanta que me amuraste
en lo mejor de mi vida
dejandome el alma herida
y espinas en el corazon. "(١)

نجد فى البيت الأول لفظين تجهلهما اللغة الإسبانية هما percanta أى "امرأة"، و amurar أى "هجرت"، وهناك العديد من الأمثلة المشابهة فى اللونفاردو lunfardo، لكنها تتواجد بصورة أقل فى البرتينو porteno .

٣ – تغييرات فى النظام الصوتى للغة الإسبانية، مثل ظهور الصوت ch عن طريق حالات الاقتراض فى بادئ الأمر، ولا سيما من اللغة الفرنسية (champagne,

(١) هذه السيدة هى التى هجرتنى/فى أفضل فترات حياتى/ تاركة نفسى مجروحة/ وأشواكًا فى قلبى.

chef, chic, charment, chauvinismo ... إلخ.)، وكذلك من اللغة الإنجليزية. وُجد هذا الفونيم أولاً فى لغة الطبقات العليا، ثم انتقل إلى الإسبانية المستخدمة يوميًا بوينس أيريس، من خلال كلمات مثل short أى "سروال قصير" و pasha و flash و misho أى "فقير" فى قاموس اللونفاردو...إلخ. ويوجد أحيانًا تناوب بين ch و tch فى كلمات مثل chalet و chope و ... chef إلخ. وعلاوة على ذلك، هناك ميل نحو نطق /j/ مثل /ch/ وتحويلها إلى صامت مهموس؛ مما يؤدى إلى الخلط بين بعض الكلمات.

وهكذا، نرى أنه فى ظل التواجد المتصارع للغة الإسبانية واللهجات الإيطالية فى بوينس أيريس لا يشكل عدم انتقال هذه اللهجات واقعًا إحصائيًا فحسب، ولا يعد مجرد دليل على فرض اللغة الإسبانية. فإن التغيرات التى طرأت على محيط البيئة اللغوية، وتنظيم التعددية اللغوية من قبل الناطقين بالإيطالية، بواسطة الأشكال اللغوية المشتركة (الـ cocoliche) ، قد أسهمت بالفعل فى تحول اللغة الشعبية لبوينس أيريس. وهكذا، كان عدم انتقال اللهجات الإيطالية من عوامل تغيير الشكل الآخر الموجود فى المحيط البيئى، بحيث أسفر عن الشكل الحالى للإسبانية المستخدمة فى الحديث. ويوضح لنا بالتالى هذا المثال كيف يمكن للغة ما أن تختفى مع ترك آثار على اللغة التى تحل محلها؛ فالبرتينو porteno هى بالطبع من الإسبانية، لكنها إسبانية حافظت على أثر مختلف اللهجات واللغات التى حلت محلها على مدار جيلين أو ثلاثة أجيال، فى إطار الممارسات اللغوية الأسرية.

ولا يقف التاريخ عند هذا الحد، فمازالت بوينس أيريس تستقبل حاليًا مهاجرين جدد يفدون من كوريا وباراجواى وبيرو وغيرها من البلدان الأخرى، حيث توجد لغات مثل الكورية والكينشو والجورانية وغيرها من لغات محيط هذه البيئة اللغوية التى ستؤثر بكل تأكيد فى مستقبل شكل البرتينو porteño .

حالة لغات الكريول: اضطراب التوازن البيئى والتغيير اللغوى

تعد كلمة créole من الكلمات الخارجة عن نطاق بيئتها الأصلية؛ لأنها تمثل اسمًا أعطى للغة ما من قبل واصفيها، فى حين لم يستخدم فى الأساس متكلمو لغات

"الكريول" أو من يجاورونهم هذا المصطلح، حيث يعلنون أنهم يتكلمون "لهجة محلية"، أو "لهجة محلية زنجية"، أو "لغة رطانة"، أو "لغة فرنسية خاطئة"...إلخ. ونجد حالياً فى بعض المناطق- مثل جزيرة La Réunion أو جوادلوب Guadeloupe - بعض المتكلمين الذين يقولون إنهم يتحدثون "لهجة محلية". فقد كان يشير هذا المصطلح فى الأساس إلى البيض المولودين فى "المستعمرات الاستوائية" بجزر الأنتيل أو بأمريكا، وقد اكتسبت تلك الكلمة معناها الحالى ببطء شديد، من خلال تبسيط بعض الأشكال مثل "لهجة الكريول المحلية" أو "كلام الكريول". إلا أنه بمجرد إرساء هذا المعنى وتعميمه، صرنا نتوارث أول صيغة مصطنعة، حيث دخلت فى إطار المسمى نفسه مجموعة من اللغات التى تتنوع أصول مفرداتها (الفرنسية والإنجليزية والبرتغالية والهولندية...إلخ). ثم دخل هذا المصطلح فى نطاق أكثر اتساعًا يمثل نوعًا من التصنيف النوعى المستتر الذى يفتقد القاعدة النظرية إلى حد كبير، ويجمع فى آن واحد بين اللغة واللهجة المحلية والبيدجين واللغة الحرفية والرطانة واللغة الناقلة ولغة الفرنجة...إلخ.

إذا ما حاولنا تنظيم هذا الفيض من المسميات، فإننا سنجد مصطلحًا شاملاً يتمثل فى "اللغة" التى تدور فى فلكها "اللهجات" التى تُعتبر أحيانًا كمصطلح ازدرائى يعنى بوجه عام "اللغة الفرعية"، أو تكون تمثل وصفية بحتة تعبِّر عن اللهجة باعتبارها الشكل الجغرافى أو الاجتماعى للغة ما. ومن هنا، تكونت اللغة بصورة بطيئة ككيان علمى يصفه عالم اللغة، وكمفهوم جغرافى سياسى (يصحب تشكيل الدولة القومية الإعلان عن لغتها)؛ مما يفسر الاتجاه الشائع بشأن اشتقاق أسماء اللغات من أسماء البلاد والمواطنين فى الدول القديمة (فى فرنسا: يحيا الفرنسيون الذين يتكلمون الفرنسية، وفى إيطاليا: يحيا الإيطاليون الذين يتكلمون الإيطالية...إلخ)، كما هو الحال فى الدول الجديدة (أعيد تسمية اللغة الملايية فى إندونيسيا بحيث تكون bahasa indo-nesia أى اللغة الإندونيسية).

تُضاف إلى النواة الصلبة – أى اللغة وأبنائها غير الشرعيين من لهجات ولهجات محلية – الثمار المخجلة الناتجة عن تطويع أو تحويل الشعوب للغات النموذجية (اللغات

الحرفية، ولغات الرطانة)، أو الناتجة عن حالات الاختلاط (البيدجين، والسابير، والكريول، ولغة الفرنجة). إن لغات الكريول التى كانت تعتبر فى الأساس بمثابة أبناء غير شرعيين تسير فى طريق الاعتراف بها لا كأبناء شرعيين ولكن كأبناء طبيعيين معترف بهم. ومن هنا، بدأت الصعوبات؛ لأنه بدأ الخلط بين الأشكال والوظائف والتاريخ، دون التمكن من ترتيبها بشكل تسلسلى. وقد يبعث على الاطمئنان أن نأخذ فى اعتبارنا هنا أن علم اللغويات قد أرسى عدداً من المفاهيم المحددة ذات المعنى الواحد التى تثير تمثيلات المتكلمين بشأنها بعض القلاقل. وهذا أمر خاطئ رغم أنه يبعث على الاطمئنان؛ لأن كل هذه الكلمات التى لا تشكل نسقًا اصطلاحيًا موحداً (لغة، ولهجة محلية، وبيدجين، وكريول...إلخ) تستخدم يوميًا فى الخطاب اللغوى.

بدأ الاعتراف بشرعية لغات الكريول، مع وجود الافتراض الخاص بدورة البيدجين-الكريول، ومع ظهور الفكرة الخاصة بأن الكريول ليست سوى بيدجين تحولت إلى "لغة أم" لجماعة ما. ونلحظ هنا أمراً شديد الإيحاء: فى مجموعة متصلة إيديولوچية تتجه من الرطانة نحو اللغة ذاتها، تم وضع تصنيف يستند إلى معيار (اللغة الأم)، وكان ينبثق عن الرومانسية الألمانية التى عملت على إضفاء قيمة ما على الممارسات التواصلية بغض النظر عن وظائفها أو ظروف بزوغها. وخلاصة القول، تكون الغلبة لأسطورة لبن الأم، حيث لا وجود بالطبع لأية نظريات أو تفسيرات، ولكن مجرد تمثيلات فحسب. وهذا التحليل يفتقر إلى بعد النظر ويتجاهل الجانب التاريخى، حيث نجد "اللغات" من جهة، بينما نجد من جهة أخرى أشكالاً لغوية مختلطة غير مكتملة وغير تامة فى طريقها إلى البزوغ. ومن هنا، كان الاندفاع نحو التوسع فى دلالة كلمة "كريول"، بحيث تشمل سلسلة من الأشكال الناقلة التى لا يمكن اعتبارها كلغات كاملة، مع الاتجاه فى الوقت ذاته نحو تسمية هذه الأشكال بالـ"البيدجين/الكريول"، كما لو كان الأمر يتعلق بعدم اتخاذ موقف إزاء الجدل بشأن دورة البيدجين-الكريول، والمداومة على اعتبار هذه الأشكال كأشباه للأشكال التى نشأت فى المستعمرات، فى إطار اختلاط العبيد الذين تتنوع لغاتهم، ويسعون إلى امتلاك لغة أسيادهم .

لغات الكريول ليست...

نهدف من استخدام أسلوب النفى- فى هذا العنوان الفرعى- إلى توضيح زيف الاتجاه الذى يكاد يكون عامًا بشأن اشتمال لغات "الكريول" على جميع الأشكال اللغوية الناقلة على اختلاف درجاتها، أو حتى الأشكال التى تم استخدامها كلغات ناقلة، ولا سيما فى أفريقيا. وقد ورد مثال جيد على هذا الاتجاه فى الدراسات الوصفية للغة جوبا العربية Juba والكينوبى Ki-nubi باعتبارهما من الأشكال العربية الناقلة (التى تحولت فى بعض الحالات إلى أشكال ذات صبغة محلية) فى جنوب السودان وأوغندا وكينيا. وقد تشابهت عبارات كل من كيس فيرستيغ Kees Versteegh وكاثرين ميللر Catherine Miller بشأن عرض تاريخ هذين الشكلين. يبدو أن هاتين اللغتين قد انحدرتا من "البمباشى العربية"- أى لغة "عربية بيدجين" (ميللر)، أو "نوع عربى بيدجين هجين" (فيرستيغ)- التى تم استخدامها فى نهاية القرن التاسع عشر، بين الجنود المصريين والمجندين الجدد غير الناطقين بالعربية، حينما جاء الجيش المصرى الإنجليزى من أجل تهدئة الأوضاع فى جنوب السودان. وفيما بعد، تبع هؤلاء المجندون- ولا سيما ذوى الأصول النوبية - الجيش البريطانى فى أوغندا وكينيا، واستمروا فى التحدث بهذا الشكل العربى المشتق من لغة البمباشى العربية التى أطلق عليها اسم Ki-nubi، أى "لغة النوبيين"المستخدمة دومًا فى الكلام حول كمبالا ونيروبى. وفى الوقت ذاته، استمر استخدام لغة البمباشى العربية كـ"لغة تجارية" فى جوبا وجنوب السودان، حيث أسفر تعدد حالات الزواج داخل الأعراق هناك عن صياغة لغة أم، أى لغة كريول هجين، وهى لغة ناقلة فى المنطقة الريفية ولغة أولى فى المدينة. ويسوق لنا تقريبًا مورو توسكو Mauro Tosco الصورة نفسها بصدد هذا الوضع، حيث يعتبر لغة جوبا العربية بمثابة "إحدى لغات البيدجين التى رسخت لدى غالبية المتكلمين (...)، وإحدى لغات الكريول بالنسبة لأقلية من المتكلمين"، كما صنف جوناثان أونز Jonathan Owens الكينوبى ولغة جوبا العربية باعتبارهما من لغات البيدجين/الكريول. وفى أربع الحالات (فيرستيغ وميللر وتوسكو وأونز)، نجد أنفسنا فى إطار النظرية

الكلاسيكية الخاصة "بدورة البيدجين-الكريول": لغة الكريول كانت فى السابق لغة بيدجين صارت لغة أم لجماعة ما، و"الأقلية" التى صارت بالنسبة إليها لغة جوبا العربية كإحدى لغات الكريول تعد هنا جزءاً من السكان الذين يعتبرونها لغتهم الأولى، فى حين أنها ظلت إحدى لغات البيدجين بالنسبة للسكان الآخرين.

إلا أن الأوصاف التى يسوقها لنا فيرستيغ أو ميللر بشأن لغة جوبا العربية توضح أننا بصدد لغة ناقلة صارت لغة محلية بالنسبة لجزء من السكان. ولا يندر حدوث هذه العملية التى تتجلى حاليًا من خلال لغة الولوف فى دكار على سبيل المثال؛ فالولوف الحضرية قد يعتبرها البعض من لغات البيدجين، بينما يعدها البعض الآخر من لغات الكريول. وتجلى هذا الوضع كذلك من خلال لغة المونوكوتوبا فى برازافيل والرأس السوداء؛ فقد صارت هذه اللغة فى المدينة من لغات الكريول، بينما هى من لغات البيدجين على طول خط السكك الحديدية حيث تضطلع بوظيفة ناقلة، كما هو الحال بالنسبة لفرنسية أبيدچان التى قد تكون بيدجين أو كريول وفقًا لمقتضيات الأحوال. وعلى غرار الأسلوب ذاته، قدم فى العديد من الإصدارات ويليام سامارين William Samarin لغة السانجو sango المستخدمة فى كلام وسط أفريقيا، ولغتى الكيتوبا واللينجالا المستخدمتين فى كلام دولتى الكونغو، باعتبارها من لغات البيدجين و/أو الكريول. ويمكننا أن نذكر العديد من الأمثلة الأخرى بشأن هذا الاتجاه نحو اشتمال لغات الكريول فعليًا على جميع الأشكال الناقلة التى تحتوى أصولها على أى قدر من الخلط، والتى اصطبغت بالصبغة المحلية. إذا ما طبقنا دورة البدجين/الكريول على الأوضاع اللغوية، فإنه من الممكن اعتبار جميع لغات العالم من لغات الكريول، وهو ما لا يضيف الكثير إلى الجانب النظرى، بل يفتقر إلى الدقة؛ لأننا لن نجنى شيئًا من وراء إضافة مصطلح "كريول" إلى جميع الأنواع اللغوية دون الحاجة إلى ذلك...

سيجىء بلا شك اليوم الذى لن نتحدث فيه مطلقًا عن لغة هايتى الكريولية بل اللغة الهايتية، أو عن لغة موريشيوس الكريولية بل اللغة الموريشيوسية...الخ. لكن بما أنه يبدو أن هذا الأمر ما زال بعيداً، فلابد من تحديد المصطلحات التى نستخدمها.

ولعل العلماء كانوا قد يطلقون على اللغة الإنجليزية اسم "البيدجين" ثم "الكريول"، إذا ما شهدوا تشكيل هذه اللغة إبان العصور البعيدة، ولا أحد ينكر اليوم وضع الإنجليزية كلغة قائمة بذاتها.

لكن ماذا تعنى كلمة "كريول"؟ لا نبغى من وراء ذلك إيجاد حل نهائى للجدل القائم منذ فترة طويلة، بل نسعى إلى تحليل بعض الأوضاع على ضوء علم البيئة اللغوية، ولا سيما الأوضاع التى تنبثق عن جلب العبيد إلى مزارع المحيط الهندى أو البحر الكاريبى. ويبدو لنا أنه من الحكمة قصر كلمة كريول على الإشارة إلى الأشكال المستقلة التى انحدرت من لغات المستعمرين، فى إطار الظروف التى سنعرض لها، مع اعتبار لغات مثل لغة جوبا العربية أو المونوكوتويا أو السانجو لغات ناقلة تحولت فى بعض الحالات إلى لغات محلية. وعلى أقل تقدير، هذا هو الموقف الذى نتبناه فى هذا الشأن .

لغات الكريول قد تكون...

اعتبرنا لسنوات طويلة لغات الكريول كلغات بيدجين صارت اللغة الأولى للجماعات السكانية المستعبدة. إن هذا الرأى الذى تم التخلى عنه حاليًا كان مثيرًا للجدل بصورة تفوق ما نناقشه بشأن مصطلحى البيدجين والكريول المستخدمين فى تسمية أشكال لم توصف فى الغالب بصورة كافية أو لم يكن وصفها جيدًا، حيث لم يتم تعريف مثل هذه المصطلحات ذاتها بشكل جيد، وتم استخدامها على جميع الأوجه. إلا أننا سنعرِّف من جانبنا البيدجين الهجين باعتبارها "تعويض الممارسة الاجتماعية عن غياب لغة مشتركة" فى ظل أوضاع تستشعر خلالها ضرورة التواصل: تضطلع البيدجين بوظيفة النقل اللغوى المحددة فى إطار بعض المجالات. ولنذكر على سبيل المثال ما كتبه روشفور Rochefort عام ١٦٥٨ فى كتابه "التاريخ الطبيعى والأخلاقى لجزر الأنتيل فى أمريكا الجنوبية" Histoire naturelle et morale des îles Antilles de l'Amérique، حيث خصص فصلاً كاملاً لبعض "الملاحظات حول لغة البحر الكاريبى". أشار روشفور إلى أن سكان هذه المنطقة قد شكوا إلى جوار لغتهم الخاصة "لغة أخرى هجين تختلط بها

العديد من الكلمات الأجنبية، من خلال ممارسة التجارة مع الأوروبيين. وقد اقترضوا بوجه خاص الكثير من كلمات الإسبانيين؛ لأنهم المسيحيون الأوائل الذين اقتربوا منهم وحادثوهم". إن ما يصفه هنا هو بالتحديد مثال على بزوغ إحدى لغات البيدجين، أى ظهور شكل ذى استخدامات محدودة بين مجموعات تمتلك كل منها لغتها الخاصة من أجل الاضطلاع بالوظائف الأخرى. ثم ذكر بعد ذلك أنهم "حينما كانوا يتحدثون أو يتفاوضون مع المسيحيين، فإنهم كانوا يستخدمون لغتهم بصورة خاطئة. وعلاوة على ذلك، فإن أحاديثهم كانت بمثابة رطانة غير مفهومة تثير الضحك إذا ما رغبوا فى التحدث بلغة أجنبية. ومن ذلك قولهم compère gouverneur أى "الزميل الحاكم"، حيث كانوا يستخدمون بوجه عام بوجه عام كلمة compère أى "زميل" مع كل من يعدونهم من الأصدقاء أو الحلفاء. وهكذا، فإنهم يجاهرون بقولهم compère Roy إذا ما سنحت لهم الفرصة. ومن ذلك أيضًا ما يقولونه بوجه باسم للفرنسيين بغية امتداحهم:Ah si toy bon pour caraïbe, moy bon pour France أى "إذا ما كنت طيبًا مع الكاريبى، فأنا طيب مع فرنسا".

وهكذا، يؤكد روشفور وجود شكلين مختلفين هما: "لغة خاطئة" تستخدم فى التحدث مع المسيحيين، و"رطانة مضحكة" تستخدم عند الرغبة فى التحدث "بأية لغة أجنبية"، وإذا ما كانت اللغة الأولى تتبع تشكيل البيدجين، فإن الثانية تنبثق بالأحرى عن اكتساب الفرنسية بصورة عشوائية.

ومن ثمَّ، يتعين تصنيف لغات البيدجين فى إطار مجموعة اللغات الناقلة التى قد يكون من المناسب إخضاعها لتصنيف نوعى يميِّز بين اللغات ذات الصبغة المحلية المستخدمة كلغات ناقلة (الفرنسية والإنجليزية...إلخ)، واللغات التى تم تشكيلها من أجل الاضطلاع بوظيفة النقل اللغوى (المونوكوتوبا، أو لغة البمباشى العربية على سبيل المثال)، والتى تتحول فى بعض الأحيان إلى لغات محلية مثل المونوكوتوبا فى الكونغو، ولغة البمباشى العربية فى جوبا بالسودان)، والأشكال التقريبية التى يقتصر استخدامها على بعض علاقات التماس الناقلة ونعنى بها لغات البيدجين. ولا يقضى

بالتأكيد هذا التصنيف النوعى على جميع المشكلات، حيث تظل أمامنا على سبيل المثال دراسة تداعيات عملية اضطلاع لغة ما بوظيفة ناقلة، أو إضفاء الصبغة المحلية على اللغات، لكننا سنكتفى بما لدينا فى الوقت الحالى.

وهكذا، يحين دور لغات الكريول بعد لغات البيدجين، سننطلق من المبدأ القائل بعدم وجود أى سبب للتمييز بين أى من لغات الكريول وسائر اللغات الأخرى. وقد نؤيد بالطبع وجود اختلاف على صعيد تطور اللغات التاريخى، حيث تتفرد لغات الكريول الهجين بطريقة ظهورها...إلخ. لكن خصوصية لغات الكريول تتمثل بكل بساطة فى حداثتها التى تجعلنا نعرف أو نعتقد أننا نعرف تاريخها بشكل أفضل من اللغات القديمة. ويجب فى الواقع أن يصاحب جانب الحداثة والقدم جانب آخر يتمثل فى الشفهية والكتابة. إننا نمتلك بعض الوثائق المكتوبة حول بعض اللغات "القديمة" مثل اللغة الفرنسية، ووجود هذه الوثائق يعوض قدم هذه اللغات، فى حين لا نعرف الكثير عن بعض اللغات الأخرى التى لا نجد فعليًا بشأنها أية مصادر مكتوبة، مثل لغة الكينشو على سبيل المثال فى منطقة الأنديز. إلا أنه لا يوجد ما يميز توظيف لغة الكريول عن غيرها من اللغات، ويبدو أن هذا المصطلح يتضمن اليوم استخدامًا إيديولوجيًا يماثل استخدام اللهجة فى الماضى القريب؛ فلا يوجد اختلاف علمى بل هناك اجتماعى، حيث تشير كلمة كريول بكل بساطة إلى ما لا نريد أن نخلع عليه صفة اللغة. ونكرر مجدداً أن كل أنواع الكريول هى لغات تماس تتيح لنا حداثتها النسبية تدبر أوضاع بزوغها بصورة أفضل، وإن كان هناك العديد من اللغات الأخرى الشهيرة التى تعد من لغات التماس مثل اللغة الإنجليزية.

إلا أن ذلك لا يعنى بالضرورة أن جميع الأشكال الأخرى التى تدخل تحت مسمى الكريول تختلف عن اللغات التى انبثقت عنها، مما يضعنا إزاء مشكلة نظرية أخرى تتجاوز بشدة إطار الدراسات الكريولية. متى تكف لغة ما عن البقاء على حالها من أجل التحول إلى لغة أخرى أو الانقسام إلى لغتين مختلفتين؟ وقد يجيب البعض على هذا التساؤل بقولهم إن ذلك يحدث حينما يعجز المتكلمون عن فهم بعضهم البعض. لكن هناك سببان يحولان دون استخدام معيار التفاهم المشترك:

١- على صعيد التزامن اللغوى، هناك أوضاع تعد فيها بعض اللغات مختلفة؛ لأن متكلميها يرغبون فى جعلها مختلفة. وينطبق ذلك على اللغة الهندية أو الأردية فى الهند. وهذا هو حال الكرواتية والصربية فى يوغسلافيا السابقة (سنعرض لهذه الحالة فى الفصل السادس). لا يناقش أحد قضية التفاهم المشترك بين الصرب والكروات، لكن الصرب والكروات ذاتهم يصرحون اليوم أنهم يتكلمون لغتين مختلفتين هما اللغة الصربية واللغة الكرواتية. وقد يستطيع اللغويون أن يدَّعوا دومًا أحقيتهم فى معارضة تمثيلات المتكلمين اللغوية، مما يعد أمرًا صحيحًا إلى حد ما، لكن يظل أن مثل هذه التمثيلات قد تكون من عوامل الاختلاف، وتثبت على المدى الطويل خطأ اللغويين؛ فالأشكال التى نرغب فى جعلها مختلفة تنتهى بأن تكون مختلفة .

٢- على صعيد التطور اللغوى التاريخى، يعد بكل بساطة الاختلاف بين بعض الأشكال اللغوية من ظواهر التطور، وما نطلق عليه اسم "لغة شعبية" هو فى الغالب لغة "متقدمة" تنفصل عن الشكل الفصيح الأكثر جمودًا. وإذا ما عرضنا على سبيل المثال معطيات كاثرين ميللر Catherine Miller بشأن كل من لغتى الخرطوم وجوبا العربيتين سنجد :

	الخرطوم	جوبا
١	nass balad	Al-nasi ta béle (ناس البلد)
٢	beeti	jua tai (بيتى)
٣	chuftak	ana ainu eta (رأيتك)
٤	chuftani	eta ainu ana (رأيتنى)
٥		uo rakabu laam (طهت اللحم)
٦		rakabu ta laam (طهى اللحم)
٧		laam rakabu (نضج اللحم)
... الخ		

نلاحظ فى رقم ١ و٢ أن المقطع العربى الخاص بجوبا يحمل تركيبًا تحليليًا من أجل التعبير عن المضاف إليه، بينما يحوى مقطعا جوبا فى رقم ٣ و٤ أشكالاً فعلية

ثابتة، وجاء استخدام النغمة بوجه خاص فى الكلمات ثلاثية المقطع، من أجل التمييز بين فعل الكينونة والفعل المبنى للمجهول...إلخ، وكل ذلك يشبه للغاية ظاهرة الضبط الذاتى لتطور اللهجات. حينما تنتشر لغة واحدة فى أراضٍ شاسعة، يمكن أن تنبثق عنها أشكال مختلفة "متقدمة" تستطيع أن تقترب بصورة كافية من اللغة النموذجية فى كل بقعة من هذه الأرض لإتاحة التفاهم المشترك، ومع ذلك يأخذ هذا التفاهم فى التضاؤل شيئًا فشيئًا. وقد يبدو الأمر متناقضًا، لكننا نمتلك العديد من الأمثلة على ذلك. إن الفلاح البوليفى الذى يتكلم "الإسبانية" لا يفهم بالضرورة الفلاح الإسبانى الذى يتكلم أيضًا الإسبانية، والفلاح المغربى الذى يتحدث العربية لا يفهم الفلاح اللبنانى، لكن فى كل دولة من هذه الدول يمكن أن يتحقق التفاهم المشترك بين المتكلمين من خلال الأشكال النموذجية والعامية للغة المعنية(١). وبالأسلوب نفسه، يبدو الفرنسيون متفاهمين فيما بينهم، مثلهم فى ذلك مثل سكان كيبك، إلا أنه ستظهر بلا شك صعوبات فى التواصل بين المزارع القادم من جنوب غرب فرنسا والصياد القادم من جزر المادلين Madeleine فى كيبك.

وينطبق الأمر ذاته على لغات الكريول، حيث يتحقق أحيانًا التفاهم المشترك بين متكلم الفرنسية النموذجية ومتكلم الكريولية الهجين، وأحيانًا أخرى لا يتحقق. لقد أثر التاريخ على هذا الوضع اللغوى الذى يتحدد بواسطة الوضع الاجتماعى والتمثيلات اللغوية؛ مما يؤدى إلى تطور الأشكال اللغوية، بحيث يمكن أن يسير تطورها فى اتجاهين: الانشقاق (الانفصال) أو الاندماج (عدم ظهور لغات كريولية). ولا يعد هذان القطبان المحتملان ثمرة القوى اللغوية الداخلية فحسب؛ مما يحول دون وجود أية تنبؤات بهذا الصدد: لا يستطيع أحد أن يقول مثلاً إن اللغة الكريولية الخاصة بمنطقة

(١) حَرِيٌّ بنا أن نذكر المفارقة الطريفة التى يمكن أن تكون أكثر عمومية، والتى وقعت فى سبتمبر عام ١٩٩٨، فى أثناء انعقاد إحدى الندوات بالرباط فى المغرب، حيث شهدنا محاولة للتواصل بين إحدى اللبنانيات وأحد الجزائريين، وكل منهما يتحدث لغته الأم، أى العربية اللبنانية والعربية الجزائرية؛ فلم يتمكن أى منهما فى فهم الآخر ، وهو ما تجاوز حدود كل توقعاتنا.

La Réunion ستصير خلال عقد من الزمان أحد أشكال اللغة الفرنسية الإقليمية، أو تصير لغة مستقلة عن الفرنسية، بحيث تنتمى إلى جيل جديد من اللغات الهندية - الأوروبية، ثم نقول عنها إنها إحدى "اللغات الفرنسية" كما نقول حاليًا إن الفرنسية هى إحدى "اللغات الرومانية"، والتطور سيعتمد أيضًا على عوامل خارجية مثل التمثيلات والسياسات اللغوية وغيرها.

أثارت مشكلة تكوين اللغات الكريولية- منذ حوالى عشرين عامًا- مناقشات نظرية حادة أدت إلى مجابهة العديد من الافتراضات. إذا ما كان هناك اتفاق عام وفعلى على أن لغة السلطة "اللغة الغالبة"(١) أو "لغة منح المفردات" تعطى لغة الكريول جزءًا كبيرًا من مفرداتها، فقد انقسمت الآراء والنظريات فيما بعد بصورة يمكن تصنيفها حاليًا لثلاث مجموعات كبيرة :

١- **نظرية اللغة المتنحية** (٢): القواعد الصرفية والنحوية فى لغات الكريول تأتى فى الأساس من اللغات المتنحية؛ وهو ما حدث فى حالة اللغات الكريولية بجزر الأنتيل التى تستمد قواعدها الصرفية والنحوية من اللغات الأفريقية؛ وهكذا صارت لغات الكريول لغات أفريقية من حيث الأسس النحوية والصرفية والدلالية ، لا من حيث المفردات التى كانت وحدها مقترضة من اللغات الأوروبية. وعقب الانتهاء من هذه النظرية ، تولدت من خلالها نظرية إعادة تشكيل المفردات، حيث تجمع فريق من الباحثين فى كيبك حول كلير لوفوبڤر Claire Lefebvre، وأيدوا كون اللغة الهايتية هى لغة الفون fon المستخدمة فى بنين، باستثناء شكلها الصوتى المأخوذ عن اللغة الفرنسية.

٢- **النظرية الكونية** : لا يعد تأثير اللغات المتنحية أمرًا قاطعًا، حيث تُظهر لغات الكريول "برنامجًا بيولوجيًا" يعد بمثابة نظام لغوى فطرى يتواجد فى أصل جميع

(١) [نعنى باللغة الغالبة superstrat اللغة التى تحل محل لغة أخرى لدى شعب ما، بسبب ظروف عسكرية أو اقتصادية أو ثقافية، وتقابلها اللغة المتنحية .substrat]

(٢) [نعنى باللغة المتنحية اللغة التى كانت سائدة فى مجتمع ما، ثم حلت محلها لغة أخرى لأسباب اقتصادية أو دينية أو ثقافية أو عسكرية.]

اللغات، لكن الحركات التاريخية والتطورية تتسبب إلى حد ما فى محوه وإضعافه. وقد يبزغ مجدداً هذا البرنامج البيولوجى حينما يكتسب الأبناء لغتهم الأولى وتتشكل لغات الكريول. ويبدو أن هذا الموقف الذى عرضه ديريك بيكيرتون Derek Bickerton – وبلغ ذروته خلال الثمانينات– قد فقد حالياً جزءاً كبيراً من المدافعين عنه.

٣– <u>نظرية التوليد الأوروبى أو اللغات الغالبة</u> : تنحدر لغات الكريول الهجين من "لغات أم" أوروبية، حسب الشكل الذى كان يتكلم به البيض الذين رحلوا باتجاه الجزر. ويظل أمامنا بالتالى أن نجيب على التساؤل بشأن أسباب وكيفية اختلاف هذه اللغات عن اللغات الأوروبية. والإجابة الأكثر ملاءمة على هذا التساؤل هى تلك التى تعرّف لغات الكريول باعتبارها "مقاربات للمقاربات". يتضح هذا الموقف من خلال أبحاث روبرت شودينسون Robert Chaudenson الذى شدد على الأوضاع الاجتماعية التاريخية لظهور لغات الكريول (عدد العبيد وأصولهم والعلاقات التى تربطهم بأسيادهم)، وميز بين مرحلتين هما مرحلتى المجتمع السكنى والمجتمع الزراعى. تختص المرحلة الأولى بإقامة المستعمرين، حيث كانت هناك أعداد صغيرة من العبيد (أربعة أو خمسة فى أسرة كل مستعمر) الذين كانوا يعيشون ويعملون إلى جوار البيض؛ مما جعلهم يكتسبون لغتهم بصورة سريعة أو على الأقل بصورة تكفى لإتاحة سهولة التواصل معهم. بينما تختص المرحلة الثانية بالتنمية الزراعية والصناعية للمستعمرات، حيث استلزم الأمر زيادة أعداد العبيد بصورة كبيرة، وانطلق الوافدون الجدد تحت إمرة العبيد الكريوليين من الشكل اللغوى الذى يستخدمه هؤلاء نقلاً عن البيض. وصارت هذه المقاربة الثانية بمثابة النموذج المفسر لبزوغ لغات الكريول .

يعرض لنا الموقفان الأوليان (إعادة تشكيل المفردات والبرنامج البيولوجى) موقفاً جديداً يتمثل فى البقاء داخل الإطار النظرى ذاته الخاص بالقواعد التوليدية، أو على الأقل عدم التعارض معها. لقد ذكرنا فى المقدمة – عند تناول كتاب س.بينكر S.Pinker – نظرية شومسكى المعروفة باسم "أسس ومتغيرات"، حيث لا ترى فى لغات العالم سوى أنها متغيرات سطحية لنفس القواعد الفطرية الكامنة؛ فتعكس جميع اللغات "الأسس" نفسها، ولا تتميز سوى بفعل "المتغيرات"؛ مما قد يعنى أنه عند إحدى المستويات المجردة يتكلم البشر جميعاً لغة واحدة. إلا أن هذا التحليل ينتزع جزءاً كبيراً من أهمية

معالجة لغات الكريول من منظور إعادة تشكيل المفردات. ولن تكون هناك جدوى من محاولة إثبات كون لغة هايتى الكريولية هى ذاتها لغة الفون، إذا ما اعتبرنا أن جميع اللغات هى مجرد تحقيق للأسس ذاتها. ونرى بوضوح مدى التوافق بين فكرة البرنامج البيولوجى ونظرية "الأسس والمتغيرات"، بل إن هذا البرنامج يصطدم بالصعوبات نفسها التى تواجهها تلك النظرية، والتى تتمثل فى الحقيقة التى لا يمكن إغفالها بشأن اختلاف لغات العالم، وشدة تنوع تنظيماتها، بحيث يصعب إرجاعها جميعًا إلى نموذج واحد. ويعد الموقف الثالث الذى شرحه شوديسون بمثابة الموقف الوحيد الذى يأخذ فى اعتباره الوقائع التاريخية والاجتماعية. فلا جدوى فى الواقع من التسليم بتأثر أى من لغات الكريول بأى من لغات العبيد، إذا لم نثبت أولاً أن غالبية هؤلاء العبيد قد قدموا من منطقة كانت تستخدم فيها هذه اللغة، كما يصعب إعادة بناء عملية ظهور لغات الكريول بدون دراسة أوضاعها السكانية والاجتماعية عن كثب. إلا أن الافتراضين الأوليين يعكسان بصورة واضحة سمة الاستمرار فى اعتبار اللغات بمثابة مجموعة من "الأشياء" بغض النظر عن المتكلمين والأوضاع المحيطة بها.

رغم اختلاف هذه الافتراضات الثلاثة بشأن أصل لغات الكريول، فإنها تشترك فى جانب واحد ألا وهو التناول الدائم لمشكلة تهجين اللغات الكريول فى إطار ظهور شكل لغوى ما. إلا أنه سواء تم اعتبار لغة الكريول الهجين بمثابة شكل جديد (لغة جديدة) أو بمثابة تطور لأحد الأشكال السابقة، فإن ظهورها يرتبط حتمًا بحدوث حالة اختفاء أو تحول لغوى أو حدوثهما معًا. وهذا ما دعانا إلى تناول لغات الكريول فى هذا الفصل المخصص لنقل اللغات والأوضاع اللغوية؛ فالكريول تشكل بالفعل حالة خاصة على صعيد نقل اللغات والأوضاع اللغوية. وقد استخدم علماء اللغة فى أغلب الأحيان نموذج التواصل الذى يضع المرسل (E) أمام المُستقبل (R)، حيث يتبادلان رسالة ما mes-sage بفضل وجود رموز اتصال مشتركة، ورد فعل المستقبل يتيح للمرسل التحقق من وصول رسالته على نحو جيد:

E -----. message ----->R

رمز لغوى مشترك

يتيح هذا النموذج كذلك تمثيل عملية اكتساب الرموز اللغوية: يتم تعليم هذه الرموز من خلال ما يتبادله المرسل والمستقبل، حيث يتلقى المستقبل المعلومة من البيئة الاجتماعية (الوالدان، والجماعة المحيطة، والمجتمع)، ثم يقوم بإرسال بعض العبارات، فى حين يعد المجتمع مرسلاً للرموز والتمثيلات على حد سواء، لكننا نجد هنا خلطاً بين الرموز والرسالة. وتتمثل فى الواقع عملية الاكتساب فى استخراج رموز الاتصال من الرسائل من خلال تطبيق الافتراضات المتتالية التى تؤكدها أو تدحضها ردود الأفعال القادمة من الكيان الاجتماعى. وهكذا، يعمل الطفل على تكوين العبارات من خلال تطبيق القواعد التى يستخرجها مما يتلقاه، كما تعمل البيئة المحيطة على تصحيح كلامه واستدراكه حينما تكون قواعده غير سليمة، أى حينما لا تمكنه هذه القواعد من إنتاج عبارات تقبلها هذه البيئة. ومن ثم، نجد أن الطفل الصغير الذى يتعلم اللغة الفرنسية كلغة أولى يتجه نحو إسناد جميع الأفعال الفرنسية إلى المجموعة الأولى التى تنتهى بـ er (parler, manger, chanter)؛ مما يؤدى به إلى انتهاج أسلوبين يحرص المحيط البيئى على منعهما:

- ابتكار أفكار على غرار أفعال المجموعة الأولى دون أن يكون لها وجود فعلى فى اللغة الفرنسية، مثل boiver بدلاً من boire أى "يشرب"، و rier بدلاً من rire أى "يضحك"...إلخ.

- إخضاع بعض الأفعال الأخرى لتحويلات لا تقبلها سوى أفعال المجموعة الأولى؛، وذلك لأنه من خلال نموذج مثل النموذج التالى:

Je mange > Il faut que je mange

Je parle > Il faut que je parle

Je chante > Il faut que je chante

ينطق الطفل عبارات ذات صيغ خاطئة ستعمل البيئة المحيطة على تصويبها فى نهاية الأمر مثل :

Je sais > Il faut que je sais

Je viens > Il faut que je viens

Je prends > Il faut que je prends

يعمل هذا النموذج بصورة مُرضية فى حالة اكتساب اللغة الأولى. ولا سيما إذا ما كانت هذه اللغة هى اللغة المستخدمة داخل الأسرة والبيئة الاجتماعية على حد سواء. ويكون المتعلم بالتالى على علاقة دائمة بـ "المتكلمين الشرعيين" للغته الذين يمتلكون المعيار اللغوى؛ مما يجعله عرضة لعمليات تصويب دائمة من قبل المحيط الاجتماعى. ويختلف الأمر فى حال استخدام هذه اللغة بين متكلمين لا يمتلكون ردود أفعال معيارية، وخير الأمثلة على ذلك متكلمو لغات الكريول الهجين ومتكلمو اللغات الاستعمارية المكتسبة خارج إطار التعليم المدرسى (اللغتين الإنجليزية والفرنسية فى أفريقيا على سبيل المثال)، إلا أن هذه الحالة لا تختلف عن حالات أخرى مثل اللغات الفرنسية "الهامشية" المستخدمة فى أمريكيا الجنوبية على سبيل المثال.

ومن ثمَّ، نجد أن "مختبر الكريول"[1] لا يوضح لنا بالضرورة نشأة لغة جديدة، بل يوضح بالأحرى الإسراع بالتطور تحت تأثير اضطراب البيئة اللغوية. وفى بقاع خاصة من الكرة الأرضية، تسبب اضطراب التوازن البيئى فى تحول بعض الأشكال اللغوية بشكل سريع للغاية. مما يحتم علينا بالتالى قياس هذا الاضطراب، مع الأخذ فى الاعتبار عدد كبير من المتغيرات من بينها حالات انتقال الجماعات السكانية (ما ماهية هذه الجماعات ؟ ومن أين جاءت ؟ وأى اللغات كانت تتكلمها ؟)، وكذلك غياب اللغة الناقلة بين العبيد، وطرق اكتساب لغة السلطة المتاحة فى البيئة اللغوية، وغياب المتكلم "الشرعى" القادر على تصحيح الافتراضات الخاصة برموز الاتصال، وبذور رموز الاتصال المستخرجة من الرسائل وأشكال التنظيم الاجتماعى ...إلخ.

ومن هنا، نفترض أن "تكوين" لغات الكريول يجمع بين عمليتين مرتبطتين هما عدم انتقال لغات العبيد من جهة، والاكتساب "العشوائى" وغير الرسمى للغة أخرى

(١) نعيد هنا استخدام تعبير كلود هاجيج Claude Hagège .

تتواجد داخل محيط البيئة اللغوية من جهة أخرى، ومن الأمثل تحليل هذا التكوين كنتاج لعملية الاكتساب. ولا يعد هذا الموقف بالأمر الجديد، بل يندرج فى إطار موقف شودينسون الذى أوجزناه أعلاه، لكنه يسمح لنا بتحليل عملية تهجين اللغات فى الإطار نفسه الذى سقناه فى الفصل الثالث بشأن اللغات الفرنسية الأفريقية: التأقلم أو التكيف أو كلاهما معًا. وكما سبق أن رأينا، فإن التأقلم يحدث حينما ينتقل نوع ما من بيئة إلى أخرى، وينجح فى البقاء حيًا داخل البيئة الجديدة، بينما تحدث عملية التكيف حينما يتمكن هذا النوع من التكاثر فى البيئة الجديدة. ومن ثم، يصبح التأقلم بمثابة عملية تكيف انتقالى، فى حين يصير التكيف إلى حد ما كغرس الجذور فى الأرض الجديدة. ومن هذا المنطلق، يتضح أن لغات الكريول تنبثق عن عملية التكيف، حيث تبدأ فى الانتقال من جيل إلى آخر. فقد كانت الأوضاع البيئية اللغوية التى أحاطت بالعبيد (تعدد اللغات، وغياب التفاهم المشترك، وعدم وجود لغة ناقلة غير لغة الأسياد الأوروبية...إلخ) سببًا فى سعيهم نحو حل مشكلة التواصل من خلال اكتساب اللغة المتاحة فى البيئة المحيطة سواء كانت اللغة الفرنسية أو الإنجليزية أو البرتغالية أو غيرها من اللغات الأخرى. لكن فى ظل غياب التماس المباشر مع حائزى المعيار الشرعى لهذه اللغة، تُرك هؤلاء العبيد لأنفسهم، حيث جنحوا بمنطق اللغة دون تصويب كلامهم، كأن يقول الطفل: **Il faut que je sais**، على غرار نموذج **Je mange > Il faut que je mange**، بدون أن يصحح له أى فرد مقولته الخاطئة، بل أوَّل هؤلاء العبيد ما يشهدونه من ملفوظات تبعًا للعادات المكتسبة، وهو ما ينطبق على عالمهم الدلالى وما يستخدمونه من أصوات (غابت عن لغات الكريول الأصوات الغائبة عن اللغات الأفريقية)، على غرار طريقة تأويل الغاليين **Gaulois**، أو الإيبيريين **Ibères** للغة اللاتينية تبعًا للعادات المكتسبة: ترجع تجزئة اللهجات فى رومانيا إلى اختلاف اللغات المتنحية لكل هذه اللهجات. لقد اعتدنا على تصنيف اللغة الفرنسية فى إطار مجموعة اللغات الرومانية؛ لأن موازين القوى كانت فى صالح اللغة اللاتينية التى تحولت تحت تأثير اللغات المحلية. وكانت موازين القوى فى الجزر لصالح اللغات الأوروبية التى تغيرت بالتالى تحت تأثير لغات العبيد. مما يعنى أنه فى ظل احتمالات تطور هذه اللغات، سلكت اللغة المتنحية اتجاهًا ما من دون الآخر.

وهكذا، اختل نظام البيئة اللغوية لجزر البحر الكاريبى أو جزر المحيط الهندى، بسبب وصول المستعمرين الأوائل وجلب اللغات الأوروبية. فى بادئ الأمر، أدى تكيف اللغة الفرنسية والإسبانية والإنجليزية إلى اختفاء بعض اللغات المحلية فى حال تواجدها. ثم كان جلب العبيد الأفارقة بأعداد كبيرة- من أجل العمل فى مزارع قصب السكر- سببًا فى حدوث رد فعل جديد بشكل ذاتى، حيث لم تتمكن لغات العبيد من التكيف بسبب الأوضاع الاجتماعية التى حالت دون ذلك (تعددية لغوية كبيرة، وجماعات لغوية صغيرة، ووجود لغة أوروبية تعرضت للتكيف من قبل، وتفوق البيض عدديًا فى بادئ الأمر)، لكنها استطاعت أن تغير من لغة المستعمرين؛ مما أسفر عن نشوء لغات الكريول. جاء ظهور هذه اللغات فى ظل وجود "والدين" هما اللغة الأوروبية من جهة واللغات الأفريقية من جهة أخرى، مثلما كان الحال بالنسبة لظهور اللغة الفرنسية من اللغة اللاتينية وإحدى اللغات الجرمانية. ومنذ ذلك الحين، صارت مشكلة إرجاع اللغة الجديدة إلى أحد الوالدين من الأمور الخاطئة؛ لأنها تنبثق عن كليهما، كما أنها مسألة نسبية توازنية. فالطفل يرث الجينات من والديه بنسب مختلفة، ونحن هنا بصدد مشكلة الوراثة السكانية.

أشرنا فى المقدمة إلى التشبيهات العديدة التى استخدمها علم اللغويات، إلا أننا آثرنا أن نستخدم فى هذا الكتاب التصوير البيئى. لكن إذا ما كان التشبيه ينصب على موضوع ما فحسب، فإنه قد يثير كذلك إشكالية ما. فى الحالة الأولى، نقول ما نريد أن نقوله بصورة مختلفة، أو نقول ما سبق أن قلناه على نحو مختلف فى ضوء هذا التشبيه؛ مما قد يعد أمرًا براقًا ولكنه غير مُجدٍ. وفى الحالة الثانية، نبحث من خلال التشبيه عن إثارة إشكالية جديدة بشأن واقع اللغات، وهذا ما حاولنا بلوغه من خلال التصوير البيئى، وإننا سنستطرد قليلاً لدواعى معالجة البيئة اللغوية. ونحن هنا فى الواقع إزاء انتقاء السمات اللغوية، فى ظل التفاعل الداخلى بين خصائص اللغة وبيئتها. وبصدد الانتقاء فى علم الوراثة البيئية، نجد أنه فى حالة وجود واحد من الأزواج البديلة A و B (أى زوج من عناصر المتغيرات الدلالية "ألومورف" التى تضطلع بالوظيفة نفسها وتختلف آثارها) تختلف احتمالات مشاركة الأنواع الجينية

(الخصائص الوراثية)- مثل AA و AB و BB- فى تشكيل الجيل التالى، وتتنوع تبعًا لنشاط البيئة الانتقائى. لذا، تختلف درجة احتمال البرودة لدى حشرات الدعسوقة بنوعيها: السوداء ذات البقع الحمراء والبرتقالية ذات البقع السوداء، ويختلف توزيع سلالات الخريف عن سلالات الربيع.

وإذا ما حاولنا تطبيق كل ذلك على أوضاع "الچينات الكريولية"، لابد أن نأخذ فى اعتبارنا أنه فى حالة وجود اثنين من الأزواج اللغوية البديلة (زوج من عناصر المتغيرات الدلالية "ألوموروف" التى تضطلع بالوظيفة نفسها وتختلف آثارها) ستختلف درجة اشتراك كل منهما فى عملية التغيير بفعل نشاط البيئة الانتقائى والتفاعلات البيئية. وتتجلى تفاعلات البيئة من خلال الممارسات اللغوية، حيث تتخذ أولاً شكل استجابات فردية قد تتفق مع بعضها البعض وتنتهى بإنتاج تغيرات جماعية. ولنذكر فى هذا الشأن أحد الأمثلة البسيطة؛ ففى اللغة الهايتية، تأتى أداة التعريف بصورة لاحقة على الاسم مثل: tabl-la أى "المنضدة"، و piebwa-la أى "الشجرة"...إلخ. من العسير إنكار فكرة اشتقاق هذا الشكل من اللغة الفرنسية ومن مصطلحات مثل cette table-là أو la table-là أى "هذه المنضدة". إلا أننا نجد أنفسنا إزاء مشكلتين: لماذا استمر شكل أداة التعريف اللاحقة على الاسم là ولم تستمر الأداة السابقة le, la, les ؟ وما الشكل الفرنسى الذى يعد أصل هذا التطور؟ لكن ما الذى سبق تلك المحطة النهائية ؟ هذا هو السؤال الرئيسى الذى يثور هنا حول ما نجهله بشدة بصدد الشكل اللغوى الذى سعى العبيد إلى امتلاكه، أى لغة المستعمر الفرنسية (أو فى حالات أخرى إنجليزية المستعمر أو هولندية المستعمر...إلخ). ولا يمكن بالطبع أن نكون هنا بصدد اللغة الفرنسية "النموذجية" الموجودة آنذاك، بل بصدد أشكال القرن السابع عشر الشعبية و/أو الإقليمية التى قد تغيرت بالفعل. وفيما يخص هذا الجانب بعينه (أدوات التعريف والتنكير وأسماء الإشارة)، عقد شوديسنون مقارنة بين مختلف لغات الكريول القائمة على المفردات الفرنسية وكلام أهل كيبك الريفى والفرنسية الشعبية فى مونتريال وفرنسية ميسورى. وتوصل شوديسنون إلى أن ضعف أداة التعريف فى الأشكال الثلاثة الأخيرة قد أدى إلى ظهور la – اللاحقة (le.....la, c'te....la)، بينما حافظت معظم لغات الكريول المختلفة على هذه الـ- la فحسب بالنسبة للمعرَّف و– sala للإشارة.

قد ينزع هذا التحليل إلى اعتبار أشكال اللغة الفرنسية الخاصة بشمال أمريكا كأشكال وسيطة بين المحطة الأخيرة للشكل الأصلى ولغات الكريول، لكنها تعبر مثلهما عن إيجاد حل لموقف ما: "فى ظل ظروف ما وتبعًا لطرق مختلفة، يتمثل التوفيق والتغيير والتهجين فى البحث عن "حلول للإرث"، أى إعادة التنظيم داخل إطار المماثلة وبواسطتها واستخدام النظم اللغوية". ويظل أمامنا التطور نحو الشكل النهائى الذى يتجلى فى لغات الكريول، أى الـ la – اللاحقة التى يمكن أن تندرج تحت ما افترضه شوديتسون، وتعكس فى الوقت ذاته دور اللغات الأفريقية.

تتيح لنا هنا معالجة اللغويات من المنظور البيئى صياغة هذا الافتراض بصورة أفضل. فى ظل عملية اكتساب اللغة الفرنسية من قِبل عبيد يتكلمون لغات أفريقية متنوعة، سنعتبر أنه كان هناك زوج من المتغيرات الدلالية المنقولة من الشكل الفرنسى le (la, les)...là مثل : (le livre-là, ce livre-là, la table-là...) أى "هذا الكتاب" و"هذه المنضدة"، حيث يتم استخدام الحرفين là فى اللغة الفرنسية كأداة إشارة. وهناك كذلك عدد من الطرق المختلفة التى يتم من خلالها التعبير عن التعريف فى مختلف اللغات الأفريقية الموجودة فى المزارع (تغيير نغمة الخاتمة فى البمبارا على سبيل المثال، أو استخدام عنصر لاحق كما هو الحال فى لغة الفون). ساد الشعور بأن الأشكال التى ظهرت فى اللغات الفرنسية الخاصة بأمريكا الشمالية: le (la, les, ce, ces)...là هى أشكال مسهبة يمكن تبسيطها. ومن ثمَّ، فإن عدة عوامل بيئية (اللغات الموجودة بالفعل، وعدد المتكلمين...إلخ) قد ساهمت فى انتقاء الشكل السابق أو اللاحق المأخوذ عن اللغة الفرنسية. ولا يعنى ذلك أن اللغة الهايتية مثلاً هى لغة أفريقية، لكن الأوضاع البيئية اللغوية قد أتاحت بكل بساطة تطور اللغة الفرنسية فى اتجاه ما، وكذلك بالنسبة للغات مثل الإنجليزية والبرتغالية وغيرها فى مناطق أخرى. وإن تتابع الأشكال التى وصفها شوديتسون لا يعد بالتالى نتاج تطور مبرمج يرتبط باللغة الفرنسية التى بدأت منها، بدءًا بـ le أو ce السابقتين وانتهاءً بـ la – اللاحقة ومرورًا بـ le...la أو c'te...la، لكنه يعتبر ثمرة تأثيرات متنوعة كان من بينها بعض سمات لغات العبيد التى قامت بدور الوسيط، والتى يبدو أن أشكال الشمال الأمريكى قد احتلت فيها موقعًا وسطيًا. وهكذا،

يمكن أن تتطور اللغة نفسها بأشكال مختلفة تبعًا لاختلاف محيط البيئة اللغوية التى توجد بها.

ولنعرض الآن الأمثلة التالية التى استعرناها من شودينسون، وهى ترجمة للعبارة الفرنسية je ne sais pas où il est أى "لا أعلم مكانه" بأربع لغات كريولية مختلفة:

١- m'pa kone (ki) koté li yé (الهايتية)

٢- moin pa sav ola i ye (جوادلوبية)

٣- mi koné pa ousa i lé (ريونية)

٤- mo pa koné kot li été (موريشيوسية)

نلحظ فى الأمثلة السابقة أن كل العناصر المكونة للعبارات تنحدر من اللغة الفرنسية، إلا أنه هناك اختلاف بين الفعلين sav/koné من savoir/connaître أى يعرف/يعلم، حيث يغلب الثانى على الفعل الأول، كما اختلف شكل ظرف المكان للكلمتين koté/kot المشتقتين من الكلمة الفرنسية côté أى "جهة"، علاوة على الكلمتين ola/ousa المشتقتين من où, où là, où ça أى "أين" و"أين هذا" و"أين ذاك"...إلخ. وقد جاءت صيغة النفى قبل الفعل فى الأمثلة ١و٢و٤، وبعد الفعل فى المثال الثالث، واشتق دومًا الضمير الشخصى من الشكل الفرنسى moi، لكنه تحقق بصور مختلفة (moin, mi, mo...) ...إلخ.

وبصدد الفعلين savoir/connaître، نلاحظ التناوب فى استخدامهما بالكيفية نفسها فى مختلف اللغات الفرنسية الأفريقية، حيث يُستخدم أحيانًا الفعل connaître بمعنى savoir والعكس صحيح. ويقترب معنى هذين الفعلين فى اللغة الفرنسية النموذجية، لكنهما يتميزان عن بعضهما البعض من حيث البناء (يمكن أن يأتى savoir متبوعًا بمصدر مئول على خلاف connaître) . إلا أننا نجد فى أفريقيا بعض استخدامات الفعل connaître متبوعًا بمصدر مؤول مثل : vous connaissez parler l'anglais أى "أنتم تجيدون التكلم بالإنجليزية"، أو je connais faire la cuisine أى

"أنا أجيد الطهى"، حيث يمكن أن نعتبر هذين الفعلين من الأزواج البديلة التى تعرضت للانتقاء فى مختلف لغات الكريول، تحت تأثير اللغات المتنحية. وسنجد أنفسنا بالتالى إزاء إحدى حالات القواعد الدلالية النحوية الأفريقية (وفقًا لوصف مانسى Manessy) التى تتجلى فى مختلف أشكال الفرنسية الكريولية الهجين.

كيف إذن يكون التحليل المعقول لمثل هذه المعطيات؟ هنا كما فى مجال السياسة على سبيل المثال، يسهل دومًا عرض وجهة نظر متطرفة ومحاولة فرضها (الكريولية الهايتية هى من الفرنسية، أو الكريولية الهايتية هى من الفون)، لا عرض وجهة نظر معتدلة (لغة الكريول هى ثمرة التطور والضبط الذاتى للغة أوروبية، فى ظل وجود تأثير للغات متنحية مختلفة، واختلاف درجة هذا التأثير تبعًا لاختلاف الحالات). إلا أنه يبدو أن هذا الموقف هو الأكثر تطابقًا مع المعطيات اللغوية. لا جرم أن لغات الكريول قد تشكلت من لغات أوروبية، حيث تتفق جميع الافتراضات حول وجود مثل هذه "اللغات المانحة للمفردات"، لكنها تختلف بشأن أهميتها النسبية. ويسعنا القول إنها قد أعادت هيكلة هذه اللغات مع الحفاظ على الخامات نفسها الأساسية، وتنطوى كلمة خامات على تشبيه يساعد فى توضيح الأمور. ففى كثير من الأحيان، ندمر أحد المبانى من أجل إعادة بناء مبنى آخر باستخدام الخامات ذاتها. إلا أننا قد نكتفى بإدخال بعض التعديلات، مثل ترميم مزرعة قديمة من أجل عمل دار ثانوية، أو نبنى شيئًا يختلف تمام الاختلاف، كأن نهدم كنيسة ما على سبيل المثال ونجمع أحجارها لاستخدامها فى عمل مرفأ للسفن، أو ندمر أحد المعابد الرومانية من أجل بناء حظيرة خيول. وفى كلتا الحالتين، نستخدم الخامات نفسها ولكن بطريقة مختلفة. هناك نوع من الاستمرارية النسبية عند تحويل مزرعة قديمة إلى دار ثانوية، بينما هناك انفصال كلى فى حالة استخدام أحجار الكنيسة فى بناء المرفأ أو استخدام أحجار المعبد فى بناء الحظيرة.

ومن ثم، هل تندرج العلاقات بين لغات الكريول الهجين واللغات المانحة للمفردات فى إطار الاستمرارية أم فى إطار الانفصال؟ يتعذر علينا هنا أن نتصور وجود انفصال جذرى؛ لأنه لا يمكن تحطيم لغة ما، ثم إعادة بنائها كما هو الحال بالنسبة

لاستخدام حطام الكنيسة فى بناء المرفأ؛ ويرجع ذلك بكل بساطة إلى حتمية استمرار التواصل فى أثناء عملية إعادة البناء، فقد أعدنا بكل تأكيد هيكلة اللغة بدون التوقف عن التواصل. ونستخلص من هنا درساً رائعًا يتعلق بعلم اللغويات بأكمله؛ فقد استمر استخدام اللغات الأوروبية التى اكتسبها العبيد فى ظل ما طرأ عليها من تغيرات تحت تأثير ظروف بيئية مختلفة. مما يعكس بالتالى استحالة الاختيار بصفة مطلقة بين فرضية اللغة المتنحية وفرضية اللغة الغالبة، وهو أمر غير مُجدٍ، حيث يتعين علينا فى كل حالة أن نحاول إعادة بناء البيئة التى تشكلت فيها أى من لغات الكريول، وإعادة بناء اللغات التى كانت موجودة بأعدادها الكلية وكامل وظائفها، أى محاولة إعادة بناء المحيط البيئى الخاص بميلاد لغة ما من خلال لغة أخرى...

ونلحظ بالتالى أن هذا الوضع يختلف كلية عن الأوضاع الخاصة بظهور إحدى لغات البيدجين الهجين التى تستلزم على الأقل وجود جماعتين تتكلم كل منهما لغتها الخاصة، ويستخدمان فى تواصلهما نظامًا رمزيًا ثالثًا مختلطًا يضطلع بوظائف لغوية محدودة للغاية؛ مما يخالف بكل تأكيد وضع تشكيل لغات الكريول الهجين، حيث تُحرم جماعة ما من لغاتها وتضطر إلى اقتراض (وتحويل) لغة الجماعة الأخرى. وهكذا، فقد تكون لغات الكريول هى نتاج تكيف إحدى اللغات الأوروبية فى محيط بيئات لغوية متنوعة، لكنها تتسم كلها بالتعرض لحدوث خلل بيئى أسفر عن استحالة نقل لغات العبيد، والاضطرار إلى إيجاد حل ما من خلال لغة المستعمرين.

إلا أنه كما سبق أن ذكرنا بشأن الفعلين savoir و connaître، فإن هذا الحل لا يؤدى دومًا إلى النتيجة نفسها بشكل حتمى. وساليكوكو موفوينى قد عقد على سبيل المثال مقارنة بين اثنتين من لغات الكريول فى كل من جزيرة موريشيوس وهايتى بواسطة منظور نحوى محدد يخص الوظيفة والأشكال المنعكسة. والنتائج التى توصل إليها هى نتائج نهائية: "لا يمكن تعريف كلام لغات الكريول من خلال سماتها الهيكلية (...)،حيث إنها لا تشكل فئة نوعية صرفية نحوية فى حد ذاتها (...). ولا يوجد حل كريولى موحد لمشكلات التواصل. فقد وجد هذان النوعان من لغات الكريول حلولاً

مختلفة للمشكلة نفسها". مما يعنى بشكل أوسع أن الأشكال التى أسميناها بالـ"الكريول" هى نتاج مختلف لتكيف إحدى اللغات الأوروبية فى محيط بيئى ما (إن ناطقى الكريول فى كل من هايتى وجيانا أو جزيرة موريتسيوس لا يفهمون بعضهم البعض؛ لأنهم بكل بساطة لا يتكلمون اللغة نفسها)؛ مما يتيح لنا فى الوقت ذاته الوقوف على سبب عدم وجود لغات كريول فى بعض الأوضاع التى تبدو خلالها جميع الظروف مهيأة لإنتاج إحدى لغات الكريول. وهذا ما ينطبق على مناطق ناطقى الهسبانية الشاسعة التى خلفتها الإمبراطورية الإسبانية الاستعمارية، ولا سيما فى جزر مثل كوبا وسانتو دومينجو: وهذا المثال الأخير يثير الاهتمام، حيث نلحظ التكلم بلغة كريولية ذات أصول فرنسية فى جزء من الجزيرة (هايتى) والتكلم بالإسبانية فى الجزء الدومينيجى. وإن تحليل شودنسون بشأن المجتمع السكنى ثم الزراعى يسوق لنا هنا إجابة مقنعة. احتل الأسبان كوبا منذ بداية القرن السادس عشر، إلا أنه بعد ذلك بما يقرب من قرنين أى فى عام ١٧٩٢، كانت هناك دومًا أعداد من البيض تفوق أعداد السود (٧٦,١٨٠ من السود و٩٦.٤٤٠ من البيض). ولم تبلغ نسبة السود ٨٠٪ من إجمالى السكان سوى بين عامى ١٧٩٠ و١٨٣٠، حينما تم جلب أعداد هائلة من العبيد. ويشبه هذا الوضع حالة سانتو دومينجو: "ذكر شودينسون أن فى هذه الحالة مثل غيرها من الحالات الأخرى، أدى الإبقاء على المجتمع السكنى خلال قرون طويلة إلى هسبنة جماعات السود بصورة كلية؛ وقد تبع ذلك فى مرحلة تالية تعميم اللغة الإسبانية بدون تشكيل أية لغات كريولية". وقد توصل حديثًا جون ماكورتر John McWhorter إلى النتائج نفسها، حيث فسر ندرة لغات الكريول الإسبانية من خلال ثلاثة عوامل :

- لم يزرع الإسبان قصب السكر سوى بعد قرن من ممارسة الزراعة التى تستلزم مزارع صغيرة، (كما هو الحال بالنسبة لكوبا على سبيل المثال).

- لقد استقروا فى الغالب هناك، حيث كانت توجد بالفعل لغات كريول برتغالية (وهو ما ينطبق بالفعل على كوراكاو، ولا ينطبق على كوبا أو هايتى).

– لم تكن لهم أية مواقع استيطانية فى غرب أفريقيا حيث كان من الممكن أن تنشأ إحدى لغات البيدجين .

اتفق الكاتبان حول النقطة الأولى التى نعدها نقطة رئيسية؛ لأنها تحدد بشكل أكثر وضوحًا الأوضاع المعنية؛ فقد اختلف محيط البيئة اللغوية فى كوبا أو فى سانتو دومينجو عن محيط جوادولوب على سبيل المثال، حيث تطورت سريعًا نسبة البيض إلى السود نتيجة لزيادة أعداد السود، مما هيأ المناخ لتشكيل لغات الكريول. ولا يكفى فحسب وجود المتغيرات التالية: لغة أوربية + جزيرة + عبيد أفارقة، من أجل توصيف محيط البيئة اللغوية "الكريولية"؛ لأنه لابد من إضافة المتغير السكانى الذى يبدو هنا أنه قد اضطلع بدور مُحدِّد، والذى نتج هو ذاته عن تغير اقتصادى واجتماعى.

واسترجاعًا لعنوان هذا الجزء، نقول إن لغات الكريول قد تكون بالتالى هى نتاج تطور اللغات الأوروبية فى محيط بيئات لغوية متنوعة وقعت تحت تأثير عدة عوامل مختلفة، ولا سيما تأثير القواعد الدلالية والأصوات الخاصة ببعض اللغات المتنحية. وهذا التطور هو سمة اللغات كافة فى جميع المناطق وعلى مدار مختلف العصور، إلا أن ما نمتلكه من معطيات يتيح لنا فى حالة لغات الكريول أن نشهد هذا التطور بشكل فعلى ومباشر، ومن هنا يمكن أن تقدم دراسة اللغات الكريولية الكثير إلى علم اللغويات.

انتقال أنظمة التجاذب

"إن حالة الطقس غدًا ستكون تقريبًا مثل حالته اليوم". تخفق أحيانًا هذه الطريقة التى تحمل قدرًا من الشك فى التنبؤ بالأحوال الجوية، بسبب إمكانية حدوث بعض التغيرات المفاجئة؛ فمن الممكن أن تتحول فجأة السماء الصافية إلى سماء ملبدة بالغيوم، وسرعان ما تحل العواصف محل الجو الصحو. وكما سبق أن ذكرنا، ينطبق هذا الأمر كذلك على الأوضاع اللغوية التى– على خلاف الأفكار المتوارثة – يمكنها

أحيانًا أن تتطور بسرعة شديدة تحت ضغط التغيرات الاجتماعية والبيئية أو التدخل المباشر للعنصر البشرى وقد رأينا من قبل فى الفصل الأول أنه لا يمكن التنبؤ كلية بتطور الأوضاع البيئية اللغوية، ولا يمكن أيضًا اعتبار ذلك أمرًا قدريًا بشكل تام. ومن ذلك على سبيل المثال ما عرضاه من حدث يبدو فى ظاهره ضئيلاً (استئناس الهنود الأوروبيين للخيول)، لكنه لعب دوراً كبيراً فى تاريخ أوروبا اللغوى، مثله فى ذلك مثل ضربات أجنحة "فراشات لورنز" التى كان من شأنها إثارة إعصار على الجانب الآخر من كوكب الأرض. ويمكن بوجه عام أن تختلف أنواع عوامل التغيير، كما تختلف أساليب تدخلها الطبيعية أو الاصطناعية.

- إن هجرة جماعة من متكلمى لغة مَسودة يمكن أن تسفر عن تغيير اللغة السائدة، والتحول من لغة رئيسية إلى لغة أخرى. ومن ذلك ما نلحظه بشأن توجه المغاربة الناطقين بالبربرية للعيش فى إسبانيا، حيث وجدوا أنفسهم داخل نظام بيئى لغوى جديد حلت فيه اللغة الإسبانية محل اللغة العربية كلغة رئيسية، مثلهم فى ذلك مثل الجزائريين الناطقين بالبربرية الذين توجهوا للعيش فى المناطق البلچيكية الناطقة بالهولندية، حيث حلت اللغة الفلمنكية محل الفرنسية كلغة رئيسية؛ مما يعكس تغييراً كاملاً فى علاقات التجاذب اللغوى.

- تعد الزيادة الطبيعية فى أعداد متكلمى لغة ما- سواء من خلال الزيادة الطبيعية فى عدد السكان أو تزايد الهجرات- من أهم عوامل التغيير، حيث يكتسب الريفيون اللغة الناقلة السائدة التى تصير فى الغالب لغة أبنائهم الأولى، ومثل هذا التغيير يزيد من قيمة اللغة المعنية. إلا انه لابد من توخى الحذر عند تحليل هذه الزيادة، ولا يجب الاعتداد بها سوى فى إطار نسبة الزيادة السكانية الكلية. فقد شهدت الفترة الممتدة بين عامى ١٩٣٠ و١٩٩٠ ارتفاع عدد متكلمى اللغات الهندية بالمكسيك من ٢,٢٥١,٧٨٠ إلى ٥,٢٨٢,٣٤٧ فرد، مما يمثل فى ظاهره زيادة هائلة. بينما شهدت الحقبة الزمنية نفسها ارتفاع العدد الكلى لسكان المكسيك من ١٤ إلى ٧٠ مليون نسمة؛ وهو ما يوضح بالتالى انخفاض نسبة متكلمى اللغات الهندية من ١٥٪ إلى

٧,٢٪ من نسبة السكان الكلية. وهكذا، فقد يخدعنا التزايد السكانى الطبيعى الذى لم يستطع هنا أن يعرقل الحركة العامة لتغيير اللغة، أى التحول إلى الإسبانية.

- إن الزيادة المصطنعة لوظائف لغة ما- أى خلق طلب لغوى من قبل المجتمع- يمكن أن يسفر عن تغييرات فى العلاقات اللغوية، إذا ما كانت متبوعة بتأثير فعلى. فقد قررت جمهورية أفريقيا الوسطى على سبيل المثال جعل لغة السنغى لغة رسمية مثلها فى ذلك مثل اللغة الفرنسية. وما زال هذا القرار فى الإطار النظرى البحت، لكنه إذا ما تحول إلى حقيقة واقعة فإنه سيغير بصورة هائلة من محيط البيئة اللغوية فى أفريقيا الوسطى. وإننا هنا بصدد تغيير نظام بيئى بفعل السياسة اللغوية لإحدى الدول.

- كما يجب أن ننظر بعين الاعتبار إلى تأثر الأوضاع بوظيفة اللغة الخاصة بتحقيق الهوية. ففى فرنسا على سبيل المثال، عمد بعض المدافعين عن لغات الأقلية إلى خلق طلب مصطنع من أجل تعويض فقدان اللغة الأكسيتانية أو اللغة البريتانية لوظيفتها الاجتماعية. وهذا يعد تدخلاً فى الثنائية ذاتية الضبط، أى ثنائية اللغة/المجتمع التى سبق أن عرفناها فى الفصل الثالث، كما يعد محاولة لتغيير الحاجات اللغوية للمجتمع من أجل تعويض غياب الوظائف الاجتماعية للغة ما. إلا أن مثل هذا التدخل المتعمد لا يكفى فحسب (تجلى بالأمس مثل هذا التدخل بنجاح فى إسرائيل، وقد يتجلى غداً فى كرواتيا وصربيا)؛ لأنه لابد أيضاً من تجمع كل العوامل الاجتماعية الخاصة ببزوغ لغة جديدة أو وظيفة جديدة. وفى عام ١٩٢٨، حينما قرر الحزب الوطنى الإندونيسى PNI جعل اللغة الملايية لغة البلاد الوطنية، كان هذا القرار المتعمد رمزياً بصورة بحتة، ولم يتحول إلى حقيقة فعلية سوى عقب استقلال إندونيسيا بعد تلك الفترة بعشرين عاماً.

وهكذا، يمكن أن تؤدى كل هذه العوامل إلى تغيير محيط البيئة اللغوية. وتبدو فى الواقع صورة الأوضاع مستقرة إذا ما كنا جزءاً منها، بينما يصير هذا الاستقرار نسبياً إذا ما نظرنا إليه من خارج هذه الصورة. فمنذ خمسة عشر عاماً، كان بمقدور أى مراقب للأوضاع النظر إلى جزيرة هونج كونج باعتبارها تتسم بالثنائية اللغوية :

الإنجليزية/الكانتونية. إلا أن مثل هذا القول المقبول بوجه عام لم يكن صحيحاً سوى من منظور التزامن اللغوى البحت؛ فقد كان الوضع عرضة للعديد من عوامل التغيير التى شكلته. قبل خضوع جزيرة هونج كونج للإنجليز عام ١٨٤٢، كان سكانها القليلون يتحدثون "لهجات" صينية مختلفة هى فى الواقع من لغات جماعة الهان Han، بالإضافة إلى لغات الهاكا hakka، والمين min، واليوى ... yué إلخ. وفى ظل السيطرة البريطانية، ازدهرت تلك الجزيرة كميناء تجارى، وصارت شيئًا فشيئًا مصدراً لجذب سكان القارة وسكان إقليم كوانتونج Quantoung التى صارت لغتهم الكانتنية هى اللغة الناقلة. وهكذا تغير الوضع لأول مرة، وهو حاليًا فى طريقه للتغيير للمرة الثانية؛ فقد عادت مجدداً هونج كونج لسيطرة الصين حيث تُفرض لغة البوتونغوا putonghua؛ مما سيسفر حتماً فى نهاية الأمر عن إحلال الثنائية اللغوية البوتونغوا/الكانتونية أو الثلاثية البوتونغوا/الإنجليزية/الكانتونية محل ثنائية الإنجليزية/الكانتنية.

وهناك بالتالى فرضية جدلية تخص الفرد والجماعة والمجتمع. فإن الفرد وحده لا يملك فعليًا أية سلطة على اللغة، لكن جموع المتكلمين يمثلون شيئًا أكبر من مجرد الكثرة العددية. وإذا ما تعرضنا للأفراد بصورة منفصلة، نجد أن لكل منهم تمثيلاته اللغوية الخاصة التى تحدد وتفسر ممارساتهم، لكنهم فى مجملهم يشكلون تمثيلات جماعية قد تداخلها تيارات متعارضة، لكنها تحدد بدورها الممارسات السائدة وتسهم فى تفسيرها. وهنا يتضح بشدة المثال الذى عرضناه فى الفصل السابق بشأن لغات الساجابارى-الكيتا-البماكو؛ فقد يرغب بعض الأفراد فى التكلم بالباكوكان فحسب، وقد يجد بعض أهالى بماكو كلام الساجابارى جميلاً ورائعًا... إلخ. لكن غالبية المتكلمين يعتقدون أن كل أنواع الكلام الطرفية التى تختلف عن لغة البمبارا فى بماكو، تؤدى إلى "التخلف" و"الفلاحة"، بل يعدونها "مثيرة للسخرية"؛ فتسفر بالتالى مثل تلك التمثيلات عن تغير الممارسات التى ستؤدى إلى تغير شكل اللغة.

وجدير بالاهتمام التعرض لحالة زائير السابقة من حيث مدى تدخل الدولة. كانت تمثل تلك الدولة فى الغالب المستقبل الذى تنتظره أكبر الدول الفرانكوفونية فى العالم،

وهى عضو فى الفرانكفونية السياسية، حيث بلغ عدد سكانها عام ١٩٩٧ ما يقرب من ٤٥ مليون نسمة، وكانت أعداد المواليد والتقدم المتوقع فى الدراسة المدرسية من الأسباب التى أضفت بعض المعقولية على هذا التصور. لكن وصول لوران كابيلا إلى الحكم عام ١٩٩٧ كان من عوامل تغيير هذا الوضع. حصل كابيلا فى الأساس على المساندة والتمويل من أوغندا ورواند، ومن خلالهما حصل على مساعدة الولايات المتحدة؛ مما جعله يتحدث علانية باللغة الإنجليزية فى أثناء الحرب الأهلية رغم إجادته التامة للغة الفرنسية، معربًا بذلك عن رغبته فى الابتعاد عن لغة القوة الاستعمارية السابقة الممثلة فى بلجيكا. وعقب ذلك بعدة أشهر، وفى أثناء انعقاد قمة رؤساء الدول الفرانكفونية فى هانوى، أعلن كابيلا أن بلاده ستنسحب من الفرانكفونية، وهو ما تراجع عنه فيما بعد. وعلاوة على أننا أحصينا فى هذه الدولة ما يقرب من مائتى لغة عرقية، فإنها تنقسم إلى أربع مناطق جغرافية تعمل بها أربع لغات ناقلة هى: السواحيلى واللينجالا والكيكونجو والسيلوبا. لكن هذه اللغات التى تعد رسميًا لغات "وطنية" لا تضطلع فعليًا بالوظائف نفسها، وتعد اللينجالا من الناحية التقليدية لغة الجيش. إلا أن قوات كابيلا قد تشكلت بوجه خاص من الشباب الوافدين من شرق أفريقيا، حيث تضطلع تقريبًا الثنائية اللغوية الإنجليزية/السواحيلى بوظائف ثنائية الفرنسية/اللينجالا فى زائير السابقة. وهكذا، يكون بمقدور النشاط السياسى للسلطة الكونغولية تغيير البيئة اللغوية على مختلف المستويات: على مستوى اللغات الناقلة (السواحيلى بدلاً من اللينجالا فى الجيش)، وعلى مستوى اللغة الرسمية (الإنجليزية بدلاً من الفرنسية وربما البرتغالية إذا ما وضعنا فى اعتبارنا مساندة أنجولا السياسية لكابيلا). وبعبارة أخرى، فإنه يمكن للمحيط اللغوى الذى يتشكل دومًا بفعل التغيير أن يشهد فى ظل بعض الأوضاع تسارع هذا التغيير، وتغير نظام التجاذب كلية.

شهدت فرنسا حدوث مثل هذا الاضطراب فى بداية القرن العشرين فى أثناء الحرب العالمية الأولى. كانت الفيالق فى الواقع "إقليمية" بصفة أساسية، حيث تواجد فيها المجندون الجدد من متكلمى الأكسيتانية والبريتانية الذين بوسعهم مواصلة التكلم بلغتهم، بل كان البعض منهم لا يعرفون الفرنسية. لكن كثرة عدد الضحايا دفعت

السلطات العسكرية إلى إعادة تشكيل الفيالق، وتجميع المجندين الجدد الذين لم يعد بوسعهم التواصل سوى باستخدام اللغة الفرنسية التى سيتعين عليهم تعلمها أو إجادتها إذا ما لم يكونوا يتكلمونها أو يتكلمونها قليلاً. ولنضف لهذا العامل عامل التمثيلات؛ فقد صارت اللغة الفرنسية لغة الأمة بالنسبة للبريتانيين والبسكيين والأكسيتانيين، حيث اكتسبوا اللغة الفرنسية داخل الخنادق، وحملوا فى الوقت ذاته صورة ما بصدد وظيفتها. وقد شهد هؤلاء الجنود قبل تسريحهم تغييرات هائلة من حيث ممارساتهم وتمثيلاتهم اللغوية. وعند عودتهم إلى ديارهم، تدخل كل منهم فى نظامه البيئى اللغوى باعتباره من عوامل التغيير التى أصابت بوجه خاص سياساتهم اللغوية الأسرية وأثرت فى عدم انتقال لغاتهم الأولى إلى أبنائهم. وكان إتمام باقى الأمور بفعل انتشار التعليم والإذاعة والتليفزيون وتدخل الدولة بدور مركزى، إلا أننا نرى فى هذه السنوات القليلة لاندلاع تلك الحرب مثالاً على تغير مفاجئ شهده محيط بيئى لم يكن يتطور حتى ذلك الحين سوى بصورة بطيئة.

الخاتمة : التطور والثورة

طرحنا فى الفصل الأول (بصدد تأثير استئناس الخيول على اللغات الأوروبية) مدى إمكانية اعتبار الأوضاع اللغوية بمثابة أنظمة فوضوية لا يمكن التنبؤ كلية بحركة تطورها، أو اعتبارها من تصاريف الأقدار بشكل كلى، لكنها قد تتأثر بتضخم حجم بعض الظواهر الضئيلة. كما لاحظنا كذلك أن العلوم الإنسانية تبين الاتجاهات أكثر من القوانين. وفيما يخص انتقال اللغات والأوضاع اللغوية، فإن هذه الاتجاهات هى نتاج عدد من العوامل التى ينبثق بعضها عن ممارسات اجتماعية طبيعية، بينما ينبثق البعض الآخر عن تدخل الدولة المصطنع. وهكذا، تنضبط على الدوام ثنائية اللغات/البيئة، إلا أن هذا الانضباط قد يشهد أحيانًا تسارعًا مفاجئًا.

ورغم ما قيل، ورغم الانطباعات التى قد تتركها بعض الملاحظات، فقد تنتقل الأوضاع اللغوية أحيانًا فى ظل أحوال تنذر جميعها بضرورة حدوث تغيير. ويعد بقاء

اللغة البربرية فى الجزائر والمغرب من الأمثلة الجيدة على هذه الاستمرارية غير المتوقعة، مثلهم فى ذلك مثل ناطقى الجرمانية فى بلچيكا. وفى إحدى المؤتمرات التى عرضت معالجة بيئية لغوية للهوية لدى ثنائيى اللغة، تناول بيتر نيلد Peter Nelde مشكلة ما أسماه بالقوالب غير الخطية لهوية ثنائيى اللغة (non-linear patterns of a bi-lingual identity). فقد ذكر أنه على مدى ١٦٠ عامًا تكهنت العديد من الدراسات المتتابعة بانهيار أو اختفاء لغة الأقلية فى بلچيكا أى اللغة الألمانية؛ لأنها كانت تستخدم بواسطة الأجيال الأكبر سنًا، فى حين كان الشباب يستخدمون اللغة الفرنسية. ومع بداية ظهور التكهن بمثل هذا الأمر عام ١٨٣٣، والإشارة إليه مجدداً خلال عامى ١٨٩٧ و١٩٣٥، كان من المتوقع اختفاء اللغة الألمانية التى استمرت رغم كل شىء، وهذا ما فسره نيلد بكل بساطة، حيث قال إن الشباب يستخدمون اللغة السائدة فى المدرسة ثم فى نطاق أعمالهم، لكنهم حينما يعودون فى نهاية حياتهم من المناطق الصناعية إلى القرى والمزارع، فإنهم يستعيدون لغتهم المحلية. كما يجب أن نضيف لذلك دور الموقع الجغرافى لهؤلاء الناطقين بالجرمانية على طول الحدود الألمانية بشأن إتاحة الحفاظ على اللغة. وقد يسعنا أن نقول إن "التنبؤات" التى ذكرها نيلد كانت بمثابة صور فوتوغرافية متقطعة تثير الاعتقاد بأن لغة ما كانت فى طريقها إلى الاندثار، فى حين يوضح لنا الفيلم بأكمله خلاف ذلك.

وهذا مثال شديد الإيحاء؛ لأنه يوضح لنا أن التداخل بين نسبة متكلمى لغة ما والفئات العمرية لا يحمل دومًا دلالة ما. وتقسر فى الواقع الوظيفة الاجتماعية التى تضطلع بها الألمانية والفرنسية كيفية توزيع المتكلمين (الشباب يتحدثون الفرنسية، والمسنون يتكلمون الألمانية)، ومن خلال الحفاظ على هذه الوظيفة وانتقالها من جيل لآخر، نجد ذلك التقسيم نفسه على مدار الأجيال المتعاقبة. وبعبارة أخرى، نقول إنه داخل هذا المحيط الخاص تحدد العلاقات بين اللغات والبيئة اختلاف ممارسات المتكلمين وفقًا لأعمارهم. وإننا نعلم بوجه عام أن الأجيال الشابة تستخدم أشكالاً لغوية تتخلى عنها فى سن النضوج. ومع ظهور هذا الاتجاه فى كل جيل، نجد أن الاختلافات فى زمن ما T بين "كلام الشاب" و"كلام الراشدين" كانت أكبر بكثير من اختلافات زمن

آخر T+X تنتج عن التأثير اللغوى للشباب على كلام البالغين. وبعبارة أخرى نقول إن طريقة شباب الفرنسيين فى التكلم حالياً بلغتهم ستكون لها حتماً تداعيات على اللغة الفرنسية التى سيتكلمونها بعد نضوجهم وينقلونها إلى الجيل التالى. إلا أن هذه التداعيات لن تتمثل فى إحلال شكل ما محل شكل آخر، حيث يعمل الضبط الذاتى بصورة أكثر دقة تحمل الكثير من الفروق الطفيفة.

وهكذا، فإن هذا التطور البطىء الذى تتسم به اللغات والأوضاع على حد سواء، قد يشهد أحيانًا تسارعًا مفاجئًا بفعل "ثورة" ما، حينما تتدخل الدولة بصورة استبدادية، كما هو الحال بالنسبة لتركيا فى عهد أتاتورك، ودولة زائير السابقة فى الوقت الحالى إذا ما نجح لوران كابيلا فى تحقيق نواياه بشأن عملية التحول إلى الإنجليزية. إلا أن مثل هذه "الثورات" التى تؤدى إلى اضطراب أحد الأوضاع اللغوية وتعيد تشكيل المحيط اللغوى هى أكثر عرضة للارتداد من نتائج التطور. فإن مثل هذه الثورة هى التى أدخلت اللغات الأوروبية فى أفريقيا، ويبدو أن لها آثاراً ممتدة. وهكذا، نجد أن نُخب المغرب يتكلمون اللغة الفرنسية، رغم أن استمرار الحماية الفرنسية هناك لم يتعد النصف قرن (١٩١٢-١٩٥٦). وتاريخ وجود اللغة الفرنسية هناك يتسم بالقصر الشديد إذا ما قورن بوجود اللغة البربرية على سبيل المثال.

ومن ثمَّ، يشهد نظام البيئة اللغوية تغيراً مستمراً تحت تأثير التطور الدائم، وهو ما يعد ثمرة الممارسات والتمثيلات، وإن هذا التطور الذى يؤثر فى شكل اللغات ووظائفها قد يشهد تسارعًا مفاجئًا تحت تأثير ثورة ما، حيث تنتقل الأنظمة وتتغير فى الوقت ذاته. من الممكن استشعار عوامل التغيير ووصفها من خلال إجراء تحليل داخلى (الضبط الذاتى للنظام اللغوى) وخارجى (تغييرات محيط البيئة اللغوية)، إلا أن صعوبة التحليل المستقبلى تكمن فى عدم إمكانية التنبؤ بمثل هذا النوع من الثورات .

الفصل السادس

خمس حالات بحثية

عمدت الدراسات التالية إلى استخدام معطيات ذات أصول مختلفة، حيث تمثل الثلاث دراسات الأولى (اللغة العربية، ولغة المكيتوبا واللغة الصربية-الكرواتية) تحليلات تم إعدادها من خلال مجموعة أبحاث قام بها عدد من الأشخاص الآخرين. وقد يسعنا أن نقول إنها تتعلق بإجراء مجموعة أبحاث من خلال نصوص اللغات الأصلية (بيد أننا قد أقمنا لفترة طويلة فى دول ناطقة بالعربية حيث أجرينا العديد من الأبحاث من أجل دراسة الحالة الأولى، كما أجرينا مجموعة من الأبحاث فى برازافيل عاصمة الكونغو من أجل دراسة الحالة الثانية، وبحثنا قليلاً فى زغرب بكرواتيا للوقوف على الحالة الثالثة). بينما تستند الدراستان الأخريان إلى الأبحاث التى أجريناها بأنفسنا فى المناطق المعنية أى فى لويزيانا (كرامر Kraemer) وجزر الأنتيل (سانت بارتيلمى Saint Barthélemy) ونهدف من وراء هذه الحالات البحثية إلى توضيح الافتراضات النظرية التى عرضناها فى الفصول السابقة بشكل أكثر تفصيلاً.

اسم واحد ولغات عدة: الانفصام اللغوى العربى

لقد رجعنا فى بداية الفصل الرابع إلى نص إينار هوجين المخصص لـ"الانفصام اللغوى" الذى يتمثل فى وضع المتكلم الذى يجد نفسه إزاء أكثر من شكل للغته، ويتردد بشأن ما يجب أن يتكلمه أو يكتبه لأنه يحظى بالعديد من الأشكال المتاحة. ورغم ما يبدو من سخرية فى ما ذكره هوجين، فإنه قد طرح مشكلة حقيقية تتمثل فى شكل الارتباط بالمعيار الذى شهد الأمريكيون وجوده خلال السنوات الأولى لقيام الجمهورية،

ونعنى هنا المعيار البريطانى، وهو ما تعامل معه بكل حزم كل من نواه ويبستر Noah Webster وصموئيل جونسون Samuel Johnson، حيث رغبا فى تخليص أعمالهما من النموذج اللغوى البريطانى وإرساء معيار أمريكى. وقد صار هوجين أكثر جدية حينما أوضح أنه عندما يؤكد اللغويون مساواة جميع الأشكال اللغوية، فإنهم يتخذون موقفًا كريمًا لكنه موقف خاطئ؛ فالموقف العلمى الوحيد يتمثل فى الاعتراف بوجود مشكلة ما ودراستها:

"يتعين علينا أن نعى عدم ضرورة اقتران صورة العالِم بسمة التسامح. والدعوة إلى التسامح تُعد من الأمور المحمودة على الصعيد الأخلاقى، لكنها غير ملزمة على الصعيد العلمى".

ثم اختتم أقواله بالإشارة إلى شخصية إليزا Eliza فى بجماليون (أو فى رواية سيدتى الجميلة My Fair Lady) :

"من المحبذ التمكن من إقناع المجتمع المتحضر بقبول إليزا دوليتيل Eliza Doolittle كما هى، إلا أن معظمنا قد يفضل فى قرارة نفسه مصادقتها بعد أن ينتهى دكتور هيجينز من تصويب طريقة نطقها لحرف الـ "h" .

إذا كان من الممكن أن يعتبر ناطقو الإنجليزية اليزا دوليتيل بمثابة النموذج المثالى الفردى للانفصام اللغوى، فإننا نجد فى وضع الدول العربية مثالاً جماعيًا أكثر إثارة للاهتمام، لما بها من معيار أكثر ثقلاً وحسمًا من المعايير الأخرى فى ظل معظم الأوضاع اللغوية. وقد أشارت دليلة مورسلى Dalila Morsly إلى أن "المسألة اللغوية تعد من المواضيع المفضلة فى أحاديث الجزائريين اليومية، حيث يتصدى كل منهم للتحدث عن اللغة، يُنَصِّب نفسه مُشَرِّعًا لُغويًا". ومن المثير للاهتمام تناول هذا النشاط الخاص بالتحدث عن اللغات الذى لا يقتصر على الجزائريين فحسب، بل يمتد إلى عدد كبير من الناطقين بالعربية، لما له من ارتباط بوضع اللغة العربية ذاتها. وتعد "الكوكبة العربية" من أصعب الكوكبات التى يمكن وصفها؛ لأن تاريخ هذه اللغة هو تاريخ معقد، كما أن وضعها قد تغير، وما زال يتغير وفقًا لاختلاف الأوضاع. ومن ذلك ما كتبته كاثرين ميلر Catherine Miller :

"إن اللغة العربية – بجميع أشكالها وعلى مدار تاريخها – كانت لغة أقلية من الفاتحين اكتسبتها جماعات كبيرة من السكان المحليين، حيث صارت لغة الأغلبية، وإن ظلت فى حالة تماس مع لغات الأقلية. وفى ظل أوضاع أخرى، صارت اللغة العربية لغة النفوذ والدين والأدب؛ فقد انتشرت بين الأبناء المسلمين من ثنائيى اللغة فيما بين شواطئ المحيط الأطلنطى والقارة الآسيوية. وكانت تارة لغة سائدة مرفوضة من قبل بعض الجماعات التى تختلف ثقافاتها، وتارة أخرى لهجة أو نوعًا لغويًا منعزلاً آخذًا فى التناقص".

وعلاوة على ذلك، فإن اللغويين المتخصصين فى هذه المجالات لا يكفون عن التنقل بين معالجتها من منظور المستويات أو الطبقات المختلفة، أو من منظور المجموعة المتصلة، أو معالجتها من منظور الثنائية أو الثلاثية اللغوية بل حتى الرباعية أو التعددية اللغوية. وفضلاً عن هذا الفيض من الممارسات التى سنعود إليها لاحقًا، لابد من إضافة كمٍ من التمثيلات تحظى هنا بثقل هائل يفوق أى من الأوضاع الأخرى. نستشعر هنا استحالة تدبر الأوضاع اللغوية فى إطار التغيير والتطور التاريخى؛ لأننا نقف بين لغة اشتُهرت بعدم وجود مثيل لها من حيث البلاغة والإتقان... لغة ناقلة لكلام الله... لغة الملائكة والجنة، وبين أشكال أخرى تُعتبر من اللهجات المختلفة أو اللغات السوقية أو الخاطئة. ويبدو أنه يجب الربط بين ندرة الدراسات العربية لأصول الكلمات من جهة واثنين من المحظورات غير المعلنة من جهة أخرى:

– الخوف من إيجاد بعض الكلمات المقترضة فى النص الإلهى، وهذا ما يمكن أن تكشف عنه مثل هذه الدراسات، ويعلم جميع المتخصصين أنه هناك العديد من الأمثلة على ذلك(١).

– الخوف من إيجاد بعض المقاطع المقترضة أو حالات تأثر بالتقاليد الشفهية على سبيل المثال فى بعض مواضع القرآن الكريم .

(١) [لم يذكر الكاتب مثالاً واحداً من تلك الأمثلة المقترضة، بيد أنه لا يبدو أن هناك من ينفى وجود كلمات مقترضة فى القرآن الكريم، سواء من دارسى اللغة أو الباحثين؛ لأن القرآن قد وجِّه للعرب مخاطبًا إياهم بلغتهم ومصطلحاته البليغة التى لم تكن تخلو من الكلمات الفارسية أو أجنبية آرامية التى نجمت عن الاختلاط بالممالك الأخرى] .

وهكذا، فقد ينفتح المجال أمام من يحاولون التشكيك فى هذا النص الإلهى؛ مما يثقل على الأوضاع الاجتماعية اللغوية العربية؛ لأنه إذا ما كان من العسير تدبر العلمانية فى الدول العربية، فإن ذلك يرجع أيضًا لأسباب لها علاقة باللغة ذاتها. ويعتقد البعض أن الفكر الإسلامى فى حاجة إلى لغة عربية جامدة غير متغيرة[(١)]، مثلما كان علم اللغويات الناشئ فى حاجة لمفهوم خاص باللغة. يحيا الإسلاميون فى ظل هذا الكلام ويزعمون إيمانهم باللغة، مثلما كان سوسور فى حاجة لمفهوم خاص باللغة من أجل إقامة بنائه النظرى. وفى كلتا الحالتين، نجد بدرجات متفاوتة الخوف من كلام يثير حنقهم لأسباب مختلفة تمام الاختلاف. أى أنه فى بعض أشكال الخطاب حول أوضاع الناطقين بالعربية، يثور لدينا الانطباع بأن الحقائق قد مُحيت بعناية، ومن العسير النظر إليها بموضوعية تخلو من الأهواء السياسية أو الأيديولوجية أو الدينية، وهو ما نسعى إلى الالتزام به.[(٢)]

تشكلت الحقيقة اللغوية الأولى من خلال ما يتكلم به الأشخاص يوميًا، أى أول كلام اكتسبوه، ولنقل أنه لغتهم "الأم". عند هذا المستوى الأول، نجد العديد من أشكال اللغة العربية التى حملت مسميات مختلفة مثل: اللهجات الخاصة بكل دولة كاللهجة التونسية والجزائرية وغيرها، ومثل العربية العامية التى تعرف فى اللغة الإنجليزية بالـ colloquial Arabic، وكذلك اللهجات المحلية واللغة العربية الدارجة...إلخ. إن مثل هذه الأشكال التجميعية المرتبطة بالأرض التى تنتمى إليها، والمنبثقة عن علاقات التماس بين اللغة العربية الخاصة بالفاتحين واللغة البربرية فى المغرب والقبطية فى مصر والتركية

(١) [اعتقد بعض الكُتاب أن اللغة العربية لم تتطور منذ نزول القرآن الكريم، وقادها ذلك إلى التحجر. إلا أن دارسي الأدب واللغة يدركون تماما أن عربية اليوم قد انشطرت إلى (فصحى معاصرة) و(فصحى تراثية)، وأن الفصحى المعاصرة هى التى سادت فى الصحافة والإعلام والانتاج الأدبى ومعنى هذا أن العربية قد تطورت من حيث معانى الكلمات والأبنية والتراكيب، وليس ذلك بجديد على مسيرة اللغة العربية، وإنما كان مرافقًا لها منذ بداية المسيرة]

(٢) فى إطار هذه المحاولة بشأن إجراء تصنيف نوعى، إننا ندين بالكثير لبيير لارشيه Pierre Larcher، كما أفدنا من الندوة التى عقدها فى خريف عام ١٩٩٨، بشأن اللغويات الاجتماعية الخاصة باللغة العربية، وإننا مسئولون مسئولية تامة عن أية أخطاء محتملة هنا.

أو الفارسية فى مناطق أخرى، تنزع إلى الدخول تحت مظلة أمة واحدة بواسطة الامتزاج بالشكل الحضرى للعاصمة، كأن نقول حاليًا اللغة العربية المصرية، وإن كانت تخص هذه اللغة القاهرة وحدها، أو أن نقول العربية التونسية، وإن كانت هذه اللغة هى لغة تونس العاصمة فحسب..إلخ. فى إطار هذه الكيانات، توجد بالطبع أشكال نوعية محلية وإقليمية، وهى الأشكال التى يمكن أن نطلق عليها بحق مسمى اللهجات .

وفى المستوى الثانى، سنواجه حالة تردد شديد عند مجابهة توصيف اللغة العربية فى الكتب المعنية بذلك. يتحدث البعض عن اللغة العربية الوسطى وهى ما تعرف فى الإنجليزية بـ Modern Standard Arabic، بينما يتكلم البعض الآخر عن اللغة العربية الحديثة التى يتم تعريفها باعتبارها لغة كلاسيكية حُدِّثت مفرداتها، فضلاً عن تآكل العلامات الإعرابية، أو باعتبارها لغة الصحافة المقروءة والمسموعة ولغة التعليم...إلخ. وهذه اللغة تبدى ميلاً نحو التأثر باللغة الأولى، وهى دومًا من صنيع قوتين متقابلتين ومتضافرتين هما التأثر باللهجة المتمثل فى شكل بعض التداخلات، والفرار من اللهجة المنعكس من خلال الإفراط فى عمليات تصحيح اللغة. ومن هنا، يشير الآن كاى Alan Kaye إلى الاتجاه السائد فى مصر نحو تفضيل استخدام اللغة الوسطى لأداة النفى "لم" مثل صيغة النفى "لم أره"، بدلاً من صيغة النفى "ما رأيته"، من أجل تجنب الاقتراب من الشكل القاهرى لجملة "ما شفتهوش" التى تؤدى المعنى نفسه. وهذه الإجراءات التى تهدف إلى تفادى مثل هذا النوع- مجتمعة مع نقيضها المتمثل فى التداخلات اللهجية التى تزخر بها الأمثلة- هى التى تضفى على اللغة العربية الوسطى "الصبغة المحلية"، وتجعلها تتحول شيئًا فشيئًا من لغة واحدة وسطى إلى العديد من اللغات العربية الوسطى. يكتنف الغموض منطقة الحد الفاصل بين الشكل الشفهى والشكل المكتوب، حيث نجد العربية "الوسطى" إلى جوار الكلام، أى مجموع الممارسات التى لم تحظ بتعريف جيد، وتختص بتوفير التواصل بين المتكلمين المثقفين رغم اختلاف لهجاتهم. بينما نجد العربية "الحديثة" إلى جوار الكتابة، أى الشكل المُحدَّث لما نجده فى المستوى الثالث أو الرابع من لغة عربية كلاسيكية هى لغة القرآن التى تسمى أحيانًا بـ"لغة التراث الفصحى". تبدو كل هذه الأمور غير واضحة؛ إلا أنه يمكن

عرضها فى إطار مجموعة اتصالية قد تشهد حالة من الخلط بين التزامن اللغوى والتطور اللغوى التاريخى.

وهكذا، نرى أن الطريقة التى عرض بها فيرجوسون Ferguson مجريات الأمور فى إطار الثنائية اللغوية، لم تأخذ فى الاعتبار مدى تعقيد الأوضاع اللغوية. فقد صاغ مجموعة اتصالية لها قطبان: "اللغة العليا" (العربية الكلاسيكية)، و"اللغة الدنيا" (اللهجات العربية)، وتسهم فيها بشكل منفصل الأيديولوچية واللغويات فى ابتكار عدد من اللغات، وهى بوجه خاص مجموعة اتصالية يتباعد طرفاها فى المغرب أو لبنان أكثر من تباعدهما فى الأردن أو سوريا. وفى إطار الالتزام بتبسيط الأمور، قد يسعنا القول إنه هناك لغة عربية مكتوبة فحسب (العربية الكلاسيكية التى لا تعد لغة أى من الأشخاص، لكن البعض يتعلمونها، وهى لغة جامدة "ميتة")، وهناك كذلك لغة عربية مكتوبة ومستخدمة شفهيًا (العربية الوسطى التى تنزع إلى اتخاذ أشكال محلية كما يتم تعلمها)، بالإضافة إلى لغات عربية مستخدمة فى الكلام ("اللهجات" التى تورث وحدها داخل الأسر، لكنها تعد كذلك بمثابة سديم العربية "الوسطى")، وهى كلها لغات مختلفة. إلا أنه من المستحيل تقسيم هذه الأنواع إلى طبقات فى إطار المجرة؛ لأنها لا تمتلك كلها المنشأ ذاته. إن اللغة العربية الكلاسيكية هى لغة "ميتة" تماثل اللغة اللاتينية(١) فى أوروبا خلال القرنين الثالث عشر أو الرابع عشر، لكنها لغة محملة بالعديد من التمثيلات التى تسير فى ثلاثة اتجاهات عامة تحتم رفض اللغات العربية القومية:

١- انتماءها للنصوص المقدسة، مما يجعلها بمثابة "لغة الله"(٢)

٢- علاقتها بأيدلوچية نظرية القومية العربية

(١) [وقع خلط فى هذا الصدد؛ لأنه من المعروف أن تاريخ اللغات لا يتكرر، ولا مجال لعقد مثل هذه المقارنة، حيث إن] .

(٢) [قام المؤلف بافتراض قضية ما تتمثل فى قدسية اللغة العربية، ولا ندرى من أين جاء بهذا الافتراض؛ لأنه ليس معنى أن القرآن الكريم نزل باللغة العربية أنها لغة مقدسة؛ فالقداسة للقرآن لا للغة، ذلك أن اللغة سابقة على الإسلام ونزول القرآن"] .

٢- علاقتها بأيديولوچية "الأمة" أى جماعة المؤمنين

تقف هذه الاتجاهات الثلاثة عائقًا أمام الاعتراف بأشكال اللغة العربيـة المحليـة أو القومية .

إن تعريف هذه "الأمة" وحدودها لمن الأمور الغير واضحة؛ لأن الكلمة فى ذاتها هى كلمة مبهمة تشير أحيانًا إلى "الأمة العربية"، لكننا نستطيع أن نقول تحديداً الأمة العربية، بينما تشير فى أحيان أخرى إلى جماعة المؤمنين، سواء استُخدمت مفردة أو مضافًا إليها صفة الإسلامية أى "الأمـة الإسلامية". لكن هـاتين الجماعتين لا تتماثلان؛ لأن غالبية مسلمى العالم بأكملهم هم من غير الناطقين بالعربية، وإذا ما أضفنا مسلمى إندونيسيا لمسلمى باكستان وتركيا وإيران وأفريقيا السوداء، سنجد أنفسنا إزاء مئات الملايين من المسلمين الذين لا تعتبر اللغة العربية لغتهم الأولى، وتعد معرفتهم بالعربية الكلاسيكية معرفة بدائية إن لم يكونوا يجهلونها كلية. ورغم ما يعده بعض الإيديولوچيين من أن العربى مسلم، فإن كون الإنسان مسلماً لا يعنى بالضرورة أنه عربى ولا يعنى بالطبع أنه من الناطقين بالعربية. وهذا ما ينطبق على من يتكلمون إحدى اللهجات العربية كلغة أولى، حيث لا تتجاوز على أفضل الأحوال معرفتهم بالعربية الفصحى المعرفة السلبية، والقليلون منهم هم الذين يجيدون كتابتها فى حين أنه لا يتكلمها أحد فعليًا. ومن هنا، نلحظ بعض الغموض يكتنف العلاقة بين "الأمة" (وكما رأينا فإن غالبية أفراد الأمة ليسوا من الناطقين بالعربية) من جهة و"القومية العربية" من جهة أخرى، حيث وضعت كل آمالها منذ نصف قرن فى اللغة الفصحى التى تعدها بمثابة لغة الوحدة العربية، وهى لغة الارتباط بتاريخ الشعب العربى وديانته؛ فإنها تحظى بمكانة شديدة الخصوصية، على الصعيد القانونى باعتبارها اللغة الرسمية لمعظم الدول العربية، وعلى الصعيد الرمزى باعتبارها لغة الله أى لغة الكمال والجنة....

يختلف بكل تأكيد هذا الوضع العام الذى أبرزنا معالمه من دولة إلى أخرى. فقد ذكر محمد بن رباح أنه فى بداية السبعينيات، وفى أثناء إعداد معجم للمفردات المشتركة بين دول المغرب الثلاث (تونس والجزائر والمغرب) بواسطة البحث عن

مصطلحات تعد جزءاً من الكلام المستخدم فى دولتين على الأقل من هذه الدول الثلاث (كان الهدف من ذلك هو إعداد المفردات التى سيتم استخدامها فى الكتب المدرسية)، كان هناك اتجاه لأخذ كلمات من العربية الكلاسيكية الفصحى أو من لهجات الشرق العربى. فقد اختيرت كلمات مقترضة من اللغة الفصحى مثل "سمك" و"برتقال" بدلاً من كلمتى "حوت" و"شينة" المستخدمتين بالمعنى نفسه فى هذه الدول الثلاث. بلغ عدد المفردات فى نهاية الأمر ٤,٨٠٠ كلمة تضمنت كلمات مغربية الأصل بنسبة ٣,٥٪ فحسب. يكمن بالطبع وراء هذا الاستحداث لمفردات كلاسيكية نوع من الرفض للأنواع المحلية، وهو ما أسماه بن رباح بـ "كراهية الذات" التى تتجلى كذلك من خلال الافتتان بالشرق الأوسط؛ ففى كتب التاريخ التى تُدَرَّس بالمدارس الجزائرية، "تم إغفال الآثار الرومانية فى حين تعدت نسبة الجزء المخصص لآثار الشرق الأوسط الـ٧٥٪".

إننا هنا فى الواقع بصدد ثمرة انفصام لغوى يعد من مكونات الأوضاع اللغوية العربية. وتختلف مصائر اللغات العربية "القومية" باختلاف الدول التى توجد بها. فنجد أن اللغة العربية المصرية أو بالأحرى العربية القاهرية التى اتسع انتقالها خارج حدود الدولة بواسطة السينما والأغانى، تحظى بوضع شديد الخصوصية يمكن أن يصل إلى حد إحداث نوع من الانقلاب فى الأبجدية ذاتها. يوجد على سبيل المثال فى اللغة العربية المصرية حرف الـ"ج" /g/ الذى تنطقه اللغات العربية المغربية (والفصحى الكلاسيكية) كحرف معطّش /j/ فى كلمات مثل "جبل" و"جمل"...إلخ، وإن كان المصريون ينطقون فى الغالب الـ"ج" /j/ المعطشة عند قراءتهم للعربية الفصحى. وهكذا، فإن حرف الـ"ج" يرمز إلى طريقة النطق العربية المصرية /g/ ، إلى حد أنه عند الحاجة لكتابة حرف الـ/j/ ، ولا سيما بالنسبة للكلمات الأجنبية، يتم استخدام حرف مختلق هو حرف الـ"چ" ذو الثلاثة نقط. ونجد خلاف ذلك فى الجزائر، حيث يمتلك كثير من الجزائريين الأطباق الهوائية التى تمكنهم من استقبال البرامج التليفزيونية الأجنبية، بينما تؤكد الصحافة القومية على استخدام حرف الباء الاستهلالى /b/ بدلاً من /p/ الذى ينطقه العالم أجمع، وله وجود فى اللغة العربية الجزائرية. ومن المفارقات الواضحة هنا أن البحث عن سمة العروبة جعل الجزائريين يقدرون اللغة العربية

المصرية المنقولة بواسطة الأفلام والتلفزيون والأغاني، أي تقدير اللهجة المصرية المستخدمة في كل قطاعات الدولة ومستوياتها... يمكننا أن نرى هنا رغبة في الحيلولة دون وصول اللغة العربية الجزائرية إلى نطاق الكتابة، وتجميد العلاقة بين ثنائية الخط/الصوت. وبما أن خطاب التمثيلات يؤكد على أهمية الكتابة، فإننا نجد بالتالي أكثر الأوضاع المضادة للديمقراطية بصورة لا يمكن تصورها: اعتبار شعب ما كمتكلم لإحدى اللهجات العامية، ورفض دخوله مجال المعرفة بواسطة لغته الخاصة. إننا هنا إزاء إحدى صور عدم التأمين اللغوي، وإن كانت لا تعد الأقل شأنًا: تؤدي زيادة تدخل السلطة في اللغة إلى زيادة إصابة المتكلمين بالسقم؛ لأن درجات الانفصام اللغوي ترتبط بدرجة الضبط اللغوي. وتستلزم اللغة النموذجية بكل تأكيد وجود أشكال أخرى غير هذه اللغة النموذجية المعاصرة، ومثل هذه الازدواجية أو التعددية هي التي تولد الانفصام اللغوي.

لقد تناولنا حتى الآن وضع بلاد المغرب بصفة خاصة، لكن الأوضاع العربية الأكثر اتساعًا تطرح مشكلة أخرى تتمثل في طريقة فرض اللغة "الشرعية". وتعود بنا صفة "الشرعية" إلى أبحاث بيير بورديو الذي أعرب لأول مرة عن مواقفه بهذا الصدد أمام أحد مجالس المعلمين، وهو موقف له دلالته ويستحق الاهتمام. انطلق بورديو من الفكرة التالية: "تفترض عملية الاتصال في ظل السلطة التربوية وجود مرسلين شرعيين، ومستقبلين شرعيين، ووضع شرعي، ولغة شرعية"، أي أنه هناك اعتراف متبادل بين المعلمين والطلاب وآبائهم. وردًا على أحد الأسئلة، أضاف قائلاً:

"سيادة إحدى المؤسسات أو الأنشطة أو الاستخدامات تكسبها شرعيتها رغم عدم الوعي بالحالة التي توجد عليها، أي أنها تكتسب اعترافًا ضمنيًا. إن اللغة التي يستخدمها الأساتذه والتي تستخدمونها في التحدث معي (صوت أحد الحاضرين: وأنت كذلك تستخدمها).. والتي أستخدمها بكل تأكيد... وهذا ما أحاول أن أؤكده على الدوام. أي اللغة التي نستخدمها في هذا المكان، هي لغة سائدة غير مُعترف بما هي عليه، أي أنه معترف بشرعيتها ضمنيًا". وبعد ذلك بخمسة أعوام، وفي أحد المؤلفات التي تحمل عنوان هذا المؤتمر نفسه (Ce que parler veut dire) أي "معاني الكلام"، ذكر

بورديو أنه: "من أجل فرض وجود إحدى طرق التعبير باعتبارها اللغة الوحيدة الشرعية، وسط بعض الطرق الأخرى (مثل لغة ما فى حالة الثنائية اللغوية، واستخدام ما لإحدى اللغات فى حالة مجتمع منقسم إلى عدة طبقات)، يجب أن يتوحد السوق اللغوى وأن يُقدَّر فعليًا حجم مختلف اللهجات (الطبقية أو الإقليمية أو العرقية) بالنسبة لهذه اللغة أو الاستخدام الشرعى". ومن ثم تستلزم الشرعية والسيادة اللتان ربط بينهما بورديو وجود دولة ما (السوق اللغوى الموحد)، بالإضافة إلى الاعتراف الضمنى بلغة سائدة، وهو اعتراف ضمنى على مختلف مستويات هيكل من النوع الهرمى. وبعبارة أخرى نقول إن اللغة الشرعية (الرسمية أو الفصحى المعاصرة...) هى لغة الطبقة السائدة التى صارت لغة الدولة. إلا أن الدول الناطقة بالعربية تهاجم بشدة مثل هذا التحليل. لكن كيف يسير "إنتاج اللغة الشرعية وتوليدها ؟"... هذه هى المسألة التى تناولتها بالدراسة نيلوفار هائرى Niloofar Haeri بصدد مصر حيث نجد الوضع اللغوى كما أوضحناه أعلاه: اللغة الرسمية هى اللغة العربية الفصحى أى لغة القرآن، ولغة السكان الأولى هى العامية المصرية. وتنطبق على هذا الوضع تمامًا الفكرة التى طرحناها فى الفصل الثانى بشأن التمييز بين التعلُّم العفوى والتعلُّم المنهجى؛ لأن اللغة العربية الفصحى لا تنتقل من جيل إلى آخر، بل يجب تعلمها بصورة "منهجية" فى المدارس، بينما تنتقل "اللهجة" من جيل إلى آخر حيث يتم اكتسابها بطريقة "عفوية". لكن هائرى تشير إلى أن الطبقات الحاكمة فى مصر "قد تلقت تعليمها باللغات الأجنبية فى القاهرة والإسكندرية وغيرها من المدن الأخرى. وكثير منهم قد دخلوا المدارس الخاصة التابعة للإرساليات الكاثوليكية، حيث نجد أن لغات التعليم الرئيسية هى اللغات الأجنبية مثل الإنجليزية والفرنسية والإيطالية...إلخ". وعلى خلاف ما ذكره بورديو، توضح هائرى أن اكتساب رأس مال رمزى ودخول سوق العمل لا يرتبطان هنا باللغة الرسمية بل باللغة الأجنبية.

ويشبه هذا الوضع ما يحدث فى بلاد المغرب العربى حيث لا تعد معرفة العربية الفصحى من سبل الحصول على رأس مال رمزى، لكن معرفة اللغة الفرنسية تمثل بالأحرى سبيل تحقيق هذه الغاية، وكذلك معرفة اللغة الإنجليزية وإن كانت بصورة أقل،

حيث نجد أن نُخب المغرب العربى تتشكل من الناطقين بالفرنسية "الفرانكوفونيين" الذين لا يجيدون بالضرورة اللغة العربية الفصحى. و تشهد مصر فى الواقع نوعًا من التعايش والصراع بين الاعتراف باللغة العربية "الفصحى" كلغة رسمية وبين السوق الاقتصادى الذى لا يُقيِّم هذه اللغة على الإطلاق؛ مما يسفر عن حالة من الالتباس الشديد الذى يكتنف السوق اللغوى. فإن خريجى المدارس الدينية ولا سيما خريجى الأزهر يحظون برأس مال ما، لكنه ينحصر فحسب فى إطار السوق الدينى؛ وتنمية مثل هذا النوع من رءوس الأموال الرمزية لا تخضع لسلطة الدولة. وقد عقدت هائرى مقارنة بين هذا الوضع وعلاقة الدولة بالشريعة الإسلامية:

"ورد فى الدستور ذكر كل من اللغة العربية والشريعة، إحداهما باعتبارها لغة الأمة الرسمية، والأخرى باعتبارها قاعدة نظام الدولة التشريعى. إلا أنه بشكل يثير جدلاً يفوق الجدل بشأن الوضع اللغوى، اصطدمت الدولة فى بعض الأحيان بتناقضات هائلة عند مباشرة الدعاوى والقوانين التى يبدو أنها تطابق الشريعة، لكنها لا تتوافق مع عملية التحديث التى تتبناها والسير على نهج الأوروبيين والأمريكيين".

لا تختص مصر وحدها بهذا الوضع، ويتضح وضع المغرب بصورة شائقة من خلال التحليل الذى أجرته نيلوفار هائرى. إزاء الأشكال الشعبية العربية أو البربرية، ولا سيما الشفهية، تحظى اللغة المكتوبة فى المغرب بوضع رمزى شديد الخصوصية، وهذا ما لخصه جيداً جيلبير جراندجيوم Gilbert Grandguillaume فى قوله: "من أجل مقارنة الوضعين المغربى والفرنسى، لابد من الاعتراف بأنه خلال مقاومة اللغة الفرنسية للغات المحلية، لاقت اللغة السائدة تأييداً على صعيد الارتقاء الاجتماعى الذى ارتبط بالتخلى عن اللغة الإقليمية. ولا توجد أية ظاهرة مماثلة لما يتعلق بأنواع الكلام فى المغرب؛ لأنه على النقيض تماماً لا يسود الشعور بأن التحول إلى اللغة العربية- فى ظل عملية التعريب - من عوامل الارتقاء". وقد يسعنا أن نضيف إلى ذلك أن البعض قد اعتبر هذا الوضع بمثابة نوع من التطهير، مما يعطى فكرة جيدة عن وضع اللغة...

تعد بالتالى اللغة العربية "العامية" اللغة السائدة فى عملية الاتصال اليومى داخل مجموعة الدول الناطقة بالعربية، بينما تسود اللغة الإنجليزية أو الفرنسية جزءاً كبيراً

من السوق اللغوى، وتحتل العربية الوسطى وضعًا هلاميًا، ولا تحظى العربية الفصحى التى تعد اللغة الرسمية والدينية بالشرعية سوى فى إطار سوق ضيق. وبكل تأكيد، توضح لنا كل هذه الأمثلة أن بورديو كان آليًا بصورة طفيفة فى رؤيته للعلاقات بين اللغة الرسمية والسلطة، أو على الأقل لم يتطابق تحليله جيداً مع أوضاع الدول الناطقة بالعربية. إلا أنه يوضح لنا بوجه خاص أن "النظم البيئية العربية" تتسم بنوع من التفاعل الداخلى بين عدد من القوى المختلفة المتناقضة، حيث يكتنف الالتباس العلاقات التى تربط بين الدولة والدين والطبقات السائدة من جهة واللغات من جهة أخرى. وهكذا، فإننا نشهد ما يشبه نوعًا غريبًا من الدوامة التى تنزع إلى تشويش الحقائق، داخل مجموعة اتصالية لغوية تزداد حركتها كلما زاد اتساع الأراضى المعنية. ولا تعد اللغة العربية "رسمية على الصعيد الرسمى" سوى لأسباب تكتيكية، وإن جمودها التاريخى الذى يرجع لأسباب إيديولوچية (لا يجب تغيير لغة الله)[1] يمنعها من تأدية الوظائف التى يجب أن تضطلع بها اللغة الرسمية (التحديث ومسايرة النهج الأوروبى...إلخ). وهكذا، نلحظ وجود تعارض بين حاجات المجتمع اللغوية ووظائف اللغة الاجتماعية (هذا ما تناولناه فى الفصل الثالث)، حيث تلبى اللغة الرسمية فى شكلها الحالى جزءاً صغيراً من المطلب الاجتماعى (ولنقل بكل بساطة إنها لا تلبى سوى المطلب الإسلامى)، وهى غير قادرة على تلبية أية مطالب أخرى أكثر صعوبة مثل التحديث. وهكذا، فإن درجة تكافؤ اللغة العربية الفصحى تتسم بالمحدودية، حيث لا تتوفر لها وظيفتها الرسمية بواسطة سلطة الطبقات الحاكمة أو بواسطة مطالب السوق، بل بواسطة عدد من العلاقات المعقدة والمبهمة التى تربط بين الدولة والإيديولوچية الإسلامية. ففى الجزائر على سبيل المثال، بدءًا من إصدار قرار عام ١٩٦٢ بشأن اعتبار العربية الفصحى لغة البلاد الرسمية، وانتهاءً بإصدار قرار تعريب البلاد كلية فى الخامس من يوليو عام ١٩٩٨، ومروراً بإصدار الميثاق الوطنى عام ١٩٧٦، وإقرار قانون التعريب بالتصويت عام ١٩٩٦، كانت السلطة تعرب دومًا عن رغبتها فى الإسراع بعملية التعريب كلما واجهت بعض المشكلات مع الإسلاميين، فى

(١) [سبق أن أشرنا إلى عدم صحة هذا الافتراض] .

محاولة منها للتقدم بنوع من الإصلاح الرمزى غير المعد له جيداً؛ مما يجعله يخفق فى كل مرة. ومن ثم فإن للتمثيلات هنا تأثير شديد للغاية (التمثيلات الخاصة باللغة باعتبارها لغة الله، والتمثيلات بشأن المتكلمين المعروفين بإسلامهم باعتبارهم من أفراد جماعة المؤمنين والأمة العربية)، حيث تنزع إلى تجميد الممارسات بصورة مصطنعة بيد أنها لا تكف عن التطور بصورة طبيعية.

كيف يمكن إذن أن تتطور مثل هذه الأوضاع ؟... يمكن إخضاع عملية الضبط الذاتى لهذا الوضع لعدة سيناريوهات مختلفة هى:

١- تطويع اللغة العربية الفصحى الكلاسيكية وفقًا للمطلب الاجتماعى.

٢- الارتقاء الشديد باللغة العربية الوسطى التى يمكن أن ينتهى بها المطاف إلى منافسة العربية الفصحى فى وظيفتها الرسمية.

٣- الارتقاء باللغة العربية العامية، والارتقاء فى الجزائر والمغرب باللغة البربرية، من أجل الاضطلاع بالوظائف الرسمية.

٤- الاقتسام الثنائى للوظيفة أو اقتسام الشرعية بين لغة رمزية - أى لغة الدين - ولغة الحداثة.

لا يمكن تصور السيناريو الأول؛ فبعيداً عن تولى الإسلاميين للسلطة فى هذه الدولة أو تلك، يبدو أنه مقدر للغة الفصحى أن تظل جامدة فى إطار وضعها الدينى. يصطدم السيناريو الثانى بحقيقة أنه فى المغرب لا تعد العربية الوسطى لغة ارتقاء النُخب، مثلها فى ذلك مثل الفصحى القديمة، إلا أنها قد تتمكن من بلوغ هذه المكانة. ومن هنا، يمكنها أن تفرض وجودها بكل يسر؛ وسيتبع ذلك كنتيجة طبيعية حدوث تغيير إقليمى كبير يزيد من صعوبة التفاهم المشترك بين المغرب والمشرق على صعيد اللغة المكتوبة[(١)]. يمكن تناول السيناريو الثالث من الناحية الفنية؛ فقد تضطلع كلية مختلف اللهجات بهذه الوظيفة الرسمية لقاء إدخال تعديل ما ينبثق عن عملية التخطيط

(١) ذكر لنا بيير لارشيه أن لديه العديد من الأمثلة على هذا الوضع، ولاسيما فى مجال الصحافة.

اللغـوى. إلا أن هذا الحل قـد يدخل- مـثل الحل السـابق- فى صـراع مع اتجـاه إيديولوچى آخر هو اتجاه الوحدة العربية الذى لا يمكن أن يتجلى لغويًا سوى من خلال اللغة العربية الفصحى باعتبارها اللغة الوحيدة التى يمكن توحيدها. وبصدد السيناريو الرابع، فقد تمت ممارسته فعليًا، إلا أنه من غير الممكن الاعتراف به قانونيًا؛ لأن ذلك يستلزم فى نهاية الأمر الفصل بين الدين والدولة، وهو ما لا يمكن التفكير فيه حاليًا لأسباب سياسية واضحة.

وهكذا، يبدو الوضع مصمتًا، ويثير مستقبل تطور الأنظمة البيئية اللغوية فى المغرب اهتمـام كل من يعكف على دراسـة المشكلات اللغوية والعـلاقـات بين اللغات والأمم. لكننا نرى أن العوامل الحاسمة فى هذا التطور تنبثق عن الممارسات السياسية لا اللغوية. ففى الغالب تمارس دول المغرب حاليًا ما أسميناه "السياسة اللغوية المتاحة"؛ مما يعد إغضاء للطرف به قدر من قلة التبصر، بل يماثل سياسة النعامة التى أصفها هنا من المنظور اللغوى، لكننا نلحظ أنها تتجلى كذلك فى العديد من مجالات الحياة الاجتماعية. ومثل هذه الأمثلة توضح لنا كيفية تحديد إطار أحد النظم البيئية اللغوية والعلاقات بين اللغات وأقاليمها، من خلال العديد من العوامل غير اللغوية. لقد تناولنا أعلاه كم الممارسات وفيض التمثيلات، وبوسعنا أن نرى الآن بشكل أكثر وضوحًا كيف أن مجموعة اتصالية اجتماعية (مختلف الممارسات الخاصة باللغة العربية فى مكان واحد) وجغرافية (اللهجات المتنوعة) نتجت عن اتساع نطاق اللغة العربية، قد انقسمت بفعل الحدود الدولية التى اخترقتها، حيث نزعت هذه الممارسات بصورة طبيعية نحو نوع من "تأميم" اللهجات، ولا سيما بواسطة التحضر، بينما نزعت بصورة مصطنعة بعض الإيديولوچيات التى تبدو متعارضة فى ظاهرها (الحركتين العربية والإسلامية) إلى فرض أشكال أخرى ولّدَ وجودها إلى جوار الشكل الأول الانفصام اللغوى. لكننا نشهد فى الوقت ذاته صور التعارض بين منظور المستعربين الذين يحاولون إعداد تصنيف نوعى وموضوعى لأشكال الكلام، لكنهم يعجزون عن الاتفاق سويًا، وبين تمثيلات الناطقين بالعربية التى تعمل فى الإطار الأسلوبى (الفصحى) أو الاجتماعى (العامية وغيرها). أى أن الأنظمة البيئية اللغوية العربية تتحدد بفعل الحدود (الاتجاه

نحو "التأميم")، والعلاقات بين مختلف اللغات (الفصحى والوسطى والعامية...إلخ)، فضلاً عن التمثيلات. ومن هذا المنطلق، تعد هذه الأنظمة من أفضل مناطق البحث للمعالجة البيئية اللغوية.

عدة مسميات ولغة واحدة: مثال الكيتوبا

حينما نَطَّلِع على أى من المؤلفات التى تعرض لمجمل لغات العالم، كثيراً ما نجد" أن المؤلفين يطلقون عدداً كبيراً من المسميات على ما يعدونه لغة واحدة." ومن ذلك ما أصدره المركز القومى للبحث العلمى CNRS من كتاب مخصص للغات الأفريقية، حيث نجد العديد من الأمثلة على تعدد المسميات اللغوية التى يمكن أن نعدها بمثابة نواة لعمل تصنيف بهذا الشأن. ففى بعض الحالات، يكون هذا التعدد مجرد انعكاس لوضع يتعلق باللهجات؛ فنجد فى مالى والنيجر على سبيل المثال أن السنغى والزارما والدندى تعد أشكالاً إقليمية لما تعتبر بوجه عام لغة واحدة. وفى حالات أخرى، يدل هذا التعدد على تصارع الاسم الرسمى لإحدى اللغات (الاسم الذى تطلقه عليها الإدارة أو يطلقه اللغويون) والاسم الذى يطلقه عليها متكلموها ويعد بمثابة "تسمية ذاتية" وفقًا للمصطلح الوارد فى الكتاب الذى سبق أن أشرنا إليه. وفى بعض الحالات الأخرى، تحمل اللغة اسماً محليًا هو الذى يطلقه عليها متكلموها مثل الفولفولد، واسماً بلغة المستعمر مثل البول peul بالفرنسية، واسماً بلغة مستعمر آخر مثل الفولانى باللغة الإنجليزية (الاسم الفرنسى مقتبس من لغة الولوف، والإنجليزى مقتبس من لغة الهوسا)، وتشهد بالطبع هذه المسميات الثلاثة على عصر الاستعمار وحقيقة أن متكلمى البول كانوا يقطنون أراض وقع بعضها تحت نير الاستعمار الفرنسى، بينما وقع البعض الآخر تحت نير الاستعمار البريطانى.

تتسم الأمور فى بعض الأحيان بحالة من التعقيد الشديد حينما تختلط البدائل اللهجية والمسمى الذاتى والمسمى غير الذاتى. ومن ذلك على سبيل المثال حالة الكوتوكو: "الكوتوكو هو الاسم العربى لسلسلة من اللهجات هى الشاوى والمكارى والنجالا

والجولفى والأفاديه والكوزرى والكليسيم واللجوانى والجيلب". وقد يحدث أحياناً أن يشير الاسم نفسه أو بعض الأسماء المتقاربة إلى اللغة الأولى (أو اللغة العرقية) وشكلها الناقل على حد سواء. وهكذا، نلحظ ظهور شكل واحد أو عدة أشكال (؟) ناقلة للغة الكيكونجو التى تعد اللغة الأولى فى كل من الكونغو وأنجولا، والتى يمكن أن تحمل مسميات مختلفة: "انبثقت عن الجماعة اللهجية للغة الكونغولية عدة لغات ناقلة هى الكيكونجو "الأدبية" أو "الموحدة" (...)، والكيكونجو - كيلتا أو "كيكونجو الحكومة" (...) والمونوكوتوبا، والفيو...إلخ"، هذا ما قرأناه فى الكتاب ذاته الذى نجد فيه بعد ذلك بثلاثمائة صفحة أن: "الكيتوبا (المعروفة كذلك بالكيسودى، والكيبولاماتى، والمونكوتوبا، والفيوت، والإيكليف، والكيلتا، والكيكونجو التجارية، والكيكوانجو التجارية...إلخ) المنبثقة عن الكيكونجو يمكن أن تكون مستخدمة كلغة ثانية بواسطة مليونى شخص". أى أننا نجد فى الكتاب نفسه (ولكن نقلاً عن مؤلفين مختلفين) لغة ناقلة أطلقت عليها الأغلبية اسم الكيكونجو فى الحالة الأولى (بمعرفة بيير ألكسندر Pierre Alexandre) واسم الكيتوبا فى الحالة الثانية (بمعرفة أيان هانكوك Ian Hancock)، وهى تحمل العديد من الأسماء الأخرى. وكما نرى فإن هذا الوضع الأخير الذى يتسم بالتعقيد سيصلح لأن يكون مثالاً على تحليل العلاقات بين تسمية اللغات والبيئة.

فى مقال حديث مخصص لعرض ما أسماه من جانبه الكيتوبا kituba، ساق ساليكوكو موفوينى قائمة تضم مختلف المسميات التى أطلقت على هذه اللغة: الكيكونجو- كيتوبا، والكيكونجو يا لتا، والكيلتا، والكيكونجو يا بولا- ماتادى، والكيبولا ماتادى، والمونو كوتوبا، والإيكيلى فى، والكيكوانجو، والكيكونجو. إن المصطلح الشامل الذى استخدمه الكاتب هو من محض الاختيار، حيث تشير السابقة كى ki إلى فئة الأدوات، ولاسيما الأدوات اللغوية، وقد جاءت متبوعة بالفعل "يتكلم" أو "يقول" tuba، مما يتضمن فكرة "أداة الاتصال". يميز موفوينى فى الواقع بين الكيكونجو العرقية من جهة، أى لغة (قد تكون أو لا تكون اللغة الأولى) تلعب دوراً فى التعبير عن الهوية (لغة الباكونجوس)، وبين الكيكونجو- الكيتوبا أو الكيتوبا من جهة أخرى، وهى لغة ناقلة تنحدر من اللغة السابقة، ويعدها بعض الكتّاب بمثابة إحدى لغات الكريول الهجين.

يسوق لنا تحليل هذه الأسماء المختلفة بعض الإيضاحات الشائقة حول البيئة التاريخية والاجتماعية للغة الكيتويا، حيث سنتعرض لها من خلال الاستناد أولاً إلى ذكره موفويني.

– الكيتويا: هو الاسم الذى وقفنا على معناه أعلاه، ويستخدم بصفة رئيسية بواسطة اللغويين.

– الكيكونجو– كيتويا: يستخدم شكل الكيكونجو أى "لغة الكونجو" أو "لغة شعب الكونجو" (الباكونجوس) بواسطة اللغويين من أجل الإشارة إلى مجموعة الأشكال اللغوية الذى يطلق عليها المتكلمون مسميات مختلفة. والجمع بين هذين المصطلحين هو من قبيل التسمية غير الذاتية البحتة لأنه من ابتكار واصفى اللغة.

– الكيكونجو يا لتا أى "كيكونجو الدولة": تم إطلاق هذا الاسم لأن إدارة الاستعمار البلجيكى كانت تستخدم هذه اللغة، وهى تسمية شعبية بصورة بحتة.

– الكيلتا أى "لغة الدولة": هى شكل مختصر للتسمية السابقة.

– الكيكونجو يا بولا– ماتادى أى "كيكونجو محطمى الأحجار": يحمل هذا الاسم إشارة إلى إنشاء (بين عامى ١٨٩١ و١٨٩٨) خط السكك الحديدية الذى يربط بين ميناء ماتادى وعاصمة الكونغو البلجيكية (ليوبولدفيل التى تسمى حالياً كينشاسا)، والذى استلزم تفجير العديد من الصخور.

– الكيبولا– ماتادى أى "لغة الأحجار": هى شكل مختصر من اللغة السابقة.

– المونوكوتويا أى "أنا أتكلم، أنا أقول": يبدو أن هذا المسمى قد ظهر خلال الثلاثينات فى أثناء إنشاء خط سكك حديدية بين ميناء بوانت نوار والعاصمة برازافيل.

نلحظ بالتالى فى الحالات الثلاثة الأخيرة (ماتادى، والكيبولا– ماتادى، والمونوكوتويا) أننا إزاء علاقة مباشرة بين تسمية اللغات وإحدى الممارسات الاجتماعية التى تتمثل فى إنشاء خط سكك حديدية، وجلب الأيدى العاملة من مختلف أجزاء القارة الأفريقية (بما فيها غرب أفريقيا)، حيث استلزم الأمر وجود لغة ناقلة نشأت لمواجهة هذا الوضع المرتكز على التجمع المحلى.

- الكيكونجو أى "لغة كوانجو" تحمل إشارة مرجعية إلى الإرساليات المسيحية بإقليم كوانجو- كويلو، حيث كان يتم استخدام هذا الشكل الناقل من أجل تعليم السكان أسس الديانة المسيحية.

- وفقًا لما ذكره موفويني، فإن الإيكيلى فى أى "هذا ليس حقيقياً"، هو مصطلح تم استخدامه في المنطقة نفسها كمصطلح محايد لا يضطلع بأية وظيفة لها علاقة بعلم ما وراء اللغة من دلالات وخلافه. "as a neutral term without any metalinguistic function"

وهكذا، نجد لشكل لغوى واحد ما يقرب من عشرة أسماء تحمل وفقًا لكل حالة إشارات مرجعية إلى الجغرافيا (الكيكوانجو)، والوظائف الناقلة (الكيتوبا والمونوكوتوبا) أو الوظائف الرسمية (كيكونجو يا لتا)، والظروف التاريخية التى أحاطت بظهور اللغة (الكيبولا- ماتادى). نشأ بعض هذه اللغات بصورة طبيعية (الكيكوانجو، والكلتا، والمونوكوتوبا) أى أنها نشأت بواسطة المتكلمين، بينما نشأ البعض الآخر بصورة مصطنعة (الكيتوبا، والكيكونجو)، لأنه نشأ بواسطة اللغويين. يشرح موفويني هذا الوضع من خلال تفسير ذى شقين يتمثل أولهما فى مسألة التعرف على مدى إمكانية اعتبار "الكيتوبا" من لغات الكريول الهجين، بينما يتعلق الشق الثانى بالرغبة فى الوقوف على بزوغ الأشكال الناقلة من المنظور البيئى. إننا سندع جانبًا مسألة تصنيف هذه اللغة كإحدى لغات الكريول (لدينا تحفظات على هذا التصنيف سبق أن تعرضنا إليها بإسهاب فى الفصل السابق)، إلا أنه من الواضح أن اختلاف المسميات الطبيعية- حينما تتجاور جغرافياً- هو دليل على وجود تمثيلات مختلفة يتم بموجبها إطلاق أسماء مختلفة على اللغات .

والأكثر إثارة للاهتمام تلك الروابط بين اسم اللغات وظروف نشأتها؛ لأن تسمية اللغات هنا لا تحمل سوى فى حالات نادرة إشارات مرجعية لشعب ما (باستثناء حالة الكيكونجو التى تشير إلى الباكونجو)، أو لدولة ما (مثل الكلتا التى تشير إلى كيان ما أو بوجه عام إلى إدارة ما لا اسم دولة بعينها). هناك على الأقل ثلاثة افتراضات بشأن أصل هذه اللغة:

١- قد تكون الكيتويا من الأشكال الناقلة التى نشأت فى القرن السادس عشر، وفقًا لما ذكره هـ. فيهدرو H.Fehderau، من خلال علاقة التماس بين أنواع مختلفة من لهجات الكيكونجو فى إقليم مانيانجا، وهى مدينة تقع على نهر الكونغو أسفل مدينة كنساشا. لا يبدو حاليًا أنه هناك من يتبنى جديًا هذا الموقف، وذلك بصفة خاصة لأنه لا يستند إلى أى دليل تاريخى. فقد ذكر على سبيل المثال و. سامارين W.Samarin أنه فى عام ١٨١٦، كانت هناك بعثة استكشافية مكلفة بمعرفة حقيقة وجود أية لغات ناقلة على نهر الكونغو، إلا أنها لم تجد لها أى أثر.

٢- قد تكون الكيتويا من الأشكال الناقلة التى ظهرت فى نهاية القرن التاسع عشر، من خلال علاقات التماس بين الباكونجوس والأيدى العاملة التى جلبها المستعمر من غرب أفريقيا وشرقها. وهذا ما عرضه ويليام سامارين، لكن هذا الافتراض يستلزم بالتالى أن تكون الكيكونجو قد تحولت إلى لغة بيدجين هجين على يد الأفارقة الوافدين من مناطق أخرى، وقد يفسر ذلك سبب ما نجده فى الكيتويا من أشكال عازلة، بيد أن لغات البانتو هى لغات لاصقة.

٣- قد تكون الكيتويا نتاج علاقات التماس بين متكلمى البانتو ومتكلمى غرب أفريقيا (ولاسيما الذين كانوا يعملون كمترجمين للبيض). وهذا الافتراض الذى صاغه موفوينى يعتبر متكلمى غرب أفريقيا بمثابة الحافز فى عملية التحول للغة ناقلة، مع الأخذ فى الاعتبار اللغات الداخلية ("الكيكونجو" فى أشكالها المتنوعة)، والإسهامات الخارجية (تدخل لغات غرب أفريقيا التى تركت آثارها على الكيتويا)، وبوجه خاص إدانة وضع اجتماعى لغوى يتسم بالخصوصية.

وهكذا، فإن الكيتويا – كلغة ناقلة منذ نشأتها – قد تكون نتاج التقاء جماعات مختلفة لا تتكلم اللغة نفسها، ولا تتكلم بالضرورة لغات تنتمى للمجموعة ذاتها. وسواء كنا بصدد مراكز حضرية جديدة أو مد خطوط سكك حديدية، فإن أماكن الالتقاء التى أوجدها عصر الاستعمار قد شكلت بالتالى نوعًا من التدخل الخارجى فى بيئة لم تتمكن منذ ذلك الحين من استخدام وسائلها التقليدية فى مباشرة وضع جديد خلف مشكلات جديدة فى مجال التواصل. وليس هناك ما لا نعلمه بالفعل؛ فقد نشأ جزء كبير من لغات

العالم الناقلة فى مثل هذه الظروف، بينما ظهرت اللغات الناقلة الأخرى على طول طرق الاتصال التقليدية من موانئ وأنهار..إلخ. وما يستوقفنا هنا هو أن بزوغ مثل هذه اللغة يمدنا بمعلومات حول اللغات بوجه عام. ويستخدم موفوينى صيغة جميلة موضحًا من خلالها أن هذه الأوضاع الجديدة قد أدت إلى "اقتسام العمل" بشكل جديد بين اللغات العرقية والكيتوبا؛ لأن اللغات العرقية يتم استخدامها داخل نطاق الأسرة فى سياق خاص، بينما تستخدم اللغة الناقلة فى الحياة العامة. صارت الكيتوبا فى المدينة لغة ذات وظيفة محلية، وإن ظلت لغة ناقلة فى المناطق الريفية؛ مما يجعلها دومًا نتاج التعامل بين متكلمين من بينهم من يستخدمونها كلغة أولى أو ثانية، بينما تقتصر علاقة الآخرين بها على مجرد المعرفة التقريبية. ذكر موفوينى أنه "يبدو من المشروع وصف كيفية توزيع أنواع الكيتوبا فى المدينة والمناطق الزراعية، باعتبارها مجموعة اتصالية تبدأ من المعيار الحضرى للمتكلمين الأصليين، وتنتهى بالشكل الريفى الأكثر انحرافًا"، وأضاف أنه لا يمكن مقارنة هذه المجموعة الاتصالية بمجموعة لغات الكريول الهجين. لا تلعب هنا اللغة الفرنسية أو لغة الكيكونجو دور الشكل اللغوى الأمثل الذى يستطيع جذب الأشكال اللغوية؛ مما يجعلنا نقول إن الكيتوبا قد حصلت على استقلاليتها.

ما الذى نجنيه من وراء هذا المثال وما أسفر عنه من مناقشات؟... نقف أولاً أمام حقيقة واقعة تؤكد أن أى تغيير يطرأ على البيئة قد يسفر عن تغيير فى *الوضع اللغوى*. ومهما يكن حجم الدور الذى اضطلعت به الأيدى العاملة والمترجمون والبيض والجماعات الدينية والمدنية الناشئة على صعيد ظهور الكيتوبا، فإننا هنا بصدد مثال جيد (من بين العديد من الأمثلة الأخرى) على العلاقات بين البيئة والتغيير اللغوى. والحقيقة التالية تتمثل فى أنه هناك عدد من الممارسات التى يمكننا تحليلها باعتبارها استجابة للتغير البيئى، والتى تتم تسميتها بواسطة المتكلمين واللغويين بطرق مختلفة، مع ملاحظة الاتجاه نحو الانقسام فى حالة المتكلمين ونحو الاتحاد فى حالة اللغويين. أى أنه على صعيد الممارسة الطبيعيه للغة، يتجلى الاتجاه نحو الاختلاف من خلال هذه المسميات (تختلف هذه اللغات بما أننا نحن معشر المتكلمين نطلق عليها أسماء مختلفة)، فى حين أنه على صعيد الموقف المصطنع، يتجلى اتجاه معاكس (تشكل كل هذه الممارسات لغة واحدة نسميها نحن معشر اللغويين لغة الكيتوبا).

وهكذا، نجد هنا مجدداً تلك الثنائية التى عرضناها فى مقدمة هذا الكتاب للتمييز بين الممارسات والتمثيلات؛ فقد أسفرت التغييرات التى طرأت على الوضع اللغوى عن ممارسات أدت شيئًا فشيئًا إلى ظهور "الكيتوبا"، بينما أدت التمثيلات بشأن لغة "الكيتوبا"- فضلاً عن العديد من الأمور الأخرى- إلى مختلف المسميات التى تحملها أو حملتها هذه اللغة.

لغة واحدة أم لغتان أم ثلاث لغات: مثال اللغة الصربية-الكرواتية

منذ إصدار مُؤلَّف **Grundzüge der Phonologie** لنيكولاس تروبتزكوى **Nicolas Troubetzkoy (1939)**، ثارت إحدى المشكلات الأزلية فى الفونولوجى **phonologie** أى علم الفونيمات أو علم الأصوات، وهى مشكلة يمكن تلخيصها فى التساؤل التالى: "فونيم واحد أم اثنان؟"، وهذا التساؤل ينقسم بدوره إلى تساؤلين آخرين:

- هل هناك فونيمان مختلفان أم بديلان لمتغير واحد؟

- هل هناك فونيمان متتاليان (مجموعة فونيمات) أم فونيم واحد؟

إننا فى الحالة الأولى بصدد العلاقات الرأسية بين شكلين أحدهما فقط هو الموجود، بينما نجد أنفسنا فى الحالة الثانية بصدد العلاقات الأفقية بين شكلين يتواجدان جنبًا إلى جنب. لكننا يمكن أن نضيف إلى هذه المعالجة الوظيفية للمشكلة معالجة أخرى لا تعتد بالتقييم الفونولوجى لهذه الأشكال (بدائل أم فونيمات)، بل تعتد بالتقييم التمثيلى. ويمكننا استخدام المنظور الفونولوجى البحت فى تحليل النطق الألزاسى لبعض صوامت اللغة الفرنسية (تحويل صامت رنان إلى صامت مهموس)، إلا أننا قد يثير اهتمامنا كذلك كيفية إدراك المتكلمين الباريسيين لهذه الطريقة فى النطق (سمة جرمانية - غريبة - مضحكة...إلخ)، وكيفية إدراك المتكلمين الألزاسيين لها (سمة تعبر عن الهوية - معيارية - مضحكة...إلخ). لعلنا نرى أن هذه المعالجة المزدوجة مع تتماشى فكرة التمييز بين الممارسات والتمثيلات المستخدمة على نطاق واسع فى هذا الكتاب: إننا نجد من جهة طريقة النطق الألزاسية لحرف الـ/v/

أو الـ //g/، ونجد من جهة أخرى كيفية النظر إلى طريقة النطق تلك وكيفية المطالبة بها أو محاولة إخفائها... إلخ. إلا أنه فى ظل العديد من الأوضاع الأخرى، نجد مواقف مشابهة لا تتعلق فحسب بالفونيمات بل باللغات ذاتها. سنشرع أولاً فى وصف إحدى هذه اللغات قبل التطرق إلى العلاقات بين المعايير اللغوية والمعايير "التمثيلية" (التى لها علاقة بالتمثيلات) فى إطار معالجة هذه المشكلة، وبوجه عام فى إطار معالجة اللغات.

ورد ذكر اللغة الصربية-الكرواتية عام ١٩٦٨- فى أحد المؤلفات الصادرة تحت إشراف أندريه مارتينيه André Martinet وچوزيف ڤيرجين Joseph Verguin – باعتبارها اللغة الأولى "فى الجمهوريات المستقلة المتمثلة فى صربيا، ومونتنيجرو، والبوسنة والهرسك، وكرواتيا. كما يتم استخدامها كلغة ثانية داخل الجماعات السلوڤانية والمقدونية وكذلك بين الأقليات العرقية غير السلاڤية بالبلاد". وقد عمد هذا المؤلف إلى التمييز بين ثلاث لهجات هى:

- الشتوكاڤية chtokavien فى وسط البلاد وشرقها.
- التشاكاڤية tchakavien فى الغرب ومنطقة الجزر.
- القاجكاڤية kajkavien فى الشمال.

كما ورد فى هذا الكتاب ما يلى:

"اختلف الصرب والكروات حول القومية التى تثير أحيانًا بعض الأمور الشائكة أكثر من اختلافهم حول اللغة التى قد توحدت أدبيًا فى الشكل الشتوكاڤى. لكن الكرواتيين الكاثوليك قد أقروا استخدام الكتابة اللاتينية، بينما يستخدم الصرب الأرثوذكس الكتابة السيريلية".

وغالبًا ما يعلن حاليًا (١٩٩٩) الصرب والكروات والبوسنيون أنهم يتكلمون لغات مختلفة، رغم أننا لم نكن نشهد منذ عهد قريب سوى لغة واحدة هى اللغة الصربية – الكرواتية. هل نحن إذن بصدد لغة واحدة أم لغتان أم ثلاث لغات؟ لقد تم طرح هذا التساؤل بصورة سيئة: "هل تعد اللغة الصربية-الكرواتية لغة واحدة أم لغتان؟"، أو "هل يتكلم الصرب والبوسنيون والكروات اللغة نفسها؟". يمكننا بالطبع أن نحاول الإجابة

على هذه التساؤلات، شريطة أن نسوق تعريفًا واحدًا للغة. متى لا تكون لغة ما هى ذاتها؟... يجيبنا باختصار علم اللغويات الوظيفى بأن ذلك يحدث حينما لا يوجد أى تفاهم مشترك. ومن هذا المنطلق، نجد أن الصرب والكروات يتفاهمون بكل تأكيد؛ مما قد يجعلنا نستخلص أن "الصربية-الكرواتية" هى بالطبع لغة واحدة. إلا أن هذا يعد نوعًا من التعجل فى الحكم على الأمور؛ لأنه بعيدًا عن الرؤية "الموضوعية" لـ"ماهية اللغة"، هناك أيضًا الرؤية الذاتية التى يحملها المتكلمون بشأن موقفهم الموضوعى. وبعبارة أخرى نقول إنه إلى جوار التساؤل حول إذا ما كانت الصربية-الكرواتية لغة واحدة أم لغتان؟ يثور تساؤل آخر هو: هل يفكر أو يرغب الصرب والكروات فى التكلم باللغة ذاتها؟

ولنبدأ بذكر بعض الوقائع المختلفة، حيث أوردت الموسوعة اليوغوسلافية لعام ١٩٨٨ مقالها حول هذه اللغة تحت عنوان: "اللغة الصربية-الكرواتية أم الكرواتية-الصربية أم الكرواتية أم الصربية"، فهذه التعددية الاسمية باستخدام أربعة أسماء للغة واحدة تكشف لنا حقيقة معقدة. وعلى غرار ما فعله ڤيرجين، فإننا نميز لِلُغة ثلاث لهجات، من خلال طريقة قول كلمة "ماذا" بثلاثة طرق مختلفة: اللهجة القاجكافية (منطقة زغرب حيث نجدها kaj)، واللهجة التشاكافية (الساحل الأدرياتى حيث نجدها tcha)، واللهجة الشتوكافية التى تختص بمنطقة الوسط وتُستخدم فى بقية كرواتيا وصربيا والبوسنة والهرسك ومونتنيجرو، فنجدها تنطق هناك chto . كما نميز داخل هذا الجمع- فى إطار المقابلة بين الـ ije/e- بين لهجتين هما اللهجة الإيكافية lékavien من جهة (المستخدمة فى جزء كبير من كرواتيا والبوسنة ومونتنيجرو وغرب صربيا)، واللهجة الإكافية ékavien من جهة أخرى (المستخدمة فى صربيا باستثناء المنطقة الغربية منها). يعد هذا التمييز تمييزًا جغرافيًا فحسب، ولا يتطابق مع أية تقسيمات قومية. ووفقًا لما ذكره بول جارد Paul Garde، فإنه "لا توجد سمة واحدة تشكل اختلافًا بين طريقة كلام الصرب بأكملهم وكلام الكروات أجمعهم؛ مما يستحيل معه وضع تعريف محدد للهجة "الصربية" أو "الكرواتية"، مثلما نجد لدينا تعريفًا للهجة "البلچيكية" أو "الكندية". إلا أننا نجد نوعًا من معايير اللغة المكتوبة التى أُضيفت لهذا الوضع

المتعلق باللهجات. فالكروات الكاثوليك يكتبون اللغة الصربية-الكرواتية منذ القرن الثامن عشر بحروف لاتينية، بينما استخدم الصرب وسكان مونتنيجرو الأرثوذكس أحد أشكال الأبجدية السيريلية. وعلاوة على ذلك، فإن اللغة الصربية تقترض في الغالب الكلمات الجديدة المرتبطة بالمفردات العلمية التي تُعد من الكلمات المبتدعة الأهلية في اللغات الكرواتية. وهذا كله من شأنه أن يحدد بالتالي اختلاف الاستخدامات لا اختلاف اللغات. وتفاقمت حدة الأمور مع نشأة يوغوسلافيا (المملكة اليوغسلافية عام ١٩١٨، والجمهورية اليوغوسلافية عام ١٩٤٥). لجأت في أغلب الأحيان الدولة المتمركزة في بلجراد إلى استخدام الأبجدية اللاتينية واللهجة الإكافية في كتابة النصوص الرسمية، أي أنها استخدمت بوجه عام "اللغة الصربية" و"الكتابة الكرواتية". وهذا الجمع هو ما أطلق عليه اسم اللغة الصربية الكرواتية، وهو ما لم يرض الكرواتيين على الإطلاق. وفي عام ١٩٧٤ فحسب، منح الدستور مختلف جمهوريات الاتحاد الفيدرالي حق تسمية لغاتهم الرسمية. ومن هنا، آثرت كرواتيا تسمية اللغة بالكرواتية، بينما فضلت الجمهوريات الثلاثة الأخرى المعنية اسم اللغة الصربية-الكرواتية.

ما الذي يمكن لعالم اللغويات أن يقوله إزاء هذه المصاعب التاريخية الأيديولوچية السياسية؟... هناك العديد من الاختلافات المفرداتية بين الصربية والكرواتية، ويمكننا أن نصنفها وفقًا لتطورها المختلف من أصل جذر واحد (مثل gdje/gde أي "أين")، أو وفقًا للاقتراض من لغات مختلفة (مثل ulje/zejtin أي "زيت"، الكلمة الأولى من أصل لاتيني والثانية من أصل عربي)، أو وفقًا لاستحداث كلمات جديدة مختلفة (مثل brzo-jav/telegram):

الكرواتية	الصربية	الترجمة
vlak	voz	قطار
kruh	hleb	خبز
kava	kafa	قهوة
gdje	gde	أين
ulje	zejtin	زيت
povijest	historija	تاريخ
zemljopis	geografija	جغرافيا
brzojav	telegram	برق
ratchunalo	kompjuter	حاسب آلى
limunika	grepfruit	جريب فروت
gospodask	economia	اقتصاد
zrakoplov	avion	طائرة
...الخ		

إن هذه الاختلافات المفرداتية المعروفة والواضحة لا تحول دون عملية التواصل، لكنها تتيح وجود طريقة ما للتعبير عن الهوية. حينما يتكلم أحد الجامعيين الصرب عن جامعة بلجراد، فإنه سيقول univerzitet u beogradu، وحينما يتكلم أحد الجامعيين الكروات بشأن جامعة زغرب، فإنه سيقول :sveutchilishte u zagebu إننا هنا بصدد البناء نفسه ونظام التصريف ذاته لكن فى ظل وجود كلمتين مختلفتين... ولنضف إلى ذلك بعض الاختلافات النحوية. حينما يقول الكرواتى: trebam ici أو moram ici أى "يتعين علىّ الذهاب"، فإن الصربى يقول: treba da idem أو mora da idem أى "يجب أن أذهب" وهو تعبير عن المعنى نفسه، لكننا نجد التركيب فى الحالة الأولى يتكون من الفعل + مصدر الفعل، بينما تتكون الحالة الثانية من الفعل + أداة + تصريف الفعل.

يظل أمامنا بالطبع كيفية استخدام هذه الاختلافات، وهى فى مجملها اختلافات ضئيلة. كتب بول جارد بصدد المفردات قائلاً إنه: "هناك العديد والعديد من مثل هذه

الكلمات فى المعجم، وقد رغب أحد الكتاب الكروات فى توضيح أننا بصدد لغتين مختلفتين، من خلال عرض قائمة مثيرة للدهشة. إلا أن هذه القائمة تتضمن كلمات علمية، فى حين يمكن أن يستمر الحديث طويلاً خلال الحياة العادية دون استخدام أى من هذه الكلمات". لكننا يجب أن نضيف على الفور أنه يمكن استخدام مثل هذه الاختلافات الضئيلة من أجل التأكيد على اختلاف اللغتين. فحاليًا نجد فى البوسنة على سبيل المثال حرف الـ /h/ الذى صار إحدى علامات التعبير عن الهوية الإسلامية، بحيث ينطق فى كلمة مثل **lahko** بدلاً من **lako** أى "سهل"، ومثل **mehko** بدلاً من **meko** أى "بطىء"...إلخ. وعلاوة على ذلك، نشهد وجود بعض الاقتراضات من اللغتين التركية والعربية لاستكمال الطابع "الإسلامى" للغة، مثل انتشار تحية الإسلام "السلام عليكم" فى البوسنة... وقد برع عام ١٩٩٠ راندو بوجارسكى **Rando Bugarski** فى تلخيص هذا الوضع، قبل انهيار الجمهورية اليوغوسلافية:

"هناك اتفاق عام بين المتخصصين حول إعلانهم عن وجود لغة واحدة وفقًا لمنظور تصنيف علم اللغويات السلالى والنوعى، وتثور مشكلة بسبب الدلالة الاجتماعية اللغوية للبدائل الواضحة فى اللغة الصربية - الكرواتية المعاصرة. وتتجلى الاختلافات بصفة عامة على صعيد الأبجديات والفونولوچى والنحو، وتتجلى بصفة خاصة على صعيد المفردات والخلفية الثقافية، لكنها لا تؤثر مطلقًا على التواصل العادى إلا إذا شهدت قدراً من المبالغة المتعمدة. ويمكن بالتالى للتمييز اللغوى أن يرمز لمختلف المشاعر القومية والقيم الاجتماعية والاتجاهات السياسية. وبعبارة أخرى نقول إن هوية اللغة الصربية-الكرواتية هى- إلى حد كبير- مشكلة موقف ما، لا يعد فحسب موقفًا إزاء التغييرات اللغوية ذاتها أكثر منه إزاء العلاقات فى قلب الجماعات التى تستخدم تلك اللغة، وبصورة أكثر اتساعًا هو موقف من هيكل المجتمع اليوغوسلافى".

ومن ثمّ فقد عُدت الصربية-الكرواتية لغة واحدة على الصعيد اللغوى، وهى على الصعيد الاجتماعى اللغوى بمثابة نطاق للتعبير عن مختلف الأيديولوچيات من خلال إظهار الاختلافات: مسألة الهوية الصربية أو الكرواتية أو الصربية الكرواتية هى مشكلة اتخاذ مواقف. بعد ذلك بسبع سنوات، تناول بوجارسكى مجدداً تلك المسألة، حيث كتب

قائلاً إنه: "يمكن الاستمرار فى اعتبار اللغة الصربية-الكرواتية كلغة واحدة، على الرغم من أنها تشكل بالفعل على الصعيد السياسى ثلاث لغات". فهل يمكننا توقع مستقبل هذا الشىء الواحد أو الثلاثى وفقًا لوجهة النظر المتبناة؟... يعتقد بوجارسكى أنه لا يسع هذه الأشكال الثلاثة سوى أن تتفرق وتختلف، وهو أمر محتمل حدوثه إذا ما استمر تطور الوضع السياسى فى هذا الاتجاه ذاته وعلى المنوال نفسه، توصل دوبراڤسكو سكيلجان Dubravsko Skiljan إلى أنه "قد يسعنا أن نتصور أن الجماعة اللغوية الصربية-الكرواتية ستتفكك إلى الكثير من الجماعات الصغيرة، بحيث تختص كل منها بمجالاتها الرمزية والاتصالية".

إلا أن المشكلة التى ستستوقفنا هنا لا تتمثل فى تحول أو تفكك لغة ما، لكننا بصدد مشكلة الصراع بين اللغويين والمتكلمين حول تسمية اللغات (وما يتوارى خلفها من مشكلة الاختلافات التحليلية). توجد عبر العالم أجمع العديد من الأوضاع التى لا يتفق خلالها المتكلمون واللغويون على تسمية لغة ما بالكيفية نفسها، وكما سبق أن رأينا، فإن إجابة عالم اللغة لا تماثل بالضرورة إجابة المتكلمين على التساؤل بشأن وجود "لغة واحدة أم لغتين". إلا أن هذا التساؤل يثير تساؤلاً آخر: ما هو سبب رغبتنا فى التعرف على حقيقة وجود لغة واحدة أو لغتين؟... هل يرجع ذلك لأسباب تتعلق بالتصنيف النوعى العلمى؟.. ربما، لكن إثارة هذا التساؤل فى كرواتيا لا تمت للعلم بصلة. فلم يصبح الكروات فجأة من المتحمسين لعلم اللهجات، بل إنهم بالأحرى من المشدوهين بإحدى الأيديولوجيات القديمة التى تجعل من اللغة أحد معايير الوحدة القومية، ويرغبون فى تعزيز استقلالهم السياسى الحديث من خلال "الاستقلال اللغوى"، وهو ما يشبه قليلاً ما تمناه نواه ويبستر Noah Webster فى بداية القرن التاسع عشر، بشأن وجود لغة أمريكية جمهورية تختلف عن اللغة الإنجليزية الملكية...

وهكذا، يمكننا اعتبار اللغة الصربية الكرواتية بمثابة نتاج مشروع سياسى هو مشروع يوغوسلافيا، والوضع الجنينى الذى وصفناه من قبل- حيث نجد ثلاث لغات جديدة يبدو أنها فى طريقها إلى الظهور- هو نتاج تغيرات سياسية فى يوغسلافيا السابقة، وهى هنا تغيرات استشرت بفعل المواقف اللغوية للصرب والكروات

والبوسنيين، أو استشرت بالأحرى على سفح المنحدر اللغوى لمواقفهم السياسية. ظهرت هنا مشكلة لها قيمة عامة تتمثل فيما يلى: ما هو أثر التمثيلات اللغوية على الممارسات اللغوية؟ تشكل هذه المسألة الرهان الرئيسى: إذا ما كنا لا نتحدث اللغة نفسها، فإننا مختلفون، وإذا ما رغبنا فى التأكيد على اختلافنا، لابد من التحدث بلغات مختلفة[1]. لدينا مثال جيد على هذا الأثر فى تاريخ الهند الحديث: على الرغم من الجهود التى بذلها غاندى من أجل توحيد الهند لغوياً حول اللغة الهندوستانية، تعد حالياً الهندية والأردية لغتين مختلفتين يتم استخدامهما فى دولتين مختلفتين هما الهند وباكستان. وفى بعض المناطق الأخرى، تعد الكينيرواندا والكيروندى لغتين (مختلفتين؟) يتم استخدامهما فى دولتين مختلفتين، وكذلك بالنسبة للغتين الرواندية والبوروندية، واللغتين التشيكية والسلوفاكية...إلخ. أى أنه فى كرواتيا مثل سلوفاكيا، وفى رواندا مثل بوروندى، تم إرساء العلاقات التى سبق أن أثرناها، من خلال الاستناد إلى جذر واحد بالنسبة لاسم الدولة واسم مواطنيها ولغتهم. ويمكننا بالطبع أن نسخر من السلوفاك أو الكروات، لكنه يجب بالأحرى أن نلاحظ أنه إذا ما كانوا يؤكدون تحدثهم بلغات مختلفة - رغم رأى اللغويين - فقد ينتهى بهم الأمر إلى استخدام لغات يعترف بها اللغويون كلغات مختلفة بالفعل. وهذه العبارة الأخيرة التى تصف أدوار المتكلمين واللغويين، تطرح فى الوقت ذاته مسألة أخرى تتعلق بالمخاطر المتوارية خلف تعدد أسماء اللغات[2].

كرامر Kraemer: اختراع اللغة الفرنسية فى سياق اجتماعى مهنى

كرامر هى قرية تقع على بعد ٤٥ ميلاً جنوب غرب نيو أورليانز (لويزيانا)، فى وسط المستنقعات التى يطلق عليها باللغة الأمريكية اسم bayous أى الجداول

(١) [نعنى باللغة الغالبة superstrat اللغة التى تحل محل لغة أخرى لدى شعب ما، بسبب ظروف عسكرية أو اقتصادية أو ثقافية، وتقابلها اللغة المتنحية substrat .]

(٢) [نعنى باللغة المتنحية اللغة التى كانت سائدة فى مجتمع ما، ثم حلت محلها لغة أخرى لأسباب اقتصادية أو دينية أو ثقافية أو عسكرية.]

الصغيرة، حيث توجد جماعة مهنية ذات طابع خاص. نجد هناك مطعماً يقبع على أحد هذه الجداول، وانضمت إليه إحدى الشركات الصغيرة من أجل تنظيم الزيارات السياحية بواسطة القوارب swamp tour، كما يوجد متجر لبيع الهدايا التذكارية والمنتجات اليدوية، بالإضافة إلى المتاجرة برءوس التماسيح الأمريكية وجلودها. تضطلع بهذا العمل أسرة واحدة تمتلك كل هذا الجمع، بالإضافة إلى عدد من الجيران الذين يقدمون بعض المساعدات الفردية (ولا سيما فى موسم صيد التماسيح)، أى أننا بصدد ما يقرب من عشرين شخصاً ينتمون لثلاثة أجيال، وهم جميعًا- بما فيهم الشباب - من ثنائيى اللغة الذين يتحدثون الكريول الهجين والإنجليزية. إن هذه الجماعة الاجتماعية المتناهية الصغر التى أجرينا عليها أبحاثنا- خلال شهرى سبتمبر وأكتوبر من عام ١٩٩٣(١)- تحمل عدداً من الخصائص التى ترتبط كما سنرى بإدخال معيار خارجى فى محيط إحدى البيئات اللغوية.

الفرار من مصطلح الكريول

تتطابق تماماً إحدى لغات أفراد هذه الجماعة مع الوصف الذى ساقه كل من أنجريد نيومان Ingrid Neuman بالنسبة لبروبريدج Breaux-Bridge وتوماس كلينجر Thomas Klinger بالنسبة للابوانت كوبييه La Pointe-Coupée، بصدد إحدى لغات الكريول اللويزيانية. وعند سؤالهم بشأن ماهية كلامهم، أعلن سكان هذه القرية فى أغلب الأحيان أنهم يتحدثون الفرنسية، لكنهم استشعروا أحيانًا الحاجة إلى توضيح حقيقة كونهم بصدد شكل خاص من أشكال اللغة الفرنسية، ولم يظهر مطلقًا مصطلح الكريول لوصف كلامهم، بل كانوا يقولون: "إننا جميعاً نتكلم هنا اللغة الفرنسية، لكنها ليست... ليست الفرنسية، بل "كاجون" cajun(٢) .

(١) كنت أستاذاً زائراً فى جامعة تولان Tulane(نيو أورليانز)، حيث كنت أباشر كل يوم أحد عملاً ميدانيًا مع طالبتين (جوليا بريم Julia Brehm وكلير لوبا Claire Lebas) وأحد الزملاء (توماس كلينجلر Thomas Klingler).

(٢) [الـ "كاجون" cajun هى فرنسية سكان لويزيانا] .

ويسؤال أحد المتكلمين حول العلاقة بين كلامه وكلام سكان قرية لا ڤاشيرى La Vacherie الواقعة على نهر الميسيسيبى على بعد عدة أميال، حيث يستخدم السكان أنواعًا مختلفة فى كلامهم من بينها الكريول والكاچون، أجاب قائلاً:

"إن السود فى ڤاشيرى يتكلمون اللغة الفرنسية نفسها التى نستخدمها، فى حين يتكلم البيض لغة مختلفة".

يرى عالم اللغة من خلال هذه المقولة التى يضع قائلها لغته فى مصاف لغة السود بقرية لا ڤاشيرى تأكيداً واضحًا على استخدام هذا المتكلم لإحدى لغات الكريول دون أن يصرح مطلقًا بهذا الأمر. أى أن كل من هذين المتكلمين قد صنف كلامه فى فئة (اللغة الفرنسية) تضمن لها قدراً من النفوذ. إلا أنهما قد اتفقا على حقيقة اختلاف هذه الفرنسية عن اللغة الفرنسية الفصحى المعاصرة. لكن أين يكمن هذا الاختلاف؟ بسؤال المتكلمين حول هذا الأمر، حصلنا على نوعين الإجابات:

- هناك العديد من الأمثلة بشأن المفردات؛ منها استخدام chaoui, crebisse, chevrette, poëlon, char, zozo بدلاً من raton laveur, écrevisse, crevette, poêle, voiture, oiseau أى (حيوان الراتون - السرطان - الجمبرى - المقلاة - السيارة - العصفور). كما حرص المتكلمون بشدة على معرفة المزيد من المعلومات حول هذا الأمر. ومن ذلك على سبيل المثال ما أبداه أحد العجائز من دهشة شديدة إزاء معرفته بشأن استخدام اللغة الفرنسية بفرنسا لكلمة avion لا aéroplane التى ينطقها مع إدغام الصائت /a/ كما يحدث فى اللغة الإنجليزية.

- وجود شكل مقترض من اللغة الإنجليزية، وهو من حالات الاقتراض الدائمة التى تتمثل فى استخدام كلمة back اللاحقة من حيث ترتيب الكلمات، حيث يعد من الأمور الشائعة (vini bak, ale bak)، إلا أننا قد نعتقد أن ذلك قد يدخل فى إطار الأمثلة الخاصة بالمفردات؛ فقد ثار لدينا الانطباع أن تأثر محدثينا بكلمة back ذاتها كان يفوق تأثرهم باستخدامها كأداة لاحقة.

يبدو أنهم جميعًا يرفضون كلمة "كريول"، أو يمنحونها على الأقل معنى شديد الخصوصية غير لغوى، حيث يشبهون أنواع الكريول بطرق الطهى المختلفة :

roux, "Le nom créole c'est la manger. Enne a le manger cajun, vec... euh... le tout queque chose qui commence avec le roux c'est cajun, tout queuque chose avec les tomates c'est créole. "

فى ظل هذه التمثيلات، إذا كان سكان قرية لا فاشيرى من السود يتكلمون بالتالى مثل البيض فى كرأمر، فالأمر مختلف بالنسبة لسكان قرية شاكتو Chactaw الواقعة على بعد خمسة أميال. يتحدث أحد المتكلمين بشأن لغتهم قائلاً:

mon-"C'est un différent français. S'il y'a cinq Chactaw qui c'est là icite, mo se tre la différence...comme mo dit toi su'le bateau... ye t'a dit ma sienne... "

ويمكن ترجمة هذه العبارة على النحو التالى: "إنها لغة فرنسية مختلفة؛ ولو كان معنا الآن خمسة أشخاص من شاكتو، لأوضحت لك الفرق، مثلما قلت لك من قبل على سطح الباخرة...".

يشير المتكلم فى العبارة السابقة إلى بعض الأشكال المستخدمة فى لغة الكريول، ألا وهى: moken و token و saken بدلاً من ضمائر الملكية la mienne و la tienne و la sienne، حيث يوضح أن هؤلاء السكان يستخدمون لغة فرنسية مختلفة، وهذا ما تؤكده الاختلافات السابقة. ومن جانبه، ذكر لنا رجل مسن يدير أحد البارات أن أهالى كرأمر يتكلمون بشكل يثير السخرية، حيث قال إنهم /pari drol أى " parlent drôlement" أو إنهم يتكلمون بلهجة محلية، مدللاً على ذلك بأحد الأمثلة التى تتعلق بقولهم //mole, tole كى يقولوا " je veux, tu veux أى "أنا أريد، أنت تريد". إلا أنه وفقًا لما ذكرته نيومان، إذا ما كان يمكن إحلال صيغة ve, vø محل ole بمعنى " vouloir " أى "يريد"، فإن ذلك يكون فى صيغة النفى vepa بصفة أساسية؛ كما أن استخدام المورفيم /ve, vø كفعل مستقل (بدون أداة نفى)، أو كفعل مساعد فى صيغة النفى والإثبات معًا، لا يعد من الاستخدامات التى تبعد كثيرًا عن الشكل النموذجي. وإن معظم الباحثين الذين اشتركوا فى البحث يصنفون المورفيم /ve, vø باعتباره من اللغة الفرنسية. ومن المرجح أنه بمرور الزمان سيتم استخدام ve بدلاً من ole المستخدمة حاليًا .

كما أشار كينجلر بدوره إلى قلة استخدام صيغة ve، وإن كان ذلك يتم فى صيغة النفى بصفة أساسية. والشكل ole – مثل غيره من أشكال الفعل الأخرى (wa, vini, pele...) أى voir بمعنى "يرى"، و venir بمعنى "يحضر"، و appeler بمعنى "ينادى" – يُعد من الخصائص المميزة لكلام الكريول غير النموذجى، حيث يندرج هذا الأمر فى إطار مجموعة من المتغيرات يمكن تصويرها على النحو التالى :

الكرواتية	الصربية	الترجمة
wa	wa	vwar
vini	vnir	vnir
pele	aple	aple
ole	vø	vø
gain	a	a
...etc.		

أى أنه حينما أكد محدثنا من شاكتو أن كلام سكان كرأمر يتضمن الأشكال ole و tole فإنه يكون قد وصف هذا الكلام بأنه من لغة الكريول أو يبتعد عن اللغة النموذجية. وقد أعرب من جانبهم متكلمو كرأمر عن تأثرهم بهذه الاختلافات المفرداتية، حيث قابلوا على سبيل المثال بين الأشكال التى يستخدمونها مثل goble dlo (un verre d'eau) أى "كـوب من الماء"، و mustik, mo gain li (je l'ai) أى "إننى أمسكت بالناموس"، و trap mwa sa من جهة، وبين الأشكال المناظرة لها لدى متكلمى لا فاشيرى من جهة أخرى (ver dlo, marangwî, jlé, empogne mwa sa). وفى هذه الحالات الأربع، وقع اختيار أهل قرية لافاشيرى على أشكال تميل باتجاه لغة الكاچون cajun، كى يتضح بصورة أفضل مدى اختلافها عن كلام أهل كرأمر. وقد أخبرتنا إحدى المتحدثات أن "فرنسية الزنوج توجد فى المنطقة السفلى من لافاشيرى، بينما توجد اللغة الفرنسية الجيدة فى أعالى تلك القرية".

يبدو من خلال ذلك كله أننا إزاء إحدى ممارسات لغة الكريول (يقول المتكلمون vini بدلاً من venir أى "يأتى"، و gain بدلاً من avoir أى "يملك"، و wa بدلاً من voir

أى "يرى"...إلخ). وعلى صعيد التمثيلات، نجد الفرار من كلمة كريول التى لا تستخدم على الإطلاق فى تسمية اللغة، بل يتم فى المقابل استخدام هذا المصطلح فى تسمية المنتجات المحلية عالية الجودة (مثل الطماطم الكريول، والحصان الكريول...إلخ). وقد يسهل علينا أن نرى هنا رفض المتكلمين البيض لتسمية كلامهم باسم كلام السود، وهو افتراض مدحوض نظراً لأن المتكلمين يشيرون إلى لغة الزنوج فى لا فاشيرى بقولهم إنها "الفرنسية" أو "فرنسية الزنوج" والتى يشبهونها بالفرنسية المستخدمة فى كرأمر. ويظل أمامنا أنه إزاء أنواع الكلام الخاصة بكل من قرية لافاشيرى وشاكتو وكرأمر، سيسعى عالم اللغة إلى تصنيفهم تحت مسميات مختلفة (كريول غير نموذجية basilec-tal أو وسيطة mesolectal أو كاجون ... cajun إلخ)، فى حين يؤكد متكلمو كرأمر فى بادئ الأمر على حقيقة تكلمهم اللغة الفرنسية، ثم يتبعوا ذلك بإدخال بعض الفروق الطفيفة، كى يقولوا "لغتنا الفرنسية" مختلفة. إننا نجد أنفسنا هنا إزاء التساؤل الذى أثرناه فى حالة اللغة "الصربية-الكرواتية": من المحق؟ عالم اللغة أم المتكلم؟، وخلف هذا التساؤل الذى لا ننتظر الإجابة عليه، تتوارى مشكلة تمثيلات الأوضاع اللغوية التى تناولناها بإسهاب فى الفصل الرابع. وإذا ما أعلن متكلمو كرأمر أنهم يتكلمون الفرنسية، فإن ذلك يرجع لأسباب تتعلق بالتمثيلات وعدم الأمان الوضعى. وتبقى مسألة أخرى تتمثل فى معرفة مدى تأثير هذه التمثيلات فى ممارساتهم.

اختلاق لغة فرنسية

أدت بعض الأنشطة المهنية إلى اضطرب محيط البيئة اللغوية التى يعيش بها هذا المجتمع الصغير. فقد اجتذب المطعم ومنطقة الجداول السائحين الأمريكان (والناطقين بالإنجليزية) وسائحى كيبك وبلچيكا وفرنسا؛ مما وضع متكلمى "الفرنسية" فى مواجهة فورية مع اللغة الفرنسية النموذجية الشرعية التى تختلف بكل وضوح عن لغتهم. وقد أخبرتنا إحدى المرشدات أنها فى أثناء تنظيم زيارة مجموعة من الفرنسيين لمنطقة الجداول، أشارت إلى حيوان الراتون الغاسل raton laveur مستخدمة الاسم الكريولى

chaoui، فلم يفهم السائح الفرنسى ما الذى تقصده المرشدة بقولها، إلى أن نظر باتجاه الحيوان فأصابته الدهشة، وعبر عنه مستخدمًا الاسم الفرنسى: raton laveur، وهذا ما قصته علينا المرشدة على النحو التالى:

Je dis ga le chaoui et le français te fait : hein? Le chaoui? Le chaoui? Ga le chaoui, et là, quand ye té wa lo zanimal te dit oh, le raton laveur! " (" Je dis regarde le chaoui, et le francais fait : hein? Le chaoui? Le chaoui? Regarde le chaoui, et là, lorsqu'il a vu l'animal, il dit oh, le raton laveur. ")

صار هناك وعى بوجود نوع من الاختلاف، مما أسفر عن عدد من ردود الأفعال المختلفة. فهناك استخدام لمفردات مغايرة تزداد كرأس المال أو كنوع من المعرفة التى تُعرض بانتظام أمام السائحين، حيث يترك الجميع لأنفسهم العنان أمام الزائرين الناطقين بالفرنسية، وكأنهم فى مؤتمر مصغر للمفردات تتمثل وظيفته فى إظهار مدى معرفتهم بهذه اللغة؛ لأنهم يعرفون جيدًا أن الفرنسيين يقولون raton laveur لا chaoui، و crevette لا chevrette، و voiture لا ...char إلخ. إلا أنه سرعان ما ستقف هذه المعرفة عند حدودها، كما سيتضح من خلال المثالين التاليين. كثيرًا ما أخبرنا متكلمو هذه الجماعة الصغيرة أنهم يحرصون أمام الفرنسيين على استخدام كلمة oi-seau بدلاً من كلمتهم المعتادة zozo؛ لأنهم يعرفون معنى هذه الكلمة فى "لغتنا" الفرنسية. وقد استغرق الأمر بعض الوقت كى نكتشف أنهم يعتقدون أن كلمة zozo تعنى فى الفرنسية الفصحى pénis أى "قضيب الرجل" (وهو ما يماثل الشائع فى بعض حالات لغات الكريول، مثل الكريول فى جزيرة لاريونيون). ولا نعلم على وجه التحديد من أين سرت تلك "الشائعة" (هناك خلط بين zozo و zizi أو zob)، لكنهم جميعًا يذ حكون من هذا المثال، ويشعرون بالفخر إزاء قدرتهم على تفادى الوقوع فى هذا الفخ اللغوى... ويتعلق المثال الثانى بتلك المرشدة السياحية التى حاولت طويلاً فى أثناء زيارة مجموعة من الفرنسيين لمنطقة الجداول، أن توضح لهم الفرق بين كلمتى marais و marécage أى "البركة" و"المستنقع"، إلا أنهم لم يفهموا منها جيدًا؛ مما جعلها تلجأ على الفور إلى ترجمة هاتين الكلمتين إلى اللغة الإنجليزية (marsh & swamp)،

لكن ذلك لم يساعد على توضيح الأمور. وحينما ألقينا عليها لاحقًا نحن وتوماس كلينجر بعض الأسئلة، تركت لنفسها العنان فى حديث طويل يشوبه التشويش والخلط حول الفرق بين هاتين الكلمتين، فأعدنا كتابته إجمالاً على النحو التالى الذى يتضمن أسئلتنا بالخط العريض والمقاطع الإنجليزية بالخط المائل:

- En dans le marais, le marécage, le si..., le ba..., le marsh, le swamp...

- Marais et marécage c'est même qui chose ou c'est différent ?

- Non, c'est différent. Le marais c'est... c'est terre vec d'l'eau d'sus.

- Ca c'est marais ?

- C'est c'est marais, et le marécage c'est d'l'eau avec terre d'sus, et si vous allez en dans le marais et asseyez d'marcher vous va euh...ptête gain dl'eau achka vous g'nou ou vous cou.

- Marécage c'est pas une prairie, c'est pas même qui chose, pas même z'affaire ?

- Non, le marécage c'est comme enne plairie mais ça peut flotter, c'est un flottant, c'est d'l'eau...

- To peux marcher sur enne marécage ?

- Non, vous connaît marcher dans le marais...

- Mais, vec d'l'eau...

- Ouais...mais enne a d'l'eau en dans...mais vous connaît marcher d'l'eau enne va ête...enne va ête terre dure en bas... mais si vous asseyez marcher dessus le marégage vous va...caler.

- Et marécage et marais ça c'est cajun ?

- ...non c'est pas ça, c'est pas ça... pelle ça... no va dit le flottant...et le marais

ثم توجهت محدثتنا لطلب العون من رجل يجلس على الطاولة المجاورة؛ مما جعل الحديث يأخذ منعطفًا آخر بين الإنجليزية والكريولية :

- Brian, ça tu pelles le marais et le marécage ?

- What?

- Ca tu pelles le marais et le marécage ? Le marais ?

- Marais is a...

- Swamp?

- It's not a swamp. It's something like in front of your peper's house and all that, ça c'est marais.

- Then what's a marécage to you? Okay, what...How would you say...You know when you go walk in the swamp as the...as opposed to the marshland you know when the flottant is floating?

- Right.

- That's marécage.

- Okay.

- **You call that a flottant?**

- We call it a flottant. And what you call when you go walk in a swamp, where they got water but it's not on ground? What do you call it?

- La cyprière.

- La cyprière! La cyprière et le marécage, c'est ça j'veux dire.

- **Pou li c'est la cyprière.**

- La cyprière et le flottant euh...Quand je fais le tour. je sais. .moi je dis le flottant, la cyprière, et il dit mais non, c'est le marais et le marécage.

وخلاصة القول إن لغة محدثتنا الكريولية قد تضمنت كلمتين **flottant** و **(cyprière)** قامت بترجمتهما إلى الإنجليزية **swamp** و**(marsh)**، في حين اقترح عليها السائحون الفرنسيون استخدام كلمتين مناظرتين لهما **marais** و **(marécage)**، وهما الكلمتان

اللتان سجلتهما من أجل استخدامهما فى أثناء التحدث مع السائحين باللغة الفرنسية. ووفقًا لترتيب هذه المحادثة الزمنى، سنجد ما يلى:

١ - marais/marécage

٢ - marsh/swamp

٣ - flottant/marais

٤ - cyprière/marécage

٥ - cyprière/flottant

تعكس لنا الكلمات الواردة فى رقمى ١ و٢ وجود سجل لغوى "مهنى" يتم استخدامه فى مخاطبة السائحين الناطقين بالفرنسية والإنجليزية، بينما نستشف من رقمى ٣ و٤ حالات تردد نتجت عن الأسئلة التى طرحناها، ويمثل رقم ٥ زوج من المفردات الكريولية. إلا أن الفرق بين كلمتى cyprière و flottant لا يمكن فى حقيقة الأمر التعبير عنه باستخدام كلمتى marais و marécage؛ مما يجعلنا هنا بصدد "اختلاق لغة فرنسية" كما سنرى من خلال أمثلة أخرى فى بعض العبارات التالية. (تستخدم اللغة الكريولية اللويزيانية الفعل gain الذى يرجع أصله للفعل الفرنسى gagner أى "يربح") بدلاً من الفعل avoir أى "يملك"، لذا يمكننا أن نسمع فى قرية كرأمر الصيغ التالية:

- mo gain hont (j'ai honte) أى "أشعر بالخجل".
- mo té gain hont (j'avais honte) أى "كنت أشعر بالخجل".
- mo gain peur (j'ai peur) أى "أشعر بالخوف"...إلخ.

إلا أنه حينما يخاطب محدثونا السائحين الفرنسيين، فإنهم يستخدمون صيغًا خاطئة مثل je suis honte و je suis peur، رغم أن الفعلين المتناظرين avoir / gain من شأنهما أن يسهلا عليهما التحول من الكريولية إلى الفرنسية. وما نفترضه هنا هو أنهم- فى إطار محاولتهم الواعية لفرنسة لغتهم الكريولية- قد أوجدوا قواعد مقاربة تعكس فى الواقع الوصول إلى الفرنسية عبر الإنجليزية:

mo gain hont >I am ashamed > je suis honte

mo gain peur >I am afraid > je suis peur

ويعد بصفة رئيسية اختلاق هذا النوع من الصيغ "الفرنسية" نتاج عاملين هما:

١- تغير محيط البيئة اللغوية بسبب دخول لغة السائحين الفرنسية النموذجية.

٢- الشعور بعدم الأمان اللغوى الوضعى نتيجة لمنح اللغة الإنجليزية مكانة تفوق مكانة لغة الكريول؛ مما أسفر عن جعلها النموذج الذى يتم المرور به من أجل الانتقال إلى لغة أخرى تتمتع هى الأخرى بمكانة عالية ألا وهى اللغة الفرنسية.

برع توماس كلينجر فى تلخيص هذين العاملين حينما كتب قائلاً: "فى حين يمكن أن يمثل التواجد الهائل للسائحين الناطقين بالفرنسية مصدراً لإثارة مشاعر الاستياء اللغوى، فإنه يسهم كذلك فى تعزيز قيمة لغة الكريول التى لا تعد قيمة رمزية بحتة، بل تمثل أيضاً قيمة مالية. فقد صارت فى الواقع هذه اللغة سلعة تباع للسائحين".

وهكذا، يمثل هذه المثال موجزاً لمختلف الموضوعات التى تناولناها فى الفصول السابقة:

- علاقات التجاذب التى نجدها هنا بين لغة الكريول واللغة الإنجليزية.

- مفهوم محيط البيئة اللغوية.

- دور التمثيلات اللغوية وأثرها على الممارسات.

- عملية الضبط الذاتى التى أسفرت عن اختلاق للغة فرنسية كرد فعل لمؤثر خارجى يتمثل فى دخول معيار خارجى.

وبصدد ما أسميناه بـ"الفرار من مصطلح الكريول"، فإن التأكيد على أن لغة الكريول المحلية هى من اللغة الفرنسية، يوضح لنا الرهان المزدوج بشأن تسمية الممارسات اللغوية. نلحظ من جهة أن التسمية هى التى تشكل هذه الممارسات فى اللغة، وتؤكد على وجود شىء ما يتسم بصلابة يمكن أن يؤدى وجود المعيار فى بعض المواقف إلى تعزيزها وإكسابها صفة الشرعية. وتضطلع عملية التسمية من جهة أخرى

بدور فى التعبير عن الهوية من شأنه الربط بين اللغة ومجموعة ما سواء كانت جماعة عرقية أو مكان ما أو الدول ما، وفى حالة كرأمر هناك ربط بين اللغة وتلك الجماعة المتناهية الصغر.

محيط بيئة جزيرة سانت بارتيليمى(١) Saint-Barthélemy

سانت بارتيليمى هى جزيرة صغيرة من جزر الأنتيل التى تتبع إداريًا جزيرة جوادلوب Guadeloupe، حيث يقيم بها حاليًا ما يقرب من ٥٠٠٠ نسمة، يضاف إليها العديد من السائحين خلال بعض المواسم. يحمل سكان هذه الجزيرة سمات خاصة جذبت انتباه علماء البيولوچى منذ وقت طويل. تنقسم فعليًا هذه الجزيرة الصغيرة إلى وحدتين تلتزمان بالزواج الداخلى، وتتشكلان من الجماعتين السكانيتين اللتين تقطنان هذا المكان، وتنتمى كل منهما لكنيسة مختلفة: إحداهما فى منطقة Au Vent (Lorient)، حيث يبلغ معدل الزواج الداخلى ٩٦٪، والأخرى فىSous le Vent (Gustavia)، حيث يبلغ معدل الزواج الداخلى ٨٩,٥٪. وعلاوة على ذلك، فإن توزيع فصائل الدم الخاصة بالسكان يختلف كلية عما نجده فى فرنسا (زيادة فى الفصيلة O وتواجد أقل للفصيلة A ...إلخ)، ويختلف بصورة دلالية فى منطقتى Au Vent وSous le Vent:

	O	A	B	AB
Sous le Vent	57,8%	42,2%	0	0
Gustavia	62,82%	33,33%	3,85%	0
Au Vent	56,13%	37,74%	4,52%	1,61%
France	42,70%	47,01%	7,24%	3,05%

(J.Benoist, 1964)

(١) تم جمع المعلومات المعروضة هنا عن طريق إجراء عمل ميدانى مشترك مع روبرت شودينسون، خلال شهرى إبريل ومايو.

نلحظ كذلك لدى سكان جزيرة سانت بارتيليمى شيوع مرض الصمم، كما يختلف أفراد الجماعتين السكانيتين من حيث طول القامة والسمات الخاصة بالدماغ والأنف وعظام الوجنة .

(J.Benoist, 1964)

تنقسم الجزيرة إلى وحدتين تلتزم كل منها بالزواج الداخلى، وتشكلان جماعتين سكنيتين تنتمى كل منهما لكنيسة مختلفة كما سبق أن ذكرنا؛ إحداهما بمنطقة Au Vent (Lorient) والأخرى بمنطقة " :Sous le Vent (Gustavia) تنقسم سانت بارتيليمى فى الواقع إلى جزيرتين صغيرتين متجاورتين، وتنقسم كل منهما بدورها إلى عدة مناطق تلتزم كل منها إلى حد ما بمبدأ الزواج الداخلى. ومن ثم لا يجب تعميم المعطيات البيولوچية على الجزيرة كلها؛ لأنه يتعين علينا تناول كل من إقليمى الجزيرة على حدة: Au Vent و .Sous le Vent" .

(J.Benoist, 1964)

أى أننا بصدد مجموعة متجانسة تتم مقارنتها بفرنسا، وتظهر فيها اختلافات ثانوية، انطلاقًا من التقسيم الجغرافى لمنطقتى Au Vent/Sous le Vent . إلا أن تلك الجزيرة تنقسم كذلك من الناحية اللغوية، حيث يتحدث السكان لغة فرنسية إقليمية "لهجة محلية" فى الجزء الغربى من الجزيرة Sous le Vent، بينما نجد سكان منطقة Au Ventمن الناطقين بلغة الكريول، وهم فى معظمهم من البيض(١). ما هو أصل هذا الانقسام اللغوى؟ وهل يتعين علينا إجراء مقاربة بين هاتين المجموعتين من المعطيات (الچينية واللغوية)؟ عكفنا بالتعاون مع الزميل روبرت شودينسون Robert Chaudenson على العمل لمدة ثلاثة أسابيع فى هذه الجزيرة خلال شهر مايو ١٩٩٦، وقمنا بدراسة الوضع اللغوى هناك والأشكال اللغوية المتواجدة، مع إجراء بحث اجتماعى لغوى، سعياً وراء الوقوف على أصل هذا الوضع الفريد.

(١) علاوة على هاتين اللغتين، أى اللهجة المحلية واللغة الكريولية، لابد من إضافة اللغة الفرنسية النموذجية واللغة الإدارية ولغة التدريس...الخ.

حريٌ بنا الإشارة هنا لإحدى الوقائع التى تسهم فى توضيح هذا الوضع بشكل خاص. خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر، هاجر عدد من سكان سانت بارتيليمى إلى جزيرة سانت توماس، حيث شكلوا هناك جماعتين سكانيتين: (جماعة الكاريناچ Carénage المدينة الفرنسية Frenchtown) التى يتكلم أفرادها "لهجة محلية"، وجماعة النورشسايد Northside التى يتكلم أفرادها لغة الكريول، على غرار التقسيم المهنى ذاته الذى نجده فى جزيرة سانت بارت: الصيادون من جهة، والمزارعون من جهة أخرى. إن هذه العلاقة بين جماعتى الكارناج والنورشسايد تمدنا بالكثير حول سانت بارتيليمى، مثلها فى ذلك مثل جميع الدراسات التى أجريت فى الجزيرة ذاتها. وعلى غرار ما يحدث بصدد انقسام الخلايا الذى يسفر عن خلايا مماثلة للخلية المنقسمة، أعادت المجموعات المهاجرة تشكيل هيكل سانت بارتيليمى المتقابل نفسه، ويبدو أن ذلك يثبت أن العلاقات بين الجماعات السكانية بكل من Au Vent و Sous le Vent ليست فى حاجة لنطاق جغرافى خاص كى تتمكن من الاستمرار، بل إنها تستطيع البقاء فى بيئة أخرى، مثل هذه الحالة التى شهدت إعادة التشكيل فى ظل الابتعاد الجغرافى. وهذا الإحداث المتماثل لتقسيم سانت بارت ذاته - فى إطار الجماعات المهاجرة إلى سانت توماس- يوضح مدى صلابة هذا الهيكل المنقسم: إن محيط سانت بارت هو الذى خضع بشكل ما إلى عملية إعادة التشكيل والتكيف.

إلا أن كل ذلك لا يفسر أسباب هذه الانقسام. هل انبثق الجانب اللغوى عن الجانب الاجتماعى أم أن الجانب الاجتماعى هو الذى انبثق عن الجانب اللغوى؟ هل أفرز العامل الجغرافى الاختلافات الاجتماعية واللغوية، أم أن هذه الاختلافات هى التى تتحكم فى العامل الجغرافى؟ ومن المثير حقًا إدراك مدى التشابه بين ما أبديناه من دهشة إزاء الوضع الخاص لهذه الجزيرة، وبين دهشة دراوين أمام وضع جزر جالاباجوس Galapagos . حينما وصل داروين إلى هذا الأرخبيل فى سبتمبر عام ١٨٣٥، أدرك أن كل جزيرة من هذه الجزر تختص بأنواعها الخاصة (من السلاحف وطيور الهنبر وطيور الدورى...إلخ)، كما لاحظ أن حجم منقار طائر البرقش وطوله يختلف بصورة كبيرة من جزيرة إلى أخرى، بل يختلف سُمك وشكل درع سلحفاة

جزيرة شارل Charles عن سلحفاة جزيرة چيمس James، وما إلى ذلك من اختلافات أخرى. ولم ينتفع داروين بهذه الملاحظات فى "أصل الأنواع" سوى فى عام ١٨٥٩ عند صياغة نظريته بشأن الانتخاب الطبيعى. ولا نهدف بالطبع إلى تطبيق هذه النظرية بأكملها على وضع جزيرة سانت بارت، بل نسعى إلى توضيح التشابه الواضح. فقد أشار داروين إلى أن "صعوبة الأمر تكمن بوجه خاص فى الاتجاه الخاطئ الذى يتسم بأنه شديد التأصل فى أنفسنا، بحيث يقودنا دومًا نحو النظر إلى الظروف الفيزيائية لدولة ما باعتبارها الأكثر أهمية، فى حين أنه لا شك فى أن طبيعة السكان الآخرين الذى يتصارع معهم كل فرد تشكل هى الأخرى نقطة رئيسية".

لكن أول التفسيرات التى ذهب إليها فكرنا-- وكان أكثر التفسيرات بساطة – هو تحديداً التفسير الجغرافى. اتسمت دومًا وسائل الاتصال فى الجزيرة بالصعوبة، ولم تُشيد الطرق سوى حديثًا؛ فمن أجل بلوغ بعض النقاط القريبة لابد من صعود وهبوط منحدرات جافة. مما أسفر عن وجود مبدأ الزواج الداخلى لكل من هاتين الجماعتين، وهذا ما أدى بدوره إلى السمات الچينية الخاصة التى سبق أن ذكرناها (فصائل الدم وضعف السمع...إلخ). تفسر لنا الجغرافيا ويؤكد لنا التاريخ أنه فى Au Vent كان وجود بعض السهول القليلة سببًا فى إتاحة بعض محاولات الزراعة على مستوى متوسط. وعلى الجانب الآخر، دفع غياب مثل هذه السهول السكان إلى ممارسة نشاط الصيد وزراعة بعض المواد الغذائية. وهكذا نلحظ سريعًا أن العوامل الجغرافية كانت سببًا فى اختلاف قسمى الجزيرة: إننا إزاء منطقتين بهما جماعتين سكانيتين تلتفان حول كنيستين وقطاعين من الأنشطة، إلا أنه فى البداية وقبل دخول العبيد بأعداد كبيرة، لم تكن هناك سوى لغة واحدة. لذا، فإن العامل الأصلى لاختلاف هاتين الجماعتين وعدم التنقل هو عامل جغرافى مهنى. وتكمن المشكلة بالتالى فى معرفة كيف انبثقت مجموعتين لغويتين عن جماعة ناطقة بالفرنسية وفدت على موجات متتالية منذ القرن السابع عشر؛ فالتخصص المهنى لا ينطوى فى الواقع على الانفصال اللغوى، أو على الأقل لا يصل إلى تلك الدرجة.

لم نستطع مقاومة رغبتنا فى البحث عن مؤثر خارجى على صعيد مجىء العبيد.
فقد كانت المستوطنات المقامة بمنطقة Au Vent فى حاجة إلى أيدى عاملة من العبيد الذين لابد أنهم قد هجنوا اللغة الفرنسية كما فعلوا فى مواضع أخرى. وقد يكون سبب تفرد هذه الجزيرة يرجع إلى أننا نجد من جهة الشكل الأصلى المتمثل فى اللهجة المحلية التى لابد أنها قد واصلت تطورها، ولكن دون التأثر بالشكل الشرعى للغة الفرنسى (اللغة الفرنسية الرسمية، حيث خضعت الجزيرة طويلاً للسيادة السويدية)، ونجد من جهة أخرى نتاج تقريب هذا الشكل بواسطة السود الذين ينحدرون من مختلف الأقاليم الأفريقية. ومن منظور تكوين لغات الكريول، قد يكون هذا وضعًا فريدًا من نوعه؛ لأنه كان من شأنه إتاحة قياس آثار عملية التهجين (التحول إلى لغة كريول) على اللغة الأولى التى خضعت لهذه العملية، وكذلك رؤية أشكال الاتصال و/أو الانقطاع.

إلا أنه لم تشهد فى الواقع سانت بارت أية عمليات تهجين لغوى (التحول إلى لغة كريول). ينطوى الافتراض السابق على ضرورة مجىء العبيد إلى سانت بارت على متن سفن قدمت من أفريقيا. إلا أنه لم يحدث شىء من هذا القبيل؛ لأن سانت بارت كانت تمثل سوقًا صغيراً للغاية بحيث يصعب معه أن يفكر النخاسون فى مجرد التوقف بها، وقد وفد العبيد إليها من جزر الأنتيل الأخرى ولا سيما جزيرة مارتينيك Martinique . تؤدى هذه الحقيقة التاريخية إلى طرح المشكلة اللغوية بطريقة أخرى. فقد ولد العبيد أو أقاموا لعدة سنوات فى جزر الأنتيل الأخرى، حيث تواجدت لغات الكريول الهجين منذ نهاية القرن السابع عشر، فكان هؤلاء العبيد يتحدثون لغات جزرهم الكريول الهجين. وبعبارة أخرى، لم تحدث عملية تهجين داخلى، بل تم جلب إحدى لغات الكريول التى وجدت فى حالة تماس مع اللغة الفرنسية المحلية. ونعود مجدداً إلى الجغرافيا التى ستفسر لنا من خلال التخصص المهنى (الزراعة فى مقابل الصيد) أن الحاجة إلى وجود العديد من العبيد بمنطقة Au Vent كانت سببًا فى زيادة أعداد الناطقين بلغة الكريول فى هذا الجزء، وعدم انتشار هذه اللغة فى منطقة Sous le Vent . فقد تابعت "اللهجة المحلية" تطورها وواصلت مسيرتها، كما دخلت فى علاقة تماس مع أشكال خارجية للغة الكريول؛ مما أسفر عن الوصول إلى الشكل الحالى المستخدم فى كلام Au Vent .

وهكذا، فقد اتضح خطأ الفكرة الأصلية التى كنا نعتقد بموجبها أن لدينا لغة مُستَقبلة فى Sous le Vent، ولدينا نتاج تطويع هذه اللغة فى Au Vent . لكننا نجد من جهة لغة المهاجرين القادمين من فرنسا ("اللهجة المحلية")، ونجد من جهة أخرى نتيجة تأثر هذه اللغة بإحدى لغات الكريول الوافدة (هنا يكمن تفرد هذا الوضع) التى انبثقت ذاتها عن تطويع هذه اللغة نفسها بواسطة السود: إننا إلى حد ما بصدد إنبات فرع (لغة الكريول) على الجذع (اللهجة المحلية) الذى كان بالفعل منبثقًا عنه. وقد استمرت الاختلافات بين هذين الشكلين؛ لأن الجماعات التى تتكلمهما ظلت منقسمة. مما يتيح لنا التعرف بصورة أفضل على التوتر بين واقعين متعارضين: التقابل بين جماعتين (كما ظهرت بصورة متماثلة، بل تضخمت فى ظل الهجرة نحو سانت توماس)، واشتداد الشعور بالهوية الذى تجلى فى الجزيرة رغم هذا الانقسام، وهذا ما يكشف عنه بحثنا الاجتماعى اللغوى.

ومن ثم، يمكننا عمل ملخص إجمالى لمجريات الأحداث على النحو التالى. كان النمو الاقتصادى للجزيرة محدوداً للغاية حتى منتصف القرن الثامن عشر، وكانت أعداد العبيد قليلة، بل كانوا متفرقين فى مختلف الأنحاء، ولا يضطلعون بأى دور لغوى. وفى بداية النصف الثانى من القرن الثامن عشر، أسفرت التنمية الزراعية الصناعية عن ازدياد هجرة العبيد الذين تمركز وجودهم فى منطقة Au Vent، حيث أتاحت خصائصها الجغرافية إقامة هذه المزارع. ومن هنا، شهدت جزيرة سانت بارت ظهور إحدى لغات الكريول التى وفدت بصفة أساسية مع العبيد من جزيرة لامارتينيك، والتى ستدخل فى علاقة تماس مع اللهجة المحلية فى منطقة Au Vent . وهكذا، فقد تطور المصدر اللغوى الواحد (أحد أنواع اللغة الفرنسية) ليبلغ الازدواجية الحالية (اللهجة المحلية/لغة الكريول): يعد هذا التطور نتاج اجتماع الممارسات الاجتماعية المختلفة والعوامل الجغرافية التى فصلت بين سكان جزئى الجزيرة. فإن "محيط سانت بارت" الذى تتضح خصائصه من خلال هذه العناصر الجغرافية والممارسات الاجتماعية، قد أسهم فى صياغة أحد الأشكال اللغوية، كما أسهم فى صياغة الجانب البيولوجى (فصائل الدم التى ذكرناها بأعلى...إلخ). ومن هذا المنطلق، يشكل تحليل

الوضع اللغوى لسانت بارتيليمى توضيحًا نموذجيًا لما أطلقنا عليه اسم الإيكولوچيا اللغوية أو إيكولوچيا اللغات أى علم البيئة اللغوية. كما يسهم هذا التحليل فى توضيح التمثيلات اللغوية – كما سبق أن عرفناها فى الفصل الرابع– وما تسفر عنه من أمان أو عدم أمان لغوى .

فى إطار البحث الذى أجريناه، توجهنا ببعض الأسئلة إلى طلبة مدرسة Mireille-choisy بمنطقة Gustavia، حيث يتواجد بها– بدءًا الصف السادس ولمدة أربع سنوات– أبناء ثلاث مدارس ابتدائية من مدارس الجزيرة (Colombiers, Lorient, Gustavia). ولا يشكل الأفراد موضوع البحث (٢٣٨ طالب) عينة نموذجية بالمعنى المعروف، بل يمثلون فى مجملهم إحدى الفئات العمرية (خضع جميع طلبة المدرسة للاستفتاء، باستثناء بعض حالات الغياب أو إمكانية دخول بعض الطلبة الذين ينتمون للفئة العمرية نفسها بعض المدارس التى تقع فى عدد من المناطق الأخرى مثل جوادلوب وميتروبول).

تناولت خمسة أسئلة وضع الجزيرة اللغوى، باستخدام صيغ ومعالجات مختلفة:

– ما اللغات المستخدمة فى الجزيرة؟ (السؤال السادس)

– ماذا يتكلم الأشخاص الذين يقطنون منطقة Sous le Vent؟ (السؤال الثامن)

– فى أى أجزاء الجزيرة يتكلم السكان لهجة محلية؟ (السؤال الخامس عشر)

– ماذا يتكلم الأشخاص الذين يقطنون منطقة Au Vent؟ (السؤال التاسع)

– فى أى أجزاء الجزيرة يتكلم السكان لغة الكريول؟ (السؤال السادس عشر)

عكست الإجابات على هذه الأسئلة معرفة جيدة باللغات المتواجدة. إلا أن هؤلاء الطلبة ليسوا بباحثين فى علم اللغويات الاجتماعية، ومن المستبعد أن تكون معرفتهم – وهم فى الثالثة أو الرابعة عشر من عمرهم – معرفة مباشرة وتجريبية للوضع، وحتى إذا كان فناء المدرسة يمثل أحد أماكن انتشار المعلومة أو معرفة ممارسات الآخرين اللغوية، فإنه يبدو أن حديث الطلبة كان مجرد تكرار للآراء اللغوية السائدة؛ فالانقسام

اللغوى فى سانت بارتيليمى يشكل فى الواقع موضوع الحديث الدائم. بدءًا بمعلم المدرسة، وانتهاءً بذلك الصياد المسن، ومرورًا بحارس المتحف أو لاعبى كرة القدم خلال العطلات، نلحظ أن لكل فرد رأيه بشأن مسألة اللغات، وكل منهم يعرب عن رأيه بكل ثقة. ولقد جمعنا كل هذه الأحاديث والآراء، ونقف هنا أمام السمات المتقاربة التالية:

- التقابل بين منطقتى Au vent و Sous le Vent : يعلم قاطنو الجزيرة - بل يقولون - إن سكان Au Vent يتكلمون لغة الكريول، بينما يتكلم سكان Sous le Vent لهجة محلية.

- حالة جوستافيا Gustavia : يسود الاعتقاد فى أن التواصل يتم باللغة الإنجليزية أو الفرنسية (يتحدث التجار الإنجليزية لأسباب واضحة، لكن فكرة اعتبار المدينة من المدن الناطقة بالإنجليزية هى فكرة راسخة).

- حالة جراند سالين Grand Salin ولورين Lurin : يتكلم السكان نوعًا لغويًا ثالثًا عرفه الطلاب فى الغالب باعتباره "لغة فرنسية قديمة".

- لدى الناطقين بالكريول، هناك تأكيد على الاختلاف بين كلامهم وكلام جوادلوب.

إننا نجد هذه السمات نفسها وهذا الوصف ذاته لدى الطلاب؛ مما يجعلنا نعتقد أنهم يتناولون حديثًا متوارثًا، حيث لا يكف أهالى سانت بارت عن التحدث بشأن وضعهم اللغوى الخاص، وكأنهم هم أنفسهم مفتونون بهذا الانقسام اللغوى الذى يحوى قدرًا من الخصوصية.

تشكل ممارسات الطلاب اللغوية وتمثيلاتهم مجالاً غامضًا؛ لأن التمثيلات اللغوية المعلنة تثير الشك، ولأنه ليس من السهل تحليل مثل هذه التمثيلات، مما دفعنا إلى طرح العديد من التساؤلات: ما اللغات التى تتكلمها؟ (السؤال السابع)...ما طريقة الكلام التى تميز الجزيرة؟ (السؤال الثانى عشر)...ما أفضل وسيلة للتحدث على سطح الجزيرة؟ (السؤال الثالث عشر) وما الطريقة المفضلة؟ (السؤال الرابع عشر)...هل تعرف أحدًا من أهالى Sous le Vent أو Au Vent؟ (السؤال العاشر)...هل يتكلمون فى سانت بارتيليمى اللغة الفرنسية ذاتها المستخدمة فى فرنسا (السؤال السابع عشر)...إلخ.

من الواضح أنه لابد من أخذ إجابات هذه الأسئلة كما هى باعتبارها انعكاساً لفكرة الطلاب، وللفكرة التى يرغبون فى إعطائها بصدد ممارساتهم. إذا ما أعلن بعض الطلبة على سبيل المثال أنهم يتحدثون الإنجليزية، فقد يكون الأمر من قبيل الإشادة بالمعرفة المدرسية. إلا أنه خلال جمع بعض البيانات الأخرى كالاستفسار عن محل الميلاد أو الإقامة، استشعرنا بوجه عام إمكانية الوثوق بالإجابات التى جمعناها من الطلاب. فقد أعلن أقل من نصف الطلاب أنهم يتحدثون الفرنسية وحدها (٤٣٪)، وورد فى أغلب الأحيان ذكر اللهجة المحلية (١٨٪) أكثر من الكريول (٥,٢). وإذا ما أجملنا عدد مرات ذكر هذه اللغات مع بعضها البعض أو مع لغات أخرى، سنجد أن اللهجة المحلية (٣٨,٢٪) تتفوق دومًا على لغة الكريول (٢١,٤٪). وكثيراً ما ذكر الطلاب أنهم يتكلمون اللهجة المحلية داخل الأسرة، فى حين يستخدمون اللغة الفرنسية فى الحياة العامة، بينما ذكر أحد الطلاب مرة واحدة أنه يتكلم لغة الكريول مع جدته؛ مما يعكس تحليلاً اجتماعياً لغوياً شديد الدقة بشأن استخدام اللغات. وبصورة إجمالية، نجد أن الأفراد موضوع البحث من سكان الجزيرة الأصليين، قد ورثوا لغات سنعتبرها لغات "تحقيق الهوية" فى مقابل اللغة "الشرعية" المتمثلة فى اللغة الفرنسية: أعلن ٣٨,٢٪ أنهم يتكلمون اللهجة المحلية، بينما أعلن ٢١,٤٪ أنهم يتكلمون الكريول، بواقع ٥٩,٦٪ من الطلاب قد أعلنوا أنهم يتكلمون لغة تُعبِّر عن الهوية وأحياناً اللغتين، ولابد من موازنة هذا الرقم بالاطلاع على حقيقة أن ٧١,٥٪ من الطلبة هم من سكان الجزيرة الأصليين، ومن ثم سيصير معدل انتقال لغات تحقيق الهوية ٨٣,٣٪ (نسبة عدد المتكلمين المتحدثين إلى عدد الطلبة من سكان الجزيرة الأصليين).

جاءت إجابات الطلاب بشأن اللغتين على نحو مختلف فى السؤال الخاص بأنواع الكلام التى تميز الجزيرة: يعتبر ٤٨٪ من الطلاب أن اللهجة المحلية هى الطريقة المميزة للكلام فى الجزيرة (٥٢٪ من الأولاد، و٤٣٪ من الفتيات)، فى مقابل ١٠٪ قد ذكروا الكريول، بينما ذكر ٨,٨٪ كلتا اللغتين المحلية والكريولية. من بين الإجابات الأخرى، لابد من ذكر ما ورد بها من إشارة إلى طريقة الكلام لا اللغات ذاتها مثل الخلط والغنة والطول واللكنة...إلخ. وتكاد تكون هذه الإجابات فى مجملها (٩,٢٪) معادلة للإجابات

التى ذكرت اللغة الكريولية، لكنها أكثر من تلك التى ذكرت الثنائية اللغوية. ومن ثم فإن الصورة السائدة التى يحملها الطلبة بشأن الوضع اللغوى هىَ صورة مزدوجة: هناك من يتكلم اللهجة المحلية ومن يتكلم لغة فرنسية موسومة باللهجة المحلية أو/و بلغة الكريول. ومن المثير للاهتمام عقد مقارنة بين السؤالين الثالث عشر والرابع عشر؛ لأنه على خلاف ما قد يعتقده البعض، وهو ما يبدو أن الأرقام توضحه، فإنه لا توجد أية علاقة بين ما يعده الطلاب بمثابة أفضل الطرق للكلام وبين اللغة التى أعلنوا بأنفسهم أنهم يفضلونها. فقد ذكر الكثير من الطلاب أنهم يعدون اللغة الفرنسية بمثابة أفضل الطرق للكلام، لكنهم أنفسهم يفضلون اللهجة المحلية أو لغة الكريول، أو يعدون اللهجة المحلية كأفضل طرق الكلام، لكنهم يفضلون الكريول. أى أنه وفقًا لما استخلصناه من هذا الاستفتاء، فقد تم تناول السؤال الثالث عشر فى إطار معيارى، بينما تم تناول السؤال الرابع عشر فى ظل التعبير عن الهوية. ومن هذا المنطلق، يكون من المثير حقًا عقد مقارنة بين إجابات السؤال الثالث عشر (أفضل الطرق للكلام فى الجزيرة؟) وإجابات السؤال الرابع عشر (الطريقة المفضلة؟):

	أفضل الطرق للكلام فى الجزيرة	الطريقة المفضلة للكلام[١]
الفرنسية	٪٤١,٥	٪٤٠,٣
اللهجة المحلية	٪٢٣,٤	٪٢٧,٧
اللغة الكريولية	٪١١,٧	٪١٨,٥

إذا ما عقدنا الآن مقارنة بين إجابات السؤال السابع (ما هى اللغات التى تتكلمها؟) والسؤال الرابع عشر (أى اللغات تفضل؟)، سنرى أن معدل تفضيل اللغات المحلية يقل دومًا عن معدل الممارسات:

(١) لم نضع فى الحسبان عند صياغة هذه الجداول سوى الإجابات الثلاثة الرئيسية (الفرنسية والكريولية واللهجة المحلية)، مع إغفال بعض الإجابات القليلة (الكريولية والفرنسية أو الفرنسية واللهجة المحلية...إلخ)، مما يجعل مجموع النسب المئوية أقل من ١٠٠ .

	يتكلمون اللهجة المحلية	يفضلون اللهجة المحلية	يتكلمون اللغة الكريولية	يفضلون اللغة الكريولية
الفتيان	٤١٪	٣٠,٥٪	٢٢,٣٪	١٩,٤٪
الفتيات	٣٤,٦٪	٢٤٪	٢٠,١٪	١٧,٣٪
المجموع	٣٨,٢٪	٢٧,٧٪	٢١٪	١٨,٤٪

وهكذا ، يبدو هذا الوضع غامضاً للغاية؛ فاللغة التى تعتبر كأفضل طريقة للتحدث فى الجزيرة (سواء كانت اللغة الفرنسية أو اللهجة المحلية) ليست بالضرورة هى اللغة التى يتم تفضيلها (يبدو الأمر أكثر إثارة للدهشة بالنسبة للغة الكريول: اعتبرها ١١,٧٪ ممن خضعوا للبحث بمثابة "أفضل طرق الكلام"، فى حين اعتبرها ١٨,٥٪ لغتهم المفضلة)، مما يبدو انعكاساً لاختيار مبدأ التعبير عن الهوية بشكل واضح. إلا أنه عند تناول التفضيل اللغوى، لا تحظى أى من اللهجة المحلية أو اللغة الكريولية بأعلى نسبة من أصوات متكلميهما، مما يبدو هو الآخر انعكاساً لشعور كامن بعدم الأمان اللغوى .

عند الإجابة على السؤال العاشر، أعلن معظم الطلاب (٧٣٪) أن بإمكانهم التعرف على الأصل الإقليمى لأهالى سانت بارت. وقد أثارت انتباهنا طريقة إجاباتهم على هذا السؤال بشأن كيفية تعرفهم على أصول هؤلاء المتكلمين، حيث انقسمت إجاباتهم إلى ثلاث مجموعات كبيرة:

– الذين أجابوا بشكل عام: استندت إجاباتهم إلى اللغة (لكنة المتكلمين، وطريقة كلامهم ونطقهم، واللغة التى يستخدمونها سواء كانت اللهجة المحلية أو اللغة الكريولية، والعبارات النموذجية، والكلمات...إلخ)، كما استندت إلى بعض العلامات التى ترمز إليهم بشكل يمتد على نطاق أوسع (عربات الخيل، وطريقة تصفيف النساء لشعورهن فى منطقة Sous le Vent، وعادات المتكلمين، والتعبيرات التى تظهر على وجوههم...إلخ).

– الذين عرفوا طريقة كلام أهالى منطقتى Au Vent و Sous le Vent، فى إطار عشر إجابات هى:

١- "يتحدث سكان المدينة ببطء، بينما يمتلك سكان أحياء مثل كولومبيه -Colombi er وفلامان Flamands، لكنة عذبة".

٢- "يتكلم الأشخاص الذين يقطنون Au Vent بعذوبة".

٣- "يتحدث سكان Sous le Vent من أنوفهم، ويتكلم سكان Au Vent بشكل يتسم بقدر من الإطالة".

٤- "يطيل أهالى Au Vent عند نطق الكلمات".

٥- "يعد سكان Sous le Vent أكثر إطالة، فى حين يتكلم سكان Au Vent بشكل أسرع".

٦- "يطيل أهالى) Au Vent الكريولية) عند نطق كلماتهم".

٧- "يطيل قليلاً سكان Sous le Vent عند نطق الكلمات".

٨- "يتكلم الأشخاص القادمون من Sous le Vent اللهجة المحلية بصورة سريعة". .

٩- "يتكلم سكان Sous le Vent اللهجة المحلية بطريقة تفوق فى سرعتها وحدتها طريقة سكان "Au Vent" .

١٠ - "يمتلك أهالى Au Vent تلك النغمة التى تتصاعد بنهاية كل عبارة".

نلحظ عدم التنوع الكبير فى موضوع الإجابات السابقة، بل لا يعتد بها للتمييز بين طرق الكلام؛ لأن العناصر نفسها تنطبق على متكلمى Au Vent و Sous le Vent: طريقة الكلام البطيئة (المدينة) والسريعة (Sous le Venو Au Vent)، واللكنة العذبة (Sous le Ventو Au Vent)، والكلام من الأنف (Sous le Vent)، والإطالة (Au Vent و Sous le Vent)، والطريقة الحادة (Sous le Vent)، والنغمة المتصاعدة (Au Vent) . ولا تحول بالضرورة كل هذه التناقضات دون قدرة الطلاب على معرفة أصول السكان، لكنها تمثل بوجه خاص دليلاً على ما يواجهونه من صعوبات فى عرض الوصف الصحيح لما يرونه. كما تجدر الإشارة إلى كثرة المرات التى تم فيها استخدام الفعل "يطيل"، وهو ما يستند بلا شك إلى خاصية إطالة الصوائت على جانبى الجزيرة:

لم يدرك طلبة Au Vent وجود تلك الخاصية لديهم لكنهم لاحظوها لدى سكان Sous le Vent، والعكس صحيح. وهكذا، توضح لنا هذه الأوصاف بصفة خاصة أنه حينما يتحدث طرف ما عن الآخر- كما هو مطلوب منه للإجابة على السؤال المطروح - فإنه يعكس الصورة نفسها كما لو كان أمام المرآة، وينتهى الأمر بأن الجميع يطيلون فى طريقة كلامهم ويمتلكون لكنة عذبة...

- الذين ساقوا أمثلة ملموسة: من أجل توضيح الاختلاف بين كلام سكان منطقتى Au Vent و Sous le Vent، ساق بعض الطلبة أمثلة على طريقة كلام كل من الجانبين لقول الشيء نفسه:

"Au Vent: olà ou qu'à aller qu'en ça?، و Sous le Vent: olà que té va? " أى "أين تذهب".

"سيقول سكان Sous le Vent: il est dans le coma أى "إنه فى غيبوبة"، فى حين سيقول سكان Au Vent: il est immortalisé ".

"فى Sous le Vent : o la t'ké ki va ?، وفى Au Vent: coté où calé ?."

"يقول متكلمو اللهجة المحلية: ou est-ce que ti va، فى حين يقول متكلمو الكريولية: "côté ou qu'a habité."

...إلى آخر تلك الأمثلة.

حرِىٌّ بنا أن نشير أولاً إلى أن الطلبة يعدون هذه المسألة أمراً عادياً وطبيعيًا (أجاب البعض قائلين: "بالطبع نستطيع التعرف عليهم"...إلخ)، ونادراً ما قال أحدهم: إننى أتعرف على سكان الجانب الآخر: لأنهم يتكلمون لغة أخرى. إذا ما سألنا بعض القبارصة اليونانيين عن كيفية تعرفهم على الأتراك من الناحية اللغوية، فإنهم سيجيبون حتمًا بأنهم يتعرفون عليهم لأنهم يتكلمون اللغة التركية. ولا يوجد هنا أى مجال لوجه الشبه، حيث يسوق الطلاب فى معظم الأحيان عدداً صغيراً من التراكيب النحوية المتقابلة ومجموعة مختصرة من المفردات المختصرة. ومن ثم تُختصر فعليًا فكرتهم بشأن اللغة الكريولية وتنحصر فى الشكل فحسب: sujet + ka + verbe، بالنسبة

لعبارات مثل: (?ou l'a ou qua rester (où habites-tu أى "أين تسكن؟"، ومثل olà ou qu'à aller (où vas-tu?) أى "أين تذهب؟"، وكذلك فى صيغة النفى: pa + ni حيث تذكر دومًا فى العبارات على النحو التالى: (pa ni problem (il n'y a pas de problème أى "لا توجد مشكلة"، بل يمتد هذا الأمر إلى بعض المفردات مثل استخدام moune بدلاً من gens أى "أشخاص"، و bitin بدلاً من meuble أى "أثاث"...إلخ. فى حين تتميز اللهجة المحلية بالشكل التالى: sujet + être + ki + verbe فى عبارات مثل: j'suis qui (va au travail je vais au travail أى "أذهب إلى العمل"، كما تتميز بوجود بعض المفردات الخاصة بها مثل peinturer بدلاً من peindre أى "يرسم"، ويتم تقديم بعض هذه المفردات بطريقة تقابلية مثل: veiller/garder، passe moué le stylo/bas moin ... pointe-là إلخ.

وهكذا، أسفر البحث الذى أجريناه عن إبراز عدد محدود من النماذج الفكرية الثابتة حول مجموع متكلمى الجزيرة (إنهم يتكلمون سريعًا بلكنة مطولة فيها عذوبة)، أو حول متكلمى الكريولية (الشكل: sujet + ka + verbe، وصيغة النفى: -pa ni prob lem والمفردات moune و bitin) ومتكلمى اللهجة المحلية (الشكل: + sujet + être + ki verbe والمفردات peinturer و veiller). إننا نجد أنفسنا هنا إزاء ظاهرة تحليل وضع الجزيرة اللغوى: معدل الخطأ ضعيف، لكن المعرفة الواضحة هنا هى معرفة مقتضبة تستند إلى نماذج فكرية ثابتة. وعلاوة على ذلك، يثور لدينا الانطباع بأن أشكال الكلام المستخدم فى كل من Sous le Vent و Au Vent لا تعتبر فى حقيقة الأمر من الأشكال المختلفة (اللهجة المحلية فى مقابل الكريولية)، بل تعد بمثابة بدائل لمتغير واحد، وقد تأكد هذا الانطباع من خلال الإجابات الخاصة بالسؤال التاسع، حيث أعلن عدد لا يستهان به من الطلبة أن أهالى Au Vent يتكلمون "لهجة محلية مختلفة".

كما اتضح شعورهم بقدر من عدم الأمان اللغوى، من خلال إجاباتهم على السؤال حول إذا ما كان أهالى سانت بارتيليمى يتكلمون اللغة الفرنسية ذاتها المستخدمة فى فرنسا:

– "يرتكب الكثير منا أخطاء فادحة".

- "يرتكب سكان سانت بارتيليمى بعض الأخطاء".

- "أعتقد أن اللغة الفرنسية المستخدمة فى فرنسا هى الأكثر صواباً".

وقد خفت حدة هذا الشعور بفعل الشعور بالانتماء المحلى:

- "جزيرتنا"

- "ننزع إلى تغيير بعض الكلمات وفقًا لطريقتنا، واستخدام بعض من اللهجة المحلية أو اللغة الكريولية فى لغتنا الفرنسية".

- " عشنا دومًا فى سانت بارتيليمى فى ظل لغات مختلفة (اللهجة المحلية واللغة الكريولية واللغة الفرنسية)."...إلخ.

ما الذى نجنيه إذن من وراء هذا البحث بشأن تمثيلات الطلاب حول الوضع فى الجزيرة؟....

وفقًا لما تبيناه من خلال تصريحات الأفراد موضوع البحث، يتضح لنا أن اللغتين اللتين تتميز بهما الجزيرة، أى اللهجة المحلية واللغة الكريولية، تنتقلان جيداً بشكل نسبى: صرح أقل من نصف الطلاب (٤٣٪) أنهم يتكلمون الفرنسية فحسب، وصرح ٣٨,٢٪ منهم أنهم يتكلمون اللهجة المحلية، بينما صرح ٢١,٤٪ أنهم يتكلمون الكريولية، أى أن ٨٣,٣٪ من الأبناء الذين ترجع أصولهم إلى جزيرة سانت بارت يؤكدون تحدثهم إحدى هاتين اللغتين. فى حال استقراء الوضع العام للجزيرة على الصعيد الجغرافى، لابد من الإشارة إلى الاتجاه نحو تفضيل اللهجة المحلية عند مقارنتها باللغة الكريولية: يعد ٤٨٪ من الطلاب اللهجة المحلية بمثابة الطريقة المميزة للكلام فى الجزيرة، فى مقابل ١٠٪ بالنسبة للغة الكريولية، و٨,٨٪ بالنسبة لكلتا اللغتين المحلية والكريولية. وعند سؤالهم حول أفضل طرق الكلام على سطح الجزيرة، اختار ٤١,٥٪ من الطلبة اللغة الفرنسية، واختار ٢٣,٤٪ اللهجة المحلية، بينما اختار ١١,٧٪ اللغة الكريولية. وهكذا يفرض بالتالى الشكل الشرعى نفسه على تمثيلات المتكلمين بشكل كبير.

كما تجدر الإشارة إلى أن الفتيات كن بشكل عام أكثر التزامًا من الفتيان: ٤٩٪ منهن صَرَّحْنَ أنهن لا يتكلمن إلا الفرنسية فى مقابل ٣٨٪ من الفتيان، و٤٣,٢٪ أعلَنَّ أنهن يفضلن الفرنسية فى مقابل ٣٨٪ من الفتيان، بينما أعلنت الفتيات أنهن يفضلن اللهجة المحلية بنسبة ٢٤٪ ويفضلن الكريولية بنسبة ١٧,٣٪ فى مقابل ٣٠,٥٪ و١٩,٤٪ من الفتيان. وعند مقارنة فرنسية سانت بارت بفرنسية عاصمة النور باريس، أجابت الفتيات بنسبة ٥٣,٨٪ أنهما مختلفتان، وهو الرأى الذى تبناه الفتيان بنسبة ٤٥,٥٪. إلا أن هذا الأمر لا يحمل أى جديد؛ لأن العديد من الأبحاث الأخرى قد أبرزت لدى النساء الاتجاه المحافظ بشأن الأمور اللغوية.

إن التمثيلات اللغوية الخاصة بالوضع اللغوى (ماذا نتكلم؟ أين؟) تتفق بصورة كافية لجعلنا نستخلص شيوع الكلام نفسه الدائر حول اللغات، بحيث نجد قوالب فكرية ثابتة يعاد ترديدها على الدوام. وهو ما ينطبق على كل ما يتعلق بذكر الاختلافات بين اللهجة المحلية واللغة الكريولية. تُحال الأمثلة المذكورة إلى بعض التراكيب والكلمات المتماثلة، فالطلاب يرددون بلا شك حديثًا متوارثًا. لكن خلف كل تلك الإجابات تتوارى فكرة ما تتعلق بكون اللهجة المحلية والكريولية ليستا سوى بديلين ("لهجات محلية مختلفة") لشكل واحد هو "كلام سانت بارت". وتبدو بصفة عامة اللهجة المحلية مُعَلَّقَة باللغة الفرنسية كما تعلق الحافلة بالقاطرة. تعد اللغة الفرنسية واللهجة المحلية بمثابة أفضل الأشكال الكلامية على سطح الجزيرة، وهما اللغتان المفضلتان وفقًا للتصريحات المذكورة، ويبدو أن الكريولية قد تعرضت للتهميش حيث أُحيلت إلى تركيب واحد أو تركيبين من التراكيب النحوية وبعض الكلمات النوعية. مما يقودنا مجدداً نحو مشكلة التمثيلات اللغوية.

يرتبط هذا الوضع بعدد من الأرقام: صرح ٣٨,٢٪ من الطلبة أنهم يتكلمون اللهجة المحلية، واعتبرها ٤٨٪ منهم بمثابة الشكل المميز لكلام الجزيرة، بينما اعتبرها ٢٣,٤٪ فحسب بمثابة أفضل الطرق الكلامية، وصرح ١٨,٤٪ أنها تمثل الشكل اللغوى الذى يفضلونه. أى أن تقديرهم الذاتى ("نحن نتكلم اللهجة المحلية") يضعهم فى الإطار المعيارى للجزيرة ("اللهجة المحلية هى من الأشكال المميزة للجزيرة")، لكن

تقديرهم للغات المتواجدة ("اللغة الفرنسية هى أفضل الطرق للحديث") وتعبيرهم بشأن ما يفضلونه ("إننا نفضل الفرنسية") يبخس قدر ممارساتهم. ويختلف الوضع قليلاً فيما يخص اللغة الكريولية حيث نجد أن التقدير الذاتى للطلاب ("إننا نتكلم الكريولية" : ٤١,٢١٪) يخرجهم من معيار الجزيرة ("الكريولية هى من الأشكال المميزة للجزيرة": ١٠٪). وهكذا، فإن متكلمى اللهجة المحلية المذكورين يضعون أنفسهم فى إطار شكل يعتبرونه من خصائص الجزيرة، على خلاف حالة متكلمى الكريولية، فى حين تفرض اللغة الفرنسية نفسها على الجميع باعتبارها أفضل طرق الكلام والشكل المفضل لهم.

تتيح لنا هذه المعطيات المختلفة الرجوع إلى مسألة التمثيلات. فقد أحال ويليام لابوف عدم الأمان اللغوى إلى عدد قليل من الأشياء: الاختلاف الأسلوبى، والاعتراف بمعيار خارجى مع إدراك عدم الالتزام بهذا المعيار. وقد اتسم بالمحدودية مؤشر عدم الأمان اللغوى الذى احتسبه باعتباره قدر كمى: عدد الأشكال التى يرى من خلالها المتكلم وجود اختلاف بين ما يمارسه والشكل الذى يعده صحيحًا. ومن هنا، كان مفهوم عدم الأمان اللغوى يمثل النسبة بين حكم معيارى (الاستخدام الصحيح وفقًا للمتكلم) وتقدير ذاتى (الاستخدام الشخصى وفقًا للمتكلم). إلا أننا نجد فى إجابات الاستبيان الذى سقناه عدداً من العناصر التى تحمل قدراً كبيراً من التنوع. إننا نجد فى الواقع نوعًا من عدم الأمان التمثيلى العام (إننا نتكلم "أ" لكن "ب" هى أفضل طرق الكلام) الذى يصاحبه لدى ناطقى الكريول ما يجب أن نطلق عليه اسم عدم الأمان إزاء الهوية: إنهم على خلاف متكلمى اللهجة المحلية، لا يضعون ممارساتهم اللغوية فى إطار المعيار السائد بالجزيرة. ويظهر الشعور نفسه بعدم الأمان إزاء اللغة الفرنسية المُتكلمة فى الجزيرة. يعتقد نصف الطلبة أنهم لا يتكلمون بالطريقة ذاتها المستخدمة فى فرنسا، إلا أن الموقف يشوبه قدر من الالتباس، حيث يُحال فى الغالب هذا الاختلاف إلى الفروق المحلية، وهى طريقة للإشارة إلى أحد مظاهر تحقيق الهوية. وقد طُرحت مشكلة الهوية لدى ديدييه دو روبيار Didier de Robillard :

"إذا ما فكرنا فى إطار الفئات الأكثر تجرداً، فقد نتمكن بطريقة كلاسيكية للغاية من مقابلة الوظائف الرمزية (نقل المعلومة بمعناه العادى) ووظائف تحقيق الهوية للغة ما،

من أجل التمييز بين طريقتين لتعبير المتكلم عن عدم الأمان اللغوى. وقد نجد من جهة المتكلمين الذين يشعرون بعدم الأمان؛ لأنهم يجدون صعوبة فى التواصل (وهو من الأشكال الهينة لهذا الشعور)، بينما نجد من جهة أخرى المتكلمين الذين يشعرون بعدم الأمان لأسباب تتعلق بالهوية (الخوف من التعرض لرفض إحدى الفئات الاجتماعية أو المهنية أو العرقية...إلخ).

وفى ظل الوضع الذى أسمته أود بروتونييه Aude Bretegnier بعدم أمان "الثنائية اللغوية"، نجد فى الواقع: "شعوراً بعدم الأمان اللغوى بالنسبة لكل من اللغة السائدة واللغة المسودة على حد سواء." إلا أن بروتونييه قد رجعت فى هذا الصدد إلى شكل اللغات، مثلها فى ذلك مثل من سبقوها، فى حين أننا نناقش هنا وضع اللغات؛ ومثال سانت بارتيليمى سيقودنا إلى بعض المشكلات النظرية؛ لأنه لابد من إحداث تداخل بين ثنائية الأمان/عدم الأمان من جهة وثنائية الشكل/الوضع من جهة أخرى. وإن متكلمى اللهجة المحلية (وبالطبع اللغة الفرنسية) يمثلون لنا ما يلى:

١- أمان الهوية: إنهم يعدون ما يتكلمونه بمثابة إحدى الخصائص المميزة للجزيرة.

٢- عدم الأمان إزاء الوضع: إنهم يعتبرون اللغة الفرنسية بمثابة أفضل الطرق المستخدمة فى الكلام.

بينما يمثل متكلمو اللغة الكريولية (واللغة الفرنسية) ما يلى:

١- عدم الأمان إزاء الهوية: إنهم لا يعدون اللغة الكريولية بمثابة إحدى الخصائص المميزة للجزيرة.

٢- عدم الأمان إزاء الوضع: إنهم يعتبرون اللغة الفرنسية بمثابة أفضل الطرق المستخدمة فى الكلام.

إلا أن هذا العرض المزدوج- فى إطار ثنائية الأمان/عدم الأمان- من شأنه أن يسهم فى تجميد الوضع؛ لأنه لا يجب تناول الأمور فى إطار الأمان أو عدم الأمان بشكل قطعى، بل يجب بالأحرى تناولها فى ظل قدر ما من الأمان أو عدم الأمان.

ويتعين علينا بالتالى احتساب معدل الأمان (أو عدم الأمان) اللغوى، مثلما نحتسب معدل النقل اللغوى أو انتقال اللغات. ونقترح فى هذا الشأن احتساب النسبة بين التمثيل والتقدير: نسبة المتكلمين (المذكورين هنا) لإحدى اللغات ممن يحملون تصوراً إيجابيًا لهذه اللغة. إذا ما أعلن مائة شخص أنهم يتكلمون اللغة "أ"، وكانوا يحملون تصوراً إيجابيًا للغة "أ"، فإننا بصدد معدل أمان لغوى بنسبة ١٠٠٪. وإذا لم يكن من بينهم سوى ٥٠٪ ممن يحملون تصوراً إيجابيًا للغة "أ"، فإننا بصدد معدل أمان بنسبة ٥٠٪. وإذا لم يكن هناك أى منهم يحمل تصوراً إيجابيًا للغة "أ"، فإننا بصدد معدل أمان لغوى بنسبة ٠٪ (أو معدل عدم أمان لغوى بمعدل ١٠٠٪). وإن ما يعنينا هنا هو المزاوجة بين الإجابات الخاصة بالسؤال السابع (أى اللغات تتكلم؟) والسؤال الثالث عشر (ما أفضل الطرق للتحدث على سطح الجزيرة؟)، مع إغفال الطلبة الذين لا يتحدثون أى من اللهجة المحلية أو اللغة الكريولية. وهكذا يمكن احتساب معدل الأمان/عدم الأمان باعتباره قيمة دائمة.

معدل أمان الوضع

	اللغة المتكلمة	
أفضل طرق الكلام	اللهجة المحلية	اللغة الكريولية
اللهجة المحلية	٤٨	١٣
الكريولية	٧	٢٢
الفرنسية	٢٤	١٠
الفرنسية الإنجليزية		١
بدون إجابة	١٢	٥
المجموع	٩١	٥١
معدل الأمان	٪٥٢	٪٤٣

لم يتم تناول المسألة التى طرحها السؤال الثانى (أمان الهوية) فى الكتابات الخاصة بالتمثيلات اللغوية. إذا ما زاوجنا بين الإجابات الخاصة بالسؤالين السابع والثانى عشر، يمكننا بالطريقة نفسها احتساب معدل أمان الهوية، أى النسبة بين عدد

المتكلمين المعلنين للغة ما وعدد مرات ذكر هذه اللغة باعتبارها من الخصائص المميزة للجزيرة (وحدها أو مع لغة أخرى).

معدل أمان الهوية

اللغة المميزة للجزيرة	اللغة المتكلمة	
	اللهجة المحلية	اللغة الكريولية
اللهجة المحلية	٥٦	١٧
الكريولية	٤	٧
الفرنسية	٤	٣
الإنجليزية	١	١
اللهجة المحلية والكريولية	٩	٨
اللهجة المحلية والفرنسية		١
بدون إجابة	١٧	١٤
المجموع	٩١	٥١
معدل الأمان	٧١,٤٪	٢٩,٤٪

ما يقرب من ثلاثة أرباع متكلمى اللهجة المحلية المعلنين يعتقدون أن اللهجة المحلية هى أحد الأشكال المُميزة للجزيرة، وهم بذلك يشعرون بالارتياح إزاء هويتهم. وهذا ما ينطبق على أقل من ثلث متكلمى الكريولية المعلنين.

إزاء ثلاث لغات هى الفرنسية واللهجة المحلية واللغة الكريولية، يبدو أنه لم يستوقف الطلاب فى الواقع سوى لغتين فحسب عند التطرق إلى ما يميز الجزيرة أو التعبير عما يفضلونه من لغات، والغالبية العظمى منهم لم يعدوا اللغة الكريولية بمثابة إحدى الخصائص المميزة للجزيرة؛ ولذلك يعكس ناطقو الكريولية بالتالى أعراض حالة من التردد إزاء ما ينتمون إليه. إن التحدث باللهجة المحلية يعنى الانتماء لسانت بارت، ولكن ماذا يعنى التحدث بالكريولية؟... إنهم جميعًا يمثلون فى نهاية الأمر حالة من الشعور بعدم الأمان الوضعى، حيث يعد ٤١,٥٪ منهم اللغة الفرنسية بمثابة أفضل طرق الكلام، فى مقابل ٢٣,٤٪ بالنسبة للهجة المحلية، و١١,٧٪ للغة الكريولية.

لقد تساءلنا من قبل حول العلاقة بين الاختلافات السلالية والاختلافات اللغوية المرصودة لدى جماعتى جزيرة سانت بارت. ويبدو الآن أن النتائج التى توصل إليها ج.ل.سير J.L.Serre عام ١٩٨٧– بصدد سانت بارتيليمى– تنطبق تقريبًا على الوضع اللغوى؛ فقد استند إلى أنها كانت تتشكل فى الأصل من جماعة سكانية واحدة انقسمت إلى مجموعتين، وأدى استمرار الزواج الداخلى فى قلبيهما إلى توليد اختلافات بيولوچية لها دلالاتها. فقد كان كلام سانت بارت يتكون فى الأصل من لغة واحدة دخلت عليها إحدى لغات الكريول الخارجية؛ مما أسفر عن تطورها إلى شكلين لغويين تولدت داخلهما اختلافات لغوية لها دلالاتها التى تشكلت بفعل التاريخ والوضع الاجتماعى. وحمل هذان الشكلان على الصعيد المحلى اسمى "اللهجة المحلية" واللغة الكريولية"، لكننا رأينا فيما أجريناه من بحث لغوى اجتماعى أن مراهقى الجزيرة يحيلون الاختلافات بين هذين الشكلين إلى عدد قليل من الأشياء. وبعبارة أخرى نقول إنهم جميعًا يعدون أنفسهم ممن ينتمون إلى "سانت بارت"، وإنهم جميعًا لا يتكلمون بطريقة واحدة، لكن هذه الاختلافات تشكل فى نهاية الأمر أحد مكونات هويتهم الجماعية. ولن يغير ذلك شيئًا على صعيد الاختلافات النحوية التى رصدناها بين اللهجة المحلية واللغة الكريولية فى إطار البحث الميدانى الذى أجريناه، إلا أنها توضح لنا أن هؤلاء الشباب موضوع البحث لا يتفقون معنا بشأن كيفية رؤية الوضع اللغوى.

يطرح هذا الوضع بوجه خاص مسألة مستقبل هذا المحيط البيئى اللغوى، مثلما يطرح مسألة التناقضات بين التمثيلات اللغوية أو أحاديث المتكلمين بشأن اللغات من جهة، ودراسات عالم اللغة الوصفية أو حديثه بشأن ما وراء اللغة من جهة أخرى. وإذا ما أخذنا فى الاعتبار تأثير كلام المتكلمين وأفكارهم بشأن اللغات على الأوضاع المختلفة وتطورها، يتعين علينا الاهتمام باختلاف التمثيلات اللغوية الخاصة بمتكلمى اللهجة المحلية والناطقين بالكريولية، بغية تكوين فكرة واضحة بشأن المستقبل اللغوى لجزيرة سانت بارتيليمى. ولن يكون هذا المستقبل نتاج عوامل "داخلية" فحسب (اللغات المتواجدة، وديناميكيتها، والعلاقات التى تربطها)، ولكنه سيكون كذلك نتاج عوامل خارجية مختلفة يضطلع من بينها عامل التمثيلات الذى أثرناه من قبل بدور لا يمكن تجاهله.

وقد أظهرت الدراسة الوصفية التى أجريناها فى سانت بارتيليمى وجود نوعين من الكلام (أو ثلاثة أنواع إذا ما أضفنا اللغة الفرنسية النموذجية)، بينما يكشف البحث اللغوى الاجتماعى عن رؤية أكثر تبسيطًا بصدد التمثيلات اللغوية. إلا أنه إذا ما كان الجيل الذى خضع لدراستنا البحثية يستشعر أن الاختلافات بين اللهجة المحلية واللغة الكريولية تُحال إلى عدد قليل من الأشياء، فقد يسعنا أن نفترض أن ممارساتهم ستنتهى بتحقيق تمثيلاتهم، وأن الجزيرة ستتطور فى نهاية الأمر باتجاه ثنائية لغوية تتكون من الفرنسية النموذجية والفرنسية المحلية التى ستكون نتاج الجمع بين اللهجة المحلية واللغة الكريولية. لكننا هنا بصدد مجرد افتراض يمكن للدراسات اللاحقة أن تؤكده أو تدحضه .

الخاتمة

خلق اللغة وتسميتها...

لنتذكر أولاً الأسس التى انطلقنا منها. ففى بداية الأمر، وبطريقة بدت تحمل قدراً من التحدى، افترضنا وجود أحد المعطيات التى نعدها من الأمور الرئيسية: لا وجود للغات، ومفهوم اللغة هو مفهوم مجرد يستند إلى انتظام عدد من الوقائع والسمات، فى ظل ما يصدر عن المتكلمين أى فى ظل ممارساتهم. وإلى جوار هذه الممارسات، توجد التمثيلات، أى ما يعتقده الأشخاص بشأن اللغات وطريقة كلامهم، حيث تؤثر هذه التمثيلات على الممارسات، كما تعد أحد عوامل التغيير. وتُولِّد هذه التمثيلات بوجه خاص الشعور بالأمان أو عدم الأمان الذى يقود المتكلمين نحو انتهاج سلوكيات من شأنها تحويل ممارساتهم.

ثم أشرنا بعد ذلك إلى ضرورة وصف ثنائية الممارسات/التمثيلات وتحليلها، فى إطار يعتد بالعلاقات التى تربط بين مختلف أنواع الممارسات (مختلف "اللغات") والعلاقات التى تربطها بالبيئة، وهو ما أطلقنا عليه اسم محيط البيئة اللغوية. ومن أجل إنجاح هذا التحليل، عمدنا إلى استخدام عدد من النماذج:

١- نموذج التجاذب (الفصل الثانى)

٢- نموذج الضبط الذاتى (الفصل الثالث)

٣- نموذج التمثيلات (الفصل الرابع)

٤- نموذج الانتقال (الفصل الخامس)

وهكذا، تُعنى إيكولوجيا اللغات بدراسة العلاقات بين اللغات وبيئتها، أى تعنى أولاً بدراسة العلاقات بين اللغات ذاتها ثم العلاقات التى تربطها بالمجتمع؛ مما يقود نحو التساؤل التالى: هل تؤثر البيئة على الممارسات وشكل اللغات؟... إن الأوضاع العديدة التى عرضنا لها بالتحليل توضح لنا أنه يمكننا الإجابة على هذا التساؤل بالإيجاب. لقد رأينا فى حالة اللغة الفرنسية الأفريقية مثالاً على تكيف اللغة مع البيئة (تجلت "الدلالة

النحوية" الأفريقية فى اللغة الفرنسية)، كما رأينا فى حالة سانت بارتيليمى مثالاً آخر على مدى تأثير البيئة على العلاقات بين اللغات (العنصر الجغرافى وما نتج عنه من اختلافات مهنية)، ورأينا كذلك فى حالة الكيتويا مثالاً على مدى تأثير البيئة على تسمية اللغة...إلخ.

ستقودنا هذه الجزئية الأخيرة نحو مسألة أكثر اتساعًا. فقد صادفنا فى عدد من المواقف مشكلة التعرف على إذا ما كنا بصدد لغة واحدة أم لغتين، أو بعبارة أخرى صادفنا مشكلة الإجابة على التساؤل التالى: متى لم تعد لغة ما هى ذاتها؟. وقد وجدنا أن إجابة علماء اللغة لم تكن بالضرورة هى نفسها إجابة المتكلمين، مما يشكل مسألة رئيسية. وإذا ما كنا بصدد اللغات العربية على سبيل المثال (الفصحى والوسطى والعامية...إلخ)، أو لغة الكيتويا، أو اللغة الصربية-الكرواتية، أو اللغة الكريولية فى لويزيانا، فإن حقيقة تسمية اللغة تشكل تدخلاً فى البيئة؛ لأن الاسم الذى نمنحه للغة لم يكن أبداً محايداً. ففى بداية العصر الاستعمارى على سبيل المثال، عكف عالم اللغويات الألمانى على تناول المجموعة المتجانسة نسبيًا التى تجمع بين اللغات المتكلمة فيما بين الساحلين الشرقى والغربى بجنوب أفريقيا، والتى أطلقوا عليها اسم لغات "البانتو" bantou، وهو الاسم المشتق من الجذر ntu أى "رجل" بالإضافة إلى السابقة ba؛ مما يجعلنا نستخلص من تلك التسمية افتراض ما يتمثل فى أنه خلف تجانس اللغات والأرض، يوجد تجانس الجماعات البشرية، وهو ما نعلم حاليًا أنه يخالف الصواب. "إننا نصادف فى الواقع بين شعوب لغات البانتو تنوعًا شديداً على صعيد أشكال النظام الاجتماعى (العائلات، والديانات، والأنظمة الاقتصادية)، وعلى صعيد الخصائص التشريحية الوراثية (الطول، والسمات الدماغية، وفصائل الدم....إلخ).

يدلل هذا المثال المختصر على النزوع الطبيعى الشديد نحو الاعتقاد فى توافق اللغات والأشخاص والأرض، بحيث لابد أن تكون الوحدة السياسية مصحوبة بوحدة لغوية ووحدة عرقية. وفى الدول القديمة التى تمثل الاتجاه نحو مطابقة الحدود السياسية لحدود الكوكبة اللغوية، اشتق فى الغالب من الجذر نفسه اسم الدولة واسم مواطنيها واسم اللغة الرئيسية. ومن ثم فإنه وفقًا للتصورات السائدة، يعيش فى فرنسا

فرنسيون يتكلمون الفرنسية، ويعيش فى إيطاليا Italia إيطاليون Itallaini يتحدثون الإيطالية Italiano، ويعيش كذلك فى إنجلترا England إنجليز English يتكلمون الإنجليزية english... إلخ. وقد تتعرض بالطبع هذه الأمثلة التصريفية للدحض من قِبَل بعض الدول متعددة اللغات (لا يتكلم السكان السويسرية فى سويسرا ولا البلچيكية فى بلچيكا...إلخ)؛ وهناك كذلك نوع من الانفصال بين اسم السكان واسم اللغة فى الدول التى تشكلت حديثًا: يعد سكان السنغال من السنغاليون لكنهم لم يتكلموا (بعد؟) اللغة السنغالية، ولا يتكلم الماليون اللغة المالية، كما لا يتكلم الجامبيون اللغة الجامبية، ولا يتكلم الكنغوليون اللغة الكنغولية...إلخ. إلا أننا نجد بين هذين القطبين المتباعدين، حالات متوسطة يتجلى فيها الاتجاه نحو فرض اسم "قومى" للغة، مثلما نرى بشأن الاستخدام المتزايد لتعبيرات مثل الأنجلو-أمريكية anglo-américain، واستخدام تعبيرات مثل أمريكية أو إسبانية كوبا أو شيلى أو الإكوادور، بل إضافة صفات مثل الكوبية أو الشيلية أو الإكوادورية...إلخ. كما أدت التغيرات السياسية أحيانًا- ولا سيما فى إطار التحرر من الاستعمار- إلى استخدام مسميات جديدة، مثل اللغة "الملايية" التى صار تحمل فى إندونيسيا اسم bahasa indonesia أى "اللغة الإندونيسية".

تطرح كل هذه الأوضاع المختلفة عددًا من التساؤلات: من الذى يحدد اسم اللغة؟ وما هو تأثير النظريات اللغوية على إطلاق هذه المسميات؟ وما هى المخاطر التى تتوارى خلف عملية تسمية اللغات؟ إلا أنه يثور هنا تساؤل رئيسى حول تعريف اللغة، ذلك الكيان المختلق المفيد الذى تحدث عنه هوجين، وهو مختلق لأننا لا نستطيع رؤيته، فاللغة لا وجود لها مثل الأشياء الحقيقية الملموسة، وهو كيان مفيد لأن تشكيل علم اللغويات كان فى حاجة إلى التسليم بوجود تراكيب أسماها اللغات. لكننا كلما أسمينا لغة ما أى منحناها اسمًا خاصًا، فإننا ندعم فى الوقت ذاته ذلك الكيان المختلق... لذا، فإن المشكلات التى سنعرض لها الآن تمثل محور نقاش لا يمكن لعلم اللغويات تجنبه.

حينما أعلن الدستور الجزائرى أن "اللغة العربية هى لغة البلاد القومية والرسمية"، أو حينما ورد فى النسخة الصينية للنص الصينى- الإنجليزى- الموقع عام ١٩٨٤- اعتبار لغة (الشانج وين chung wen ورد فى النسخة الإنجليزية أنها اللغة الصينية

chinese وهو مصطلح غير واضح) لغة هونج كونج الرسمية بدءًا من الأول من يوليو ١٩٩٧، صار اسم اللغة يضطلع بوظيفة ظاهرية؛ مما يجعلنا إزاء حالات تورية جديرة بالاهتمام الشديد. ولم يذكر تحديداً فى الحالة الأولى أن اللغة العربية المعنية ليست العربية الدارجة أو العربية العامية بل هى العربية المكتوبة. وفى الحالة الثانية، نجد استخدام شكل يُحال إلى اللغة الصينية المكتوبة تجنبًا لتحديد أننا بصدد اللغة المندرية لا الكنتونية (لغة أغلبية سكان هونج كونج). وحقيقة أنه وفقًا للدستور الإسبانى، صارت اللغة الكتلانية لغة البلاد الرسمية بدلاً من الإسبانية، توضح كذلك أن اسم اللغة يمكن أن يشكل رهانًا سياسيًا وأيديولوجيًا؛ فإن تسمية اللغة الإسبانية على الصعيد الرسمى باللغة الكتلانية يرجع جزئيًا إلى الرغبة فى إرضاء قوميات أقاليم الباسك أو جاليسيا أو كتالونيا، من أجل قطع الرابطة الجذرية بين اسم الدولة واسم اللغة، وإضفاء البعد الإقليمى على هذه اللغة باعتبارها لغة إقليم كاستيللا...

وفى المقابل، نادراً ما تشتق أسماء لغات الكريول الهجين من اسم الأرض أو اسم الدولة (التى لا وجود لها فى أغلب الأحيان). فمن أجل التمييز بين لغات الكريول، عمد علماء اللغة إلى وصفها بقولهم: "الكريولية الريونية" أو "لغة لاريونيون الكريولية" أو "كريولية جوادلوب"، وفى حالات قليلة يقولون "الريونية" أو "الهايتية". ولهذه التسمية مغزى خاص: المتكلم الذى يصرح أنه يتكلم الفرنسية والكريولية لا يقول الشىء نفسه إذا كان يصرح أنه يتكلم الفرنسية والجوادلوبية، مثلما يصرح أحد أهالى بواتييه أنه يتكلم لغة هذا الإقليم أو اللهجة المحلية، وهو بذلك يصنف لغته المحلية بطريقة مختلفة، ويطلعنا على بعض الأمور بشأن تمثيلاته اللغوية. إن كون المتكلم يقول "أنا أتكلم اللهجة المحلية" أو "أنا أتكلم الكريولية"، يعنى أنه يضع الشكل المحلى للغته فى إطار علاقة ثنائية لغوية تضم نوعًا أكثر علواً، بينما يعنى قوله "أنا أتكلم لغة بواتييه" أو "أنا أتكلم الجوادلوبية" أنه يمنح الشكل المحلى للغته وضعه كلغة معترف بها ويضعه على قدم المساواة مع غيره من اللغات الأخرى. ومن هذا المنطلق، يمكن أن يصبح التساؤل بشأن "لغة واحدة أم لغتين؟" تساؤلاً بشأن "الفرنسية و/أو الكريولية، أو الفرنسية و/أو الجوادلوبية، الهايتية، الريونية...إلخ." وعلى الرغم من أن مشكلة تسمية اللغات قد تبدو

مسألة هامشية، إلا أنها تقع فى جوهر التمثيلات اللغوية التى افترضنا أنها تضطلع بدور رئيسى فى ديناميكية الأوضاع.

إلا أنه ما يثير الانتباه فى هذه الأوضاع- مثلما لاحظنا فى حالة اللغة الصربية الكرواتية- أنه لا يوجد اتفاق بين المتكلمين وعلماء اللغة. وحينما كان موفوينى يجرى بحثًا حول لغة الجولاه gullah، وهى إحدى لغات الكريول المستخدمة فى المناطق الساحلية بنورث كارولينا وجورجيا، صرح محدثوه فى أغلب الأحيان أنهم يتكلمون اللغة الإنجليزية، بل كانوا يجهلون أحيانًا كلمة الجولاه. وقد تعرضنا بالوصف للوضع نفسه، فى الفصل السادس، داخل مجتمع البيض فى لويزيانا بمنطقة كرأمر، حيث كان السكان يتحدثون اللغة الكريولية، لكنهم يصرحون أنهم يتكلمون الفرنسية. لكن، من المحق فى هذه المواقف؟ عالم اللغة الذى يطلق اسم الجولاه أو الكريول على ما يسمعه ويصفه، أم المتكلم الذى يعتقد (يريد ويقرر...إلخ) أنه يتكلم الإنجليزية أو الفرنسية؟ وقد يكون من غير المجدى هنا أن نسوق حجة من منطلق السلطة المُخَوَّلة لنا (يعلم عالم اللغة ما الذى يتكلم عنه، فهو بالتالى محق على المستوى العلمى...): لا يطرح أمر وجود لغة واحدة أو اثنتان مشكلة فنية فحسب، بل يطرح كذلك مشكلة التمثيلات، ويتمثل التحدى الذى حاولنا التغلب عليه فى دراسة تأثير هذه التمثيلات على الممارسات. وفضلاً عن ذلك، فإن تلك التعددية الاسمية لا تعد فحسب نتاج اختلاف عالم اللغة والمتكلمين، بل فى أغلب الأحيان يطلق المتكلمون أنفسهم أسماء مختلفة على اللغة ذاتها. ومثل هذه الأوضاع لا تتسم بالندرة، لكن ما الذى يمكن أن نحصده من ورائها؟... بداية، لا تقتصر الاختلافات بين اللغات على اللغويات فقط، بل هناك كذلك اختلافات اجتماعية: حينما ينكر الكروات أن الصرب يتكلمون لغتهم، فإنهم يضعونهم بذلك فى فئة مختلفة عنهم، ويستبعدونهم من مجتمعهم الخاص. لكن عدم الرغبة فى التحدث بلغة الآخر لها تداعياتها على اللغات ذاتها. وهكذا، فقد رأينا فى الأمثلة المذكورة أعلاه أن متكلمى الأشكال اللغوية المتواجدة فى المحيط، يقترضون من اللغات الأخرى، كى يشعروا بالاختلاف عن جيرانهم، وهذه الرغبة فى الاختلاف أو تحقيق الهوية لها أثرها على شكل اللغة وتطورها، سواء فيما يخص مفرداتها أو طريقة كتابتها أو الاسم الذى تحمله.

لغة واحدة أم لغتان؟... لا توجد إجابة فورية أو عامة على هذا التساؤل الذى سبق أن رأيناه من قبل، ويجب تناوله من منظور الممارسات والتمثيلات، فى ظل ممارسات المتكلمين. فى كل حالة من حالات "تسمية" اللغات، هناك فاعلان مختلفان: الفاعل الأول يسمى لغته الخاصة والفاعل الثانى يسمى لغة الآخر. وبوجه عام، يتمثل الفاعل الأول فى المتكلم الذى يصرح قائلاً: "أنا أتكلم تلك اللغة" أو "لغتى تُسمى...". بينما يتمثل الفاعل الثانى فى عالم اللغة الذى يقول: "هذه لغة...". وعلاوة على ذلك، هناك اختلاف آخر يتمثل فى المتكلم الذى يقبل بكل يسر ألا تحمل لغته اسمًا ما أو أن يكون لها عدة مسميات، فى حين يعتقد عالم اللغة من جانبه فى ضرورة تسمية اللغات، بل تسميتها بطريقة لا تحتمل الخلط. ويرمز هذا الاختلاف إلى اختلاف آخر رئيسى: يعد البعض "اللغة" بمثابة إحدى الممارسات، بينما يعدها البعض الآخر بمثابة أحد عناصر علم اللغة التصنيفى. يحتوى اسم اللغة على عدد من المعانى الضمنية التى يختلف فى تأويلها عالم اللغة والمتكلم. فحينما يتحدث الأول عن إحدى لغات الكريول، فإنه يوضح للقراء أن اللغة المعنية قد تطورت فى أجواء اجتماعية ولغوية محددة، وأن كيفية ظهورها تجعلها تقترب من بعض اللغات الأخرى التى تحمل اسم الكريول. وفى المقابل، حينما يصرح المتكلم أنه يتكلم إحدى لغات الكريول، فإنه يكون قد قبل التسمية التى استخدمها عالم اللغة، ويحدد وضع لغته فى ظل ما يربطها بلغة أخرى تماثلها. والقول بأن هذه العبارة أو تلك "هى من لغة الكريول" لا يعنى دومًا الشىء ذاته. فهذه المقولة تعنى لعالم اللغة أن بناء العبارة المعنية قد تم وفقًا لقواعد نحوية محددة، وأن كلماتها قد اشتقت من مفردات محددة. لكن المتكلم الذى يستمع إلى تلك المقولة قد يراها على نحو آخر: إنك لا تتكلم الفرنسية (أو الإنجليزية...إلخ) بل الكريولية. تتمثل مرجعية الحالة الأولى فى علم اللغة التصنيفى، بينما ترجع الحالة الثانية إلى موازين القوى من النوع الخاص بالازدواجية اللغوية. وفى كلتا الحالتين، نجد أنفسنا أمام عالمين من التمثيلات المختلفة؛ لأن حقيقة الاستمرار فى إطلاق اسم "الكريول" على ما يعمل مثل بقية اللغات، ينبثق لدى عالم اللغة عن نظام للتمثيلات يرجح الجانب التاريخى على الجانب التزامنى، لكنه لا يرجح ذلك سوى فى إطار بعض المواقف: لا يُعد التكلم

بالفرنسية أو الإيطالية من قبيل التحدث بإحدى لهجات اللاتينية، لأننا بصدد لغات قائمة بذاتها. وحقيقة تسمية لغة ما بالـ"الكريولية" (بدلاً من الهايتية أو المارتينيكية...إلخ)، يؤكد وجود نظام آخر للتمثيلات مستمد من الماضي؛ ومن خلال مطابقة التزامن والتطور اللغوى، وتضخيم الجانب التاريخ، يخلع هذا النظام على لغته وضعًا مختلفًا. وسرعان ما أسهمت العلاقات الاجتماعية فى جعل هذا الاختلاف انعكاسًا لشغل مكانة متدنية.

وهكذا، لم يعد التساؤل بشأن "وجود لغة واحدة أو لغتين" مجرد تساؤل علمى يستدعى إجابة علمية فحسب. وقد يصل الكروات يومًا ما إلى حقيقة كونهم يتكلمون اللغة الكرواتية التى تمثل شكلاً يختلف عن اللغة الصربية؛ وهو ما قد يقودنا نحو إمكانية أن يتكلم الريونيون اللغة الفرنسية، فى حين يتحدث الهايتيون باللغة الهايتية؛ أى أننا سنشهد يومًا ما محو اللغة الكريولية فى الحالة الأولى، وتأصيلها فى الحالة الثانية. وقد لا يرتبط مثل هذا التطور المختلف بالخصائص الجوهرية لما تم الاتفاق على وضعه تحت مسمى لغات الكريول، بل سيرتبط بالأحرى بمختلف التطورات السياسية والاجتماعية التى تضطلع فيها التمثيلات اللغوية بدور رئيسى.

توجه إلينا بعض الزملاء الذين قرأنا عليهم هذا الكتاب بسؤال يتسم بقدر من المكر والدهاء، حيث تساءلوا عن الفرق بين ما أطلقنا عليه اسم "الإيكولوچيا اللغوية" أو "البيئة اللغوية" واللغويات الاجتماعية. ينطوى هذا التساؤل على إشارة خفية إلى كوننا لم نتجاوز حد استخدام إحدى التشبيهات من أجل عرض بعض التحليلات التى كان من الممكن عرضها تحت مسمى اللغويات الاجتماعية. إلا أن اللغويات الاجتماعية قد تم اعتبارها بمثابة جزء من علم اللغويات، بل يعدها البعض بمثابة جانب هامشى من هذا العلم؛ وعلى الرغم من آراء وليم لابوڤا الذى اعتبرها بمثابة علم اللغويات بأكمله، فإن هذا الرأى مازال ساريًا. وهكذا، نجد اللغويات الأساسية الجامدة من جهة، بينما نجد من جهة أخرى اللغويات الطرفية التى تُعد بمثابة جزء "رخو" يفتقر إلى "الجانب العلمى" (اللغويات الاجتماعية والنفسية والعرقية...إلخ). وقد أسفر هذا الوضع عن نزوع المتخصصين فى "اللغويات الاجتماعية" إلى التخلى عن بعض المجالات

الخاصة بوصف اللغات على الصعيد النحوى أو الصوتى، من أجل التفرغ لدراسة العلاقات بين اللغات والمجتمع، والتعددية اللغوية، والسياسة اللغوية، وهو ما توافق تمامًا مع الحدود التى وضعها حاملى لواء اللغويات "الجامدة". ففى عام ١٩٧٨ على سبيل المثال، حينما كان بيير أشار Pierre Achard يوضح أهداف مجلة "اللغة والمجتمع" Langage & Société، فإنه عرّف "جوهر علم اللغويات" باعتباره "الآليات المنتظمة للغات"، حيث استبعد بذلك إمكانية دراسة "الآليات المنتظمة" فى إطار اللغويات الاجتماعية أو علم الاجتماع اللغوى. ولكن اللغويات الاجتماعية قد تركت الآليات المنتظمة لأصحاب اللغويات "الجامدة"، واختارت بمحض إرادتها الاضطلاع بدور هامشى إلى حد ما فى هذا الصدد. وهذا ما جعل چوشوا فيشمان Joshua Fishman يكتب فى المقدمة التى صاغها لكتاب جلين ويليامز Glyn Williams أنه: "بعد ثلاثة قرون، مازال علم اللغويات الاجتماعية على حاله، حيث يُعد بمثابة إقليم اللغويات والأنثروبولوچى، وهو بالأحرى إقليم محلى".

إلا أن هدف هذا الكتاب يتمثل فى الدعوة إلى معالجة لغات العالم من منظور بيئى "إيكولوچى"، أى الجمع بين دراسة شكل اللغات (تلك "الآليات المنتظمة")، وعلاقاتها المختلفة، والممارسات والتمثيلات اللغوية، ونظام التجاذب اللغوى، والضبط الذاتى، وانتقال الممارسات والأوضاع اللغوية...الخ. ومن هنا، تنطلق أهمية مفهوم محيط البيئة اللغوية بشأن إثراء وجهة نظرنا، ومصطلح البيئة اللغوية يفوق كثيرًا حقيقة كونه مجرد تشبيه جديد؛ لأنه أساس وصفى وتوضيحى. لذا، فإننا حرصنا على التأكيد على أهمية الممارسات التى إن لم تكن تسهم وحدها فى صياغة تاريخ اللغات، فإنها تشكل أحد محركاته الرئيسية. والواقع أن اللغويات "الجامدة" لا تهتم على الإطلاق بمدى تأثير التمثيلات على الأشياء التى تخلقها وتعمد إلى وصفها، ونعنى بذلك "اللغات". وحرصنا كذلك على التأكيد على حقيقة كون الأوضاع الاجتماعية تسهم فى تشكيل هذه التمثيلات، وإن كانت قد تتأثر بها فيما بعد؛ كما أن الممارسات اللغوية تتحدد بالتالى وفقًا لمجموع العلاقات التى تتجلى داخل محيط البيئة اللغوية. لقد شهدنا داخل مختلف أنواع محيط البيئة اللغوية أن انتقال السكان من مكان لآخر قد أسفر عن تأقلم اللغات

أو تكيفها، حيث يمكن لهذه اللغات أن تنتقل بدورها أو تختفى مخلفة وراءها بعض الآثار؛ أى أن الأوضاع اللغوية قد خضعت لتطور دائم كان يتعرض أحيانًا لحالات اضطراب بفعل بعض الثورات اللغوية. إننا هنا بصدد مبدأ وصفى وتوضيحى يقودنا حتمًا نحو ضرورة الالتزام بقدر من الاعتدال فى التنبؤ بمجريات الأمور؛ فإننا نوضح بعض الاتجاهات ولا نضع أية قوانين. إلا أن كل ذلك يوضح لنا أن خلق اللغات وتسميتها يعدان بمثابة تدخل فى محيط البيئة اللغوية وأحد عوامل تغييره.

كثيراً ما أكدنا فى هذا الصدد أننا لم نكن لنستخدم مصطلح البيئة اللغوية "الإيكولوچيا اللغوية" كمرادف لمفهوم حماية اللغات المهددة بالخطر؛ ويصعب إنهاء هذا الكتاب دون الإشارة إلى مسئولية عالم اللغويات بصدد مستقبل البيئات اللغوية المختلفة. ويثير ذلك مشكلة الالتزام الأدبى، وإن كنا قد خصصنا هذا الكتاب لموضوع مختلف تماماً. وختاماً، نرى أنه من المستحسن التذكير بأن عمل عالم اللغويات لا يقتصر فحسب على وصف "اللغات" أو الأوضاع اللغوية. ولا يسعنا أن نغفل الطبيعة عند التعامل مع الحقائق الاجتماعية. وإذا ما تم إقرار التحليل الذى عرضناه، فإننا لا نستطيع أن نغفل كذلك حقيقة كون تجربتنا الوصفية والتحليلية تشكل تدخلاً فى محيط البيئات اللغوية ويمكنها الإسهام فى تغييرها بشكل هائل .

الدليل اللغوى

Glossaire Linguistique

Accent	لكنة ، لهجة
Accord	علامة ضبط
Actant	فاعل
Acte de parole	فعل الكلام
Actualisation	تحقيق
Adaptation	تطويع ، تكيُّف
Afrikaans	اللغة الأفريقانية
Analyse	تحليل
Allèle	متغير دلالى
Alphabet	أبجدية ، حروف الهجاء
Alternance	تناوب
Analytique	تحليلى
Anglicisme	مصطلح إنجليزى
Anglophone	ناطق بالإنجليزية
Arabisation	تعريب
Arabophone	ناطق بالعربية
Argot	رطانة
Article défini	أداة تعريف
Aspiration	هائية ، نفَسية
Assimilation	مماثلة
Assourdissement	تحويل صامت رنان إلى صامت مهموس
Attraction	جذب
Auxiliaire	فعل مساعد
Bambara	لغة اليمبارا
Basque	لغة الباسك
Bengali	اللغة البنغالية

Berbérophone	ناطق بالبربرية
Bilingue	ثنائيُ اللغة
Bilinguisme	ثنائية لغوية
Bobo	لغة البوبو
Breton	اللغة البريتانية
Calligraphie	فن الخطّ
Carte linguistique	خريطة لغوية
Cas	حالة إعرابية
Castillan	لغة قشتالة الإسبانية
Catalan	اللغة الكتلانية
Catalyseur	حافز ، وسيط
Catégorie	فئة
Classe nominale	مجموعة اسمية
Classification	تصنيف
Classification génétique	تصنيف سلالى
Code	نظام الاتصال اللغوى ، بناء رمزى
Communication	اتصال ، تواصل
Compatibilité	توافق
Compétence	القدرة الكلامية
Congo	اللغة الكونغولية
Conjugaison	تصريف الأفعال
Connotation	المعنى الضمنى
Consonne	صامت
Construction	بناء
Contact	تماس
Contexte	سياق

Continuum	مجموعة متصلة
Corpus	مادة لغوية
Créole	لغة الكريول الهجين ، لغة مختلطة
Créolisation	تهجين اللغات
Critère	معيار
Datif	حالة المفعول غير المباشر
Déclinaison	تصريف ، إعراب
Dénotation	المعنى الدلالى
Dérivation	اشتقاق
Désinence casuelle	علامة إعرابية
Diachrronie	تطور لغوى تاريخى
Diagraphisme	ثنائية خطية
Dialecte	لهجة
Dialectophone	ناطق بإحدى اللهجات
Dichotomie	ثنائية
Dictionnaire	معجم ، قاموس
Diglossie	ثنائية لغوية
Digraphe	ثنائى الكتابة
Diminutif	تصغير
Diphtongue	صائت ثنائى
Discours	خطاب
Distribution	توزيع
Ecriture cyrillique	كتابة سيريلية
Emetteur	مُرسل
Emprunt linguistique	اقتراض لغوى
Ethnolinguistique	علم اللغويات العرقية

Etymologie	علم أصول الكلمات
Etymon	جذر كلمة
Euphémisme	تورية
Extra-linguistique	فولغوى ، غير لغوى
Famille de langues	عائلة لغوية
Feed-back	رد فعل
Filiation linéaire	تفريع خطى
Flamand	اللغة الفلمنكية
Folklinguistics	علم اللغة الشعبى
Fonction	وظيفة
Fonctionnel	وظيفى
Forme	شكل ، صيغة
Forme négative	صيغة نفى
Francophone	ناطق الفرنسية
Génitif	مضاف إليه
Génétique	سُلالى
Genre	نوع
Glossonymie	تسمية اللغات
Glottodiversité	تنوع لغوى
Glottophagie	التهام لغوى
Graphème	جرافيم ، أصغر وحدة كتابية
Grammaire	قواعد اللغة ، قواعد النحو
Grammaire générative	قواعد توليدية
Grammaire innée	قواعد فطرية
Grammairien	عالم النحو ، نحوى
Hétéroclite	كلمة شاذة ، غير قياسية

Hétéronyme	مخالفة صوتية
Hindi	اللغة الهندية
Hispanophone	ناطق باللغات الهسبانية
Hypercorrection	تصحيح مفرط
Idiolecte	لكنة ، لهجة فردية
Idiome	تعبير اصطلاحى
Imparfait	ماضى مستمر
Infinitif	مصدر الفعل ، مصدر مئول
Inflection	تصريف
Interchangeabilité	تبادلية
Intercompréhension	تفاهم مشترك
Interlangue	لغة دولية
Interlinguistique	اللغويات البينية
Interlocuteur	مخاطب
Intervocalique	بيصائتى
Intonation	نغمة
Irrégulier	شاذ
Jargon	رطانة ، لغة حرفية
Labial	شفوى
Langue à déclinaison	لغة إعرابية
Langue agglutinante	لغة لاصقة
Langue bantoue	لغة بانتو
Langue classique	لغة فصحى
Langue corrompue	لغة خاطئة
Langue dialectale	لغة عامية
Langue flexionnelle	لغة تصرفية

Langue dominante	لغة سائدة
Langue germanique	لغة جرمانية
Langue Indo-européenne	لغة هندية أوروبية
Langue internationale	لغة دولية
Langue isolante	لغة عازلة
Langue légitime	لغة شرعية
Langue lexificatrice	لغة منح المفردات
Langue majeure	لغة أغلبية
Langue maternelle	لغة أم
Langue mère	لغة أم
Langue mineure	لغة أقلية
Langue minoritaire	لغة أقلية
Langue moyenne	لغة وسطى
Langue morte	لغة ميتة
Langue neutre	لغة محايدة
Langue première	لغة أولى
Langue populaire	لغة شعبية ، عامية
Langue romane	لغة رومانية
Langue sémitique	لغة سامية
Langue slave	لغة سلافية
Langue soeur	لغة شقيقة
Langue standard	لغة نموذجية
Langue traditionnelle	لغة تقليدية
Langue véhiculaire	لغة ناقلة
Langue vivante	لغة حية
Langue vulgaire	لغة سوقية

Lettre initiale	حرف استهلالى
Lexique	مفردات
Lingua franca	لغة الفرنجة
Linguistique	علم اللغة ، لغويات
Linguistique appliquée	علم اللغة التطبيقى
Linguistique fonctionnelle	علم اللغة الوظيفى
Linguistique historique	علم اللغة التاريخى
Malais	اللغة الملايية
Media lingua	لغة وسيطة
Message	رسالة
Métalinguistique	علم ما وراء اللغة
Mixte	مختلط
Monographisme	التعددية الكتابية
Monolinguisme	أحادية لغوية
Monosyllabique	أحادى المقطع
Morphème	مورفيم
Morphologie	علم الصرف
Morphosyntaxique	مورفيم صرفى أو نحوى
Multiglossie	تعددية لغوية
Multilinguisme	تعددية لغوية
Nasal	أنفى
National	قومى
Néerlandophone	ناطق بالولندية
Négation	نفى
Néologie	توليد مفردات جديدة
Néologisme	كلمة جديدة ، مستحدثة

Neutralisation	تحييد
Niche linguistique	المحيط اللغوى
Nom commun	اسم عام
Nom propre	اسم علم
Normatif	معيارى
Objet	مفعول به
Occlusive	انفجارى
Orthographe	الإملاء ، الهجاء
Palatale	غارى
Paradigme	تصريف جذر ما
Panarabisme	قومية عربية
Paramètre	متغير
Patois	لهجة محلية
Péjoration	انحطاط الدلالة
Phonème	فونيم
Phonologie	علم الفونيمات
Pidgin	لغة البيدجين الهجين
Phonologie	علم الأصوات
Plurilinguisme	تعددية لغوية
Politique linguistique	سياسة لغوية
Polygraphisme	تعددية خطية
Polynomie	تعدد المسميات ، تعددية اسمية
Polysémique	متعدد المعانى
Postposition	أداة جر لاحقة
Préfixe	سابقة
Préposition	أداة جر سابقة

Présent	مضارع
Pronom	ضمير
Pronom personnel	ضمير شخصى
Pronom relatif	ضمير موصول
Prononciation	نطق
Psycholinguistique	علم اللغويات النفسية
Quadriglossie	رباعية لغوية
Réalisation	تحقيق
Récepteur	مستقبل
Racine	جذر
Réalisation	تحقيق
Reconstruction	إعادة بناء
Redondance	إسهاب ، إطناب
Réduction	اختصار
Régulier	قياسى
Relation paradigmatique	علاقة رأسية
Relation syntagmatique	علاقة أفقية
Relexification	إعادة توليد المفردات
Représentation linguistique	تمثيل لغوى
Sanscrit	اللغة السنسكريتية
Schizoglossie	انفصام لغوى
Sémantaxe	دلالة نحوية
Sémantique	دلالى
Sémiologie	علم الرموز " السيمياء "
Sémitique	سامى
Signifiant	دال

Signification	دلالة ، معنى
Sociolinguistique	علم اللغويات الاجتماعية
Sonore	صوت رنان
Structure	تركيب
Structuralisme	النظرية التركيبية
Stylistique	أسلوبى
Subordination	تبعية
Substantif	اسم
Substrat	لغة متنحية
Suffixe	لاحقة
Superstrat	لغة غالبة
Syllabe	مقطع من كلمة
Swahili	اللغة السواحيلية
Synchronie	تزامن لغوى
Syntagme	تركيب
Synonyme	مرادف
Syntaxe	علم النحو
Système grammatical	النظام النحوى
Taxinomie	علم اللغة التصنيفى
Tendance à l'économie	الميل إلى الاقتصاد
Terme générique	مصطلح شامل
Terminaison	خاتمة
Toponymie	دراسة أعلام الأماكن
Trade jargon	لغة تجارية
Trilingue	ثلاثى اللغة
Triglossie	ثلاثية لغوية

Trigraphisme	ثلاثية خطية
Typologie	تصنيف نوعى
Universaux du langage	القواعد اللغوية العالمية
Variable	متغيّر
Variante	بديل
Variété	نوع
Verbe	فعل
Verlan	عكس المقاطع الصوتية
Vieux français	لغة فرنسية قديمة
Voyelle	صائت
Vocabulaire	مصطلح إنجليزى
Xhosa	لغة الخؤوصا

المراجع

ACHARD Pierre, « Quelques propositions naïves sur le langage et la linguistique », in *Langage & société*, supplément au numéro 1, Paris, 1978.

ALVAREZ CACCAMO Celso, « Da biolingüistica a ecolingüistica : um câmbio de paradigma necessario », in *A Trabe de Ouro*, 18, 1994.

ANON., *The pirates own book*, Dover publication, New York, 1993 (éd. originale 1837).

ARVEILLER Raymond, *Contribution à l'étude des termes de voyage en français (1505-1722)*, Paris, d'Artrey.

ARVIEUX Laurent d', *Mémoires du chevalier d'Arvieux*, Paris, 1735.

AUZANNEAU Michelle, « Paroles de marché », in *La Linguistique*, vol. 31, fasc. 2/1995.

AMERY Rob, MÜHLHÄUSLER Peter, « Pidgin English in New South Wales », *Atlas of Languages of International Communication in the Pacific, Asia and the Americas,* Mouton, de Gruyter, Berlin, 1996.

BAGGIONI Daniel, « La notion d'insécurité linguistique chez Labov et la sociolinguistique co-variationniste et ses précurseurs littéraires », in Claudine Bavoux (ed), *Français régionaux et insécurité linguistique*, Paris, L'harmattan, 1996.

BARRIOS Graciela, « Planificacion lingüistica e integracion regional : el Uruguay y la zona de frontera, Aldema Menine Trindade, Luis Ernesto Behares (eds), *Fronteiras, Educação, integração*, Santa Maria, 1996.

— « Minorias lingüisticas e integracion regional : la region fronteriza uruguayo-brasileña », *Communication au Congresso International Politicas Linguisticas para America Latina*, Buenos Aires, 26-30 novembre 1997.

BARRY Abdoulaye, « Etude du plurilinguisme au Mali : le cas de Djenné », in *Boucle du Niger*, vol. 2, Tokyo, 1990.

BARTHES Roland, *Sade, Fourrier, Loyola*, Paris, Seuil, 1971.

BASTARDAS I BOADA Albert, *Ecologia de les llengües. Medi, contactes i dinamica sociolinguistica*, Barcelona, Proa, 1996.

BAUCHE Henri, *Le Langage populaire*, Paris, Payot, 1920.
BEHARES L. E., « Diglosia escolar en la frontera uruguaya con Brazil : Matriz social del bilingüismo », in *Cuadernos de Estudos Linguisticos*, Montevideo, 1984.
BENOIST Jean, « Saint Barthelemy : Physical Anthropology of an Isolate », in *American Journal of Physical Anthropology*, 1964, vol. XXII, N° 4.
— « Du social au biologique : étude de quelques interactions », in *L'homme*, t. VI, 1966.
BENRABAH Mohamed, « L'arabe algérien véhicule de la modernité », in *Cahiers de linguistique sociale*, N° 22, Rouen, 1993.
— « La langue perdue », in *Esprit*, Paris, janvier 1995.
BERTRAND Carmen, *Histoire de Buenos Aires*, Paris, Fayard, 1997.
BICKERTON Derek, *Root of Language*, Ann Arbor, 1981.
— *Experimental Creation of a Natural Language*, manuscrit inédit.
BOURDIEU Pierre, *Ce que parler veut dire*, Paris, Fayard, 1982.
— *Questions de sociologie*, Paris, Minuit, 1984.
BRANN Conrad, « Réflexions sur la langue franque (lingua franca) : origine et actualité », in *La Linguistique*, 1994, 30, 1.
BRASSEUR Patrice, « Créoles à base lexicale française et français marginaux d'Amérique du Nord : quelques points de comparaison », in Marie-Christine Hazaël-Massieux et Didier de Robillard (eds), *Contacts de langues, contacts de cultures, créolisation*, Paris, l'Harmattan, 1997.
BRETEGNIER Aude, « L'insécurité linguistique : objet insécurisé ? Essai de synthèse et perspectives », in Robillard et Beniamino eds., *Le Français dans l'espace francophone*, t. II, Paris, Champion, 1996.
— « Le français régional de la Réunion : variété linguistique de rencontre ou d'exclusion ? », communication au Congrès international d'études créoles, Pointe-à-Pitre, mai 1996.
BRUCHE-SHULZ Gisela, « "Fuzzy" Chinese : The status of cantonese in Hong Kong », in *Journal of Pragmatics*, vol. 2, 2, 1997.
BRUN Auguste, *Le Français de Marseille*, Bibliothèque de l'institut historique de Provence, 1931.
CAITUCOLI Claude et ZONGO Bernard, « Eléments pour une description de l'argot des jeunes au Burkina Faso », in *Le Français au Burkina-Faso*, Caitucoli (ed), CNRS, Rouen, 1993.
CALVET Louis-Jean, *Les Langues véhiculaires*, Paris, PUF, 1981.
— *Linguistique et colonialisme, petit traité de glottophagie*, Paris, Payot, 1974, réed 1988.

— *La Guerre des langues et les politiques linguistiques*, Paris, Payot, 1987.
— « Planification par défaut au Mali », in Fodor et Hagège, *La Réforme des langues*, Buske Verlag, Hambourg, 1983.

Bibliographie

— « Les langues des marchés au Mali », in Louis-Jean Calvet et al., *Les Langues des marchés en Afrique*, Paris, Didier, 1992.
— « Des mots sur les murs : une comparaison entre Paris et Dakar », in Louis-Jean Calvet et al., *Des Langues et des villes* Paris, Didier, 1993.
— *L'Europe et ses langues*, Paris, Plon, 1993.
— « Antoine Meillet, la politique linguistique et l'Europe : les mains sales », in *Plurilinguismes*, N° 5, Paris, CERPL, 1993.
— *Les Voix de la ville, introduction à la sociolinguistique urbaine*, Paris, Payot, 1994.
— *L'Argot*, PUF, « Que sais-je ? », Paris, 1994.
— « Les « Edwiniens » et leurs langues : sentiments et attitudes linguistiques dans une communauté créolophone blanche de Louisiane », *Revue québécoise de linguistique théorique et appliquée*, vol. 13, 1, 1996.
— *Les Politiques linguistiques*, PUF, « Que sais-je ? », Paris, 1996.
— « Une ou deux langues ? ou le rôle des représentations dans l'évaluation des situations linguistiques », *Etudes créoles*, vol. XIX, N° 2, 1996.
— *Histoire de l'écriture*, Plon, Paris, 1996.
— et CHAUDENSON Robert, *Saint Barthélemy, une énigme linguistique*, Paris, ACCT-CIRELFA, diffusion Didier érudition, 1998.
CANUT Cécile, « Dynamique linguistique en zone mandingue : attitudes et comportements » in *Stratégies communicatives au Mali : langues régionales, bambara, français*, Paris, Didier érudition, 1993.
— *Dynamique et imaginaire linguistiques dans les sociétés à tradition orale*, thèse de doctorat sous la direction d'Anne-Marie Houdebine, université de Paris III, 1995.
— « Acquisition, Production et Imaginaire linguistiques des familles plurilingues à Bamako (Mali) », in *Travaux de linguistique*, N° 7, Angers, mai 1996.
— et BONIFACE Keita, « Dynamique linguistique en zone mandingue : attitudes et comportements », in G. Dumestre, *Stratégies communicatives au Mali : langues régionales, bambara, français*, Paris-Aix-en-Provence, 1994.
CHAUDENSON Robert, *Le Lexique du parler créole de la réunion*, Paris, Honoré Champion, 1974, deux tomes.

— « Créolisation et appropriation : de la théorie aux exemples », in Daniel Véronique (éd.), *Créolisation et acquisition des langues*, Publication de l'université de Provence, Aix-en-Provence, 1994.
— *Les Créoles*, « Que sais-je ? », PUF, 1995.
CHAUDENSON Robert, MOUGEON Raymond, BENIAK Edouard, *Vers une approche panlectale de la variation du français*, Paris, Didier érudition, 1993.
CHEYNE W., « Stereotyped reactions to speakers with Scottish and

English regional accent », *British Journal of Social and Clinical Pychology*, N° 9, 1970.
CLEMENTS N., « African Linguistics and its Contributions to Linguistic Theory », in *Studies in the Linguistic Sciences*, Department of Linguistics, University of Illinois, Urbana, vol. 19, N° 2 fall 1989.
COLON Cristobal, *Textos y documentos completos*, edicion de Consuela Varela y Juan Gil, Madrid, Alianza Editorial, 1995.
DAN Pierre, *Histoire de la barbarie et de ses corsaires*, 1637.
DAPPER Olfert, *Umbständliche und eigentliche Beschreibung von Africa, und denen darzu gehörigen Königreichen und Landschaften*, Amsterdam, J. van Meurs, 1670.
DARWIN C., *L'Origine des espèces*, Paris, Maspero, 1980 .
DEFOE Daniel, *Le Grand Rêve flibustier*, Paris, Payot, 1992.
DELAFOSSE Maurice, *La Langue mandingue et ses dialectes*, Paris, 1929.
DEPREZ Christine, *Les Enfants bilingues : langues et familles*, Paris, Didier, 1994.
DINEEN A., MÜHLHÄUSLER P., « 19th century language contact in South Australia », in *Atlas of Languages of Intercultural Communication in the Pacific, Asia and the Americas*, Mouton, de Gruyter, Berlin, 1996.
DOMBROWSKY Klaudia, « La situation socio-linguistique du sud du Mali », in Dumestre, 1994 .
DRECHSEL Emmanuel, « Native American contact languages of the contiguous United States », in *Atlas of Languages of Intercultural Communication in the Pacific, Asia and the Americas*, Mouton, De Gruyter, Berlin, New York, 1996.
DUMESTRE Gérard (ed), *Stratégies communicatives au Mali : langues régionales, bambara, français*, Paris, Didier érudition, 1994.
DUMONT Myriam, *Les Enseignes de Dakar, un essai de sociolinguistique africaine*, Paris, l'Harmattan, 1998.
EADES Diana, « Aboriginal English », in *Languages of International Communication in the Pacific, Asia and the Americas*, Mouton,

De Gruyter, Berlin, 1996.
ELIZAINCIN Adolfo, « Contacto entre lenguas geneticamente emparentadas. El caso del espagnol y el portugués », in *Signo & seña*, Buenos Aires, N° 6, juin 1996.
FAIDHERBE Louis-Léon-César, « L'Alliance française pour la propagation de la langue française dans les colonies et les pays étrangers », in *Revue scientifique*, 3e série, 7, 1884.
FÉRAL Carole de, « Le français au Cameroun : approximatisation, vernacularisation et camfranglais » in Didier de Robillard et Michel Beniamino (éds), *Le Français dans l'espace francophone*, t. I, Paris, Champion, 1993.
FERGUSON Charles, « The Arabic Koinè », in *Language*, 35, N° 4, 1959.

FONTANELLA de, WEINBERG Beatriz, « Contacto Lingüistico : lenguas immigratorias », in *Signo & Seña*, N° 6, juin 1996.
FRANCARD Michel (ed.), « L'insécurité linguistique dans les communautés francophones périphériques », *Cahiers de l'institut de linguistique de Louvain-la-Neuve*, vol. 1, 1993.
— « L'insécurité linguistique dans les communautés francophones périphériques », *Cahiers de l'institut de linguistique de Louvain-la-Neuve*, vol. 2, 1994.
FREI Henri, *La Grammaire des fautes*, Paris-Genève, 1929 .
GADET Françoise, *Le Français populaire*, Paris, PUF, « Que sais-je ? », 1992.
GARDE Paul, *Vie et mort de la Yougoslavie*, Paris, Fayard, 1992.
— « Langue et nation : le cas serbe, croate, bosniaque », in *Cahiers de l'ILSL*, N° 8, 1996.
GEHNEN Marianne, « Die Arbeittssprachen in der Kommission der Europäischen Gemeinschaften unter besonderer Berücksichtigung des Französischen », in *Sociolinguistica*, N° 5, Tübigen, Niemeyer Verlag, 1991.
GIMBUTAS Marija, « Prehistory of Eastern Europe : Neolithic and Copper Age culture in Russia and the Baltic area », in *American School of Prehistoric Research Bulletin*, N° 20, Cambridge, MA, Harvard University, Peabody Museum, 1956.
— « The Indo-Europeanization of Europe : the intrusion of steppe pastoralists from south Russia and the transformation of old Europe », in *Word*, vol. 44, N° 2, août 1993.
GONZALEZ Faraco J. Carlos et MURPHY Michael Dean, « Street names and political regimes in an andalusian town, in *Ethnology*, vol. 36, N° 2, printemps 1997.

GOYVAERTS Didier, « Indoubil : a swahili hybrid in Bukavu (with comments on Indu Bill by K. Kabongo-Mianda) », in *Language in society*, vol. 17, N° 2, 1988.
— « Secret languages and cultural niches in Bukavu », in *Des langues et des villes*, Paris, Didier érudition, 1993.
— « Kibalele : Form and function of a secret language in Bukavu (Zaire), in *Journal of Pragmatics*, 25, 1996.
GRANDGUILLAUME Gilbert, « Le multilinguisme dans le cadre national au Maghreb », in Foued Laroussi, *Plurilinguisme et identités au Maghreb*, Rouen, 1997.
GRIN François, « Aménagement linguistique : du bon usage des concepts d'offre et de demande », in Normand Labrie (ed), *Etudes récentes en linguistique de contact*, Dümmler, Bonn, 1997.
GUEUNIER Nicole, *Le français du Liban : cent portraits linguistiques*, Didier érudition, Paris, 1993.
GUEUNIER N., GENOUVRIER E., KHOMSI A., *Les Français devant la Norme, Contribution à une étude de la norme du français parlé*, Paris, Champion, 1978.

HAEDO Fr. Diego de, *Topografia e historia general de Argel*, Valladolid, 1612, réed. 1927, 2 vol., Madrid, Sociedad de Bibliófilos Madrilenos.
HAERI Niloofar, « The Reproduction of Symbolic Capital. Language and Class in Egypt », in *Current Anthropology*, vol. 38, N° 5, décembre 1997.
HALL Robert Jr, *Pidgin and Creole Language*, New York, Cornell University Press, 1966.
HAUGEN Einar, « Schizoglossia and the Linguistic Norm », *Georgetown University Monographic Series on Language and Linguistics*, 15, 1962.
— *The Ecology of Language*, Stanford University Press, 1972.
HIGHFIELD A. R., *The French Dialect of St Thomas, US Virgin Islands*, Ann Arbor, Karoma, 1979.
HOUDEBINE Anne-Marie « Norme, Imaginaire linguistique et phonologie du français contemporain », *Le Français moderne*, 1, Paris, Cilf, 1982.
— « Pour une linguistique synchronique dynamique », in *La Linguistique*, vol. 21, Paris, PUF, 1985.
— « De l'imaginaire des locuteurs et de la dynamique linguistique », in Francard, 1993.
— « L'imaginaire linguistique et son analyse », in *Travaux de linguistique*, N° 7, Angers, mai 1996 .
HULD Martin, « Early Indo-European weapons terminology », *Word*, vol. 44, N° 2, août 1993.

Kahlouche Rabah, « Les enseignes à Tizi-Ouzou : un lieu de conflit linguistique », in N. Labrie ed., *Etudes récentes en linguistique de contact*, Dummler, Bonn, 1997.
Kayes Alan, « Formal vs. Informal in Arabic Diglossia, Triglossia, Tetraglossia, etc., Polyglossia-Multiglossia Viewed as a Continuum », in *Zeitchrift für arabische Linguistik*, 27, 1994.
Kalman Ivan, Zhong Yong, Xiao Hong, « Language attitudes in Guangzhou, China », in *Language in Society*, vol. 16, N° 4, 1987
Kihm Alain, « Qu'est-ce qu'une théorie rationnelle de la formation des langues créoles ? », in *Plurilinguismes*, N° 8, 1994
Klingler Thomas, *A descriptive study of the creole speech of Pointe Coupee Parish, Louisiana, with focus on the lexicon*, Ph D, Indiania University, Bloomington, 1992.
— « Norme, tourisme et étiolement linguistique chez les créolophones en Louisane », in *Cahiers de l'institut de linguistique de Louvain*, 20, 1-2, 1994.
Koulooghi Djamel-Eddine, « Sur quelques approches de la réalité sociolinguistique arabe », in *Egypte/monde arabe*, N° 27-28, Le Caire, CEDEJ, 1996.
Labat J-B, *Nouvelle Relation de l'Afrique occidentale*, Paris, 1728.
Labov William, « Hypercorrection by the Lower Middle Class as a

Factor in Linguistic Change », in W. Bright ed., *Sociolinguistics*, Mouton, 1966.
— *Sociolinguistique*, Paris, Editions de Minuit, 1976.
Lafontaine Dominique, « Attitudes linguistiques », in Marie-Louise Moreau ed., *Sociolinguistique, concepts de base*, Mardaga, 1997.
Lafkioui Mena, « Les berbères et leur langue : le cas des immigrés berbères en Belgique », in Cécile Canut (ed.), *Imaginaires linguistiques en Afrique*, Paris, l'Harmattan, 1998.
Lambert Wallace et al., « Evaluational reactions to spoken language », *Journal of Abnormal and Social Psychology*, N° 60, 1960.
— « Judging Personality through Speech : a French-Canadian example », *The Journal of Communication*, N° 16, 1966.
Lapouge Gilles, *Les Pirates*, Paris, Payot, 1991.
Larcher Pierre, « La linguistique arabe d'hier à demain : tendances nouvelles de la recherche », in *Arabica*, 1998, 4.
Laroussi Foued, « Langue, peuple et nation arabes, l'imaginaire linguistique du locuteur tunisien », in *Travaux de linguistique*, N° 7, Angers, mai 1996.
— « Plurilinguisme et identités au Magreb », in Foued Laroussi, *Plurilinguisme et identités au Maghreb*, Rouen, 1997.

Lavandera Beatriz R., *Variacion y significado,* Hachette, Buenos Aires, 1984.
Leconte Fabienne, *La Famille et les langues,* Paris, L'Harmattan, 1997.
Lefevre Claire, John Lumsden, « Le rôle central de la relexification dans la genèse des langues créoles », in *Plurilinguismes,* N° 8, 1994.
Lenzini José, *Barberousse, chemin de proies en Méditerannée,* Actes Sud, 1995.
Levinger Jasna, « Language war-war language », in *Language Sciences*, vol. 16, N° 2, 1994.
Lujan Martinez Eugenio Ramon, « Pragmatics and Indo-European Linguistics », in *Journal of Pragmatics*, vol. 28, N° 2, août 1997.
Makonda Antoine, *Quatre-Vingts et un congolismes*, Brazzavile, INRAP, 1987.
Manessy Gabriel, « Créolisation et français régionaux », in P. Wald, G. Manessy, *Plurilinguismes, normes, situations, stratégies*, Paris, L'Harmattan, 1979.
— « L'évolution du français d'Afrique et la formation des créoles français », in *Présence francophone,* Sherbrooke, 27, 1985.
— « De la subversion des langues importées : le français en Afrique noire », in R. Chaudenson, D. de Robillard, *Langues et développement*, Paris, Didier érudition, 1989.

— « Pratique du français en Afrique noire francophone », in *Langue française*, N° 104, décembre 1994.
— « Modalités d'appropriation d'une langue seconde (français d'Afrique et créoles français) », in Daniel Véronique (ed.), *Créolisation et acquisition des langues*, Aix-en-provence, Publications de l'université de Provence, 1994.
— « Expansion fonctionnelle et évolution », in A. Highfield et A. Valdman eds., *Historicity and change in Creole Studies,* Ann Arbor, Karoma, 1981, repris dans *Créoles, Pidgins, Variétés véhiculaires*, Paris, CNRS, 1995.
— « Créolisation sans pidgin : variantes approximatives et variétés créolisées », in *Etudes créoles*, IV, I, 1982, repris dans *Créoles, Pidgins, Variétés véhiculaires*, Paris, CNRS, 1995 .
— « Créolisation et créolité », in *Etudes créoles*, X, 2, 1987, repris dans *Créoles, Pidgins, Variétés véhiculaires,* Paris, CNRS, 1995.
Manessy-Guitton Jacqueline, « L'indo-Européen », in *Le Langage*, encyclopédie de la pléiade, Paris, Gallimard, 1968.
Martinet André, *Des steppes aux océans : l'indo-européen et les*

« *indo-européens* », Paris, Payot, 1986.

McConnell Grant, « Analyses et comparaisons des situations de contact en Inde », in Normand Labrie (ed), *Etudes récentes en linguistique de contact*, Dümmler, Bonn, 1997.

Mc Whorter John, « The scarcity of Spanish-based creoles explained », in *Language in Society*, vol. 24, N° 2, 1995.

Meillet Antoine, *Les Langues dans l'Europe nouvelle*, Paris, Payot 1928.

Meo Zilio Giovanni, « Influenze dello spagnolo sull'italiano parlato nel Rio de la Plata », in *Lingua Nostra*, XVI, 1, 1955.

— « Contaminazioni morfologiche nel cocoliche rioplatense », in *Lingua Nostra*, XVI, 3, 1955.

Miller Catherine, « Restructuration morpho-syntaxique en juba-arabic et ki-nubi : à propos du débat universaux/substrat et superstrat dans les études créoles », in *Matériaux arabes et sudarabiques*, 1993.

— « Contacts de langues : à propos des dialectes arabes », in *Paroles*, N° 7, Le Caire, 1995.

Mistral Frédéric, *Lou tresor dou felibrige, ou dictionnaire provençal-français*, 1877, réédité en 1968, Edicioun Ramoun Berenguié.

Moreau Marie-Louise, « Nous avons la langue trop épaisse » ou comment être, 1994.

— (éd), *Sociolinguistique, concepts de base*, Sprimont, Mardaga, 1997.

Moreau Marie-Louise, Ndiassé Thiam et Bauvois Cécile, « Le marquage identitaire dans le français d'Afrique. Etude exploratoire au Sénégal », in L.-J. Calvet, M.-L. Moreau eds, *Une ou des

normes ? Insécurité linguistique et normes endogènes en Afrique, CIRELFA, Agence de la Francophonie, Didier érudition, 1998.

Morsly Dalila, « Attitudes et représentations linguistiques », in *La linguistique*, vol. 6, 3, 1990.

Mougeon Raymond, Beniak Edouard, « Le français en situation de contact et la variation linguistique : le français parlé en Ontario (Canada) », in *Actes du XVII^e^ congrès international de linguistique et philologie romanes*, vol. 6, Publications de l'université de Provence, 1986.

Moussirou-Mouyama Auguste, « Norme officielle du français et normes endogènes au Gabon », in L.-J. Calvet, M.-L. Moreau eds, *Une ou des normes ? Insécurité linguistique et normes endogènes en Afrique*, CIRELFA, Agence de la Francophonie, Didier érudition, 1998.

MUFWENE Salikoko, « Genèse des populations et genèse des langues », in *Plurilinguismes*, N° 8, Paris, CERPL, 1994.

— « Creole Genesis, a Population Genetics Perspective » in *Caribbean Language Issues, Old & New*, the Press University of the West Indies, Barbados, Jamaica, Trinidad and Tobago, 1996.

— « Language Ecology and Creole Genesis », *SPCL*, San Diego, janvier 1996.

— « Métissage des peuples et métissage des langues », in *Contacts de langues, contacts de culture, créolisation*, M.-C. Hazaël-Massieux, D. de Robillard (eds), Paris, l'Harmattan, 1997.

— « Kituba », in *Contact Languages*, Sarah Thomason ed., Benjamins, Amsterdam-Philadelphie, 1997.

— « La fonction et les formes réfléchies dans le mauricien et le haïtien », à paraître in *Langages*, 1999.

— « The Legitimate and Illigitimate Offspring of English », *World Englishes 2000*, à paraître.

MÜHLHÄUSLER Peter, *Linguistic Ecology*, Routledge, London and New York, 1996 .

— « Pidgins and creoles of Queensland », *Atlas of Languages of International Communication in the Pacific, Asia and the Americas,* Mouton, De Gruyter, Berlin, 1996.

— MCGREGOR William, « Post Contact Languages of Western Australia », *Languages of International Communication in the Pacific, Asia and the Americas*, Mouton, De Gruyter, Berlin, 1996.

MUNTEANU Dan, *El papiamento, lengua criolla hispanica*, Madrid, Gredos, 1996.

MUYSKEN Pieter, « Halfway between Quechua and Spanish : The case for relexification », in *Historicity and variation in creole studies*, dir. A. Highfield & A. Valdman, Ann Arbor, Karoma, 1981.

NELDE Peter, « Identity among bilingual : an ecolinguistic approach », communication au *I Simposio Internacional sobre o Bilingüismo*, Vigo, 21-25 octobre 1977.

NEUMANN Ingrid, *Le Créole de Bréaux-Bridge, Louisiane*, Hamburg, Helmut Buske Verlag, 1985.

OWENS Jonathan, « Nubi Genetic Linguistics and Language Classification » in *Anthropological Linguistics*, vol. 33, N° 1, printemps 1991.

— « Arabic-based Pidgins and Creoles », in Sarah Thomason ed., *Contact languages, a wider perspective*, Amsterdam-Philadelphia, Benjamins publishing company, 1996.

PARVULESCU Adrian, « The Indo-European horse : A linguistic recontruction », *Word*, vol. 44, N° 1, avril 1993.

PINKER Stephen, *The Language Instinct*, Harper Perennial, New York, 1995.
PRIGNITZ Gisèle, « Le français parlé en Haute-Volta : orientations et recherches en cours », in *Annales de l'Université*, Ouagadougou, 1984.
— « Rôle de l'argot dans la variation et l'appropriation : le cas du français au Burkina Faso », in *Langue française*, N° 104, 1994.
QUEFFELEC Ambroise et NIANGOUNA Augustin, *Le Français au Congo*, université de Provence, 1990.
REY Alain, « Usages, jugements et prescription linguistiques », *Langue française*, 16, décembre 1972.
ROBILLARD Didier de, « L'insécurité linguistique à l'île Maurice, quand le chat n'est pas là les souris dansent », in Francard, 1994.
— « Le concept d'insécurité linguistique : à la recherche d'un mode d'emploi », in C. Bavoux (ed.), *Français régionaux et insécurité linguistique*, Paris, L'Harmattan, 1996.
— « Langues, îles, simplicité, déterminisme, chaos. Quelques réflexions fragmentaires sur l'utilisation de l'insularité », in *Plurilinguismes*, N° 15, juin 1998, « Des îles et des langues ».
SAMARIN William, « Colonization and Pidginization on the Ubangi River », in *Journal of African Languages and Linguistics*, vol. 4, 1982.
— « Official language : the case of Lingala », in Ulrich Ammon ed., *Status and Function of Languages and Languages Varieties*, Berlin, New York, Walter de Gruyter, 1989.
— « The origins of Kituba and Lingala », *Journal of African Languages and Linguistics*, vol. 12, 1990/91.
SANTORO Salvatore, « Lingua Franca in Goldoni's Impresario delle Smirne », in *Journal of Pidgin and Creole Languages*, vol. 11,1, 1996.
SOW Salamatou Alhassoumi, « Grands et petits peuls : représentation et hiérarchisation des différents parlers peuls par les locuteurs de l'ouest du Niger », in Cécile Canut (ed.), *Imaginaires linguistiques en Afrique*, Paris, L'Harmattan, 1998.
SCHUCHARDT Hugo, « On lingua franca », in *The Ethnography of

Variation, Selected Writings on Pidgins and Creoles, Karoma, Ann Arbor, 1979.
SEGOVIA L., *Diccionario de argentinismos*, Buenos Aires, Coni, 1911.
SIBLOT Paul, « Mise en texte de la pluriglossie dans la littérature coloniale », in *Cahiers de Praxématique*, N° 5, Montpellier, 1985.
SWAAN Abraam de, « The Evolving European Language System : a

Theory of Communication Potential and Language Competition », in *Revue internationale de science politique*, vol. 14, N° 3, juillet 1993.
— *Unequal Relations between Language Groups*, Amsterdamse School voor Sociaal-wetenschappelijk Ondserzoek, 1995.
— *La Francophonie en Afrique. Une vision de la sociologie et de l'économie politique de la langue*, in C. Juillard, L.-J. Calvet, *Les Politiques linguistiques, mythes et réalités*, FMA-AUPELF-UREF, Beyrouth, 1996.
— « Leçon inaugurale faite le vendredi 24 octobre 1997 », Collège de France, Paris, 1997.
NDIASSÉ Thiam, « Catégorisations de locuteurs et représentations sur le mélange wolof-français à Dakar », in Cécile Canut (ed.), *Imaginaires linguistiques en Afrique*, Paris, L'Harmattan, 1998.
TOSCO Mauro, « A Pidgin Verbal System : the Case of Juba Arabic », in *Anthropological Linguistics*, vol. 37, N° 4, hiver 1995, p. 423.
TRELAWNAY Edward John, *Mémoires d'un gentilhomme corsaire*, Paris, Payot, 1992.
VARELA Lia, *Interventions sur la langue et construction de l'Etat argentin (1830-1880)*, DEA de Linguistique, 1999, université de Provence.
VÉRONIQUE Daniel (ed.), *Créolisation et acquisition des langues*, Aix-en-provence, Publications de l'université de Provence, 1994.
VERGUIN Joseph, « La situation linguistique du monde contemporain », in *Le Langage*, dirigé par A. Martinet, Paris, Gallimard, 1968.
VERSTEEGH Kees, *Pidginization and Creolization : the Case of Arabic*, Amsterdam, Benjamins, 1984.
— « Leveling in the Sudan : from Arabic creole to arabic dialect », in *International Journal of the Sociology of Language*, N° 99, 1993.
VYDRINE Valentin, « Etude sociolinguistique en pays Khassonké », in Dumestre, 1994
WENEZOUI-DÉCHAMPS Martine, « Entre langue coloniale et langue nationale : le franc-sango des étudiants de Bangui », *Lengas*, N° 23, Montpellier, 1988.
WHINNOM Keith, « The Context and origins of Lingua Franca », in

Pour une écologie des langues du monde

Jürgen Meisel (ed.) *Langues en contact : Pidgins-Créoles*, TBL Verlag Gunter Nar, Tübingen, 1977.

WHITELEY W., *Swahili, the Rise of a National Language*, London, 1969.

WITTMANN Henri et FOURNIER Robert 1994, « Le créole haïtien, langue kwa relexifiée : vérification d'une hypothèse "P&P" ou élaboration d'astuces computationnelles », *Plurilinguismes*, N° 8, Paris, 1994.

WURM Stephen, MÜHLHÄUSLER Peter, TRYON Darrel eds., *Atlas of Languages of International Communication in the Pacific, Asia and the Americas*, Mouton, De Gruyter, Berlin, 1996.

XIA Ningsheng, « Maintenance of the Chinese Language in the United States », in *Bilingual review/revista Bilingue*, Arizona State University, Vol. XVII, 3, 1992.

المؤلف فى سطور :

لويس : چون كالڤيه

- أستاذ اللغويات فى جامعة إكس إن بروڤانس Aix-en-Provence فى تخصص اللغويات الاجتماعية.

- قام بالعديد من الرحلات ، وطاف العالم لدراسة مجموعات مختلفة من اللغات.

- يعد كتابه " حرب اللغات" من المراجع المهمة فى مجال دراسة التخطيط اللغوى

- له مساهمات عديدة حول الوضع اللغوى فى القارة الأفريقية ، وخاصة تلك البلاد التى ترك فيها الاستعمار الفرنسى أثرًا لغويًا .

- أشرف على رسائل حول هذه الحالات اللغوية .

- ترجمت كتبه للعديد من اللغات منها الإسبانية والبرتغالية والإيطالية فضلاً عن الإنجليزية.

المترجمة فى سطور :

باتسى جمال الدين

حاصلة على ليسانس اللغة الفرنسية من كلية الألسن بجامعة عين شمس .

حاصلة على دبلوم الترجمة الفورية والتحريرية المعادل للماجستير ، وتعد حاليًا رسالة دكتوراه فى الترجمة واللغويات .

تعمل مترجمة لغة فرنسية بدار الكتب والوثائق القومية .

لها عدد من الإصدارات فى الترجمة منها : ترجمة وثائق الحملة الفرنسية التى تم نشرها فى كتاب بعنوان " مختارات من وثائق الحملة الفرنسية " ، وترجمة كتاب

" الثورة الكوبية " ، فضلاً عن ترجمة العديد من المقالات الأدبية والاجتماعية والتاريخية واللغوية .

المراجعة فى سطور :

د . مديحة دوس

– أستاذ فى قسم اللغة الفرنسية بجامعة القاهرة.

– متخصصة فى اللغويات .

– لها أبحاث فى اللغتين العربية والفرنسية معتمدة على منهج اللغويات الاجتماعية والمنهج التاريخى.

– تشرف على رسائل فى اللغويات الاجتماعية وتاريخ انتشار اللغة الفرنسية فى مصر.

– مشرفة على فريق الترجمة فى دار الوثائق القومية.

المشروع القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة مشروع تنمية ثقافية بالدرجة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التى حققتها مشروعات الترجمة التى سبقته فى مصر والعالم العربى ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .

٢- التوازن بين المعارف الإنسانية فى المجالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية .

٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .

٤- ترجمة الأصول المعرفية التى أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعى فى الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنباً إلى جنب المنجزات الجديدة التى تضع القارئ فى القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .

٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .

٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

المشروع القومى للترجمة

١-	اللغة العليا	جون كوين	أحمد درويش
٢-	الوثنية والإسلام (ط١)	ك. مادهو بانيكار	أحمد فؤاد بلبع
٣-	التراث المسروق	جورج جيمس	شوقى جلال
٤-	كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنكوفا	أحمد الحضرى
٥-	ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	محمد علاء الدين منصور
٦-	اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	سعد مصلوح ووفاء كامل فايد
٧-	العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	يوسف الأنطكى
٨-	مشعلو الحرائق	ماكس فريش	مصطفى ماهر
٩-	التغيرات البيئية	أندرو. س. جودى	محمود محمد عاشور
١٠-	خطاب الحكاية	چيرار چينيت	محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
١١-	مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	هناء عبد الفتاح
١٢-	طريق الحرير	ديفيد براونيستون وايرين فرانك	أحمد محمود
١٣-	ديانة الساميين	روبرتسن سميث	عبد الوهاب علوب
١٤-	التحليل النفسى للأدب	جان بيلمان نويل	حسن المودن
١٥-	الحركات الفنية	إدوارد لويس سميث	أشرف رفيق عفيفى
١٦-	أثينة السوداء (جـ١)	مارتن برنال	بإشراف أحمد عتمان
١٧-	مختارات	فيليب لاركين	محمد مصطفى بدوى
١٨-	الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	طلعت شاهين
١٩-	الأعمال الشعرية الكاملة	چورج سفيريس	نعيم عطية
٢٠-	قصة العلم	ج. ج. كراوثر	يمنى طريف الخولى و بدوى عبد الفتاح
٢١-	خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجي	ماجدة العنانى
٢٢-	مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	سيد أحمد على الناصرى
٢٣-	تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	سعيد توفيق
٢٤-	ظلال المستقبل	باتريك بارندر	بكر عباس
٢٥-	مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦-	دين مصر العام	محمد حسين هيكل	أحمد محمد حسين هيكل
٢٧-	التنوع البشرى الخلاق	مقالات	نخبة
٢٨-	رسالة فى التسامح	جون لوك	منى أبو سنة
٢٩-	الموت والوجود	جيمس ب. كارس	بدر الديب
٣٠-	الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	أحمد فؤاد بلبع
٣١-	مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه – كلود كاين	عبد الستار الحلوجى وعبد الوهاب علوب
٣٢-	الانقراض	ديفيد روس	مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣-	التاريخ الاقتصادى لأفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	أحمد فؤاد بلبع
٣٤-	الرواية العربية	روجر آلن	حصة إبراهيم المنيف
٣٥-	الأسطورة والحداثة	پول . ب . ديكسون	خليل كلفت
٣٦-	نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	حياة جاسم محمد
٣٧-	واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	جمال عبد الرحيم

٣٨-	نقد الحداثة	آلن تورين	أنور مغيث
٣٩-	الإغريق والحسد	بيتر والكوت	منيرة كروان
٤٠-	قصائد حب	آن سكستون	محمد عيد إبراهيم
٤١-	ما بعد المركزية الأوروبية	بيتر جران	عاطف أحمد وإبراهيم فتحى ومحمود ماجد
٤٢-	عالم ماك	بنجامين باربر	أحمد محمود
٤٣-	اللهب المزدوج	أوكتافيو پاث	المهدى أخريف
٤٤-	بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلى	مارلين تادرس
٤٥-	التراث المغدور	روبرت ج دنيا - جون ف أ فاين	أحمد محمود
٤٦-	عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	محمود السيد على
٤٧-	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ١)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨-	حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ماهر جويجاتى
٤٩-	الإسلام فى البلقان	هـ . ت . نوريس	عبد الوهاب علوب
٥٠-	ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	محمد برادة وعثمانى الميلود ويوسف الأنطكى
٥١-	مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانويبا وخ. م بينياليستى	محمد أبو العطا
٥٢-	العلاج النفسى التدعيمى	ب نوفالبس وس . روجسيفيتز وروجر بيل	لطفى فطيم وعادل دمرداش
٥٣-	الدراما والتعليم	أ ف . ألنجتون	مرسى سعد الدين
٥٤-	المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	محسن مصيلحى
٥٥-	ما وراء العلم	چون بولكنجهوم	على يوسف على
٥٦-	الأعمال الشعرية الكاملة (جـ١)	فديريكو غرسية لوركا	محمود على مكى
٥٧-	الأعمال الشعرية الكاملة (جـ٢)	فديريكو غرسية لوركا	محمود السيد و ماهر البطوطى
٥٨-	مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	محمد أبو العطا
٥٩-	المحبرة (مسرحية)	كارلوس مونييث	السيد السيد سهيم
٦٠-	التصميم والشكل	جوهانز إيتين	صبرى محمد عبد الغنى
٦١-	موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور - سميث	مراجعة وإشراف . محمد الجوهرى
٦٢-	لذّة النّص	رولان بارت	محمد خير البقاعى .
٦٣-	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٢)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤-	برتراند راسل (سيرة حياة)	ألان وود	رمسيس عوض .
٦٥-	فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	رمسيس عوض
٦٦-	خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧-	مختارات	فرناندو بيسوا	المهدى أخريف
٦٨-	نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	أشرف الصباغ
٦٩-	العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
٧٠-	ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١-	السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	حسين محمود
٧٢-	السياسى العجوز	ت س . إليوت	فؤاد مجلى
٧٣-	نقد استجابة القارئ	چين ب . توميكنز	حسن ناظم وعلى حاكم
٧٤-	صلاح الدين والمماليك فى مصر	ل . ا . سيمينوڤا	حسن بيومى
٧٥-	فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	أحمد درويش
٧٦-	جاك لاكان وإغواء التحليل النفسى	مجموعة من الكتاب	عبد المقصود عبد الكريم

٧٧-	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٣)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨-	العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	أحمد محمود ونورا أمين
٧٩-	شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكى	سعيد الغانمى وناصر حلاوى
٨٠-	بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	مكارم الغمرى
٨١-	الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	محمد طارق الشرقاوى
٨٢-	مسرح ميجيل	ميجيل دى أونامونو	محمود السيد على
٨٣-	مختارات	غوتفريد بن	خالد المعالى
٨٤-	موسوعة الأدب والنقد	مجموعة من الكتاب	عبد الحميد شيحة
٨٥-	منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكى أقطاى	عبد الرازق بركات
٨٦-	طول الليل	جمال مير صادقى	أحمد فتحى يوسف شتا
٨٧-	نون والقلم	جلال آل أحمد	ماجدة العنانى
٨٨-	الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	إبراهيم الدسوقى شتا
٨٩-	الطريق الثالث	أنتونى جيدنز	أحمد زايد ومحمد محيى الدين
٩٠-	وسم السيف	ميجل دى ثربانتس	محمد إبراهيم مبروك
٩١-	المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربر الاسوستكا	محمد هناء عبد الفتاح
٩٢-	أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكى المعاصر	كارلوس ميجيل	نادية جمال الدين
٩٣-	محدثات العولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش	عبد الوهاب علوب
٩٤-	الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	فوزية العشماوى
٩٥-	مختارات من المسرح الإسبانى	أنطونيو بويرو باييخو	سرى محمد عبد اللطيف
٩٦-	ثلاث زنبقات ووردة	قصص مختارة	إدوار الخراط
٩٧-	هوية فرنسا (مج١)	فرنان برودل	بشير السباعى
٩٨-	الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى	نخبة	أشرف الصباغ
٩٩-	تاريخ السينما العالمية	ديفيد روبنسون	إبراهيم قنديل
١٠٠-	مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	إبراهيم فتحى
١٠١-	النص الروائى (تقنيات ومناهج)	بيرنار فاليط	رشيد بنحدو
١٠٢-	السياسة والتسامح	عبد الكريم الخطيبى	عز الدين الكتانى الإدريسى
١٠٣-	قبر ابن عربى يليه آياء	عبد الوهاب المؤدب	محمد بنيس
١٠٤-	أوبرا ماهوجنى	برتولت بريشت	عبد الغفار مكاوى
١٠٥-	مدخل إلى النص الجامع	جيرارجينيت	عبد العزيز شبيل
١٠٦-	الأدب الأندلسى	ماريا خيسوس روبييرامتى	أشرف على دعدور
١٠٧-	صورة الفدائى فى الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة	محمد عبد الله الجعيدى
١٠٨-	ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسى	مجموعة من النقاد	محمود على مكى
١٠٩-	حروب المياه	جون بولوك وعادل درويش	هاشم أحمد محمد
١١٠-	النساء فى العالم النامى	حسنة بيجوم	منى قطان
١١١-	المرأة والجريمة	فرانسيس هيندسون	ريهام حسين إبراهيم
١١٢-	الاحتجاج الهادئ	أرلين علوى ماكليود	إكرام يوسف
١١٣-	راية التمرد	سادى پلانت	أحمد حسان
١١٤-	مسرحيتا حصاد كونجى وسكان المستنقع	وول شوينكا	نسيم مجلى
١١٥-	غرفة تخص المرء وحده	فرجينيا وولف	سمية رمضان

١١٦- امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	نهاد أحمد سالم
١١٧- المرأة والجنوسة فى الإسلام	ليلى أحمد	منى إبراهيم وهالة كمال
١١٨- النهضة النسائية فى مصر	بث بارون	لميس النقاش
١١٩- النساء والأسرة وقوانين الطلاق	أميرة الأزهرى سنبل	بإشراف: رءوف عباس
١٢٠- الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	نخبة من المترجمين
١٢١- الدليل الصغير عن الكاتبات العربيات	فاطمة موسى	محمد الجندى وإيزابيل كمال
١٢٢- نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان	جوزيف فوجت	منيرة كروان
١٢٣- الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	نيثل ألكسندر وفنادولينا	أنور محمد إبراهيم
١٢٤- الفجر الكاذب	چون جراى	أحمد فؤاد بلبع
١٢٥- التحليل الموسيقى	سيدريك ثورپ ديڤى	سمحة الخولى
١٢٦- فعل القراءة	ڤولفانج إيسر	عبد الوهاب علوب
١٢٧- إرهاب	صفاء فتحى	بشير السباعى
١٢٨- الأدب المقارن	سوزان باسنيت	أميرة حسن نويرة
١٢٩- الرواية الإسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروته	محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠- الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندر فرانك	شوقى جلال
١٣١- مصر القديمة (التاريخ الاجتماعى)	مجموعة من المؤلفين	لويس بقطر
١٣٢- ثقافة العولمة	مايك فيذرستون	عبد الوهاب علوب
١٣٣- الخوف من المرايا	طارق على	طلعت الشايب
١٣٤- تشريح حضارة	بارى ج. كيمب	أحمد محمود
١٣٥- المختار من نقد ت. س. إليوت	ت. س. إليوت	ماهر شفيق فريد
١٣٦- فلاحو الباشا	كينيث كونو	سحر توفيق
١٣٧- مذكرات ضابط فى الحملة الفرنسية	چوزيف مارى مواريه	كاميليا صبحى
١٣٨- عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	إيڤلينا تارونى	وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩- پارسيفال	ريشارد فاچنر	مصطفى ماهر
١٤٠- حيث تلتقى الأنهار	هربرت ميسن	أمل الجبورى
١٤١- اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	نعيم عطية
١٤٢- الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	حسن بيومى
١٤٣- قضايا التنظير فى البحث الاجتماعى	ديريك لايدار	عدلى السمرى
١٤٤- صاحبة اللوكاندة	كارلو جولدونى	سلامة محمد سليمان
١٤٥- موت أرتيميو كروث	كارلوس فوينتس	أحمد حسان
١٤٦- الورقة الحمراء	ميجيل دى ليبس	على عبدالرءوف البمبى
١٤٧- خطبة الإدانة الطويلة	تانكريد دورست	عبدالغفار مكاوى
١٤٨- القصة القصيرة (النظرية والتقنية)	إنريكى أندرسون إمبرت	على إبراهيم منوفى
١٤٩- النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	أسامة إسبر
١٥٠- التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليتمان	منيرة كروان
١٥١- هوية فرنسا (مج ٢ ، جـ١)	فرنان برودل	بشير السباعى
١٥٢- عدالة الهنود وقصص أخرى	نخبة من الكتاب	محمد محمد الخطابى
١٥٣- غرام الفراعنة	فيولين فانويك	فاطمة عبدالله محمود
١٥٤- مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	خليل كلفت

١٥٥-	الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة من الشعراء	أحمد مرسى
١٥٦-	المدارس الجمالية الكبرى	جى أتيال وآلان وأوديت فيرمو	مى التلمسانى
١٥٧-	خسرو وشيرين	النظامى الكنوجى	عبدالعزيز بقوش
١٥٨-	هوية فرنسا (مج ٢ ، جـ٢)	فرنان برودل	بشير السباعى
١٥٩-	الإيديولوچية	ديفيد هوكس	إبراهيم فتحى
١٦٠-	آلة الطبيعة	بول إيرليش	حسين بيومى
١٦١-	من المسرح الإسبانى	اليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	زيدان عبدالحليم زيدان
١٦٢-	تاريخ الكنيسة	يوحنا الأسيوى	صلاح عبدالعزيز محجوب
١٦٣-	موسوعة علم الاجتماع	جوردن مارشال	بإشراف: محمد الجوهرى
١٦٤-	شامبوليون (حياة من نور)	چان لاكوتير	نبيل سعد
١٦٥-	حكايات الثعلب	أ. ن أفانا سيفا	سهير المصادفة
١٦٦-	العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل	يشعياهو ليقمان	محمد محمود أبو غدير
١٦٧-	فى عالم طاغور	رابندرانات طاغور	شكرى محمد عياد
١٦٨-	دراسات فى الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	شكرى محمد عياد
١٦٩-	إبداعات أدبية	مجموعة من المبدعين	شكرى محمد عياد
١٧٠-	الطريق	ميغيل دليبيس	بسام ياسين رشيد
١٧١-	وضع حد	فرانك بيجو	هدى حسين
١٧٢-	حجر الشمس	مختارات	محمد محمد الخطابى
١٧٣-	معنى الجمال	ولتر ت. ستيس	إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤-	صناعة الثقافة السوداء	ايليس كاشمور	أحمد محمود
١٧٥-	التليفزيون فى الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦-	نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	جلال البنا
١٧٧-	أنطون تشيخوف	هنرى ترويا	حصة إبراهيم المنيف
١٧٨-	مختارات من الشعر اليونانى الحديث	نخبة من الشعراء	محمد حمدى إبراهيم
١٧٩-	حكايات أيسوب	أيسوب	إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠-	قصة جاريد	إسماعيل فصيح	سليم عبد الأمير حمدان
١٨١-	النقد الأدبى الأمريكى	فنسنت ب. ليتش	محمد يحيى
١٨٢-	العنف والنبوءة	و.ب. ييتس	ياسين طه حافظ
١٨٣-	چان كوكتو على شاشة السينما	رينيه چيلسون	فتحى العشرى
١٨٤-	القاهرة... حالمة لا تنام	هانز إبندورفر	دسوقى سعيد
١٨٥-	أسفار العهد القديم	توماس تومسن	عبد الوهاب علوب
١٨٦-	معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل إنوود	إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧-	الأرضة	بُزرج علوى	محمد علاء الدين منصور
١٨٨-	موت الأدب	ألفين كرنان	بدر الديب
١٨٩-	العمى والبصيرة	پول دى مان	سعيد الغانمى
١٩٠-	محاورات كونفوشيوس	كونفوشيوس	محسن سيد فرجانى
١٩١-	الكلام رأسمال	الحاج أبو بكر إمام	مصطفى حجازى السيد
١٩٢-	سياحت نامه إبراهيم بك (جـ١)	زين العابدين المراغى	محمود سلامة علاوى
١٩٣-	عامل المنجم	بيتر أبراهامز	محمد عبد الواحد محمد

١٩٤- مختارات من النقد الأنجلو-أمريكي	مجموعة من النقاد	ماهر شفيق فريد
١٩٥- شتاء ٨٤	إسماعيل فصيح	محمد علاء الدين منصور
١٩٦- المهلة الأخيرة	فالتين راسبوتين	أشرف الصباغ
١٩٧- الفاروق	شمس العلماء شبلي النعماني	جلال السعيد الحفناوي
١٩٨- الاتصال الجماهيري	ادوين إمري وآخرون	إبراهيم سلامة إبراهيم
١٩٩- تاريخ يهود مصر في الفترة العثمانية	يعقوب لانداوي	جمال أحمد الرفاعي وأحمد عبد اللطيف حماد
٢٠٠- ضحايا التنمية	جيرمي سيبروك	فخري لبيب
٢٠١- الجانب الديني للفلسفة	جوزايا رويس	أحمد الأنصاري
٢٠٢- تاريخ النقد الأدبي الحديث (جـ٤)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣- الشعر والشاعرية	ألطاف حسين حالي	جلال السعيد الحفناوي
٢٠٤- تاريخ نقد العهد القديم	زالمان شازار	أحمد محمود هويدي
٢٠٥- الجينات والشعوب واللغات	لويجي لوقا كافاللي- سفورزا	أحمد مستجير
٢٠٦- الهيولية تصنع علماً جديداً	جيمس جلايك	علي يوسف علي
٢٠٧- ليل أفريقي	رامون خوتاسندير	محمد أبو العطا
٢٠٨- شخصية العربي في المسرح الإسرائيلي	دان أوريان	محمد أحمد صالح
٢٠٩- السرد والمسرح	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٢١٠- مثنويات حكيم سنائي	سنائي الغزنوي	يوسف عبد الفتاح فرج
٢١١- فردينان دوسوسير	جوناثان كلر	محمود حمدي عبد الغني
٢١٢- قصص الأمير مرزبان	مرزبان بن رستم بن شروين	يوسف عبدالفتاح فرج
٢١٣- مصر منذ قدوم نابليون حتى رحيل عبدالناصر	ريمون فلاور	سيد أحمد علي الناصري
٢١٤- قواعد جديدة للمنهج في علم الاجتماع	أنتوني جيدنز	محمد محمود محي الدين
٢١٥- سياحت نامه إبراهيم بك (جـ٢)	زين العابدين المراغي	محمود سلامة علاوي
٢١٦- جوانب أخرى من حياتهم	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٢١٧- مسرحيتان طليعيتان	ص. بيكيت	نادية البنهاوي
٢١٨- لعبة الحجلة (رايولا)	خوليو كورتازار	علي إبراهيم منوفي
٢١٩- بقايا اليوم	كازو ايشجورو	طلعت الشايب
٢٢٠- الهيولية في الكون	باري باركر	علي يوسف علي
٢٢١- شعرية كفافي	جريجوري جوزدانيس	رفعت سلام
٢٢٢- فرانز كافكا	رونالد جراي	نسيم مجلي
٢٢٣- العلم في مجتمع حر	بول فيرابنر	السيد محمد نفادي
٢٢٤- دمار يوغسلافيا	برانكا ماجاس	منى عبدالظاهر إبراهيم
٢٢٥- حكاية غريق	جابرييل جارثيا ماركث	السيد عبدالظاهر السيد
٢٢٦- أرض المساء وقصائد أخرى	ديفيد هربت لورانس	طاهر محمد علي البربري
٢٢٧- المسرح الإسباني في القرن السابع عشر	موسى ماردينا ديف بوركي	السيد عبدالظاهر عبدالله
٢٢٨- علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	جانيت وولف	ماري تيريز عبدالمسيح وخالد حسن
٢٢٩- مأزق البطل الوحيد	نورمان كيجان	أمير إبراهيم العمري
٢٣٠- عن الذباب والفئران والبشر	فرانسواز جاكوب	مصطفى إبراهيم فهمي
٢٣١- الدرافيل	خايمي سالوم بيدال	جمال عبدالرحمن
٢٣٢- ما بعد المعلومات	توم ستينر	مصطفى إبراهيم فهمي

٢٣٣- فكرة الاضمحلال	آرثر هومان	طلعت الشايب
٢٣٤- الإسلام فى السودان	ج. سبنسر تريمنجهام	فؤاد محمد عكود
٢٣٥- ديوان شمس تبريزى (جـ١)	مولانا جلال الدين الرومى	إبراهيم الدسوقى شتا
٢٣٦- الولاية	ميشيل تود	أحمد الطيب
٢٣٧- مصر أرض الوادى	روبين فيرين	عنايات حسين طلعت
٢٣٨- العولمة والتحرير	الانكتاد	ياسر محمد جادالله وعربى مدبولى أحمد
٢٣٩- العربى فى الأدب الإسرائيلى	جيلارافر - رايوخ	نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق
٢٤٠- الإسلام والغرب وإمكانية الحوار	كامى حافظ	صلاح عبدالعزيز محجوب
٢٤١- فى انتظار البرابرة	ج . م كويتز	ابتسام عبدالله سعيد
٢٤٢- سبعة أنماط من الغموض	وليام إمبسون	صبرى محمد حسن عبدالنبى
٢٤٣- تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج١)	ليفى بروفنسال	على عبدالروف اليمبى
٢٤٤- الغليان	لاورا إسكيبيل	نادية جمال الدين محمد
٢٤٥- نساء مقاتلات	إليزابيتا أديس	توفيق على منصور
٢٤٦- مختارات قصصية	جابرييل جارثيا ماركث	على إبراهيم منوفى
٢٤٧- الثقافة الجماهيرية والحداثة فى مصر	والتر إرمبريست	محمد طارق الشرقاوى
٢٤٨- حقول عدن الخضراء	أنطونيو جالا	عبداللطيف عبدالحليم
٢٤٩- لغة التمزق	دراجو شتامبوك	رفعت سلام
٢٥٠- علم اجتماع العلوم	دومنيك فينك	ماجدة محسن أباظة
٢٥١- موسوعة علم الاجتماع (جـ٢)	جوردن مارشال	بإشراف محمد الجوهرى
٢٥٢- رائدات الحركة النسوية المصرية	مارجو بدران	على بدران
٢٥٣- تاريخ مصر الفاطمية	ل. أ. سيمينوفا	حسن بيومى
٢٥٤- الفلسفة	ديف روبنسون وجودى جروفز	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٥- أفلاطون	ديف روبنسون وجودى جروفز	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٦- ديكارت	ديف روبنسون وكريس جرات	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٧- تاريخ الفلسفة الحديثة	وليم كلى رايت	محمود سيد أحمد
٢٥٨- الغجر	سير أنجوس فريزر	عُبادة كُحيلة
٢٥٩- مختارات من الشعر الأرمنى عبر العصور	اقلام مختلفة	فاروجان كازانجيان
٢٦٠- موسوعة علم الاجتماع (جـ٣)	جوردن مارشال	بإشراف: محمد الجوهرى
٢٦١- رحلة فى فكر زكى نجيب محمود	زكى نجيب محمود	إمام عبد الفتاح إمام
٢٦٢- مدينة المعجزات	إدوارد مندوثا	محمد أبو العطا
٢٦٣- الكشف عن حافة الزمن	چون جريبن	على يوسف على
٢٦٤- إبداعات شعرية مترجمة	هوراس وشلى	لويس عوض
٢٦٥- روايات مترجمة	أوسكار وايلد وصموئيل جونسون	لويس عوض
٢٦٦- مدير المدرسة	جلال آل أحمد	عادل عبدالمنعم سويلم
٢٦٧- فن الرواية	ميلان كونديرا	بدر الدين عرودكى
٢٦٨- ديوان شمس تبريزى (جـ٢)	مولانا جلال الدين الرومى	إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦٩- وسط الجزيرة العربية وشرقها (جـ١)	وليم چيفور بالجريف	صبرى محمد حسن
٢٧٠- وسط الجزير العربية وشرقها (جـ٢)	وليم چيفور بالجريف	صبرى محمد حسن
٢٧١- الحضارة الغربية	توماس سى. باترسون	شوقى جلال

٢٧٢-	الأديرة الأثرية في مصر	س. س والترز	إبراهيم سلامة
٢٧٣-	الاستعمار والثورة في الشرق الأوسط	جوان أر. لوك	عنان الشهاوى
٢٧٤-	السيدة باربارا	روميلو جلاجوس	محمود على مكى
٢٧٥-	ت. س إليوت شاعراً وناقداً وكاتباً مسرحياً	أقلام مختلفة	ماهر شفيق فريد
٢٧٦-	فنون السينما	فرانك جوتيران	عبد القادر التلمسانى
٢٧٧-	الجينات: الصراع من أجل الحياة	بريان فورد	أحمد فوزى
٢٧٨-	البدايات	إسحق عظيموف	ظريف عبدالله
٢٧٩-	الحرب الباردة الثقافية	ف.س. سوندرز	طلعت الشايب
٢٨٠-	من الأدب الهندى الحديث والمعاصر	بريم شند وآخرون	سمير عبدالحميد
٢٨١-	الفردوس الأعلى	مولانا عبد الحليم شرر الكهنوى	جلال الحفناوى
٢٨٢-	طبيعة العلم غير الطبيعية	لويس ولبيرت	سمير حنا صادق
٢٨٣-	السهل يحترق	خوان رولفو	على البمبى
٢٨٤-	هرقل مجنوناً	يوريبيدس	أحمد عتمان
٢٨٥-	رحلة الخواجة حسن نظامى	حسن نظامى	سمير عبد الحميد
٢٨٦-	سياحت نامه إبراهيم بك (جـ٢)	زين العابدين المراغى	محمود سلامة علاوى
٢٨٧-	الثقافة والعولمة والنظام العالمى	انتونى كنج	محمد يحيى وآخرون
٢٨٨-	الفن الروائى	ديفيد لودج	ماهر البطوطى
٢٨٩-	ديوان منجوهرى الدامغانى	أبو نجم أحمد بن قوص	محمد نور الدين عبدالمنعم
٢٩٠-	علم اللغة والترجمة	جورج مونان	أحمد زكريا إبراهيم
٢٩١-	المسرح الإسبانى فى القرن العشرين (جـ١)	فرانشسكو رويس رامون	السيد عبد الظاهر
٢٩٢-	المسرح الإسبانى فى القرن العشرين (جـ٢)	فرانشسكو رويس رامون	السيد عبد الظاهر
٢٩٣-	مقدمة للأدب العربى	روجر آلن	نخبة من المترجمين
٢٩٤-	فن الشعر	بوالو	رجاء ياقوت صالح
٢٩٥-	سلطان الأسطورة	جوزيف كامبل	بدر الدين حب الله الديب
٢٩٦-	مكبث	وليم شكسبير	محمد مصطفى بدوى
٢٩٧-	فن النحو بين اليونانية والسريانية	ديونيسيوس ثراكس ويوسف الأهوانى	ماجدة محمد أنور
٢٩٨-	مأساة العبيد	أبو بكر تفاوابليوه	مصطفى حجازى السيد
٢٩٩-	ثورة في التكنولوجيا الحيوية	جين ل. ماركس	هاشم أحمد فؤاد
٣٠٠-	أسطورة بروميثيوس فى الأدب الإنجليزى والفرنسى (مج١)	لويس عوض	جمال الجزيرى وبهاء چاهين وإيزابيل كمال
٣٠١-	أسطورة بروميثيوس فى الأدب الإنجليزى والفرنسى (مج٢)	لويس عوض	جمال الجزيرى و محمد الجندى
٣٠٢-	فتجنشتين	جون هيتون وجودى جروفز	إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٣-	بوذا	جين هوب وبورن فان لون	إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٤-	ماركس	ريوس	إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٥-	الجلد	كروزيو مالابارته	صلاح عبد الصبور
٣٠٦-	الحماسة: النقد الكانطى للتاريخ	چان فرانسوا ليوتار	نبيل سعد
٣٠٧-	الشعور	ديفيد بابينو	محمود محمد أحمد
٣٠٨-	علم الوراثة	ستيف جونز	ممدوح عبد المنعم أحمد
٣٠٩-	الذهن والمخ	أنجوس چيلاتى	جمال الجزيرى
٣١٠-	يونج	ناجى هيد	محيى الدين محمد حسن

٣١١-	مقال فى المنهج الفلسفى	كولنجوود	فاطمة إسماعيل
٣١٢-	روح الشعب الأسود	وليم دى بويز	أسعد حليم
٣١٣-	أمثال فلسطينية	خايير بيان	عبدالله الجعيدى
٣١٤-	الفن كعدم	جينس ميتيك	هويدا السباعى
٣١٥-	جرامشى فى العالم العربى	ميشيل بروندينو	كاميليا صبحى
٣١٦-	محاكمة سقراط	أ.ف. ستون	نسيم مجلى
٣١٧-	بلا غد	شير لايموفا- زنيكين	أشرف الصباغ
٣١٨-	الأدب الروسى فى السنوات العشر الأخيرة	نخبة	أشرف الصباغ
٣١٩-	صور دريدا	جايتر ياسبيفاك وكرستوفر نوريس	حسام نايل
٣٢٠-	لمعة السراج فى حضرة التاج	مؤلف مجهول	محمد علاء الدين منصور
٣٢١-	تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج٢، جـ١)	ليفى برو فنسال	نخبة من المترجمين
٣٢٢-	وجهات غربية حديثة فى تاريخ الفن	دبليو يوجين كلينباور	خالد مفلح حمزة
٣٢٣-	فن الساتورا	تراث يونانى قديم	هانم سليمان
٣٢٤-	اللعب بالنار	أشرف أسدى	محمود سلامة علاوى
٣٢٥-	عالم الآثار	فيليب بوسان	كرستين يوسف
٣٢٦-	المعرفة والمصلحة	جورجين هابرماس	حسن صقر
٣٢٧-	مختارات شعرية مترجمة (جـ١)	نخبة	توفيق على منصور
٣٢٨-	يوسف وزليخا	نور الدين عبد الرحمن بن أحمد	عبد العزيز بقوش
٣٢٩-	رسائل عيد الميلاد	تد هيوز	محمد عيد إبراهيم
٣٣٠-	كل شىء عن التمثيل الصامت	مارفن شبرد	سامى صلاح
٣٣١-	عندما جاء السردين	ستيفن جراى	سامية دياب
٣٣٢-	القصة القصيرة فى إسبانيا	نخبة	على إبراهيم منوفى
٣٣٣-	الإسلام فى بريطانيا	نبيل مطر	بكر عباس
٣٣٤-	لقطات من المستقبل	آرثر س كلارك	مصطفى فهمى
٣٣٥-	عصر الشك	ناتالى ساروت	فتحى العشرى
٣٣٦-	متون الأهرام	نصوص قديمة	حسن صابر
٣٣٧-	فلسفة الولاء	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٣٣٨-	نظرات حائرة (وقصص أخرى من الهند)	نخبة	جلال السعيد الحفناوى
٣٣٩-	تاريخ الأدب فى إيران (جـ٣)	على أصغر حكمت	محمد علاء الدين منصور
٣٤٠-	اضطراب فى الشرق الأوسط	بيرش بيربيروجلو	فخرى لبيب
٣٤١-	قصائد من رلكه	راينر ماريا رلكه	حسن حلمى
٣٤٢-	سلامان وأبسال	نور الدين عبدالرحمن بن أحمد	عبد العزيز بقوش
٣٤٣-	العالم البرجوازى الزائل	نادين جورديمر	سمير عبد ربه
٣٤٤-	الموت فى الشمس	بيتر بلانجوه	سمير عبد ربه
٣٤٥-	الركض خلف الزمن	بونه ندائى	يوسف عبد الفتاح فرج
٣٤٦-	سحر مصر	رشاد رشدى	جمال الجزيرى
٣٤٧-	الصبية الطائشون	جان كوكتو	بكر الحلو
٣٤٨-	المتصوفة الأولون فى الأدب التركى (جـ١)	محمد فؤاد كوبريلى	عبدالله أحمد إبراهيم
٣٤٩-	دليل القارئ إلى الثقافة الجادة	آرثر والدرون وآخرون	أحمد عمر شاهين

٣٥٠-	بانوراما الحياة السياحية	أقلام مختلفة	عطية شحاتة
٣٥١-	مبادئ المنطق	جوزايا رويس	أحمد الانصارى
٣٥٢-	قصائد من كفافيس	قسطنطين كفافيس	نعيم عطية
٣٥٣-	الفن الإسلامى فى الأندلس (الزخرفة الهندسية)	باسيليو بابون مالدوناد	على إبراهيم منوفى
٣٥٤-	الفن الإسلامى فى الأندلس (الزخرفة النباتية)	باسيليو بابون مالدوناد	على إبراهيم منوفى
٣٥٥-	التيارات السياسية فى إيران	حجت مرتضى	محمود سلامة علاوى
٣٥٦-	الميراث المر	بول سالم	بدر الرفاعى
٣٥٧-	متون هيرميس	نصوص قديمة	عمر الفاروق عمر
٣٥٨-	أمثال الهوسا العامية	نخبة	مصطفى حجازى السيد
٣٥٩-	محاورات بارمنيدس	أفلاطون	حبيب الشارونى
٣٦٠-	أنثروبولوجيا اللغة	أندريه جاكوب ونويلا باركان	ليلى الشربينى
٣٦١-	التصحر: التهديد والمجابهة	آلان جرينجر	عاطف معتمد وآمال شاور
٣٦٢-	تلميذ بابنيبرج	هاينرش شبورال	سيد أحمد فتح الله
٣٦٣-	حركات التحرير الأفريقية	ريتشارد جيبسون	صبرى محمد حسن
٣٦٤-	حداثة شكسبير	إسماعيل سراج الدين	نجلاء أبو عجاج
٣٦٥-	سأم باريس	شارل بودلير	محمد أحمد حمد
٣٦٦-	نساء يركضن مع الذئاب	كلاريسا بنكولا	مصطفى محمود محمد
٣٦٧-	القلم الجرىء	نخبة	البرّاق عبدالهادى رضا
٣٦٨-	المصطلح السردى	جيرالد برنس	عابد خزندار
٣٦٩-	المرأة فى أدب نجيب محفوظ	فوزية العشماوى	فوزية العشماوى
٣٧٠-	الفن والحياة فى مصر الفرعونية	كليرلا لويت	فاطمة عبدالله محمود
٣٧١-	المتصوفة الأولون فى الأدب التركى (جـ٢)	محمد فؤاد كوبريلى	عبدالله أحمد إبراهيم
٣٧٢-	عاش الشباب	وانغ مينغ	وحيد السعيد عبدالحميد
٣٧٣-	كيف تعد رسالة دكتوراه	أمبرتو إيكو	على إبراهيم منوفى
٣٧٤-	اليوم السادس	أندريه شديد	حمادة إبراهيم
٣٧٥-	الخلود	ميلان كونديرا	خالد أبو اليزيد
٣٧٦-	الغضب وأحلام السنين	نخبة	إدوار الخراط
٣٧٧-	تاريخ الأدب فى إيران (جـ٤)	على أصغر حكمت	محمد علاء الدين منصور
٣٧٨-	المسافر	محمد إقبال	يوسف عبدالفتاح فرج
٣٧٩-	ملك فى الحديقة	سنيل باث	جمال عبدالرحمن
٣٨٠-	حديث عن الخسارة	جونتر جراس	شيرين عبدالسلام
٣٨١-	أساسيات اللغة	ر. ل. تراسك	رانيا إبراهيم يوسف
٣٨٢-	تاريخ طبرستان	بهاء الدين محمد إسفنديار	أحمد محمد نادى
٣٨٣-	هدية الحجاز	محمد إقبال	سمير عبدالحميد إبراهيم
٣٨٤-	القصص التى يحكيها الأطفال	سوزان إنجيل	إيزابيل كمال
٣٨٥-	مشترى العشق	محمد على بهزادراد	يوسف عبدالفتاح فرج
٣٨٦-	دفاعًا عن التاريخ الأدبى النسوى	جانيت تود	ريهام حسين إبراهيم
٣٨٧-	أغنيات وسوناتات	چون دن	بهاء چاهين
٣٨٨-	مواعظ سعدى الشيرازى	سعدى الشيرازى	محمد علاء الدين منصور

٣٨٩-	من الأدب الباكستاني المعاصر	نخبة	سمير عبدالحميد إبراهيم
٣٩٠-	الأرشيفات والمدن الكبرى	نخبة	عثمان مصطفى عثمان
٣٩١-	الحافلة الليلكية	مايف بينشي	منى الدروبى
٣٩٢-	مقامات ورسائل أندلسية	نخبة	عبداللطيف عبدالحليم
٣٩٣-	فى قلب الشرق	ندوة لويس ماسينيون	زينب محمود الخضيرى
٣٩٤-	القوى الأربع الأساسية في الكون	بول ديفيز	هاشم أحمد محمد
٣٩٥-	آلام سياوش	إسماعيل فصيح	سليم حمدان
٣٩٦-	السافاك	تقى نجارى راد	محمود سلامة علاوى
٣٩٧-	نيتشه	لورانس جين	إمام عبدالفتاح إمام
٣٩٨-	سارتر	فيليب تودى	إمام عبدالفتاح إمام
٣٩٩-	كامى	ديفيد ميروفتس	إمام عبدالفتاح إمام
٤٠٠-	مومو	مشيائيل إنده	باهر الجوهرى
٤٠١-	الرياضيات	زيادون ساردر	ممدوح عبد المنعم
٤٠٢-	هوكنج	ج. ب. ماك ايفوى	ممدوح عبدالمنعم
٤٠٣-	ربة المطر والملابس تصنع الناس	تودور شتورم	عماد حسن بكر
٤٠٤-	تعويذة الحسى	ديفيد إبرام	ظبية خميس
٤٠٥-	إيزابيل	أندريه جيد	حمادة إبراهيم
٤٠٦-	المستعربون الإسبان فى القرن ١٩	مانويلا مانتاناريس	جمال عبد الرحمن
٤٠٧-	الأدب الإسباني المعاصر بأقلام كتابه	أقلام مختلفة	طلعت شاهين
٤٠٨-	معجم تاريخ مصر	جوان فوتشركنج	عنان الشهاوى
٤٠٩-	انتصار السعادة	برتراند راسل	إلهامى عمارة
٤١٠-	خلاصة القرن	كارل بوبر	الزواوى بغورة
٤١١-	همس من الماضى	جينيفر أكرمان	أحمد مستجير
٤١٢-	تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج٢، جـ٢)	ليفى بروفنسال	نخبة
٤١٣-	أغنيات المنفى	ناظم حكمت	محمد البخارى
٤١٤-	الجمهورية العالمية للآداب	باسكال كازانوفا	أمل الصبان
٤١٥-	صورة كوكب	فريدريش دورنيمات	أحمد كامل عبدالرحيم
٤١٦-	مبادئ النقد الأدبى والعلم والشعر	أ. أ. رتشاردز	مصطفى بدوى
٤١٧-	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٥)	رينيه ويليك	مجاهد عبدالمنعم مجاهد
٤١٨-	سياسات الزمر الحاكمة فى مصر العثمانية	جين هاثواى	عبد الرحمن الشيخ
٤١٩-	العصر الذهبى للإسكندرية	جون مايو	نسيم مجلى
٤٢٠-	مكرو ميجاس	فولتير	الطيب بن رجب
٤٢١-	الولاء والقيادة	روى متحدة	أشرف محمد كيلانى
٤٢٢-	رحلة لاستكشاف أفريقيا (جـ١)	نخبة	عبدالله عبدالرازق إبراهيم
٤٢٣-	إسراءات الرجل الطيف	نخبة	وحيد النقاش
٤٢٤-	لوائح الحق ولوامع العشق	نور الدين عبدالرحمن الجامى	محمد علاء الدين منصور
٤٢٥-	من طاووس إلى فرح	محمود طلوعى	محمود سلامة علاوى
٤٢٦-	الخفافيش وقصص أخرى	نخبة	محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٢٧-	باندراس الطاغية	باى إنكلان	ثريا شلبى

٤٢٨- الخزانة الخفية	محمد هوتك	محمد أمان صافى
٤٢٩- هيجل	ليود سبنسر وأندرزجى كروز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٠- كانط	كرستوفر وانت وأندزجى كليموفسكى	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣١- فوكو	كريس هوروكس وزوران جفتيك	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٢- ماكياڤللى	باتريك كيرى وأوسكار زاريت	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٣- جويس	ديفيد نوريس وكارل فلنت	حمدى الجابرى
٤٣٤- الرومانسية	دونكان هيث وجودى بورهام	عصام حجازى
٤٣٥- توجهات ما بعد الحداثة	نيكولاس زربرج	ناجى رشوان
٤٣٦- تاريخ الفلسفة (مج١)	فردريك كوبلستون	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٧- رحالة هندى فى بلاد الشرق	شبلى النعمانى	جلال السعيد الحفناوى
٤٣٨- بطلات وضحايا	إيمان ضياء الدين بيبرس	عايدة سيف الدولة
٤٣٩- موت المرابى	صدر الدين عينى	محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٤٠- قواعد اللهجات العربية	كرستن بروستاد	محمد طارق الشرقاوى
٤٤١- رب الأشياء الصغيرة	أرونداتى روى	فخرى لبيب
٤٤٢- حتشبسوت (المرأة الفرعونية)	فوزية أسعد	ماهر جويجاتى
٤٤٣- اللغة العربية	كيس فرستيغ	محمد طارق الشرقاوى
٤٤٤- أمريكا اللاتينية. الثقافات القديمة	لاوريت سيجورنه	صالح علمانى
٤٤٥- حول وزن الشعر	پرويز ناتل خانلرى	محمد محمد يونس
٤٤٦- التحالف الأسود	ألكسندر كوكبرن وجيفرى سانت كلير	أحمد محمود
٤٤٧- نظرية الكم	ج. پ. ماك إيڤوى	ممدوح عبدالمنعم
٤٤٨- علم نفس التطور	ديلان إيڤانز وأوسكار زاريت	ممدوح عبدالمنعم
٤٤٩- الحركة النسائية	نخبة	جمال الجزيرى
٤٥٠- ما بعد الحركة النسائية	صوفيا فوكا وريبيكا رايت	جمال الجزيرى
٤٥١- الفلسفة الشرقية	ريتشارد أوزبورن وبورن ڤان لون	إمام عبد الفتاح إمام
٤٥٢- لينين والثورة الروسية	ريتشارد إبجناتزى وأوسكار زاريت	محيى الدين مزيد
٤٥٣- القاهرة: إقامة مدينة حديثة	جان لوك أرنو	حليم طوسون وفؤاد الدهان
٤٥٤- خمسون عامًا من السينما الفرنسية	رينيه بريدال	سوزان خليل
٤٥٥- تاريخ الفلسفة الحديثة (مج٥)	فردريك كوبلستون	محمود سيد أحمد
٤٥٦- لا تنسنى	مريم جعفرى	هويدا عزت محمد
٤٥٧- النساء فى الفكر السياسى الغربى	سوزان مولر أوكين	إمام عبدالفتاح إمام
٤٥٨- الموريسكيون الأندلسيون	مرثيدس غارثيا أرينال	جمال عبد الرحمن
٤٥٩- نحو مفهوم لاقتصاديات الموارد الطبيعية	توم تيتنبرج	جلال البنا
٤٦٠- الفاشية والنازية	ستوارت هود وليتزا جانستز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٦١- لكان	داريان ليدر وجودى جروفز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٦٢- طه حسين من الأزهر إلى السوربون	عبدالرشيد الصادق محمودى	عبدالرشيد الصادق محمودى
٤٦٣- الدولة المارقة	ويليام بلوم	كمال السيد
٤٦٤- ديمقراطية للقلة	مايكل بارنتى	حصة إبراهيم المنيف
٤٦٥- قصص اليهود	لويس جنزبرج	جمال الرفاعى
٤٦٦- حكايات حب وبطولات فرعونية	فيولين فانويك	فاطمة محمود

٤٦٧-	التفكير السياسى	ستيفين ديلو	ربيع وهبة
٤٦٨-	روح الفلسفة الحديثة	جورايا رويس	أحمد الأنصارى
٤٦٩-	جلال الملوك	نصوص حبشية قديمة	مجدى عبدالرازق
٤٧٠	الأراضى والجودة البيئية	نخبة	محمد السيد الننة
٤٧١-	رحلة لاستكشاف أفريقيا (جـ٢)	نخبة	عبد الله عبد الرازق إبراهيم
٤٧٢-	دون كيخوتى (القسم الأول)	ميجيل دى ثربانتس سابيدرا	سليمان العطار
٤٧٣-	دون كيخوتى (القسم الثانى)	ميجيل دى ثربانتس سابيدرا	سليمان العطار
٤٧٤-	الأدب والنسوية	بام موريس	سهام عبدالسلام
٤٧٥-	صوت مصر أم كلثوم	فرجينيا دانيلسون	عادل هلال عنانى
٤٧٦-	أرض الحبايب بعيدة. بيرم التونسى	ماريلين بوث	سحر توفيق
٤٧٧-	تاريخ الصين	هيلدا هوخام	أشرف كيلانى
٤٧٨-	الصين والولايات المتحدة	ليوشيه شنج و لى شى دونج	عبد العزيز حمدى
٤٧٩-	المقهـــى (مسرحية صينية)	لاوشه	عبد العزيز حمدى
٤٨٠-	تساى ون جى (مسرحية صينية)	كو مو روا	عبد العزيز حمدى
٤٨١-	عباءة النبى	روى متحدة	رضوان السيد
٤٨٢-	موسوعة الأساطير والرموز الفرعونية	روبير جاك تيبو	فاطمة محمود
٤٨٣-	النسوية وما بعد النسوية	سارة جامبل	أحمد الشامى
٤٨٤-	جمالية التلقى	هانسن روبيرت ياوس	رشيد بنحدو
٤٨٥-	التوبة (رواية)	نذير أحمد الدهلوى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٦-	الذاكرة الحضارية	يان أسمن	عبدالحليم عبدالغنى رجب
٤٨٧-	الرحلة الهندية إلى الجزيرة العربية	رفيع الدين المراد آبادى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٨-	الحب الذى كان وقصائد أخرى	نخبة	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٩-	هُسرل الفلسفة علماً دقيقاً	هُسرل	محمود رجب
٤٩٠-	أسمار الببغاء	محمد قادرى	عبد الوهاب علوب
٤٩١-	نصوص قصصية من روائع الأدب الأفريقى	نخبة	سمير عبد ربه
٤٩٢-	محمد على مؤسس مصر الحديثة	جى فارجيت	محمد رفعت عواد
٤٩٣-	خطابات إلى طالب الصوتيات	هارولد بالمر	محمد صالح الضالع
٤٩٤-	كتاب الموتى (الخروج فى النهار)	نصوص مصرية قديمة	شريف الصيفى
٤٩٥-	اللوبى	إدوارد تيفان	حسن عبد ربه المصرى
٤٩٦-	الحكم والسياسة فى أفريقيا (جـ١)	إكوادو بانولى	نخبة
٤٩٧-	العلمانية والنوع والدولة فى الشرق الأوسط	نادية العلىّ	مصطفى رياض
٤٩٨-	النساء والنوع فى الشرق الأوسط الحديث	جوديث تاكر ومارجريت مريودز	أحمد على بدوى
٤٩٩-	تقاطعات: الأمة والمجتمع والجنس	نخبة	فيصل بن خضراء
٥٠٠-	فى طفولتى (دراسة فى السيرة الذاتية العربية)	تيتز رووكى	طلعت الشايب
٥٠١-	تاريخ النساء فى الغرب (جـ١)	أرثر جولد هامر	سحر فراج
٥٠٢-	أصوات بديلة	هدى الصدّة	هالة كمال
٥٠٣-	مختارات من الشعر الفارسى الحديث	نخبة	محمد نور الدين عبدالمنعم
٥٠٤-	كتابات أساسية (جـ١)	مارتن هايدجر	إسماعيل المصدق
٥٠٥-	كتابات أساسية (جـ٢)	مارتن هايدجر	إسماعيل المصدق

٥٠٦-	ربما كان قديساً	آن تيلر	عبدالحميد فهمى الجمال
٥٠٧-	سيدة الماضى الجميل	بيتر شيفر	شوقى فهيم
٥٠٨-	المولوية بعد جلال الدين الرومى	عبدالباقى جلبنارلى	عبدالله أحمد إبراهيم
٥٠٩-	الفقر والإحسان فى عهد سلاطين المماليك	آدم صبرة	قاسم عبده قاسم
٥١٠-	الأرملة الماكرة	كارلو جولدونى	عبدالرازق عيد
٥١١-	كوكب مرقَّع	آن تيلر	عبدالحميد فهمى الجمال
٥١٢-	كتابة النقد السينمائى	تيموثى كوريجان	جمال عبد الناصر
٥١٣-	العلم الجسور	تيد أنتون	مصطفى إبراهيم فهمى
٥١٤-	مدخل إلى النظرية الأدبية	چونثان كولر	مصطفى بيومى عبد السلام
٥١٥-	من التقليد إلى ما بعد الحداثة	فدوى مالطى دوجلاس	فدوى مالطى دوجلاس
٥١٦-	إرادة الإنسان فى شفاء الإدمان	آرنولد واشنطون وودونا باوندى	صبرى محمد حسن
٥١٧-	نقش على الماء وقصص أخرى	نخبة	سمير عبد الحميد إبراهيم
٥١٨-	استكشاف الأرض والكون	إسحق عظيموف	هاشم أحمد محمد
٥١٩-	محاضرات فى المثالية الحديثة	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٥٢٠-	الولع بمصر من الحلم إلى المشروع	أحمد يوسف	أمل الصبان
٥٢١-	قاموس تراجم مصر الحديثة	آرثر جولد سميث	عبدالوهاب بكر
٥٢٢-	إسبانيا فى تاريخها	أميركو كاسترو	على إبراهيم منوفى
٥٢٣-	الفن الطليطلى الإسلامى والمدجن	باسيليو بابون مالدونادو	على إبراهيم منوفى
٥٢٤-	الملك لير	وليم شكسبير	محمد مصطفى بدوى
٥٢٥-	موسم صيد فى بيروت وقصص أخرى	دنيس جونسون ديفز	نادية رفعت
٥٢٦-	علم السياسة البيئية	ستيفن كرول ووليم رانكين	محيى الدين مزيد
٥٢٧-	كافكا	ديفيد زين ميروفتس وروبرت كرمب	جمال الجزيرى
٥٢٨-	تروتسكى والماركسية	طارق على وفِلْ إيفانز	جمال الجزيرى
٥٢٩-	بدائع العلامة إقبال فى شعره الأردى	محمد إقبال	حازم محفوظ وحسين نجيب المصرى
٥٣٠-	مدخل عام إلى فهم النظريات التراثية	رينيه جينو	عمر الفاروق عمر
٥٣١-	ما الذى حَدَثَ فى «حَدَث» ١١ سبتمبر؟	چاك دريدا	صفاء فتحى
٥٣٢-	المغامرُ والمستشرق	هنرى لورنس	بشير السباعى
٥٣٣-	تعلُّم اللغة الثانية	سوزان جاس	محمد الشرقاوى
٥٣٤-	الإسلاميون الجزائريون	سيڤرين لابا	حمادة إبراهيم
٥٣٥-	مخزن الأسرار	نظامى الكنجوى	عبدالعزيز بقوش
٥٣٦-	الثقافات وقيم التقدم	صموئيل هنتنجتون	شوقى جلال
٥٣٧-	الحب والحرية	نخبة	عبدالغفار مكاوى
٥٣٨-	النفس والآخر فى قصص يوسف الشارونى	كيت دانيلر	محمد الحديدى
٥٣٩-	خمس مسرحيات قصيرة	كاريل تشرشل	محسن مصيلحى
٥٤٠-	توجهات بريطانية - شرقية	السير رونالد ستورس	رءوف عباس
٥٤١-	هى تتخيل وهلاوس أخرى	خوان خوسيه مياس	مروة رزق
٥٤٢-	قصص مختارة من الأدب اليونانى الحديث	نخبة	نعيم عطية
٥٤٣-	السياسة الأمريكية	باتريك بروجان وكريس جرات	وفاء عبدالقادر
٥٤٤-	ميلانى كلاين	نخبة	حمدى الجابرى

٥٤٥- يا له من سباق محموم	فرانسيس كريك	عزت عامر
٥٤٦- ريموس	ت. ب. وايزمان	توفيق على منصور
٥٤٧- بارت	فيليب ثودى وآن كورس	جمال الجزيرى
٥٤٨- علم الاجتماع	ريتشارد أوزبرن وبورن فان لون	حمدى الجابرى
٥٤٩- علم العلامات	بول كوبلى وليتاجانز	جمال الجزيرى
٥٥٠- شكسبير	نيك جروم وبيرو	حمدى الجابرى
٥٥١- الموسيقى والعولمة	سايمون ماندى	سمحة الخولى
٥٥٢- قصص مثالية	ميجيل دى ثربانتس	على عبد الرءوف البمبى
٥٥٣- مدخل للشعر الفرنسى الحديث والمعاصر	دانيال لوفرس	رجاء ياقوت
٥٥٤- مصر فى عهد محمد على	عفاف لطفى السيد مارسوه	عبدالسميع عمر زين الدين
٥٥٥- الإستراتيجية الأمريكية للقرن الحادى والعشرين	أناتولى أوتكين	أنور محمد إبراهيم ومحمد نصرالدين الجبالى
٥٥٦- چان بودريار	كريس هوروكس وزوران جيفتك	حمدى الجابرى
٥٥٧- الماركيز دى ساد	ستوارت هود وجراهام كرولى	إمام عبدالفتاح إمام
٥٥٨- الدراسات الثقافية	زيودين ساردار وبورين فان لون	إمام عبدالفتاح إمام
٥٥٩- الماس الزائف	تشا تشاجى	عبدالحى أحمد سالم
٥٦٠- صلصلة الجرس	نخبة	جلال السعيد الحفناوى
٥٦١- جناح جبريل	محمد إقبال	جلال السعيد الحفناوى
٥٦٢- بلايين وبلايين	كارل ساجان	عزت عامر
٥٦٣- ورود الخريف	خاثينتو بينابينتى	صبرى محمدى التهامى
٥٦٤- عُش الغريب	خاثينتو بينابينتى	صبرى محمدى التهامى
٥٦٥- الشرق الأوسط المعاصر	ديبورا ج. جيرنر	أحمد عبدالحميد أحمد
٥٦٦- تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى	موريس بيشوب	على السيد على
٥٦٧- الوطن المغتصب	مايكل رايس	إبراهيم سلامة إبراهيم
٥٦٨- الأصولى فى الرواية	عبد السلام حيدر	عبد السلام حيدر
٥٦٩- موقع الثقافة	هومى. ك. بابا	ثائر ديب
٥٧٠- دول الخليج الفارسى	سير روبرت هاى	يوسف الشارونى
٥٧١- تاريخ النقد الإسبانى المعاصر	إيميليا دى ثوليتا	السيد عبد الظاهر
٥٧٢- الطب فى زمن الفراعنة	برونو أليوا	كمال السيد
٥٧٣- فرويد	ريتشارد ابيجنانس وأسكار زارتى	جمال الجزيرى
٥٧٤- مصر القديمة فى عيون الإيرانيين	حسن بيرنيا	علاء الدين عبد العزيز السباعى
٥٧٥- الاقتصاد السياسى للعولمة	نجير وودز	أحمد محمود
٥٧٦- فكر ثربانتس	أمريكو كاسترو	ناهد العشرى محمد
٥٧٧- مغامرات بينوكيو	كارلو كولودى	محمد قدرى عمارة
٥٧٨- الجماليات عند كيتس وهنت	أيومى ميزوكوشى	محمد إبراهيم وعصام عبد الرءوف
٥٧٩- تشومسكى	جون ماهر وچودى جروبز	محيى الدين مزيد
٥٨٠- دائرة المعارف الدولية (جـ١)	جون فيزر وبول سيترجز	محمد فتحى عبدالهادى
٥٨١- الحمقى يموتون	ماريو بوزو	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٢- مرايا الذات	هوشنك كلشيرى	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٣- الجيران	أحمد محمود	سليم عبد الأمير حمدان

٥٨٤- سفر	محمود دولت آبادى	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٥- الأمير احتجاب	هوشنك كلشيرى	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٦- السينما العربية والأفريقية	ليزبيث مالكموس وروى آرمز	سهام عبد السلام
٥٨٧- تاريخ تطور الفكر الصينى	نخبة	عبدالعزيز حمدى
٥٨٨- أمحوتب الثالث	أنييس كابرول	ماهر جويجاتى
٥٨٩- تمكت العجيبة	فيلكس ديبواه	عبدالله عبدالرازق إبراهيم
٥٩٠- أساطير من الموروثات الشعبية الفنلندية	نخبة	محمود مهدى عبدالله
٥٩١- الشاعر والمفكر	هوراتيوس	على عبدالتواب على وصلاح رمضان السيد
٥٩٢- الثورة المصرية	محمد صبرى السوربونى	مجدى عبدالحافظ وعلى كورخان
٥٩٣- قصائد ساحرة	بول فاليرى	بكر الحلو
٥٩٤- القلب السمين	سوزانا تامارو	أمانى فوزى
٥٩٥- الحكم والسياسة فى أفريقيا (جـ٢)	إكوادو بانولى	نخبة
٥٩٦- الصحة العقلية فى العالم	روبرت ديجارليه وآخرون	إيهاب عبدالرحيم محمد
٥٩٧- مسلمو غرناطة	خوليو كاروباروخا	جمال عبدالرحمن
٥٩٨- مصر وكنعان وإسرائيل	دونالد ريدفورد	بيومى على قنديل
٥٩٩- فلسفة الشرق	هرداد مهرين	محمود سلامة علاوى
٦٠٠- الإسلام فى التاريخ	برنارد لويس	مدحت طه
٦٠١- النسوية والمواطنة	ريان فوت	أيمن بكر وسمر الشيشكلى
٦٠٢- ليوتار نحو فلسفة ما بعد حداثية	چيمس وليامز	إيمان عبدالعزيز
٦٠٣- النقد الثقافى	آرثر أيزابرجر	وفاء إبراهيم ورمضان بسطاويسى
٦٠٤- الكوارث الطبيعية (جـ١)	باتريك ل. آبوت	توفيق على منصور
٦٠٥- مخاطر كوكبنا المضطرب	إرنست زيبروسكى الصغير	مصطفى إبراهيم فهمى
٦٠٦- قصة البردى اليونانى فى مصر	ريتشارد هاريس	محمود إبراهيم السعدنى
٦٠٧- قلب الجزيرة العربية (جـ١)	هارى سينت فيلبى	صبرى محمد حسن
٦٠٨- قلب الجزيرة العربية (جـ٢)	هارى سينت فيلبى	صبرى محمد حسن
٦٠٩- الانتخاب الثقافى	أجنر فوج	شوقى جلال
٦١٠- العمارة المدجنة	رفائيل لوبث جوثمان	على إبراهيم منوفى
٦١١- النقد والأيديولوجية	تيرى إيجلتون	فخرى صالح
٦١٢- رسالة النفسية	فضل الله بن حامد الحسينى	محمد محمد يونس
٦١٣- السياحة والسياسة	كولن مايكل هول	محمد فريد حجاب
٦١٤- بيت الأقصر الكبير	فوزية أسعد	منى قطان
٦١٥- عرض الأحداث التى وقعت فى بغداد	أليس بسيرينى	محمد رفعت عواد
٦١٦- أساطير بيضاء	روبرت يانج	أحمد محمود
٦١٧- الفولكلور والبحر	هوراس بيك	أحمد محمود
٦١٨- نحو مفهوم لاقتصاديات الصحة	تشارلز فيليبس	جلال البنا
٦١٩- مفاتيح أورشليم القدس	ريمون أستانبولى	عايدة الباجورى
٦٢٠- السلام الصليبى	توماش ماستناك	بشير السباعى
٦٢١- النوبة المعبر الحضارى	وليم. ى. آدمز	فؤاد عكود
٦٢٢- أشعار من عالم اسمه الصين	آى تشينغ	أمير نبيه وعبدالرحمن حجازى

٦٢٣-	نوادر جحا الإيرانى	سعيد قانعى	يوسف عبدالفتاح
٦٢٤-	أزمة العالم الحديث	رينيه جينو	عمر الفاروق
٦٢٥-	الجرح السرى	جان جينيه	محمد برادة
٦٢٦-	مختارات شعرية مترجمة (جـ٢)	نخبة	توفيق على منصور
٦٢٧-	حكايات إيرانية	نخبة	عبدالوهاب علوب
٦٢٨-	أصل الأنواع	تشارلس داروين	مجدى محمود المليجى
٦٢٩-	قرن آخر من الهيمنة الأمريكية	نيقولاس جويات	عزة الخميسى
٦٣٠-	سيرتى الذاتية	أحمد بللو	صبرى محمد حسن
٦٣١-	مختارات من الشعر الأفريقى المعاصر	نخبة	بإشراف: حسن طلب
٦٣٢-	المسلمون واليهود فى مملكة فالنسيا	دولورس برامون	رانيا محمد
٦٣٣-	الحب وفنونه	نخبة	حمادة إبراهيم
٦٣٤-	مكتبة الإسكندرية	روى ماكلويد وإسماعيل سراج الدين	مصطفى البهنساوى
٦٣٥-	التثبيت والتكيف فى مصر	جودة عبد الخالق	سمير كريم
٦٣٦-	حج يولندة	جناب شهاب الدين	سامية محمد جلال
٦٣٧-	مصر الخديوية	ف. روبرت هنتر	بدر الرفاعى
٦٣٨-	الديمقراطية والشعر	روبرت بن ورين	فؤاد عبد المطلب
٦٣٩-	فندق الأرق	تشارلز سيميك	أحمد شافعى
٦٤٠-	ألكسياد	الأميرة أناكومنينا	حسن حبشى
٦٤١-	برتراندرسل (مختارات)	برتراند رسل	محمد قدرى عمارة
٦٤٢-	داروين والتطور	جوناثان ميلر وبورين فان لون	ممدوح عبد المنعم
٦٤٣-	سفرنامه حجاز	عبد الماجد الدريابادى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٦٤٤-	العلوم عند المسلمين	هوارد د.تيرنر	فتح الله الشيخ
٦٤٥-	السياسة الخارجية الأمريكية ومصادرها الداخلية	تشارلز كجلى ويوجين ويتكوف	عبد الوهاب علوب
٦٤٦-	قصة الثورة الإيرانية	سپهر ذبيح	عبد الوهاب علوب
٦٤٧-	رسائل من مصر	جون نينيه	فتحى العشرى
٦٤٨-	بورخيس	بياتريث سارلو	خليل كلفت
٦٤٩-	الخوف وقصص خرافية أخرى	نخبة	سحر يوسف
٦٥٠-	الدولة والسلطة والسياسة فى الشرق الأوسط	روجر أوين	عبد الوهاب علوب
٦٥١-	ديليسبس الذى لا نعرفه	وثائق قديمة	أمل الصبان
٦٥٢-	آلهة مصر القديمة	كلود ترونكر	حسن نصر الدين
٦٥٣-	مدرسة الطغاة	إيريش كستنر	سمير جريس
٦٥٤-	أساطير شعبية من أوزبكستان (جـ١)	نصوص قديمة	عبد الرحمن الخميسى
٦٥٥-	أساطير وآلهة	إيزابيل فرانكو	حليم طوسون ومحمود ماهر طه
٦٥٦-	خبز الشعب والأرض الحمراء	ألفونسو ساسترى	ممدوح البستاوى
٦٥٧-	محاكم التفتيش والموريسكيون	مرثيديس غارثيا- أرينال	خالد عباس
٦٥٨-	حوارات مع خوان رامون خيمينيث	خوان رامون خيمينيث	صبرى التهامى
٦٥٩-	قصائد من إسبانيا وأمريكا اللاتينية	نخبة	عبداللطيف عبدالحليم
٦٦٠-	نافذة على أحدث العلوم	ريتشارد فايفيلد	هاشم أحمد محمد
٦٦١-	روائع أندلسية إسلامية	نخبة	صبرى التهامى

٦٦٢-	رحلة إلى الجذور	داسو سالدييار	صبرى التهامى
٦٦٣-	امرأة عادية	ليوسيل كليفتون	أحمد شافعى
٦٦٤-	الرجل على الشاشة	ستيفن كوهان - إنا راى هارك	عصام زكريا
٦٦٥-	عوالم أخرى	بول دافير	هاشم أحمد محمد
٦٦٦-	تطور الصورة الشعرية عند شكسبير	وولفجانج انتس كليمس	مدحت الجيار
٦٦٧-	الأزمة القادمة لعلم الاجتماع العربى	ألفن جولدنر	على ليلة
٦٦٨-	ثقافات العولمة	فريدريك جيمسون - ماساو ميوشى	ليلى الجبالى
٦٦٩-	ثلاث مسرحيات	وول شوينكا	نسيم مجلى
٦٧٠-	أشعار جوستاف أدولفو	جوستاف أدولفو	ماهر البطوطى
٦٧١-	قل لى كم مضى على رحيل القطار؟	جيمس بولدوين	على عبدالأمير صالح
٦٧٢-	مختارات قصائد فرنسية للأطفال	نخبة	إبتهال سالم
٦٧٣-	ضرب الكليم	محمد إقبال	جلال السعيد الحفناوى
٦٧٤-	ديوان الإمام الخمينى	اية الله العظمى الخمينى	محمد علاء الدين منصور
٦٧٥-	أثينا السوداء (جـ٢، مج١)	مارتن برنال	بإشراف محمود إبراهيم السعدنى
٦٧٦-	أثينا السوداء (جـ٢، مج٢)	مارتن برنال	بإشراف محمود إبراهيم السعدنى
٦٧٧-	تاريخ الأدب فى إيران (جـ١ ، مج١)	إدوارد جرانفيل براون	أحمد كمال الدين حلمى
٦٧٨-	تاريخ الأدب فى إيران (جـ٢ ، مج٢)	إدوارد جرانفيل براون	أحمد كمال الدين حلمى
٦٧٩-	مختارات شعرية مترجمة (جـ٣)	ويليام شكسبير	توفيق على منصور
٦٨٠-	سنوات الطفولة	وول سوينكا	سمير عبد ربه
٦٨١-	هل يوجد نص فى هذا الفصل؟	ستانلى فش	أحمد الشيمى
٦٨٢-	نجوم حظر التجول الجديد	بن أوكرى	صبرى محمد حسن
٦٨٣-	سكين واحد لكل رجل	تى م ألوكو	صبرى محمد حسن
٦٨٤-	الأعمال القصصية (جـ١)	أوراثيو كيروجا	رزق أحمد بهنسى
٦٨٥-	الأعمال القصصية (جـ٢)	أوراثيو كيروجا	رزق أحمد بهنسى
٦٨٦-	امرأة محاربة	ماكسين هونج كنجستون	سحر توفيق
٦٨٧-	محبوبة	فتانة حاج سيد جوادى	ماجدة العنانى
٦٨٨-	الانفجارات الثلاثة الكبرى	فيليب م. دوبر وريتشارد أ. موار	فتح الله الشيخ وأحمد السماحى
٦٨٩-	الملف	تادروش روجيفيتش	هناء عبد الفتاح
٦٩-	محاكم التفتيش فى فرنسا	چوزيف ر. سترايز	رمسيس عوض
٦٩١-	ألبرت أينشتين حياته وغرامياته	دنيس براين	رمسيس عوض
٦٩٢-	الوجودية	ريتشارد أبيجانسى وأوسكار زاريت	حمدى الجابرى
٦٩٣-	القتل الجماعى: المحرقة	حاثيم برشيت وآخران	جمال الجزيرى
٦٩٤-	دريدا	جيف كولينز وبيل مايبلين	حمدى الجابرى
٦٩٥-	رسل	ديف روبنسون وجودى جروف	إمام عبدالفتاح إمام
٦٩٦-	روسو	ديف روبنسون وأوسكار زاريت	إمام عبدالفتاح إمام
٦٩٧-	أرسطو	روبرت ودفين وجودى جروفس	إمام عبدالفتاح إمام
٦٩٨-	عصر التنوير	ليود سبنسر وأندرزيجى كروز	إمام عبدالفتاح إمام
٦٩٩-	التحليل النفسى	إيفان وارد وأوسكار زاراتى	جمال الجزيرى
٧٠٠-	حقيقة كاتب	ماريو فرجاش	بسمة عبدالرحمن

٧٠١-	الذاكرة والحداثة	وليم رود فيفيان	منى البرس
٧٠٢-	الأمثال الفارسية	أحمد وكيليان	محمود علاوى
٧٠٣-	تاريخ الأدب فى إيران (جـ٢)	إدوارد جرانفيل براون	أمين الشواربى
٧٠٤-	فيه ما فيه	مولانا جلال الدين الرومى	محمد علاء الدين منصور وآخران
٧٠٥-	فضل الأنام من رسائل حجة الإسلام	الإمام الغزالى	عبدالحميد مدكور
٧٠٦-	الشفرة الوراثية وكتاب التحولات	جونسون ف يان	عزت عامر
٧٠٧-	ڤالتر بنيامين	نخبة	وفاء عبدالقادر
٧٠٨-	فراعنة من؟	دونالد مالكولم ريد	رءوف عباس
٧٠٩-	معنى الحياة	ألفريد أدلر	عادل نجيب بشرى
٧١٠-	الأطفال التكنولوجيا والثقافة	يان هانتشباى وجومووران - إليس	دعاء محمد الخطيب
٧١١-	درة التاج	ميرزا محمد هادى رسوا	هناء عبد الفتاح
٧١٢-	الإلياذة (جـ١)	هوميروس	سليمان البستانى
٧١٣-	الإلياذة (جـ٢)	هوميروس	سليمان البستانى
٧١٤-	حديث القلوب	لامنيه	حنا صاوه
٧١٥-	جامعة كل المعارف (جـ١)	مجموعة من المؤلفين	نخبة من المترجمين
٧١٦-	جامعة كل المعارف (جـ٢)	مجموعة من المؤلفين	نخبة من المترجمين
٧١٧-	جامعة كل المعارف (جـ٣)	مجموعة من المؤلفين	نخبة من المترجمين
٧١٨-	جامعة كل المعارف (جـ٤)	مجموعة من المؤلفين	نخبة من المترجمين
٧١٩-	جامعة كل المعارف (جـ٥)	مجموعة من المؤلفين	نخبة من المترجمين
٧٢٠-	جامعة كل المعارف (جـ٦)	مجموعة من المؤلفين	نخبة من المترجمين
٧٢١-	فلسفة المتكلمين فى الإسلام (مج١)	هارى أ ولفسون	مصطفى لبيب عبد الغنى
٧٢٢-	الصفيحة وقصص أخرى	بشار كمال	الصفصافى أحمد القطورى
٧٢٣-	تحديات ما بعد الصهيونية	إفرايم نيمنى	أحمد ثابت
٧٢٤-	اليسار الفرويدى	بول روبنسون	عبده الريس
٧٢٥-	الاضطراب النفسى	جون فيتكس	مى مقلد
٧٢٦-	الموريسكيون فى الغرب	غيرمو غوثالبيس بوستو	مروة محمد إبراهيم
٧٢٧-	حلم البحر	باچين	وحيد السعيد
٧٢٨-	العولمة تدمير العمالة والنمو	موريس آليه	أميرة جمعة
٧٢٩-	الثورة الإسلامية فى إيران	صادق زيباكلام	هويدا عزت
٧٣٠-	حكايات من السهول الأفريقية	أن جاتى	عزت عامر
٧٣١-	النوع الذكر والأنثى بين التمييز والاختلاف	نخبة	محمد قدرى عمارة
٧٣٢-	قصص بسيطة	إنجو شولتسه	سمير جريس
٧٣٣-	مأساة عطيل	وليم شيكسبير	محمد مصطفى بدوى
٧٣٤-	بونابرت فى الشرق الإسلامى	أحمد يوسف	أمل الصبان
٧٣٥-	فن السيرة فى العربية	مايكل كوبرسون	محمود محمد مكى
٧٣٦-	التاريخ الشعبى للولايات المتحدة (جـ١)	هوارد زن	شعبان مكاوى
٧٣٧-	الكوارث الطبيعية (جـ٢)	باتريك ل. أبوت	توفيق على منصور
٧٣٨-	دمشق من عصر ما قبل التاريخ إلى الدولة المملوكية (جـ١)	جيرار دى جورج	محمد عواد
٧٣٩-	دمشق من الإمبراطورية العثمانية حتى الوقت الحاضر (جـ٢)	جيرار دى جورج	محمد عواد

٧٤٠-	خطابات القوة	بارى هندس	مرفت ياقوت
٧٤١-	الإسلام وأزمة العصر	برنارد لويس	أحمد هيكل
٧٤٢-	أرض حارة	خوسيه لاكوادرا	رزق بهنسى
٧٤٣-	الثقافة منظور دارويني	روبرت أونجر	شوقى جلال
٧٤٤-	ديوان الأسرار والرموز	محمد إقبال	سمير عبد الحميد
٧٤٥-	المآثر السلطانية	بيك الدنبلى	محمد أبو زيد
٧٤٦-	تاريخ التحليل الاقتصادى (مج١)	جوزيف . أ. شومبيتر	حسن النعيمى
٧٤٧-	المجاز فى لغة السينما	تريفور وايتوك	إيمان عبد العزيز
٧٤٨-	تدمير النظام العالمى	فرانسيس بويل	سمير كريم
٧٤٩-	أيكولوجيا لغات العالم	ل ج. كالفيه	باتسي جمال الدين

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع - ٩٢٠٢ / ٢٠٠٤

يعالج هذا الكتاب الأوضاع اللغوية من منظور جديد يهدف من خلاله الكاتب إلى توضيح رؤيته الخاصة بشأن اللغات باعتبارها نتاج ممارسات اجتماعية يجب الاستماع إليها، والتعرض لها بالوصف، والوقوف عليها فى سياق استخداماتها؛ فالكاتب يعتقد أن اللغات تستمد وجودها من استخدام المتكلمين لها، ولا يمكن أن نفهم الأوضاع اللغوية سوى من خلال الأبحاث الميدانية التى تنبثق عنها النظريات العلمية. وهذه هى القاعدة المنهجية التى يستند إليها هذا الكتاب؛ حيث يستشهد الكاتب بالعديد من الأمثلة الملموسة؛ مما يضفى عليه المصداقية المطلوبة، ويُعضد من حجج الكاتب وبراهينه، وإن كان هناك بعض الآراء التى دارت حولها مناقشات عديدة، وأثارت جدلاً فى الأوساط اللغوية والاجتماعية.

لقد تطرَّق الكاتب إلى العديد من الأمثلة، رغبةً منه فى التعرض لعملية التواصل على الصعيد الإنسانى بأكمله، من خلال تناول الممارسات اللغوية فى البيئة الخاصة بها، وتحليل دور تمثيلات المتكلمين فى تطور هذه الممارسات، كما حرص على دراسة العديد من الظواهر التى نراها يومي دون أن ندرك أثرها المحرك لمجريات الأوضاع اللغوية. وخلاصة القول إنن بصدد دراسة المحيط البيئى للغات أو الإيكولوجيا اللغوية

ايكولوجيا لغات العالم_لعالم
Price: 20.00 L.E.